شَرْحُ
الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ

شَرْحُ الشَّيخِ:

سَامِي بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّهَابِيِّ

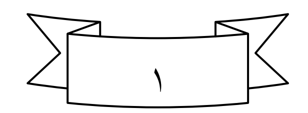
الْمُقَدِّمَةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، الرحمنِ الرحيمِ، مالكِ يومِ الدينِ، أحمدُهُ جلَّ ذكرُهُ لا أحصي ثناءً عليهِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُ اللهِ ورسولُهُ صلى اللهُ عليهِ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعينَ .

أما بعدُ . . .

فهذا شرحُ العقيدةِ الواسطيةِ للشيخِ:سامي النهابيّ – حفظَهُ اللهُ – .

ألقاهُ في دروسٍ متتابعةٍ في مدينةِ الجوفِ وفرَّغَهُ بعضُ طلابِهِ وأُعِدَّ للطباعةِ وها هو يخرجُ اليومَ والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ في حلةٍ قشيبةٍ، أسألُ اللهَ أنْ ينفعَ بهِ المسلمينَ، إنَّهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليهِ .



تَرْجَمَةُ الْمُؤَلِّفِ

اسمُهُ:أحمدُ بْنُ عبدِ الحليمِ بْنِ عبدِ السلامِ بْنِ تيميةَ الحرانيُّ يُكْنَى بِأَبِي العباسِ .

ولادتُهُ:وُلِدَ سنةَ ٦٦١هـ .

صفتُهُ:قالَ الإمامُ الذهبيُّ رحمه الله :كانَ أبيضَ أسودَ الرأسِ واللحيةِ قليلَ الشيبِ كأنَّ عينيهِ لسانانِ ناطقانِ سريعَ القراءةِ تعتريهِ حدةٌ ثمَّ يقهرُهَا بحلمٍ وصفحٍ فيهِ فرطُ ذكاءٍ وشجاعةٍ .

علمُهُ:قالَ ابنُ دقيقِ العيدِ رحمه الله : لما اجتمعْتُ بهِ رأيتُ رجلاً العلومُ كلُّها بينَ عينيهِ يأخذُ منها ما يريدُ ويدعُ ما يريدُ .

شيوخُهُ:قالَ ابنُ عبدِ الهادي:إنَّهُ سمعَ مِنْ أكثرَ مِنْ مئتي شيخٍ منهمُ المجدُ بْنُ عساكرَ وابنُ أبي اليسرِ وغيرهم.

تلاميذُهُ:منهمْ جمالُ الدينِ المِزّيُّ والذهبيُّ وابنُ مفلحٍ وابنُ القيمِ وابنُ كثيرٍ وابنُ عبدِ الهادي .

وفاتُه:توفيَ بقلعةِ دمشقٍ سنةَ ٧٢٨هـ .

عَنِ الْمَتْنِ

اسمه: (العقيدة الواسطية:إعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة إهل السنة والجماعة)

سببُ تأليفِهِ: هو أنَّهُ طلبَ منهُ بعضُ قضاةِ بلدة واسطٍ يقالُ لهُ: (رضى الدين الواسطيُّ) مِنْ أصحابِ الشافعيِّ أن يكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته، لما عليه الناس في بلاده من الجهل والظلم ودروس الدين والعلم، وسميت بلدة بهذا الإسم: لتوسطها بين البصرة والكوفة في العراق .

يقول ابن تيمية رحمه الله: "وقلت لهم هذا كان سبب كتابتها أنه قدم على من أرض واسط بعض قضاة نواحيها شيخ يقال له رضى الدين الواسطى من أصحاب الشافعى قدم علينا حاجا وكان من أهل الخير والدين وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد وفى دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم وسألنى أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولاهل بيته فاستعفيت من ذلك وقلت قد كتب الناس عقائد متعددة فخذ بعض عقائد أئمة السنة فألح فى السؤال وقال ما أحب إلا عقيدة تكتبها **أنت فكتبت له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر** وقد انتشرت بها نسخ كثيرة فى مصر والعراق وغيرهما" (المناظرة في الواسطية)

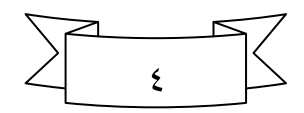
سببُ تسميَتِهِا بالواسطيةِ:قيلَ نسبةً إلى واسطٍ التي سألَ بعضُ قضاتِهَا تأليفَهَا، وقيلَ لأنَّهُ بَيَّنَ فيهَا أنَّ أهلَ السنةِ والجماعةِ وَسَطٌ بينَ فرقِ الأمةِ لكنَّ الأولَ هو الأقربُ والأشهرُ وقدْ كتبَهَا في جلسةٍ واحدةٍ بعدَ صلاةِ العصرِ .

مجلس الواسطية: منذ أن سطع نجم شيخ الإسلام ابن تيمية في أحداث الهجوم على الشام وجراءته في الكلام مع ملك التتار قازان، وبطولاته في شقحب وغيرها، والحاقدون والحاسدون من المتفقهة والمتعصبة والصوفية والمبتدعة يتربصون بالشيخ الدوائر، وقلوبهم تعتمل عليه غلاً وحسدًا من حب الناس له وطاعتهم إياه فيما يأمرهم وينهاهم، حتى وجدوا ضالتهم في سؤال قد أجاب عليه الشيخ قد أتاه من مدينة واسط بالعراق يستفسر فيه السائل عن عقيدة أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات وحقيقة الإثبات والتأويل، فأجاب ابن تيمية إجابة شافية كافية جامعة مانعة، فحضر هؤلاء الحاقدون عند نائب السلطان بالشام، وأحضروا القضاة والعلماء والأعيان ومعهم الشيخ ابن تيمية وعقدوا له مجلسًا كبيرًا في ٨ رجب ٧٠٥هـ لمناقشة العقيدة الواسطية.

قرئت هذه العقيدة بمحضر منهم وبدأ النقاش في بعض النقاط وبرز عدد من المشايخ لمناظرة الشيخ ابن تيمية، منهم الشيخ: (صفي الدين الهندي) شيخ مشايخ الطرق الصوفية، ولكنه لم يلبث للشيخ فواق ناقة، إذ لاطمت ساقيته بحرًا كما يقولون، ثم برز آخر وهو (كمال الدين ابن الزملكاني) وهو من تلاميذ ابن تيمية أصلاً وقاوم في المناظرة قليلاً، ولكنه ما لبث أن سلّم بصحة ما ورد في العقيدة، وعاد ابن تيمية لبيته معظمًا مكرمًا حتى أن الناس قد حملوا له الشمع من باب النصر حتى بيته، واتضح بعد ذلك أن المحرض على هذه الفتنة هو شيخ المالكية (ابن مخلوف) والشيخ (نصر المنبجي) وهما من ألد أعداء الشيخ، وكان ابن تيمية قد كشف جهل ابن مخلوف في فتاوى عديدة، وكشف فساد عقيدة المنبجي وأنها مثل عقيدة ابن عربي الحلولي الاتحادي.

* **قالوا عن الواسطية:**

قال ابن رجب:(وقع الإتفاق أن هذه عقيدة سنية سلفية).



وقال الذهبي:(وقع الإتفاق على أن هذا معتقد سلفي جيد).

***وهذا المتنُ يدورُعلى ثمانيةِ محاورَ وأصولٍ تقريباً:**

١ــ أصولُ أهلِ السنةِ والجماعةِ في الأسماءِ والصفاتِ والإيمانِ .

٢ــ أصولُهم في الأسماءِ والأحكامِ وبابِ وعيدِ اللهِ .

٣ــ أصولُهم في بابِ القدرِ واليومِ الآخرِ وما يقعُ فيه .

٤ــ أصولُهم في الكراماتِ .

٥ــ موقفُهم منَ الصحابةِ والولاةِ .

٦ــ الكلامُ على مصادرِ التلقِّي عندَهم .

٧ــ عقيدتُهم في الأخلاقِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ .

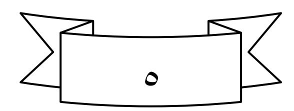
٨ــ عقيدتُهم في الجهادِ والشعائرِ الظاهرةِ .

مَبَاحِثُ وَقَوَاعِدُ يَحْسُنُ فَهْمُهَا في باب الأسماء والصفات

١ــ وجوبُ إجراءِ النصوصِ في الكتابِ والسنةِ على ظاهرِها فلا نَتَعَدَّاهُمَا كما قالَ السلف:(أَمِرُّوهَا كما جاءتْ) .

٢ــ العقلُ لا مدخلَ لهُ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ لأنَّ مدارَ النفيِ والإثباتِ على السمعِ .

٣ــ الكلامُ والقولُ في الصفاتِ كالقولِ والكلامِ في الذاتِ فَكَمَا أَنَّنَا نثبتُ ذاتاً لا تُشْبِهُ الذواتِ فيجبُ أنْ نثبتَ صفاتٍ لا تُشْبِهُ الصفاتِ فالصفاتُ فرعٌ عنِ الذاتِ تحذو حذوَهَا .



٤ــ أن باب الإخبار عن الله جل وعلا أوسع من باب الأفعال وباب الأفعال أوسع من باب الصفات وباب الصفات أوسع من باب الأسماء لأنَّ كلَّ اسمٍ تؤخذُ منهُ صفةً ولا عكسَ.

٥ــ لا بدَّ في إثباتِ الاسمِ أو الصفةِ مِنْ دليلٍ لأنَّ مَنْ فقدَ الدليلَ ضلَّ السبيلَ

قال ابن القيم رحمه الله :"ومن أحالك على غير "أخبرنا" و"حدثنا" فقد أحالك: إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي، فليس بعد "القرآن" و"أخبرنا" و"حدثنا" إلا شبهاتُ المتكلمين، وآراءُ المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين، ومَن فارَق الدليل، ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليلَ إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنَّة، وكل طريق لم يصحبْها دليلُ القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم، والعلم ما قام عليه الدليلُ، والنافع منه: ما جاء به الرسولُ – صلى الله عليه وسلم" (مدارج السالكين (٤٦٨/٢)

٦ــ إذا حَكَمَ النقلُ سلَّمَ العقلُ لأنَّ النقلَ الصحيحَ لا يتعارضُ معَ العقلِ السليمِ .

٧ــ أسماءُ اللهِ بالنظرِ إلى الذاتِ مِنْ قبيلِ المترادفِ وبالنظرِ إلى الصفاتِ مِنْ قبيلِ المتباينِ.

٨ــ صفاتُ اللهِ نوعانِ ذاتيةٌ وفعليةٌ .

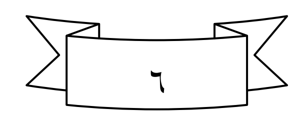
والصفاتُ الذاتيةُ نوعانِ:

أــ معنويةٌ كالحياةِ والعلمِ والقدرةِ والحكمةِ ونحوِها .

بــ خبريةٌ وهيَ ما كانَ بالنظرِ لنا أبعاضاً وأجزاءً مثلَ الوجهِ واليدينِ والعينينِ ونحوِها.

فالصفاتُ الذاتيةُ هيَ التي لمْ يزلِ اللهُ ولا يزالُ متصفاً بها والفعليةُ هي المتعلقةُ بالمشيئةِ.

والفعليةُ –التي يعبرُ عنها بالاختياريةِ– نوعانِ أيضاً:



أ_ ما لهُ سببٌ معلومٌ كالرضا والفرحِ ونحوِهِمَا .

ب_ ما ليسَ لهُ سببٌ معلومٌ مثلَ النزولِ .

٩_ منَ الصفاتِ ما هوَ ذاتيٌّ وفعليٌّ مثلَ صفة الكلامِ وصفة الخلقِ فالكلامُ باعتبارِ أصلِهِ ذاتيٌّ وباعتبارِ آحادِهِ فعليٌّ .

١٠_ أسماءُ اللهِ على قسمينِ:أعلامٍ وأوصافٍ، والوصفيةُ منها لا تنافي العلميةَ بخلافِ أوصافِ العبادِ فهي أعلام فقط .

١١_ أسماءُ اللهِ وصفاتُهُ منْ قبيلِ المحكمِ وليستْ منْ المتشابهِ لأنَّ معناها واضحٌ في اللغةِ العربيةِ وأما الكيفيةُ فهيَ مما استأثرَ اللهُ بعلمها .

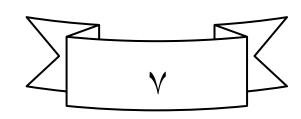
١٢_ لا يلزمُ منْ اتفاقِ الاسمينِ تماثلُ المسميينِ ولا منِ اتفاقِ الصفتينِ تماثلُ الموصوفينِ مثلَ اسم: العزيزِ فهو اسم لله واسم للملك الذي كان عنده يوسف عليه السلام قال تعالى:﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ومثل صفة: الرحمة فهي صفة لله وصفة للنبي ﷺ قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

١٣_ أسماءُ اللهِ مشتقةٌ تدلُّ على ما يشتقُّ منها منْ صفةٍ خلافاً للمعطلةِ الذين قالوا إنها جامدةٌ .

١٤_ أسماءُ اللهِ ليستْ محصورةً بماورد بدليلُ قولُهُ ﷺ:(أوِ استأثرْتَ بهِ في علمِ الغيبِ عندَكَ) .

١٥_كلُّ صفةٍ مقرونةٍ بسببٍ فهيَ علامةٌ على أنها منَ الصفاتِ الفعليةِ التابعة لمشيئة الله .

١٦_ فَرْقٌ بينَ القواعدِ المتعلقةِ ببابِ الاستدلالِ عندَ محاجةِ أهلِ البدعِ وبينَ القواعدِ المتعلقةِ بتقريرِ الأسماءِ و الصفاتِ على ما جاءَ في الكتابِ والسنةِ (منهاجُ السنةِ) .



١٧_ كلُّ اسمٍ منْ أسماءِ اللهِ لهُ ثلاثُ دلالاتٍ:

أ _ دلالةٌ على جميعِ ما وضعَ لهُ وهوَ شيئانِ:

١-الذاتُ الإلهيةُ .

٢-الصفةُ التي اشْتُقَّ منها الاسمُ وهذهِ الدلالةُ تسمى دلالةَ المطابقةِ لأنَّ اللفظَ فيها (الاسمَ) دلَّ على تمامِ ما وضعَ لهُ منْ حيثُ أنهُ وضعَ لهُ فطابقَ اللفظُ تمامَ المعنى .

ب _ دلالةٌ على بعضِ ما وضعَ لهُ وهو الاقتصارُ على أحدِ الشيئينِ السابقينِ الذاتِ أو الصفةِ وهذهِ الدلالةُ تسمى دلالةَ التضمنِ لأنَّ اللفظَ فيها (الاسمَ) دلَّ على جزءِ ما وضعَ لهُ في ضمنِ كاملِ المعنى .

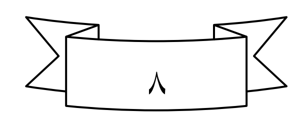
ج _ دلالةٌ على معنىً خارجَ معناهُ لهُ تعلقٌ وثيقٌ بهِ وهذهِ الدلالةُ تسمى دلالةَ الالتزامِ لأنَّ اللفظَ فيها (الاسمَ) يلزمُ منْ إثباتِهِ إثباتُ معنًى آخرَ لهُ تعلقٌ وثيقٌ بهِ ويتوقفُ اللفظُ عليهِ فأصبحَ ملازماً لهُ لدلالةِ اللفظِ عليهِ .

مثالُ تلكَ الدلالاتِ الثلاثِ في بابِ أسماءِ اللهِ الحسنى:السميعُ فهوَ يدلُّ على ذاتِ اللهِ وعلى صفةِ السمعِ بالمطابقةِ، ويدلُّ على الذاتِ وحدَهَا أو صفةِ السمعِ وحدَهَا بالتضمنِ، ويدلُّ على صفةِ الحياةِ بالالتزامِ .

١٧_ الصفاتُ منْ حيثُ الإطلاقُ على اللهِ تعالى على ثلاثةِ أقسامٍ:

أ _ صفاتُ كمالٍ محضٍ فهذهِ تطلقُ على اللهِ سواءٌ أخذتْ منَ الاسمِ أوالفعلِ قالَ تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

ب _ صفاتُ نقصٍ محضٍ وهذهِ لا يمكنُ أنْ تطلقَ على اللهِ مثلَ الجهلِ والصممِ .



ج ـ صفاتُ كمالٍ في حالٍ دونَ حالٍ وهذهِ لا تطلقُ على اللهِ على الإطلاقِ وإنما في حالِ الكمالِ والمقابلةِ مثلَ صفةِ الكيدِ والانتقامِ فلا تطلقُ بلْ يقالُ كائدٌ بالكائدينَ ومنتقمٌ منَ المجرمينَ .

قَالَ شَيخُ الإِسْلامِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ ابْنُ تَيمِيَّةَ رحمه الله :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً وَأَشْهَدُ أَنْ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَّزِيدًا.

....

بِسْمِ اللَّهِ):هذه عادة المصنفين أن يبدؤوا مصنفاتهم بثلاثة أمور:البسملةِ والحمدلةِ والصلاةِ على النبي ﷺ **(عمدة القارئ للعيني)** وقوله : { بِسْمِ اللَّهِ } الباء للاستعانة .

والاسم في اللغة : ما دل على مسمى . وفي الاصطلاح : ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان .

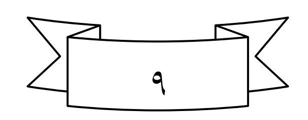
والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينبغي أن يقدر متأخرًا ليفيد الحصر .

الله : علم على الذات المقدسة، ومعناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين . مشتق من أله يأله ألوهة، بمعنى عبد يعبد عبادة . فالله إله بمعنى مألوه أي معبود.

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ): اسمان من أسماء الله تعالى ، يدلان على اتصاف الله تعالى بالرحمة.

والرحمن يدل على سعة رحمة الله ، **والرحيم** يدل على إيصالها لخلقه ، فالرحمن : ذو الرحمة الواسعة ، والرحيم: ذو الرحمة الواصلة، فالرحيمَ أعمُّ من الرحمن لأنه يتعلق بالصفة التي تصل إلى المرحوم من الخلق بخلاف الرحمن فإنه يتعلق بالصفة القائمةِ بالله غيرِ المتعدية **(بدائع الفوائد)** .

وبدأ بالبسملة اقتداءً بالقرآن الكريم والمكاتبات التي قام بها النبي ﷺ إلى هرقلَ والمقوقسِ وغيرِهم، وأما حديث:(كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ)، وفي لفظ:(أَجْذَمُ)،فهو حديث ضعيفٌ لكنْ تلقته الأمة بالقبول .



وقد افتتح المصنف رحمه الله هذه الرسالة الجليلة بخطبة اشتملة على حمد الله وذكر الشهادتين والصلاة على رسوله تأسيًا به عليه الصلاة والسلام ـ في أحاديثه وخطبه، وعملًا بقوله : ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع) رواه أبو داود وغيره . ويروى : (ببسم الله الرحمن الرحيم) ومعنى أقطع : أي معدوم البركة .

ويجمع بين الروايتين للحديث وإن كان فيه مقالاً بأن الابتداء ببسم الله حقيقي وبالحمد لله نسبي إضافي .

(الحمد لله) الألف واللام للاستغراق، أي : جميع المحامد لله ملكًا واستحقاقًا **والْحَمْدُ لغة** : الثناء بالصِّفاتِ الجميلةِ، والأفعالِ الحسنةِ.

واصطلاحا: الإخبارُ عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وقيل: فعلٌ ينبئ عن تعظيمِ المنْعِمِ بِسببِ كونهِ منعِمَاً وكلاهما صحيح لكن الأول أدق وأشمل .

وهل هناك فرق بين الحمد والثناء والمدح؟

ج/ نعم فالفرقُ بين الحمد والثناء هو أن الحمد: الإتيانُ بلفظ: الحمدُ لله وأما الثناء فهو تَكْرَارُ أسماءِ الله وصفاتِه في السياق الواحد مثل قول:الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، الذي أرسل الرسل .

أما الفرقُ بين الحمد والمدح فهو أن الحمدَ لا يكون إلا مع محبة وتعظيم، وأما المدحُ فقد يكون مع محبة وتعظيم وقد لا يكون مع محبة وتعظيم .

وقد حمد المصنف رحمه الله ربنا عزوجل على إرسال الرسل الذين انتهى أمرُهم بالظهور والعزة.

(الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ):الله سبحانه يحمد على نعمه التي لا تحصى ومن أجل هذه النعم أن { أرسل } أي : بعث { رسوله } محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم .

والرسول لغة : من بعث برسالة . وشرعًا كما قال الجمهور: هو إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

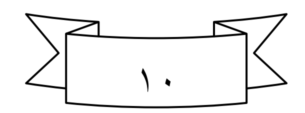
والهدى هو:العلمُ النافعُ وهو كل ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الإخبارات الصادقة والأوامر والنواهي وسائر الشرائع النافعة .

والهداية على نوعين:

النوع الأول : هدى بمعنى الدلالة والبيان، ومنه قوله تعالى : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}. وهذا يقوم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما في قوله تعالى : { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } .

النوع الثاني : هدى بمعنى التوفيق والإلهام وهذا هو المنفي عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يقدر عليه إلا الله تعالى كما في قوله تعالى : { إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء }

ودينُ الحق:العملُ الصالحُ، والدين يطلق ويراد به الجزاء، كقوله تعالى : { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } .



ويطلق ويراد به الخضوع والانقياد كما يقال فلان دان لسيده.

وإضافة الدين إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته . أي الدين الحق . والحق مصدر : حق يحق بمعنى ثبت ووجب، وضده الباطل .

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ): وقد وقعَ ذلك، فإنّ المسلمين جاهدوا في اللهِ حقَّ جهادِه حتَّى فتحَ اللهُ عليهم فاتَّسعَتْ رُقعةُ البلادِ الإسلاميَّةِ شرقاً وغرباً في مُدَّةٍ يسيرةٍ مع قلَّةِ عددِهم وعُدَّتِهم بالنّسبةِ إلى جيوشِ سائرِ الأقاليمِ من الرّومِ والفرسِ والتُّركِ والبَرْبَرِ وغيرِهم، فقهَروا الجميعَ حتَّى عَلتْ كلمةُ اللهِ، وظهرَ دينُه على سائرِ الأديانِ وامتدَّتِ الممالكُ الإسلاميَّةُ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها في أقلَّ من ثلاثين عاماً ومما يؤيد هذا ما ثبتَ في الصَّحيحِ مِن حديثِ ثَوْبانَ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا)). **وقد أخبرَ الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث في أوَّلِ الأمرِ، وأصحابُه في غايةِ القلَّةِ قبلَ فتحِ مكةَ** فكانَ كما أخبرَ فإنَّ مُلكَهُم انتشرَ في المشرقِ والمغربِ ما بينَ أرضِ الهندِ أقصى المشرقِ إلى بحرِ طنجَةَ في المغربِ، حيث لا عِمارةَ وراءَه وذلك مالم تَمْلِكْهُ أُمَّةٌ من الأممِ، وفي حديثِ جابرٍ: ((إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ)) أخرجاه في الصَّحيحينِ.

واعلم أن ظهور الدين ينقسم إلى قسمين:

١- بالحجة والبيان ٢- بالسيف والسنان.

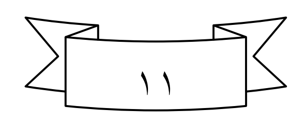
فأما بالحجة والبيان فتحقُّقُه دائم ولله الحمدُ، قال النبي ﷺ:(لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظاهرين لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولا من خَالَفَهُمْ حتى تقوم الساعة) .

وأما بالسيفِ فأحيانا يقع وأحيانا لا يقع وهذا يكون بقدر التمسك بالدين مع اليقين أن العاقبة للمتقين .

(وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً):أي كفى بشهادته سبحانه إثباتاً لصدق النبي ﷺ إذ لو كان مُفْتَرِياً لَعاجَلَه بالعقوبةِ البليغةِ، كما قالَ تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ).

ومن أسمائهِ سبحانَه الشَّهيدُ، قالَ اللهُ تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أي أَنَّه لا يغيبُ عنه شيءٌ، ولا يعْزُبُ عنه، بل هو مُطَّلِعٌ على كلِّ شيءٍ مُشاهِدٌ له عليمٌ بتفاصيلِه

(وَأَشْهَدُ أَنْ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ):أي أقر بلساني وأعتقد بقلبي وأعمل بجوارحي بمقتضى ذلك لأن الشهادةَ قولٌ وعملٌ و اعتقادٌ فلا معبودَ بحقٍ إلا اللهُ هذا معنى لا إله إلا الله خلافاً لمن زَعِمَ أنّ معناها: (القدرةُ على



الاختراعِ) كما يقولُه الأشاعِرةُ، فإنَّ المشركين الَّذين بُعِثَ إليهم الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقِرُّون بأنَّ اللهَ هو الخالقُ الرَّازقُ المحيي المميتُ المدبِّرُ لجميعِ الأمرِ ولم يُدخِلْهم ذلكَ في الإسلامِ، بل قاتلَهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستحلَّ دماءَهم وأموالَهم، ولما قالَ لَهم رسولُ اللهِ: قولُوا لا إلهَ إلا اللهُ واعبدوا اللهَ واتركوا ما كانَ يَعبُدُ آباؤُكم، أنكروا ذلك ونَفَروا، وقالوا: أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً، فدلَّ على أَنَّ معنى هذه الكلمةِ هو إفرادُ اللهِ بالعبادةِ، وتركُ عبادةِ ما سواه.

واعلم أن من مقتضى الشهادة العمل خلافاً للفرق الضالة كالمرجئة والأشاعرة والماتريدية والجهمية فهم لايدخلون العمل من مقتضى الشهادة، أما الخوارج والمعتزلة فيدخلون العمل في الإيمان .

وهذه الكلمةُ(شهادة التوحيد) هي أوَّلُ واجبٍ على العبد على الإطلاقِ، كما في الصَّحيحِ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمعاذٍ حينَ بعثَهُ إلى اليمنِ ((فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)) وفي روايةٍ ((إِلى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ)) خلافاً لمن زَعَمَ أَنَّ أولَ واجبٍ معرفةُ اللهِ بالنَّظرِ أو القصدِ إلى النَّظرِ أو الشّكِّ كما هي الأقوالُ المذمومةِ لأهلِ الكلامِ ، فإنَّ معرفةَ اللهِ فِطْرِيَّةٌ فطرَ اللهُ عليها عبادَه، قالَ تعالى: (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي: أفي وجودِ الله شكٌّ ؟ حتَّى يُطلبَ إقامةُ الدَّليلِ على وجودِهِ؟، وأيُّ دليلٍ أصحُّ وأظهرُ مِن هذا المدلولِ،فإنَّ الفِطرَ شاهدةٌ بوجودِه مجبولةٌ على الإقرارِ به، فإنَّ الاعترافَ به ضروريٌّ في الفِطَرِ السّليمةِ كما قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ)).

قال ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ: "وسمعتُ شيخَ الإسلامِ يقولُ: كيف يُطلبُ الدَّليلُ على مَنْ هو دليلٌ على كلِّ شيءٍ؟ وكانَ كثيرًا يتمثَّلُ بهذا البيتِ:

وليْسَ يَصِحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتَاجَ النَّهارُ إلى دَليلِ."

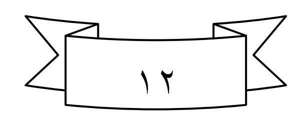
وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "أولُ مَن أنكرَ معرفةَ اللهِ الفطريَّةَ هم أهلُ الكلامِ الَّذين اتَّفقَ السَّلفُ على ذَمِّهِمْ من الجهميَّةِ والقَدَريَّةِ، وهم عندَ سلفِ الأمَّة مِن أجهلِ الطَّوائفِ وأضلِّهم".

وَلكلمةِ التوحيد أركانٌ وشروطٌ إلى غيرِ ذلك من الأبحاثِ المتعلّقةِ بهذه الكلمةِ العظيمةِ.

(وحده): تأكيد لإثبات العبادة لله وحده.

(لاَ شَرِيكَ لَهُ) :تأكيدٌ لنفي الشريك عن الله،قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمه اللهُ:"تأكيدٌ بعدَ تأكيدٍ؛ اهتماماً بمَقَامِ التَّوحيدِ".

(إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا):أي نقر ونوحد الله بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته،وهما مصدران مؤكدان لمعنى الجملة السابقة.



هذا وقد اختلف أهل العلم في أنواع التوحيد فبعضهم جعله ثلاثةَ أنواعٍ، منهم ابنُ مندهْ وابنُ تيميةَ وابنُ بطةَ وغيرهم وهي:توحيدُ الربوبية وتوحيدُ الألوهية وتوحيدُ الأسماء والصفات.

وبعضهم جعله على نوعين:توحيدَ الطلب والقصد، وتوحيدَ المعرفة والإثبات،واختار هذا التقسيمَ ابنُ القيم وابنُ أبي العز والتقسيمان متوافقان ولا دليلَ عليهما إلا الاستقراءُ والتتبعُ، ومثل هذا التقسيمِ تقسيمُ الكلمةِ إلى اسمٍ وفعلٍ وحرفٍ، فإن دليلَه التتبعُ والإستقراء.

فتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ: هو الإقرارُ بأَنَّ اللهَ هو الخالقُ الرَّازقُ المحْيي المميتُ المدبِّرُ لجميعِ الأمورِ، وهذا النَّوعُ من التَّوحيدِ أَقرَّ بِهِ المشركونَ ولم يُدْخِلْهُم إقرارُهم به في الإسلامِ.

النَّوعُ الثَّاني: توحيدُ الألوهيَّةِ: وهو إفرادُ اللهِ بالعبادةِ، وهذا النَّوعُ هو الَّذي فيه الخُصُومَةُ بين الأنبياءِ وأممِهم.

النَّوعُ الثَّالثُ: توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ: وهو أَنْ يُوصَفَ اللهُ بما وصفَ به نفسَهُ وبما وصفَهُ بِهِ رسولُه من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ. فإنَّ مَسْلُوبَ الأسماءِ والصّفاتِ ليس بشيءٍ، بل هو عدمٌ مَحْضٌ، كما قالَ بعضُ العلماءِ: المشَبِّهُ يَعْبُد صَنَماً، والمعَطِّلُ يعبد عَدَماً، والموَحِّدُ يعبدُ إِلهَ الأرضِ والسَّماءِ.

(**وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**): الشهادةُ:الإقرارُ والاعترافُ بأمرٍ ما، وهنا جَمَعَ له بين صفة العبودية والرسالة، وهذا أرفعُ المقامات التي لا تليقُ إلا بالأنبياء،والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكملُ الخلقِ في هاتينِ الصِّفتينِ الشَّريفتينِ، وأمَّا الرّبوبيَّةُ والألوهيَّةُ فهما حقٌّ للهِ لا يُشركه فيهما أحدٌ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مرسَلٌ، فضلاً عن غيرِهما، والشهادة لهذا الرسول بالرسالة مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد فلا تكفي إحداهما عن الأخرى.

وفي قولِه: (**عبدُه ورسولُه**): إشارةٌ للرّدِّ على أهلِ الإِفْرَاطِ والتَّفريطِ، أهلِ الإفراطِ الَّذين غَلَوا فيهِ ورفعوُهُ عن مَنْزِلَتِهِ، وارتكبوا ما نهاهمُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه من الغُلُوِّ. وأهلُ التفريطِ الَّذين يشهدون أَنَّه رسولُ اللهِ حقّاً وهم مع ذلك قد نَبَذُوا ما جاءَ به وراءَ ظهورِهم، واعتمدوا على الآراءِ المخَالفةِ لما جاءَت بِهِ هذه الشهادة التي تقتضي الإيمانَ به، فشهادة أنه عبد الله تنفي الغلو فيه ورفعه فوق منزلته . وشهادة أنه رسول الله تقتضي : الإيمان به وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، واتباعه فيما شرع . فما أَثبتهُ وَجَبَ إثباتُه، وما نَفاهُ وَجَبَ نَفيُه .

(**صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ**): الصلاة لغة : الدعاء والصلاة على النبي ﷺ تختلف بحسب من نُسِبَت إليه فإذا نسبت إلى الله فهي وهو أصح ماقيل بأنها : الثناءُ عليه مِنَ الله في الملأ الأعلى، كما أخرجه البخاري عن أبي العاليةِ معلقاً

بصيغة الجزم وقد وصل هذا المعلقَ غيرُ واحدٍ من السلف منهم إسماعيلُ ابنُ إسحاقَ القاضي في كتابه:(فضلِ الصلاة على النبي ﷺ).

وإذا نسبت إلى الملائكة فالمقصودُ بها الاستغفارُ للمصلَّى عليه، وإذا نسبت إلى الناس فهي الدعاءُ كما قال ابن القيم (**جلاء الإفهام**) .

وهنا فائدة: الصلاة على النبي ﷺ حكمها ركنٌ في الصلاة عند الحنابلة وسنة عند الجمهور، واختُلِف فيها عند ذكره في غير الصلاة على أقوال :

فالقولُ الأول:أنها واجبةٌ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ ، وقولِه ﷺ:(الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ) .

والقولُ الثاني:أنها سنةٌ لقوله ﷺ:(إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ) ولم يأمرْ بالصلاة عليه عند ذكره في الآذان وأيضاً فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يقولون:يا رسولَ الله فقطْ ولم يردْ أنهم يصلونَ عليهِ. (**نيل الاوطار – جلاء الافهام**) .

مسألة:هل تشرع الصلاةُ في حق السامع أو المتكلم أو جميعِهما ؟

ج/ ظاهر النصوص أنها في حق الجميع إلا في الحالات المنافية كالحمام وأثناءَ الصلاةِ ونحوه .

مسألة:ما حكمُ اختصارِ كلمةِ ﷺ في (ص) أو (صلعم) ؟

قال ابن عثيمين:لا ينبغي عند ذكر النبي ﷺ أن يَكْتُبَ (ص) أو (صلعم) وكره علماءُ المصطلحِ ذلك وقالوا: إما أن يكتبَها كما هي أو يدعَها ولا يكتبَ شيئاً وتكونُ الصلاةُ من القارئ وأما الإشارة بعن في عليه السلام فهذا أهونُ.

وقوله:(**وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَّزِيدًا**):للآلِ معنيان: عام وخاص

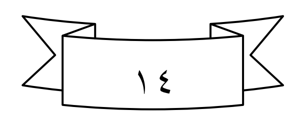
أما العامُّ فالمراد به أتباعُهُ على دينه إلى يوم القيامة فيشمل آل بيته والصحابة وغيرهم من المؤمنين.

وأما الخاصُّ فهم :من حرمت عليهم الصدقةُ من آل بيته وهم بنو هاشم و المطلبِ (**جلاء الافهام**) .

(**وصحبه**) جمع صاحب والصحابي : هو من لقي النبي . صلى الله عليه وسلم . مؤمنًا به ومات على ذلك

(وسلم): السّلامُ بمعنى التّحيّةِ أو السّلامةِ من النّقائصِ والرَّذائِلِ، ومن أسمائهِ سبحانَهُ: السّلامُ لسلامتِه من النّقائصِ والعيوبِ ،وجمعَ المصنِّفُ بين الصَّلاةِ والسَّلامِ امتِثالاً لقولِه سبحانهُ وتعالى: (صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً).

(مَّزِيدًا): اسم مفعول من الزيادة وهي النمو، والمراد أي: صلوا وسلموا عليه وعلى آله وصحبه في كل وقت تسليماً مزيداً.



وسيأتينا بإذن الله تعالى في ثنايا هذه الدروس أن أول بدعة خرجت كما ذهب إليه جمع من أهل العلم هي:

الخوارج ثم الشيعة ثم القدرية ثم المرجئة ثم المعتزلة ثم الجهمية وقيل غير ذلك من حهة الترتيب.

- أسباب ظهور البدع:

١- قلة العلم. ٢- قصور الفهم.٣- سوء القصد.٤- تحكيم العقل.٥- اتباع المتشابه.

....

أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ :أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ .

....

(أَمَّا بَعْدُ):هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من المقدمة إلى صلب الموضع وهذا أفضل من قول بعضهم إنها للانتقال من أسلوب إلى آخر لأن المتحدث أو الكاتب يتنقل من أسلوب إلى آخر دون أن يأتيَ بها .

(فَهَذَا):إشارة لما في الذهن أو لما سيأتي من الإشارة إلى ما تضمنته هذه الرسالة واحتوت عليه من العقائد الإيمانية التي أجملها بقوله : (وهو الإيمان بالله...إلخ) .

(اعْتِقَادُ):الاعتقاد لغة:عقد القلب على أمرٍ ما (**القاموس المحيط**) وأصله مأخوذ من عقد الحبل إذا ربطه . ثم استعمل في عقيدة القلب وتصميمه الجازم . .

واصطلاحا:ما اجتمع عليه القلب واللسان والجوارح من الاعتقادات .

(الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ):لفظ الفِرقة مأخوذ من قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ وقوله ﷺ:(لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ) وفي رواية:(لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مَنْصُورَةٌ مِنْ أُمَّتِي) رواه مسلم. ، **والفِرقة بالكسر هي الطائفة والجماعة،وأما بالضم فمأخوذة من الإفتراق.**

وسميت ناجية: لأنها نجت من البدع في الدنيا ومن النار في الآخرة، ولفظ ناجية مأخوذ من قوله ﷺ:(وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلا وَاحِدَةً وَهِيَ مَا كَانَتْ عَلَى مَا عَلَيهِ أَنَا وَأَصْحَابِي) رواه أبو داوود .

(**الْمَنْصُورَةِ**):قيل لها منصورة لأنها نصرت الحق بالحجة والبيان وبالسيف والسنان قال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ والمنصورة هي الّتي أعانها الله تعالى وأيَّدها وقوَّاها على مَنْ خَالَفَها وعَاداها، وجعلَ العاقبةَ لها لِتَمَسُّكِها بما كانَ عليه الرَّسولُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأصحابُه رضي الله عنهم.

وقد وُصفت الفرقة الناجية بأوصاف منها : أنها ناجية، وأنها منصورة، وأنها هي: أهل السنة والجماعة .

وتعددت الآراء حول الفرقة الناجية،فقال البخاري:هم أهل العلم، وقال الإمام أحمد:أهل الحديث، وقال النووي:يحتمل أَنَّ هذه الطائفةَ مُفَرَّقَةٌ بين أنواع المؤمنين منهم شجعانٌ مقاتلونَ ومنهم فقهاءُ ومنهم محدثونَ ومنهم زهادٌ وآمرونَ بالمعروف وناهونَ عن المنكر ومنهم أهلُ أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعينَ بل قد يكونونَ متفرقينَ فى أقطار الأرض. (شرح مسلم كتاب الإمارة) وهذا أقرب الأقوال .

والناجيةِ ضدها الهالكةُ والهلاكُ قسمانِ:

١- هلاك أكبر وهو ما كان فيه خروج من الملة كهلاك غلاة الجهمية، قال البخاري:لا أبالي صليت خلف جهمي أو رافضي أم صليت خلف يهودي أو نصراني فإنهم لا يُسَلَّم عليهم ولا يعادون إذا مرضوا ولا يناكحون ولا تؤكل ذبائحهم .

٢- هلاك أصغر وهو مالم يكن فيه خروج من الملة وهو لكل طائفة مبتدعة لم تخرج من الدين كالأشاعرة .

وقوله:(إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ):أي قربِ قيامِها فساعةِ موتِهم تكون بمجيءِ الرِّيحِ الَّتي تَقْبِضُ رُوحَ كلِّ مؤمنٍ وهي السَّاعةُ في حقِّ المؤمنين. وإلا فالسَّاعةُ لا تقومُ إلا على شِرارِ الخلقِ كما في صحيحِ مسلمٍ: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ اللهُ اللهَ)) والمرادُ بالرِّيحِ ما روَى الحاكمُ من حديث عبدَ اللهِ بنَ عمروٍ قال: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ، هُمْ شَرُّ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ)) وقال عقبةُ لعبدِ اللهِ: اعلمْ ما تقولُ، وأَمَّا أنَا فسمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّمَ يقولُ: ((لاَ تَزَالُ عِصابةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ ظَاهِرِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ))، قال عبدُ اللهِ: "ويبعثُ اللهُ ريحاً ريحُها ريحُ المسكِ ومَسُّها مَسُّ الحريرِ فلا تتركُ أحداً في قلبِهِ مثقالُ ذرّةٍ من إيمانٍ إلا قبضتهُ ثمّ يبقى شِرارُ النَّاسِ فعليهم تقومُ السَّاعةُ".

فالمقصودُ بالقرب: هبوبُ الريح التي تقبض أرواحَ الفرقة الناجية وهي قبل قيام الساعة فعن أبي هريرة مرفوعا:(إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحاً مِنَ الْيَمَنِ أَلْيَنَ مِنَ الْحَرِيرِ فَلا تَدَعُ أَحَداً فِي قَلْبِهِ مِنَ الإِيمَانِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ إِلا قَبَضَتْهُ) رواه مسلم، أما شرار الخلق فقد روى أنس قال: قال النبي ﷺ:(لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا يُقَالَ:اللهُ اللهُ) رواه مسلم .

وفي هذا أعظمُ بِشارةٍ من أَنَّ الحقَّ لا يزولُ بِالكُلِّيَّةِ، وفيه معجزةٌ ظاهرةٌ للنَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فإنَّه لم يَزَلْ وللهِ الحمدُ هذا الوصفُ باقياً ولا يزالُ، وهذه سنَّةُ اللهِ في خلقهِ أَنَّه ينصرُ عبادَه المؤمنين، كما قالَ سبحانَه: (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

وفي صحيحِ البخاريِّ من حديثِ أبي هريرةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ عَادَى لِي وليّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالحَرْبِ))

ولهذا أهلَكَ اللهُ قومَ نوحٍ، وعاداً، وثمودَ، وأشباهَهم ممن كذَّبَ الرّسلَ، وأنْجى عبادَهُ المؤمنين، وهكذا نصرَ اللهُ نبيَّه محمّداً وأصحابَه على من خالفَهُ وناوَأَهُ وعاداه، فجعل كلمتَهُ العليا، ودينَهُ الظاهرَ على سائرِ الأديانِ، وفتحَ اللهُ عليه مكَّةَ واليمنَ، ودانتْ له جزيرةُ العربِ بِكمالِها وأقامَ اللهُ أصحابَه وخلفاءَه من بعدِه فَبَلَّغُوا عنه دينَ اللهِ، ودَعوْا إلى اللهِ، وفتَحوا البلادَ والأقاليمَ حتَّى انتشرتِ الدَّعوةُ المحمّديّةُ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِهَا، ثمَّ لا يزالُ هذا الدِّينُ قائماً منصوراً إلى قيامِ السّاعةِ، كما قالَ اللهُ سبحانه: (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ) أي: أن يومَ القيامةِ تكونُ النُّصرةُ أعظمَ وأجلَّ.

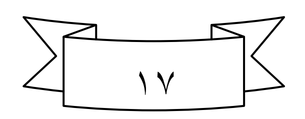
وعن أبي عُتبةَ الخولانيّ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: ((لاَ يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْساً يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ)) رواه ابنُ ماجةَ، وفي السُّنَنِ ((إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ فِي رَأْسِ كُلِّ مائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)) .وقال عَليٌّ رَضِي اللهُ عَنْهُ:"لن تخلوَ الأرضُ من قائمٍ للهِ بحجَّتِه".

قوله:(**أهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ**): أضافهم إلى السنةِ لأنهم مستمسكون بها والجماعةِ لأنهم مجتمعون عليها والسنةُ هي: الطريقة التي كان عليها النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم قال عليه الصلاة والسلام:"عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعظوا عليها بالنواجذ.." .

وقد سُئِل بعضُهُم عن أهلِ السّنّةِ فقال:"ما لا اسمَ لهم سوى السّنّةِ"، يعني أَنَّ أهلَ السُّنةِ ليس لهم اسمٌ ينتسبون إليه سِواهَا **خلافاً لأهلِ البدعِ، فإنَّهم تارةً** يُنسبون إلى مقالتهم وضلالهم كالْقَدَرِيَّةِ والمرْجِئَةِ، **وتارةً** إلى إمامهم كَالْجَهْمِيَّةِ والنَّجَّارِيَّةِ، **وتارةً** إلى أفعالهم كالرَّوَافِضِ والْخَوارجِ، أما أهلُ السّنّةِ فهم بريئون من هذه النِّسَبِ كلِّها،فهم نسبتُهُم إلى الحديثِ والسّنّةِ.

وقد تكاثرتِ الأدلَّةُ في الحثّ على لزومِ الجماعةِ فروَى التِّرْمِذِيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ مرفوعاً: ((إِنَّ يَدَ اللهِ عَلَىَ الْجَمَاعَةِ))، وعن أبي ذَرٍّ مرفوعاً: ((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْمَعْ أُمَّتِي إِلاَّ عَلَى هُدًى)) رواه أحمدُ. وعن أبي ذَرٍّ مرفوعاً: ((مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْراً فَقَدْ خَلَعَ ربقةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عنقِهِ)) رواه أحمدُ وأبو داودَ.

قالَ الشاطبي:في تعريف الجماعة خمسة أقوال: ١- أنهم السواد الأعظم ٢- أنهم العلماء المجتهدون ٣- أنهم الصحابة رضي الله عنهم ٤- أنهم المجتمعون على الإمام (ابن جرير) ٥- أنهم من لزم الحق ولو كانوا قلة وهذا هو



الراجح، ولهذا قال ابنُ مسعودٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ:"الجَمَاعَةُ ما وَافَقَ الحَقَّ وإن كنتَ وَحْدَكَ". وقال نعيمُ بنُ حَمَّادٍ:"إذا فَسَدَتِ الجماعة فعليكَ بما كانَتْ عليه الجماعةُ قبلَ أن تفسدَ وإن كنتَ وحدك، فإنَّكَ أنتَ الجماعةُ حينئذٍ"، ذكره البَيْهَقِيُّ وغيرُهُ.

قال ابنُ القيّمِ:" واعلمْ أَنَّ الإجماعَ والحُجَّةَ والسَّوَادَ الأعظمَ هو العَالِمُ صاحبُ الحقِّ وإنْ كانَ وحدَه، وإنْ خالفَه أهلُ الأرضِ....وقد شَذَّ النَّاسُ كلُّهم زمنَ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ إلا نفراً يسيراً فكانوا همُ الجماعةَ، وكانَ الفقهاءُ والمفتونُ والخليفةُ وأتباعهُ هم الشَّاذّين، وكانَ الإمامُ أحمدُ وحدَه هو الجماعةَ، ولما لم يَتَحَمَّلْ هذا عقولُ النّاسِ قالوا للخليفةِ: يا أميرَ المؤمنين تكونُ أنتَ وقُضَاتُكَ وَوُلاتُكَ والفقهاءُ والمفتون كلُّهم على الباطلِ، وأحمدُ وحدَه على الحقِّ، فلم يَتَّسِعْ علمُه لذلك، فَأَخَذَهُ بالسِّياطِ والعُقوبةِ بعد الحبسِ الطَّويلِ، فلا إلهَ إلا اللهُ ما أشبهَ الليلةَ بالبارحةِ، وهي السبيلُ المهيعُ لأهلِ السُّنةِ والجماعةِ حتَّى يَلْقَوْا ربَّهُم، مضَى عليها سَلَفُهم وينتظرُها خَلَفُهُم (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً) ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ " ((**أَعْلاَمُ المُوَقِّعِينَ**))

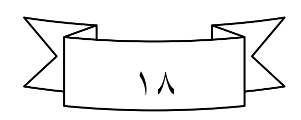
فائدة:هناك من أهل العلم من أدخل في أهل السنة (الفرقة الناجية) فرقتان كالسفاريني في(لوامعه)، حيث قال:إن أهلَ السنة ثلاثُ فرق:أهل الحديث،والأشاعرةَ،والماتُرِيدِيَّةَ وهذا خطأ فإنَّ لفظَ الحديثِ يَرُدُّ ذلك، فإنَّ قولَهُ في الحديث:(وَاحِدَةً) يُنافي التّعدُّدَ، فتعيَّنَ أنْ تكونَ الفرقةُ النّاجيةُ هم أهلَ الحديثِ فقط، وهم أهلُ السّنّةِ والجماعةِ. وقد رد عليه بعض أهل العلم كالشيخ أبابطين وغيره.

قوله:(**وَهُوَ**) إشارة إلى إعتقاد الفرقة الناجية، وسيبتدأ رحمه الله بذكر أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعا على الوجه الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة .

قال:(**الإيمانُ باللهِ**): الإيمانُ لغةً: التَّصْدِيقُ والإقرار، قال اللهُ سبحانَه وتعالى: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا) أي مصدِّقٍ

أَمَّا الإيمانُ في الشَّرعِ: فهو قولٌ وعملٌ واعتقادٌ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأنَّه مُتَّصِفٌ بصفاتِ الجلالِ والكمالِ، مُنَزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، لأنه مستحقٌّ للعبادةِ لا إلهَ غيرُه ولا ربَّ سواه.

قيل لرجل: بم عرفت الله فقال:البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على العليم الخبير .



قوله:(**وَمَلائِكَتِهِ**): الملائكة عالم غيبي مخلوقون من نور مكلفون عابدون، يجب التَّصديقُ بِوُجُودِهِمْ وأنَّهم كما وصفَهم اللهُ سبحانَه وتعالى: (عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ) فيجبُ الإيمانُ بهم إجْمَالاً وفيما لم نَعْلَمْهُ تَفْصِيلاً، أمَّا مَنْ عُلِمَ عَينُه كجبريلَ الموكل بالوحي ومِيكائيلَ بالقطر وإسرافيلَ الموكل بنفخ الصور ونحوِهِم فيجبُ الإيمانُ بِأَعْيَانِهِمْ.أمَّا عددُهم فلا يعلمُه إلا اللهُ، وقد دلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ على أصنافِ الملائكةِ، وأنّها مُوَكَّلةٌ بأصنافِ المخلوقاتِ: منهم مُوَكَّلون بالسَّحابِ والمطرِ كميكائيل، ومنهم موكَّلون بالأرحامِ، ومِنهم موكَّلون بحفظِ بني آدمَ، ومنهم موكَّلون بحفظِ ما يعملُهُ وإحْصَائِه وكتابتِه، ومنهم الموكَّلونَ بالموتِ والسّؤالِ في القبرِ، إلى غيرِ ذلك من أصنافِ الملائكةِ ممَّا لا يعلمهُ إلا اللهُ (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ).(التنبيهات) ومن أنكرهم كفر بالإجماع كما ذكر ذلك ابن بطة في (الإبانة).

مسألة:ما الجمع بين قول النبي ﷺ:(إِنَّ المِلائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ) رواه البخاري. وبين صياح الديك في غرفة فيها كلب أو صورة وهو لا يصيح إلا لرؤية ملك؟

الجواب:المقصود بالملائكة التي لاتدخل ملائكة الرحمة لأن (ال) في الحديث للعهد .

مسألة: سئل ابن تيمية هل جميع الخلق حتى – الملائكة – يموتون؟

فأجاب:الذي عليه أكثر الناس، أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة وحتى عزرائيل ملك الموت. (الفتاوى ٢٥٩/٤) .

مسألة:هل الملائكة أفضل أم صالحو بني آدم ؟

فيه خلاف:

فالقول الأول:أن الملائكة أفضل لأنهم في عبادة منذ أن خلقوا ولا تشوبهم معاص .

القول الثاني:أن صالحي بني آدم أفضل وهذا قول أكثر أهل السنة ودليلهم أن الملائكة سجدت لآدم عليه السلام .

القول الثالث:وبه قال ابن تيمية وابن القيم أن الملائكة أفضل باعتبار البداية لأنهم مستغرقون في العبادة وصالحي بني آدمَ أفضل باعتبار النهاية لأنهم إذا دخلوا الجنة خدمتهم الملائكة (الفتاوى ٣٤٣/٤) (البدائع) .

(**وَكُتُبِهِ**):أي يجب الإيمان بها وبأسمائها وأوامرها،وبأنَّها كلامُ اللهِ، وأنَّها حقٌّ ونورٌ وهدًى فيجبُ الإيمانُ بما سمَّى اللهُ منها من التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، ونؤمنُ بأنَّ للهِ سِوَى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائِه لا يَعرِفُ أسماءَها وعددَها إلا اللهُ سبحانه، قال تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ) الآيَةَ .

(وَرُسُلِهِ):أي يجب الإيمان بجميع الرسل وتصديقُهم بكلِّ ما أَخْبَرُوا به من الغيبِ، وطاعتُهم في كلِّ ما أَمرُوا به ونَهَوا عنه، قال تعالى: (قولواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ).

وأفضلُ الخلقِ على الإطلاقِ نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم بعدَه أُولوا الْعَزْمِ من الرّسلِ ثمَّ بَقِيَّةُ الرّسلِ ثمَّ الأنبياءُ، ولا يَبْلُغُ الوَلِيُّ مهما بَلَغَ من الجِدِّ والاجتهادِ في طاعةِ اللهِ درجةَ الأنبياءِ عليهم السّلامُ.**وقد شَنَّعَ الشّيخُ تقيُّ الدّينِ رحمهُ اللهُ على من يزعُمُ ذلك** وَرَدَّ عليه أَسوأَ رَدٍّ، وقال: إنّ ذلك مُخالفٌ لدينِ الإسلامِ واليهودِ والنّصارى **ومن هؤلاء غلاة الصوفية القائلين** :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون النبي.

والفرق بين النبي والرسول:أن النبيَّ من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسولَ:من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، هذا هو قول الجمهور وقيل: الفرق أن الرسولَ:من بعث بشريعة جديدة، والنبيَّ:من بعث بشريعة من قبله، وهذا القول أقرب مع أنه لا يخلو من انتقادات .

مسألة: الأصل أن التفضيل بين الأنبياء جائز، فإن قيل ما الجمع بين قوله ﷺ :(لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ) متفق عليه، وبين قوله تعالى:﴿ **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ ونحوها من الآيات؟

الجواب: أن الحديث ورد في الخصام الذي وقع بين يهودي ومسلم، حيث قال اليهودي:والذي اصطفى موسى على البشر فلطمه المسلم على وجهه، وقال: اتقول هذا ورسول الله بين أظهرنا فاشتكاه اليهودي على النبي عليه الصلاة والسلام فقال عليه الصلاة والسلام بعدما علم بالقصة:(لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ) وعلى هذا فإذا كانت المفاضلة من باب الحَمِيَّةِ وتنقصِ بعض الأنبياء فلا تجوز، أما إذا كان لا يقصد ذلك منها فهي جائزة للآية المتقدمة .

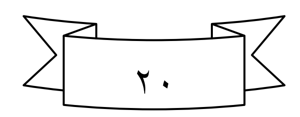
فأفضلُ الناس الأنبياءُ وأفضلُهم أولو العزم وهم الذين جمعهم الناظمُ في قوله:

مُحَمَّدُ إِبْرَاهِيمُ مُوسَى كَلِيمُهُ   فَعِيسَى فَنُوحٌ هُمْ أُولُو الْعَزْمِ فَاعْلَمِ

وأفضلُهم محمدٌ ﷺ .

ويجب الإيمان بجميع الرسل من سمى الله منهم في كتابه ومن لم يسم منهم كما قال تعالى:{ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك }

قوله:(والبعثِ بعدَ الموتِ) من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر وأن الناس يبعثون من قبورهم بعد موتهم قال تعالى:(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير)



(والإيمانِ بالقدرِ): الإيمان بالقدر يكون باليقين بأن الله سبحانه يعلم مقادير الأشياء قبل وجودها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته في مواعيدها المقدرة . فكل محدث من خير أو شر فهو صادر عن علمه وتقديره ومشيئته وإرادته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهذا سيأتي الكلام عنه مفصلاً في فصل خاص فيما بعد بإذن اللهُ.

....

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ:الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَّلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَّلاَ تَمْثِيلٍ بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ .

....

(وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ):هنا سيبدأ المصنف رحمه الله بالكلام عن اعتقادِ أهل السنة والجماعة مفصّلاً للمجمل السابقِ المتعلق بأصول الإيمان التي يجب الإيمان بها .

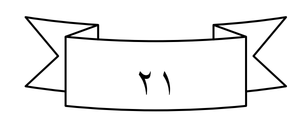
قال:**(الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتابِهِ)**: الإيمانُ لغةً كما تقدم:التصديقُ والأقرار قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾، واصطلاحاً:اعتقادٌ بالقلبِ وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان (الجوارحِ) يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية .

و قوله(:**الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَّلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَّلاَ تَمْثِيلٍ)**: هذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة، فلا يُوصَفُ إلا بما وَصَفَ به نفسَه أو وَصَفَهُ بِه رسولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،قال الإمام أحمدُ رحمهُ اللهُ: "لا يُوصفُ اللهُ إلا بما وصفَ به نفسَه، أو وصفَهُ به رسولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يتجاوَزُ القرآنَ والحديثُ".

قال ابنُ القيّمِ رحمهُ اللهُ في (البَدَائِعِ): "ما يُطلَقُ عليه في بابِ الأسماءِ والصّفاتِ تَوْقِيفيٌّ، وما يُطلقُ عليه في بابِ الأخبارِ لا يجبُ أَنْ يكونَ تَوْقِيفيّاً كالشَّيءِ والموجودِ والقديمِ ونحوِ ذلك"

وهذا فيه دلالة على أن باب الأخبار أوسع من باب الإنشاء،فأسماء اللهِ وصفاتِه سبحانَه وتعالى إنما تُتلقَّى من السَّمعِ لا بآراءِ الخلقِ.

فصفاتُه سبحانَه مَبْنِيَّةٌ على التَّوْقِيفِ قال تعالى:﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فلا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة فلا نتعداهما .



واعلم أن النبي ﷺ وصف الله عز وجل بثلاثِ طرقٍ:

بالقول:كقوله ﷺ:(والذي نفسي بيده...)، وقوله:(يا مقلب القلوب) .

والفعل:كفعله ﷺ في حجة الوداع عندما أشار بإصبَعِهِ إلى السماء وقال:(اللَّهُمَّ اشْهَدْ) وفي هذا وصف الله جل وعلا بالعلو .

والإقرار:كحديث الجارية عندما سألها:(أين الله) قالت:في السماء فأقرها النبي ﷺ على ذلك .

مسألة:هل يؤخذ من الصفات والأفعال أسماءٌ لله ؟

هذه المسألة اختلف فيها أهل السنة والجماعة على قولين:

القول الأول:أنه يؤخذ منها أسماء وهذا القول ذهب إليه كثير من قدماء السلف كسفيانَ بنِ عيينةَ والخطابيِّ وابنِ العربيِّ وغيرِهم .

القول الثاني: -وهو شبهُ إجماعٍ من المتأخرين وأكثرُ من نصره وقَعَّدَهُ ابن القيم- وهو أنه لا يؤخذ منها أسماءٌ واختاره الشيخُ ابنُ عثيمينَ وغيرُه رحم الله الجميع.

قال:(**مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ**):

التحريف لغة:التغيير والإمالة، **واصطلاحا**:تغيير النص لفظاً أو معنى أو بهما معاً .

وينقسم التحريف إلى ثلاثة أقسام:

١- تحريفٌ في اللفظ مثال ذلك:﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ بأن يحرفها إلى استولى وقوله:(وَجَاءَ رَبُّكَ) فيحرفها إلى أَمْرِه.

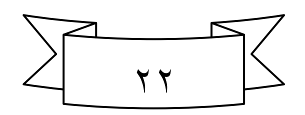
٢- تحريفٌ في الإعراب مثال ذلك:﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ بأن يُغَيِّرَ الحركةَ فَيَجْعَلَ المرفوعَ منصوباً، فيقرأَها:(وكلم اللهَ موسى تكليما).

وَيُرْوَى أنَّ جَهْمِيّاً طلبَ من أبي عمرو بِنِ اِلعلاءِ أحدِ القُرَّاءِ يقرأُ: (وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيماً) بِنَصْبِ لفظِ الجلالةِ، فقال له: هَبْنِي فَعَلْتُ ذلك فما تَصنَعُ بقولِه: (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) فَبُهِتَ الجَهْمِيُّ.

٣- تحريفٌ في المعنى مثال ذلك:(يدُ الله) بأن يفسرَها بالنعمة .

وقد ذَمَّ اللهُ سبحانَه وتعالى الَّذين يُحَرِّفُون الكَلِمَ عن مواضعه، كما قالَ اللهُ سبحانه وتعالى عن اليهودِ: (مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ) أي يُغَيِّرُونَهُ ويُفَسِّرُونَهُ بغيرِ معناهُ

قال:(**وَلاَ تَعْطِيلٍ**):



التعطيل لغة:الترك والإخلاء قال تعالى:﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أي:متروكةٍ مخلاةٍ.

واصطلاحاً: إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضه

وهو نوعان:

١- تعطيل كليٌ كتعطيل غلاة الجهمية الذين ينكرون الأسماء والصفات وهؤلاء كفرهم جمهور أهل العلم.

٢- تعطيل جزئيٌ كتعطيل الأشاعرة الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض:وهذا إن كان الإنكار عن طريق التأويل وله مساغ في اللغة فلا يكفرصاحبه، وإن لم يكن له مساغ في اللغة فيكفر صاحبه إذا تحققت شروط التكفير وانتفت موانعه .

أما أنواع التعطيل على وجه العموم فقد قال ابن القيم رحمه الله بأنه ينقسم إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلِ: تعطيلُ المصْنوعِ مِن صَانِعِهِ، كتعطيلِ الفلاسفةِ الَّذين زعَموا قِدَمَ هذه المخلوقاتِ، وأنَّها تتصرَّفُ بطبيعتِهَا.

الثَّاني: تعطيلُ الصَّانعِ مِن كَمَالِهِ المقَدَّسِ بتعطيلِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، كتعطيلِ الجهميَّةِ وأشباهِهِم من المعتزلةِ وغيرِهِم.

الثَّالثِ: تعطيلُ حَقِّ معاملتِه، بتركِ عبادتِه، أو عبادةِ غيرِهِ معَه.

وأوَّلُ مَنْ قالَ بالتَّعطيلِ في الإسلامِ: الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ، فقتلهُ خالدُ بنُ عبدِ اللهِ القَسْرِيُّ بعدَ استشارةِ علماءِ زمانِه.

قال ابنُ القيّمِ رحمهُ اللهِ في ((النُّونِيَّةِ)):

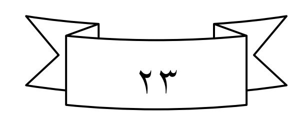
وَلِذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ قَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ لله دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ.

وتلقَّى عن الجعدِ مقالةَ التَّعطيلِ: الجَهْمُ بنُ صَفْوانَ التِّرْمِذِيُّ، فنشرها ونَاضَل عنها، فلذا نُسِبَ المذهبُ إليه، والجهمُ قتَله سَلَمُ بنُ أَحْوَزَ أميرُ خُرَاسَانَ

فائدة:طوائف المعطلة:١- الجهمية عموما، ٢- المفوضة حيث قالوا:إن الصفات مجهولة المعنى ٣- المتوقفة في الإثبات والنفي، ٤-المعتزلة في الصفات إلا في العلم والقدرة والإرادة، ٥- الأشاعرة إلا في سبع صفات جُمِعَتْ في قول الناظم:

حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَّالْكَلامُ لَهُ إِرَادَةٌ كَذَلِكَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ



٦- الماتريدية إلا في ثمانِ صفاتٍ وهي السبعُ التي يثبتها الأشاعرة ويزيدون صفةَ التكوينِ الذي هو الخلقُ.

٧- الكلابية في الصفات الاختيارية (الفعلية) ٨- الفلاسفة .

والفرق بين التحريف والتعطيل : أن التحريف هو نفي المعنى الصحيح الذي دلت عليه النصوص واستبداله بمعنى آخر غير صحيح . والتعطيل : هو نفي المعنى الصحيح من غير استبدال له بمعنى آخر، كفعل المفوضة .

فكل محرف معطل وليس كل معطل محرفا مثالُ ذلكَ:مَنْ حَرَّفَ صفةَ اليد وقال إنها القدرةُ فقد عطل اليد لله عن الصفة الحقيقية وحرفها إلى معنى باطل أما المعطل فلا يلزم أن يعطي معنى باطلا فقد يقول ليس لله يدٌ ولا يعطي معنىً باطلاً لليد فالتعطيلُ أعمُّ من التحريف،قال ابن تيمية:المعطلةُ شرٌّ من المشركينَ **(درء تعارض العقل والنقل ٧٣/٧)**

قال ابنُ القيّمِ رحمه اللهُ: والتَّعطيلُ شرٌّ من الشّركِ، فإنَّ المعَطِّلَ جاحدٌ للذَّاتِ أو لِكَمَالِها، وهو جَحْدٌ لحقيقةِ الألوهيّةِ، فإنَّ ذاتًا لا تسمعُ ولا تبصِرُ ولا تغضبُ ولا تَرْضى ولا تفعلُ شيئًا وليسَتْ داخلَ العالمِ ولا خارجَه ولا متّصلةً بالعالمِ ولا منفصلةً ولا فوقَ ولا تحتَ ولا يمينَ ولا شِمالَ، هو والعدمُ سواءٌ، والمشْرِكُ مُقِرٌّ باللهِ، لكنْ عبدَ معه غيرَه، فهو خيرٌ من المعطِّلِ للذَّاتِ والصّفاتِ".**(مدارج السالكين ٢/ ٣٧٩)**

.

قال:**(وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ)**:

التكييف:السؤال عن كيفية الصفة بلفظ كيفَ أو نحوه.

وصفاتُ الله لها كيفيةٌ لكنهامجهولة بالنسبة لنا لأن كيفيةَ الشيء لا تعلم إلا من أحد ثلاث طرق:

الأولى:الرؤية للشيء، **الثانية**:رؤية مثيل الشيء، **الثالثة**:الخبر الصادق عن الشيء، وهذه الثلاثةُ غير معلومة لنا بالنسبة لكيفية صفاتِ لله تعالى **وعلى هذا فلا يجوز السؤال عن الكيفية** لأن هذا ممَّا استأثرَ اللهُ به، فلا سبيلَ إلى الوصولِ إليه، إذ الصّفةُ تابعةٌ للموصوفِ، فَكما لا يَعلمُ كَيْفَ هُوَ أَلاَّ هُوَ، فكذلك صفاتُهُ، فالصّفاتُ يُحْذَى فيها حَذْوَ الذّاتِ، وقد سُئِلَ مالكٌ رحمهُ اللهُ تعالى فقيلَ له: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) كيف اسْتَوى؟ فقال: الاستواءُ معلُومٌ، والكَيْفُ مَجْهُولٌ، والإِيمَانُ به وَاجِبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ، وكذلك رُوِيَ عن ربيعةَ نحواً من هذه الإجابةِ، وكذلك رُوِيَ عن أمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإجابةُ مالكٍ رحمه الله تعالى وغيرِهِ تعتبر جوابٌ كافٍ شَافٍ في جميعِ مسائلِ الصّفاتِ، فإذا سُئلَ إنسانٌ عن المجيءِ أو النّزولِ أو السّمعِ أو البصرِ أو غيرِ ذلك، أجابَ بجوابِ مالكٍ رحمه اللهُ، فيُقالُ مثلاً: المجِيءُ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ، وكذلك مَنْ سُئِلَ عن الغضبِ والرّضى والضّحكِ وغيرِ ذلك فمعانيها كلُّها مفهومةٌ، وأمَّا كيفيَّتُها فغيرُ

معقولةٍ، إذ تَعقُّلُ الكيفيّةِ فَرْعُ العِلْمِ بكيفيّةِ الذّاتِ وكُنْهِها، فإذا كانَ ذلك غيرَ معقولٍ للبشرِ فكيف يُعقلُ لهم كيفيّةُ الصّفاتِ؟!.

قال بعضُ السّلفِ: إذا قالَ الجهميُّ: كيف استوى؟ كيف ينزلُ إلى السّماءِ الدّنيا؟ ونحوَ ذلك، فقل لَهُ: كَيْف هُوَ بِنَفْسِهِ؟ فإذا قالَ: لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إلاَّ هُوَ، وَكُنْهُ البَارِي غَيْرُ مَعْلُومٍ لِلْبَشَرِ، فقلْ له: فالعلمُ بِكَيْفيَّةِ الصّفةِ مستلزمٌ للعلمِ بكيفيَّةِ المَوْصُوفِ فكيف يمكنُ أَنْ يُعلمَ كيفيَّةُ صفةٍ لموصوفٍ لم تُعْلَمْ كيفيّتُه، وإنّما تُعْلمُ الذَّاتُ والصّفاتُ من حيث الجُمْلةُ، فلا سبيلَ إلى العلمِ بِالْكُنْهِ والكيفيّةِ، فإذا كانَ في المخلوقاتِ ما لا يُعْلَمُ كُنْهُهُ فكيف بالباري سبحانه، **فهذه الجنّةُ**، ورَد عن ابنِ عبّاسٍ:" ليسَ في الدُّنيا ممَّا في الجنَّةِ إلا الأسماءُ"، **وهذه الرُّوحُ** نَجْزِمُ بِوجودِهَا وأنّها تَعْرُجُ إلى السّماءِ وأنّها تُسلُّ منه وقتَ النّزْعِ، وقد أَمْسَكتِ النّصوصُ عن بيانِ كيفيّتِها، فإذا كان ذلك في المخلوقِ فكيفَ بالخالقِ سبحانه وتعالى؟.

(وَلاَ تَمْثِيلٍ):

التمثيل هو التشبيه وهو أن تجعل لله مساوياً في ربوبيته أو ألوهيته أو صفاته أو أسمائه .

والقولُ به كفرٌ مطلقٌ بإجماع السلف قال نعيمُ بنُ حمادٍ شيخُ البخاريّ:(من شبه الله بخلقه فقد كفر) .

فلا تُمثّلُ صفاتُ الله بصفاتِ خَلْقِهِ، فإنَّه لا مثلَ له ولا شِبْهَ له ولا نَظِيرَ، لا في ذاتِه وأسمائِه، ولا في صفاتِه وأفعالِه، كما قالَ سبحانه وتعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

والتَّمثيل ينقسمُ إلى قسمين:

الأوَّل: تمثيل المخلوقِ بالخالقِ، كتشبيهِ النَّصارَى عيسى باللهِ، وكتشبيهِهم عُزيراً وتشبيهِ المشركين أصنامَهم باللهِ، وهذا النَّوعُ هو الَّذي أُرْسلتِ الرُّسلُ وأُنْزلت الكتبُ في النَّهيِ عنه، وهو أعظمُ الذّنوبِ على الإطلاقِ، ومُحْبِطٌ لجميعِ الأعمالِ.

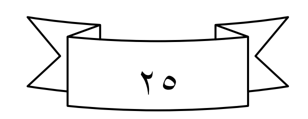
الثَّاني: تمثيل الخالقِ بالمخلوقِ، كقولِ المشبِّهِ: للهِ يَدٌ كَأَيْدِينَا، وسَمْعٌ كأسماعِنا.

وكلا النّوعين كفرٌ، وكلُّ مشبِّهٌ معطِّلٌ وبالعكسِ، فإنَّ المعطِّلَ لم يفهمْ من صِفَاتِ اللهِ إلا ما يليقُ بالمخلوقِ، فأرادَ بزعمِهِ الفاسدِ تنزيهَهُ عن ذلك فوقعَ في التَّعطيلِ، فَشَبَّهَ أوّلاً وعَطَّل ثانياً وشبَّهَهُ ثالثاً بالمعدوماتِ والنَّاقصاتِ، تعالى اللهُ عن قولِهِم.

وكذلك المشبِّهُ عطَّلَ الصّفةَ الَّتي تليقُ باللهِ ووصفَه بصفاتِ المخلوقِ، فعطَّلَ أوّلاً، وشبَّهَهُ ثانياً، فكلُّ مُعطِّلٍ مُشبِّهٌ وبالعكسِ.

فائدة:مِنْ أسباب ضلال المبتدعة في الأسماء والصفات:

١- تقديمُ العقل على النقل .



٢- قولُهُمْ إن إثباتَ صفاتِ لله يستلزم التجسيمَ .

٣- اعتمادُهُمْ على المجاز في نفي الصفاتِ .

٤- عدمُ قبولهُمْ لأحاديثِ الآحاد حيث قالوا:إنها لا تقبلُ في العقائد .

٥- تسويتُهُمْ الخالق بالمخلوق .

فائدة:أسباب ظهور البدع والضلال:

١- قلة العلم. ٢- قصور الفهم. ٣- سوء القصد. ٤- اتباع التشابه. ٥- تحكيم العقل.

قال:(**بل يؤمنون بأن الله:** ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ **فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ**): لما ذكر المصنف رحمه الله أن الواجب هو الإيمان بصفات الله الثابتة في الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بين موقف أهل السنة والجماعة من ذلك وهو أنهم يؤمنون بتلك الصفات على هذا المنهج المستقيم، فيثبتونها على حقيقتها نافين عنها التمثيل فلا يعطلون ولا يمثلون على وفق ما جاء في قوله تعالى: { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير }وهذه الآية هي القاعدة العامة لمنهج أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفاتِ،فقوله:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ نفي للتمثيل وفي الآية رد على المشبهة الممثلة ،وقوله:﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ نفي للتعطيل وفي الآية رد على المعطلة النفاة .

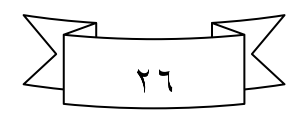
واعلمْ أنَّ طريقةَ القرآن الإجمالُ في النفي والتفصيلُ في الإثبات وهذا أمرٌ أغلبيٌّ والسببُ في ورودِ هذه الطريقةِ هو أنها أبلغُ في التعظيم وشاهدُها في آخر سورة الحشر، أما لو فُصِّلَ في النفي لكان فيه نوعُ ازدراءٍ .

فوائدُ من الآية :

١- إثباتُ صفة السمع والبصر لله تعالى على ما يليق به والردُّ على من زعمَ أنَّ السمعَ والبصرَ بمعنى: العلم وفيها الردُّ على الممثلة الذين يمثلون صفات الله بصفات المخلوق والرد على المعطلة الذين ينفون الصفات بالكلية كالجهمية والرد على الذين يثبتون الأسماءَ دون المعاني كالمعتزلة الذين يقولون:سميعٌ بلا سمع وبصيرٌ بلا بصر وتصوُّرُ هذا القول يكفي في رده واستهجانِه وفيها الردُّ على الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات ويؤولون بعضاً آخر وهم متناقضون أعظمَ التناقض .

٢- فيها الجمع بين النفي والإثبات، وتقديم النفي على الإثبات لأن الأولَ من باب التخليةِ والثانيَ من باب التحليةِ .

٣- فيها الجمعُ بين السَّمعِ والبصرِ، فكثيراً ما يُقرَن بينهما لعمومِ مُتَعَلَّقِهِمَا، فسمْعُه سبحانه مُحيطٌ بجميعِ المسْمُوعاتِ، وبصرُه مُحيطٌ بجميعِ المبْصِرَات.



٤- وفيها إثباتُ الصِّفاتِ للهِ على ما يليقُ بجلالِهِ وعظمتِه، وأنَّ صفاتِه ليست كصفاتِ خلقِه، فصفاتُ الخالقِ كما يليقُ به، وصفاتُ المخلوقِ كما يليقُ بِه، إذ لا مُناسبةَ بين الخالِقِ والمخلُوقِ، فصفاتُ كلِّ موصوفٍ تناسبُ ذاتَه وحقيقتَه، فلا يَعْلمُ كَيْفَ هُوَ إلا هُوَ.

قال:(**فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ**) أي: أن أهل السنة والجماعة لا ينفون عن الله تعالى ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم بل يثبتون لله الأسماءَ الحسنى والصفاتِ العلى على ما وصف به نفسه وعلى ما وصفه به رسولُه ﷺ وينفون عنه ما نفاه عن نفسِه أونفاه عنه رسولُه ﷺ من مشابهة المخلوقين أوتعطيلِ صفاتِ رب العالمين أونحوِ ذلك من التكييف والتحريف المشين، **أما أهل البدع** من الجهمية وغيرِهم فنفوا أسماءَ الله وصفاتِه وعطلوها زعماً منهم أن إثباتَها يقتضي التجسيمَ أو التحيزَ ونحوَ ذلك من أقوال أهل الضلال، وسيأتي الكلام عن هذا مفصلاً بإذن الله فيما بعد.

قال:(**وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ**):أي أن أهل السنة والجماعة لا يغيرون ولا يفسرون كلام الله بغير معناه كفعل الفرق الضالة المحرفين الذين سلكوا سبيلَ اليهود شَعَرُوا أمْ لَمْ يَشْعُرُوا قال تعالى:﴿ **مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ** ﴾ أي: بإزالة اللفظ عما دل عليه .قال ابن كثيرفي تفسير الآية:"يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه على غير مراد الله قصداً منهم وافتراءً".

"**والتحريف على مراتبَ فَمِنْهُ**: ما يكون كفراً، **ومنه**: ما يكون فسقاً وقد يكون خطأً لا يفسق صاحبه ولا يكفر ". (**شرح الطحاوية لابن أبي العز**) .

....

وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لهُ ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى فإِنَّهُ –سُبْحَانَهُ– أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِّنْ خَلْقِهِ.

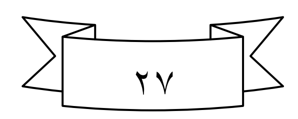
....

قوله:(**وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ**):أي: لا يميلون ولا يعدلون عن الحق الثابت فيها .

والإلحاد لغةً:الميلُ ومنه سمي القبر لحداً لميلِه إلى القبلةِ.

واصطلاحاً:الميل بما يجب لله تعالى من الحقّ..

وهو نوعان:



النوع الأول:إلحاد في أسماء الله وصفاته، وهو العدول عن الحق الواجب فيها، وفيه قوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

والإلحاد في أسماء الله وصفاته على خمسة أقسام كما يقول ابن القيم:

أحدُها: أن يُسمِّيَ الأصنامَ بها، كتسميةِ اللاَّتِ من الإلهِ، والعُزَّى من العَزِيزِ ونحوِهِ.

الثَّاني: تسميتُه -سبحانه- بما لا يليقُ بجلالهِ، كتَسْمِيةِ النَّصارى له أبًا، وتسميةِ الفلاسفةِ له مُوجِبًا أو عِلَّةً فاعِلَةً.

الثَّالثُ: وصفُه بما يتعالى وَيَتَقَدَّسُ عنه من النَّقائصِ، كقولِ أَخْبَثِ اليهودِ: إنَّ اللهَ فقيرٌ، وقولِهِم: يَدُ اللهِ مَغْلولةٌ.

الرَّابعُ: تعطيلُ الأسماءِ الحُسْنى عن معانِيها وجحدُ حقائِقِها، كقولِ مَن يقولُ من الجهميَّةِ: إنَّها ألفاظٌ مُجَرَّدَةٌ لا تتضمَّنُ صفاتٍ ولا معانيَ، فيُطلقون عليه اسمَ السَّميعِ والبصيرِ والحيِّ ويقُولون لا سمعَ له ولا بصرَ ولا حياةَ ونحوُ ذلك.

الخامسُ: تشبيهُ صفاتِه بصفاتِ خلقهِ، تعالى اللهُ عن قولِ الْمُلحِدين عُلوًّا كبيرًا، فَجَمَعَهُمُ الإلحادُ وتفرَّقَت بِهِم طرقُه، وَبَرَّأَ اللهُ أتباعَ رسولِه وورثته القائمِين بسُنَّتِه عن ذلك كلِّه، فلم يَصِفُوه إلا بما وَصف به نفسَه، ولم يَجْحدوا صفاتِه ولم يُشَبِّهُوهَا بصفاتِ خلقهِ، ولم يَعْدِلوا بها عمَّا أُنْزلت له لفظًا ولا معنًى، بل أثبتوا له الأسماءَ والصِّفاتِ، ونَفَوْا عنه مشابهةَ المخلوقاتِ، فكانَ إثباتُهم بَرِيئاً من التَّشبيهِ، وتنزيهُهُم خالياً من التَّعطيلِ، لا كَمَنْ شَبَّهَ حتَّى كأنَّه يعبدُ صنمًا، أو عَطَّلَ حتَّى كأنَّهُ يعبدُ عَدَمًا".

النوع الثاني: إلحادٌ في الآيات قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا...}.

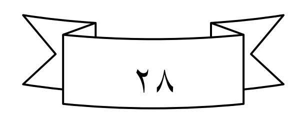
وهو قسمان:

١- إلحادٌ في آيات الله الكونيةِ وهي التي تتعلق بالخلق والتكوين ويكون الإلحاد فيها بأن يعتقد بأن مع الله شريكاً أو معيناً أو أن الذي خلق الخلق استقلالاً إلهٌ غير الله ونحو ذلك.

٢- إلحادٌ في آياتِه الشرعيةِ.وهو ما جاءت به الرسل من الأحكام والأخبار ويكون الإلحاد فيها بتكذيبها أو مخالفتها أو تحريفها .

(وَلاَ يُكَيِّفُونَ):لأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال التي لا تبلغُها عقولُ الخلائقِ قال تعالى:﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ .

(وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ):لأن مذهب أهل السنة إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل لأنه جل وعلا ليس كمثلِهِ شيءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ.



(لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لاَ سَمِيَّ لَهُ):أي: لا نظير له يستحق مثل اسمه كما قال تعالى:﴿ **هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا** ﴾ أي: مساوياً ومماثلاً .

(وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لهُ):هاتان الجملتان مترادفتان، وتشمل الجملة الثانية معنيين:

١- النظيرَ والمساويَ.

٢- المناوئَ .

(ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى):أي لا يمثل بخلقه ولا يشبه بهم سبحانه وتعالى، قال تعالى: (فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ) فلا يُقاسُ –سُبْحَانَهُ– بخلقِه في أَفعالِه، ولا في صفاتِه، كما لا يُقَاسُ بهم في ذاتِه، وكيف يقاس الخالق الكامل بالمخلوق الناقص، وهذا خلافًا للمعتزلةِ ومَن وافقَهم من الشِّيعَةِ، **فإنَّهم قَاسُوه –سُبْحَانَهُ– بخلقِه فَشَبَّهُوه بهم، فَوَضَعُوا له شريعةً مِنْ قِبَلِ أنفسِهِم فقالوا: يَجِبُ على اللهِ كذا، وَيَحْرُمُ عليه كذا بالقياسِ على المخلوقِ،** فالمعتزلةُ ومَنْ وافقَهم مُشبِّهةٌ في الأفعالِ مُعَطِّلةٌ في الصِّفاتِ، جَحدوا بعضَ ما وصفَ اللهُ به نفسَهُ من صفاتِ الكمالِ، وسمَّوْهُ توحيدًا، وشبَّهُوه بخلقِه فيما يَحْسُنُ ويقبحُ من الأفعالِ، وسَمَّوْا ذلك عدلاً، فعدلُهم إنكارُ قدرتِه –سُبْحَانَهُ– ومشيئتِه العامَّةِ الكاملةِ الَّتي لا يَخْرجُ عنها شيءٌ من الموجوداتِ ذواتِها وصفاتِها وأفعالِها، وتوحيدُهم: إلحادُهم في أسماءِ اللهِ الحُسنى، وتحريفُ معانيها عمَّا هي عليه، فكان توحيدُهم في الحقيقةِ تعطيلاً وعدلُهم شركًا. "بدائع الفوائد لابن القيم".

والمراد بنفي القياس هنا كل ما أوجب معنىً باطلاً.

والقياس على ثلاثة أنواع:

١–قياس المثل وهو الذي يستعمله الأصوليون .

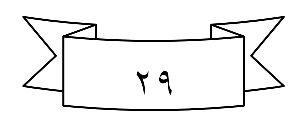
٢–قياس الشمول وهو القياس بين الجزئيِّ والكليِّ، وهو الذي يستعمله المناطقة.

وكلا القياسان منفيان في جنب الله .

٣- قياس الأولى وهذا يصح الأخذ به في صفات الله وفي مايليق به كما بين ابنُ تيميةَ في (**الرد على المنطقيين**).

وضابطُه أن الصفاتِ الكماليةَ التي تَثْبُتُ لأحد من الخلق ويليق نسبتها للخالق فالخالقُ أولى بها لأن الخالق له الكمال المطلق مثاله: المخلوق له صفات تعتبر كمالاً كالسمع والبصر والغنى فهذا الكمال الله أولى بالوصف وأولى بنفي النقص عنه .

(فَإِنَّهُ –سُبْحَانَهُ– أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ): قال تعالى:﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا** ﴾ وقوله: (وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقوله:﴿ **تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ** ﴾ فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق كما في الحديث:(لا نُحْصِي ثَنَاءاً عَلَيكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ) فما جاء في الكتاب والسنة من



صفات الله وجب الإيمان به وتلقيهِ بالقبول والتسليم وتركِ التعرض له بالردِّ والتشبيهِ والتمثيلِ فعلينا أن نرضى بما رضيَه الله لنفسه فإنه أعلم بما يجوز ويمتنع من الصفات وأعلم بما يليق بجلاله سبحانه .

مسألة:هل النفسُ يقصد بها الذاتُ الإلهيةُ أو أنها صفةٌ لله ؟

فيه قولان لأهل اسنة والجماعة:

القول الأول:أنها هي الذاتُ الإلهية واختاره ابن تيمية. (**الفتاوى ١٤/١٩٦**) .

القول الثاني:أنها صفةٌ من صفات الله تعالى وهذا أقرب لأنها جاءت مضافةً لله تعالى من باب إضافةِ الصفةِ للموصوفِ، والشيءُ لا يضافُ إلى نفسِه، وهذا اختيارُ ابن قدامة في (اللمعة) وابن خزيمةَ في (التوحيد) وما دام الخلاف بين أهل السنة فلا يُثَرَّبُ على من أخذ بأحد هذين القولين خصوصا وقد اختارها أئمة عظماء ومحققون كبار.

(وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِّنْ خَلْقِهِ):قال تعالى:﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ وقال تعالى:﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ أي:لا أحدَ أصدقُ من الله حديثاً، **فما أخبرنا به** الله فهو حق وصدق ويجب تصديقه وثبتَ في الصَّحيحِ من حديثِ جابرٍ أنَّ رسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- كانَ يقولُ في خطبتِهِ يومَ الجُمعةِ: ((إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-)) فلن تجدَ أفصحَ بياناً ولا أحسنَ منطقاً ولا أشرفَ معانيَ ولا أحسنَ تفسيراً من حديث الله وقولِه جل وعلا، فَمَنْ عَارَضَهُ بعقلِهِ لم يُصَدِّقْ به، ومَن أَقَرَّ بِلَفْظِهِ مع جَحدِ معناه، أو حرَّفه إلى معانٍ أُخَرَ غيرِ ما أُريدَ به لم يكنْ مُصدِّقاً له.

....

ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ **فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ .**

....

(ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ)

الصدق:مطابقة الخبر للواقع، فَرُسُلُهُ صادقون في جميع ما جاؤوا به .

فلا يَصِحُّ لإنسانٍ قولٌ ولا عملٌ إلا باعتقادِ صدقِهم وأَمَانَتِهِمْ، وأنَّهم بلَّغُوا البلاغَ المبينَ بأبلغِ عِبَارةٍ وأَوْضَحِ أسلوبٍ، ليسَ في كلامِهم لُغْزٌ، ولا أَحَاجِي، وليس له باطنٌ يخالفُ ظاهرَه، وأنَّ لديهم من القدرةِ على التعبيرِ

وكمالِ العلمِ وتمامِ الشَّفقةِ والنُّصحِ ما ليسَ عند غيرِهم، فيجبُ أن يكونَ بيانُهم للحقِّ أكملَ من بيانِ كلِّ أحدٍ، فمِن المحَالِ أن يتركوا بابَ الإيمانِ باللهِ وأسمائِه وصفاتِهِ مُلْتَبِسًا، وهو أشرفُ العلومِ على الإطلاقِ وأَجَلُّهَا وأَوْجَبُهَا، قد بَيَّنوه غايةَ البيانِ ولم يبقَ فيه شكٌّ ولا إشكالٌ.

(مُصَدَّقُونَ):في هذه الكلمة روايتان:

١.مُصَدَّقُونَ:ومعناها أن الله يصدقهم بقوله وفعله كالمعجزات، أو أنه يجب على الناس تصديقهم .

٢.مَصْدُوقُونَ:ومعناها أن ما أوحي إليهم وما جاؤا به من الشرع صدق وحق يجب الإيمان به، والمصدوق:الذي أخبربالصدق، وأعظم ما جاء به المرسلون هو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وأنه لا شبيه له ولا نظير ولا ند له، **وقد اتَّفقَ العلماءُ على كُفْرِ من كَذَّبَ نبياً مَعْلُومَ النُّبوَّةِ، وكذا من سَبَّهُ أو انْتَقَصَهُ وَأنه يَجِبُ قتلُهُ؛ لأَنَّ الإيمانَ بجميعِ الرسل، واتِّباعُهم واتِّباعُ ما أُنْزِل إليهم من الواجبات.**

(بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ): كأهل التحريف والضلال فهم يقولون على اللهِ في شرعِه ودينِه أو في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه ما لا يَعْلمونَ وإنما بمجرد عقولهم الفاسدة وتخيلاتهم الكاسدة التي ما أنزل الله بها من سلطان،قال تعالى: (وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) وقال: (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لتفترُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ) فالقولُ على اللهِ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- بلا علمٍ من أعظمِ المنكراتِ والموبقات.

قال ابنُ القيِّمِ رحِمَهُ اللهُ: فالقولُ على اللهِ بغيرِ علمٍ سواءٌ كان في أسماءِ اللهِ وصفاتِه وأفعالِه، أو في أحكامِه أوتقديمِ الخَيَالِ المسَمَّى بالعقلِ والسِّياسةِ الظَّالمةِ، والعَوَائِدِ الباطلةِ، والآراءِ الفاسدةِ، والأَذْوَاقِ والكُشُوفَاتِ الشَّيطانيَّةِ على ما جاءَ به رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من كبائرِ الذُّنوبِ.(**انظر:إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ٣٠٥)**

(وَلِهَذَا قَالَ:﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾):في هذه الآية: حَمِدَ الله جل وعلا نفسَه بعد أن نزهها عن صفات النقص لأن في الحمد كمالَ الصفات وفي التسبيح التَّنْزِيهَ عن العيوب والنقائص فكانت الآية جامعة بين الحمد والتسبيح .

والعزة:صفة من صفات لله سبحانه الذاتية اللائقة به والتي اختص بها وهي تشمل ثلاث أمور:

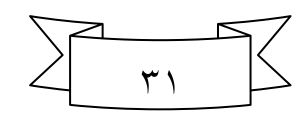
١- عزة القوة.

٢- وعزة الامتناعِ

٣- وعزة الغلبة والقهر .

واعلم أن إضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وقوله:**(عَمَّا يَصِفُونَ)**:أي: عما يصفه به المشركين والمنحرفون من صفات النقص والعيب تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.



وذكر المصنف هذه الآية دليلا على ما تقدم من إثبات صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام وصحة ما جاؤوا به وأنه الحق الذي يجب اعتقاده وأن الأنبياء عليهم السلام بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ووصفوا الله بما يليق به من صفات الكمال ونزهوه عن صفات النقص والعيب وأن من قال بخلاف ما جاؤوا به فهو كاذب على الله قائل عليه بلا علم ولهذا قال رحمه الله مفسراً هذه الآية ومبيناً المراد بها:

(فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ).

ثم قال رحمه الله:**(وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ):**

أي: أن الله قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفيِ كقوله:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وقوله:﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ وقوله:﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ وقوله:﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ .

والإثباتِ كقوله:﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ وقوله:﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ وقوله:﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾

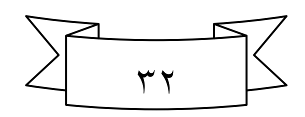
قال شيخ الإسلامِ ابنُ تيميةَ في قاعدة من قواعد الأسماء والصفات:"ومعاني التَّنْزيه ترجع إلى هذين الأصلين إثباتِ الكمال ونفيِ الشبيه والمثال، وقد دَلَّ عليهما سورةُ الإخلاصِ، فاسمُه الصَّمَدُ: يجمعُ معانيَ صفاتِ الكمالِ... والأَحَدُ: يَتَضمَّنُ أنَّه لا مِثلَ له ولا نَظيرَ". (مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٨)

واعلم أن النَّفيَ ليسَ فيه كمالٌ ولا مدحٌ، إلا إذا تضمَّنَ إثباتًا، فهو ليس مقصودًا لذاتِه، وإنَّما هو مقصودٌ لغيرِهِ وكلُّ ما نَفى اللهُ عن نفسِه من النَّقائصِ فإنه يدلُّ على إثباتِ ضدِّه مِنْ أنواعِ الكمالاتِ فمثلا قوله تعالى:(ولا يظلم ربك أحدا) فيه إثبات كمال عدله جل وعلا.

قال رحمه الله:**(فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ)**: أي: فلا ميلَ ولا انحرافَ لأهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ عمَّا جاءَ به المرسلون، **بل هم مقتفون آثارَهُم، مستضيئون بأنوارِهم، مؤمنونَ بجميعِهم**، مُصَدِّقُون لهم في كلِّ ما أَخْبَرَوا به من الغيبِ، إذ هو الحقُّ والصِّدقُ الَّذي يجِبُ اعتقادُه واتِّباعهُ، ولا تجوزُ مخالفتُهُ وفيه إشارة إلى أن الرسل بينوا ذلك أعظم بيان .

قال أبو ذر ﵁:(لقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما) رواه أحمد، وقال سلمان ﵁ –لما سأله أحد المشركين قائلاً:لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءةَ ؟ قال :(أجل لقد نهانا أن نستقبلَ القبلة بغائط أو بول أو نستنجيَ باليمين أو نستنجيَ بأقلَّ من ثلاثة أحجار أو نستنجيَ برجيع أو عظم)رواه مسلم، وقال عمر بن الخطابِ:(لقد قام فينا رسول الله ﷺ مَقَاماً فذكر بدءَ الخلق حتى دَخَلَ أهلُ الجنة منازلَهم وأهلُ النارِ منازلَهم حَفِظَ ذلكَ مَنْ حَفِظَهُ ونَسِيَه من نَسِيَهُ) متفق عليه .

فإذا علمت هذ فلا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين كما قال السلف الصالح .



مسألة: الأحكام التي جاء بها الرسل السابقون هل نحن مأمورين بالعمل بها؟

ج/ محل خلاف بين أهل العلم والراجح فيه: أنها أحكام لنا لعموم قوله تعالى:(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) إلا إذا ورد في شرعنا ما يخالفها فهنا يقدم العمل بشرعنا مثلَ السجود للتحيةِ فهو جائز في شريعة يوسف عليه السلام لكنه حرام في شرعنا وكذلك الإبل حرام على اليهود حلال في شرعنا قال تعالى:﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ .

....

فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عليْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ **وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ:** ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ **وَمَعْنَى لا يَؤُودُهُ:لا يُكْرِثُهُ وَلا يُثْقِلُهُ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةِ فِي لَيلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَّلاَ يَقْرَبُهُ شيطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ:** ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ **وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ:** ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾.

....

(فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ):أي أنَّ ما جاءَ به المرسلون هو الصِّراطُ المستقيمُ، الموصِلُ إلى السَّعادةِ الأبديَّةِ، وهو الَّذي لا طريقَ إلى اللهِ ولا إلى جنَّتِه سواه، **والصِّراطُ المستقيم هو** :الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف قال تعالى:﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ .

وعن ابنِ مسعودٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: خَطَّ رسولُ اللهِ خَطًّا بِيَدِهِ ثمَّ قال: ((هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا) ثمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِ ذَلِكَ الخَطِّ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((وَهَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ إلاَّ وَعَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)) ثُمَّ قَرَأَ (وَأَنَّ

هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ) الآيَةَ. رواه الإمامُ أحمدُ، والنَّسائيُّ، وابنُ أبي حاتمٍ، والحاكمُ. وصحَّحَه.

واختلف العلماء في تفسير الصراط الذي في الآية، فقيل: الإسلام. وقيل: القرآن. وقيل:طريق السنة والجماعة. وكل هذه الأقوال دالة عليه جامعة له وهذا من اختلاف التنوع لا التضاد .

والصراط ينقسم إلى قسمين:

١- حسي وهو الجسر الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة ويمر عليه الناس على قدر أعمالهم.

٢- معنوي وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق والعمل به وتقديمه وإيثاره على غيره،فَبحَسَبِ استقامةِ الإنسانِ على الصِّراطِ المعنويِّ الَّذي نَصَبَهُ اللهُ لعبادِه في هذه الدَّارِ تكونُ استقامتُه على ذلك الصِّراطِ الحِسِّيِّ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ (جَزَاءً وِفَاقًا)، (وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ).

مسألة: ما الجمع بين قوله تعالى:(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ) وقولَه سُبْحَانَهُ: (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ) ففي الآية الأولى أن الصراط والسبيل واحد وفي الآية الثانية جاءت السبل بالجمع؟

ج/ ما قاله ابن القيم رحمه الله:بأن المراد بالآية الثانية: طُرُقُ مَرْضَاتِهِ الَّتِي يَجْمَعُها سبيلُه الواحدُ. **(انظر:اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٦٦)**

قال رحمه الله:(**صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ**):أي أن الصراط المستقيم الذي جاء به المرسلون في الاعتقاد وغيره وسلكه أهل السنة والجماعة هو صراط الذين أنعم الله عليهم الإنعام المطلق التام المتصل بالسعادة الأبدية وهي نعمةُ الإسلامِ والسُّنَّةِ،الَّتي أمرنَا اللهُ أنْ نسألَهُ أنْ يهديَنا صراطَ أهلِها، ومَن خَصَّهُمْ بها، كما قالَ تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) وجعلَهُم أهلَ الرَّفيقِ الأعلى المنعم عليهم قال تعالى:(وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا). **(انظر:اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢)**

وفي قوله: (الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم) تنبيهٌ على الرَّفيقِ في هذا الطَّريق، وأنَّهم هم الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحين، ليزولَ عن سَالِكِ هذا الطَّريقِ وَحْشَةُ التَّفَرُّدِ عن أهلِ زمانِه، وبَنِي جِنْسِهِ، إذا اسْتَشْعَرَ أنَّ رفيقَهُ في هذا الصِّراطِ هم الأنبياءُ والشُّهداءُ والصَّالحون.**قالَ بعضُ السَّلفِ: لاتستوحشْ من الحقِّ لِقلَّةِ السَّالِكِينَ، ولاتغْترَّ بالباطلِ لكثرةِ الهالكينَ،** قال تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)، وقال: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ).

(مِنَ النَّبِيِّينَ): الأنبياء هم من اختصهم الله من خلقه وشرفهم برسالته ونبوته .

(وَالصِّدِّيقِينَ):هم الذين صدقوا أقوالَهم بأفعالهم فالصِّدِّيقُ المبالغُ في الصدق كما في الحديث: ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتىَّ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا) أو المبالغ في التصديق كما سمي بذلك أبوبكر الصديق .

قال ابن القيم رحمه الله :"الصديق أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق فأعلى مراتب الصدق الصديقية وهي: كمال الانقياد للرسول، مع كمال الإخلاص للمرسل" . **(مدارج السالكين (٢/ ٢٥٨)**

(وَالشُّهَدَاءِ):الشهيد هو: من قتل في سبيل الله،وسمي بذلك قيل: لأن اللهَ وملائكتَه شهدوا له بالجنة أو لأن ملائكةَ الرحمة تشهده أي تحضره .

والشهداء على ثلاثة أقسام :

١- شهيدٌ في الدنيا والآخرة وهو المقتول في سبيل الله في الحرب مع الكفار .
٢- شهيدٌ في الآخرة دون أحكام الدنيا كالغريق والمبطون،والمطعون،ومن مات بالهدم ونحوهم .
٣- شهيدٌ في الدنيا دون الآخرة وهو من فسدة نيته أوقتل مدبراً أونحوه .

(وَالصَّالِحِينَ):هم القائمون بحقوق الله وحقوق العباد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"أفضل الخلق النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون وأفضل كل صنف أتقاهم كما قال - صلى الله عليه وسلم -: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى» هذا في الأصناف العامة،وأفضل الخلق في الطبقات: القرن الذي بعث فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم،وأما في الأشخاص فأفضلهم النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم إبراهيم عليه السلام. ". **(المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١١٦)**

فهؤلاءِ الأصنافُ الأربعةُ هم أهلُ هذه النِّعمةِ المطْلَقَةِ وأصحابُها هم المعْنِيّونَ بقولِه: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) فأضافَ إليهم الدِّينَ، إذ هم المخْتَصُّون بهذا الدِّينِ القيِّم دونَ سائرِ الأُممِ .(**انظر:اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٣٣)**

قال رحمه الله:**(وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ)** أي : التي تقدمت وهي قوله : (وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات)...**(مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)**

سميت سورة الإخلاص بذلك لأنها مُخْلَصَةٌ في التوحيد ومُخْلِصَةٌ من الشرك وهي تعدل ثلثَ القرآن لأن القرآن ثلاثةُ أنواع:توحيدٌ وأحكامٌ وقصصٌ، وهذه السورة تجمع التوحيد كله بأقسامه الثلاثة فهي تعدل ثلث القرآن، ففي الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلا سمِعَ رَجُلا يقرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ

أَحَدٌ) يردِّدُها، فلمَّا أصبح جاء إلى النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- فذكرَ له ذلك، وكأنَّ الرجلَ يَتَقالُّها فقال النبي ﷺ :(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ) أي سورة الإخلاص، وهي تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء ولهذا لو قرأها إنسان ثلاثَ مراتٍ في الصلاة لا تجزئُه عن الفاتحة.

وفيه دليلٌ على شرفِ علمِ التَّوحيدِ، وكيف لا والعلمُ يُشْرفُ بشرفِ المعلومِ، ومعلومُ هذا العلمِ هو اللهُ وصفاتُه وما يجوزُ عليه وما لا يجوزُ، فما ظنُّك بشرفِ منزلتِه وجلالةِ محلِّهِ كما قال القسطلاني .

وسببُ نزولِ هذه السُّورةِ: هو ما رواه أُبَيِّ بنِ كعبٍ، أنَّ المشركين قالُوا للنَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: انسبْ لنا ربَّك، فأنزلَ اللهُ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) أخرجه أحمد والتِّرمذيُّ .

فالمشركون سألوا رسولَ اللهِ عن حقيقةِ ربِّه من أيِّ شيءٍ، فدلَّهم على نفسِه بصفاتِه ولم يجعلْ لهم سبيلاً إلى معرفةِ الذَّاتِ والكُنهِ، فحقيقةُ الذَّاتِ والكُنْهِ غيرُ معلومةٍ للبشرِ

(حَيثُ يَقُولُ:﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾):هو الأحد الذي لا ثاني له المنفرد بجميع كمالاته فلا مشارك له، ولم يصفِ الله نفسه ب(أَحَدٍ) إلا مرةً واحدةً في القرآن، وهناك اسمٌ مشابهٌ له وهو الواحد كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وقولِه:﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ لكنَّ **لفظ أَحَد** أكملُ من الواحدِ في المعنى لأن الواحدَ يدل على الانفراد في الذاتِ أي أنه المنفردُ بذاته، **وأما الأحد** فيدل على الانفراد في الذات والصفات أي: أنه المنفردُ بذاته وصفاته، **وأما الوحيد** فليس من أسماء الله لعدم وروده (**الحجة في شرح الأسماء للأصفهاني**).

وفي قوله: (قل) دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، إذ لو كانَ كلامَ النَّبيِّ أو غيرِه لم يقلْ (قُلْ).

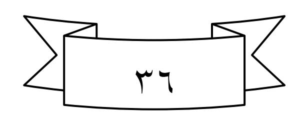
وفي هذا الرَّدُّ على المعتزلةِ ونحوهم القائلينَ إنَّ القرآنَ كلامُ محمَّدٍ أو جبريلَ.

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ أي الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع المخلوقات .

وقيل الصمد:الذي لا جوف له، وقيل:المصمود إليه في الحوائج ،وقيل: السَّيِّدُ الَّذي انتهى سُؤْدُده وقال ابن القيم:الصمد:الرب الكامل .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾ في هذه الآية رد على اليهود حيث قالوا:إن عزيراً ابنُ الله، وعلى النصارى حيث قالوا:إن عيسى ابنُ الله وعلى مشركي العرب حيث قالوا:إن الملائكةَ بناتُ الله وهذا يدل على كمال أحديته جل وعلا حيث لا والد له ولا ولد له ولا معاونَ له جل وعلا .

مسألة: لايشرع ذكر الله باسم الجلالة (الله) مفرداً كما يفعله بعض الجهال من الصوفية ونحوهم بقولهم: (اللهْ اللهْ اللهْ) أو (هُوْ هُوْ هُوْ) إذ لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة والأثار الصحيحة الثابتة.



﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الكفو:المثيل والشبيه، فنفى في هذه الآية الكفوَ المتضمنَ لنفي الشبيهِ والمثيلِ فلا مثل لله ولا شبيه لأنه ليس كمثله شيء.

وهذه السورة تضمنت إثباتَ كلِّ كمال،ونفيَ كلِّ نقص عنه سبحانه فقوله : { الله أحد الله الصمد } إثبات . وقوله : { لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد } نفي، وتضمنت نفيَ إثباتِ كل مماثلٍ له أو شبيهٍ في كماله، ونفيَ مطلقِ الشريكِ عنه، فهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباينُ به صاحبُه جميعَ فرقِ الضَّلالِ والشِّركِ كما قال ابن القيم رحمه الله. **(انظر زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٠٦)**

قال رحمه الله:**(وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ)**

أعظم آية في كتاب الله آية الكرسي لما اشتملَتْ عليه من العلومِ والمعارفِ، **والآية في اللغة : العلامة . والمراد بها هنا** طائفة من كلمات القرآن متميزة عن غيرها بفاصلة، **وتسمى هذه الآية** التي أوردها هنا آية الكرسي لذكر الكرسي فيها . **ويدل على عظمتها** ما ورد في الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قال لأُبيِّ بنِ كعبٍ: ((يَا أَبَا المُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟)) فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَرَدَّدها مِرارًا ثُمَّ قالَ أُبَيٌّ: هِيَ آيَةُ الكُرْسِيِّ (اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ) فقالَ((: لِيَهْنَكَ العِلْمُ يَا أَبَا المُنْذِرِ)). **وفي هذا دليل على** أن القرآن يتفاضل بعضه على بعض .

قال:**(حَيْثُ يَقُولُ:**﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي:لا معبود بحق إلا هو جل جلاله .

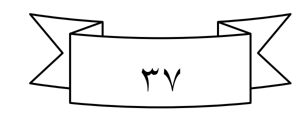
﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾:ذو الحياةِ الكاملةِ الدائمة التي لا نقص فيها.﴿ ٱلۡقَيُّومُ ﴾:القائمُ بنفسه المقيمُ لما سواه.

وقد ورد أن (الحي القيوم) هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى لدلالة {الحي} على الصفات الذاتية، ودلالة { القيوم } على الصفات الفعلية.

وهذانِ الاسمانِ الْحَيُّ الْقَيُّومُ عليهما مدارُ الأسماء الحسنى، وإليهما ترجع معانيها، فإن الحياةَ مستلزمةٌ لجميع صفات الكمال التي لم تسبقْ بعدمٍ ولا يعتريها نقصٌ ولا فناء، **والقيومية** متضمنةٌ لكمال غناه وقدرته وعزته فإنه القائمُ بنفسه المقيم لغيره ولا حاجة له بأحد وغيره محتاج إليه .**(انظر:بدائع الفوائد ت العمران (٢/ ٦٧٩)**

وقوله:**﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾**

السنة: النعاس وهو النوم الخفيف الذي يكون في العين فقط، والنوم هو ثقل في الرأس وهو أقوى من السنة، وهو أخو الموت ويكون في القلب،وفي هذا تأكيدٌ للقيُّومِ، أي أنَّه -سُبْحَانَهُ- لا يَعتَرِيهِ نقصٌ ولا غفلةٌ ولا ذهولٌ ولا يغيبُ عنه شيءٌ ولا تَخْفى عليهِ خافيةٌ، كما في الصَّحيحِ من حديثِ أبي موسى قَالَ: قامَ فينا رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- بِأَرْبَعِ كلماتٍ، فقال: ((إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ



عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حجابُه النَّارُ – أَو النُّورُ- لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ))

وقوله:{**له ما في السماوات وما في الأرض** }أي: أنه جل شأنه لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا فهو يملك العالم العلوي والسفلي.

وقوله:﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ أي:لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه أي: بأمره،ورضاه عن المشفوع له وهذا يدل على عظمته وكبريائه.

وفي الآية الرَّدُّ على المشركين الَّذين يزعمونَ أنَّ أصنامَهم تشفعُ لهم، فظهرَ أنَّ الشَّفاعةَ تنقسمُ إلى قِسمين:

شفاعةٌ منفيَّة لا يؤذن فيها وهي ما كان فيها شركٌ، وشفاعةٌ مُثبتةٌ وهي التي خلية من الشرك.

وقوله:﴿ **يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ** ﴾ هذا من تمام علمه بل إنه يعلم السر وأخفى جل وعلا .

وقوله:﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ** ﴾ أي لا يحيط الخلق بشيء من علمه إلا بما شاء أن يعلمهم إياه ويطلعهم عليه كما حكى سبحانه وتعالى عن الملائكة قولهم:﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .

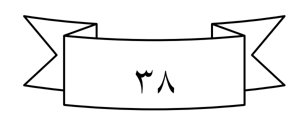
وقوله:﴿ **وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ** ﴾ أي ملأ وأحاط، **والكرسي**: موضع قدمي الرحمن، فقد رَوى ابنُ أبي شيبةَ وأحمد والحاكمُ وقال إنَّه صحيح على شرطِ الشَّيخينِ أن ابن عباس رضي الله عنهما قال:"الكرسي موضعُ القدمينِ، والعرشُ لا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إلا الله"، وقد رُوِيَ مرفوعًا، والصَّوابُ أنَّه موقوفٌ.

وورد عنه أنه قال:الكرسي هو: العلم، لكن هذه اللفظة شاذة كما قال ابن تيمية وكلتا الروايتين عند أحمد.

والكرسي كما قالَ غيرُ واحدٍ من السَّلفِ بأنه:بين يدي العرشِ كالمرقاةِ إليه.

والكرسي مخلوق عظيم قال الإمام الطبري رحمه الله:حدثني يونس، قال:أخبرنا ابن وهب، قال:قال ابن زيد في قوله:

﴿ **وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ** ﴾ :حدثني أبي قال:قال رسول الله ﷺ :(مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ) قال:وقال أبو ذر:سمعت رسول الله ﷺ يقول:(مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَي فَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ) رواه ابن أبي شيبة وصححه الألباني وقال:لا يصح حديث في صفة العرش مرفوعاً إلا هذا الحديث.



فهذا يدل على أن العرش أعظم من الكرسي والكرسي أعظم من السماوات والأرض فإذا علمت هذا فكيف بمن خلقها جميعاً لايخفى عليه شيء من أعمالنا سبحانه وتعالى .

وقوله:﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أي لا يكرثه ولا يعجزه ولا يثقله حفظ السماوات والأرض وما بينهما .

وقوله:﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وصف الله جل وعلا نفسه بوصفين:

١.العلي. ٢.العظيم أما العظيم فالمراد به العظيم الذي لا أعظم منه ولا أجل، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته .، أما **العلو فهو نوعان:**

أ.علو الذات أي: أنَّهُ سُبْحَانَهُ عالٍ على الجميعِ فوقَ عرشِه **وهذا النوع هو الذي ضل فيه أهل البدع .**

ب.علو الصفات وهو ثابت لله تعالى بإجماع الطوائف ممن أثبت منهم الصفات .

وبعض أهل العلم يجعل أنواع العلو ثلاثة:

أ- علو الذات.

ب-علوّ القهرِ، أي: أنَّه سُبْحَانَه عالٍ على كل شيء قاهر له قادر عليه متصرف فيه.

ت-علوّ القدرِ، أي: أنَّه عالٍ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ.

وكلا التقسيمين صحيح وإنما هو زيادة في التقسيم والسبر.

قال رحمه الله:(**ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح)** .

دليل ذلك حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: وكَّلَني رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- بحفظِ زَكاةِ رَمضانَ، فأتانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو من الطَّعامِ فَأَخذْتُهُ، وقلتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إلى رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-. قال: دَعْني فإنِّي مُحتاجٌ، وعَليَّ عيالٌ لا أعودُ فَرَحِمْته وَخَلَّيْتُ سبيلَهُ، فأصبحتُ فقال لي رسولُ الله: ((يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟)) قُلتُ: يا رسولَ اللهِ شَكَا حاجةً وعِيالاً فَرَحِمتهُ وخَلَّيْتُ سَبيلَه، قال: ((أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وسَيَعُودُ)) فَعَرفْتُ أَنَّهُ سَيعُودُ، لقولِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: إنَّه سيعودُ، فَرَصَدْتُهُ فجاءَ يحثُو مِن الطَّعامِ فَأَخَذْتُهُ فقلتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إلى رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: دَعْني فإنِّي مُحتاجٌ وعليَّ عِيالٌ لا أعودُ، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فقالَ رسولُ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟)) فقلتُ: يا رسولَ اللهِ شَكَا عِيالاً وحاجةً فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سبيلَه، قال: ((أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ)) فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فجاءَ يحثُو من الطَّعامِ فَأَخَذْتُهُ فَقلتُ: لأَرفَعَنَّكَ إلى رسولِ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وهذه آخِرُ ثلاثِ مرَّاتٍ تَزعُمُ فيها أَنَّكَ لا تعودُ ثمَّ تعودُ، فقال: دَعْني أُعَلِّمْكَ كلماتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِها، قُلتُ: وما هِي؟ فقالَ: إذا أَوَيْتَ إلى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) حتَّى تختمَ الآيةَ فإنَّكَ لن يَزالَ عَليكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ

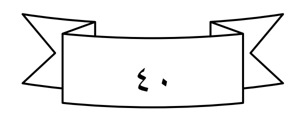
حتَّى تُصبحَ، وكانوا أَحْرَصَ شَيءٍ على الخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((أَمَا إنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيَالٍ؟)) قلتُ: لا. قالَ: ((ذَاكَ الشَّيْطانُ)). رواهُ البخاريُّ معلَّقًا بصيغةِ الجزمِ، وصح موصولا عند النسائي. والمراد بالحفظ الذي في الحديث:الحفظ من الشياطين ونحوهم. والشيطان : يطلق على كل متمرد عات من الجن والإنس. من (شطن) إذا بعد وسمي بذلك لبعده عن رحمة الله، أو من شاط يشيط إذا اشتد.

والشاهد من هذه الآية : أن الله جمع فيها فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فقد تضمنت إثبات صفات الكمال ونفي النقص عن الله، ففي قوله : { الله لا إله إلا هو } نفي الإلهية عما سواه وإثباتها له . وفي قوله : { الحي القيوم } إثبات الحياة والقيومية له . وفي قوله : { لا تأخذه سنة ولا نوم } نفي السنة والنوم عنه، وفي قوله : { له ما في السماوات وما في الأرض } إثبات ملكيته الكاملة للعالمين العلوي والسفلي . وفي قوله : { من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه } نفي الشفاعة عنده بغير إذنه لكمال عظمته وفناه عن خلقه . وفي قوله : { يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم } إثبات كمال علمه لكل شيء ماضيا أو مستقبلا . وفي قوله : { ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء } بيان حاجة الخلق إليه وإثبات غناه عنهم . وفي قوله : { وسع كرسيه السماوات والأرض } إثبات كرسيه وإثبات كمال عظمته وجلالته وصغر المخلوقات بالنسبة إليه . وفي قوله : { ولا يؤوده حفظهما } نفي العجز والتعب عنه سبحانه . وفي قوله : { وهو العلي العظيم } إثبات العلو والعظمة له سبحانه . **(شرح العقيدة الواسطية للفوزان (ص: ٢١)**

(وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾)

هذه الآية تدل على صفة الإحاطة الزمانية والمكانية **وقد سماها ابن تيمية آيةَ الإحاطة والسعة**، **(تلبيس الجهمية ٥٥٢/١)**، فالأول والآخر يدلان على الإحاطة الزمانية، والظاهر والباطن يدلان على الإحاطة المكانية، وقد فسر النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ في قوله:(اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعْدَكَ شَيءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ) رواه مسلم .

قال ابن القيم رحمه الله :هذه الأسماء الأربعة متقابلة : اسمان لأزليته وأبديته سبحانه(أي: الأول والآخر)، واسمان لعلوه وقربه(أي الظاهر والباطن)، فأوليته سبحانه سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته سبحانه ثابتة بعد آخرية كل ما سواه . فأوليته : سبقه لكل شيء، وآخريته : بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته : فوقيته وعلوه على كل شيء . ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء ما علا منه . وبطونه سبحانه : إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه وهذا قرب الإحاطة العامة.**(انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٤)**



وفي هذا التفسير رد على المعطلة من المعتزلة ونحوهم القائلين بأن الأول بمعنى القديم فيكون القديم من أسماء الله وهذا باطل من وجوه:

١- **أن القديم لا يعطي معنى الانفراد بالأولية .**

٢- **أن الأول فيه دلالة على أن كل شيء بعده وأما القديم فلا يفيد ذلك** على وجه الإطلاق؛ لأن القدمَ قسمان:

القسم الأول:قدم حقيقي وهو الَّذي لم يسبقْهُ عدمٌ.

القسم الثاني: قدم نسبي، وهو قِدمُ المخلوقاتِ بعضها على بعضٍ ومنه قوله تعالى:﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾

والاسم إذا كان ينقسم إلى مدح كالقسم الأول وإلى غير مدح كالقسم الثاني امتنع إطلاقه على الله كما تقدم.

٣- **أن أسماء الله توقيفية ولم يرد اسم القديم في الكتاب والسنة،** ولكن لو قيل:إنه قد جاء في السنة في قوله ﷺ :(أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَبِسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ) فهنا وصف السلطان بالقدم، فالجواب : أن الوصف الذي في الحديث ليس لله وإنما هو للسلطان .

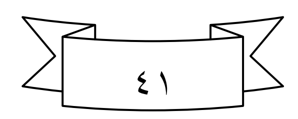
لكن بين القيم رحمه الله، أن القديم يصح إطلاقه على الله من باب الإخبار عنه دون التسمية به، لأن بابَ الإخبارِ عنه -سُبْحَانَهُ- أوسعُ من بابِ التسمية والوصف.

وقوله:﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي: أنه جل جلاله أحاط بكل شيء علماً من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، ومن العالم العلوي والسفلي ومن الظواهر والبواطن لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، **وشيء**:نكرة تفيد عموم علمه جل وعلا بكل شيء، والعليم صفة لله تعالى وهي من الصفات الذاتية.

وفي الآية الرَّدُّ على المعتزلةِ والرَّافضةِ الَّذين يزعمُون أنَّ اللهَ لا يعلمُ الأشياءَ إلا بعدَ وقوعِها، **وفيها أيضاً الرَّدُّ** على مَن يزعُمُ أنَّ الله يعلمُ الكُلِّيَّاتِ دونَ الجزئيَّاتِ وكل هذا من الضلال المبين لأن الله بكل شيء عليم.

(وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾) أي: فوض أمرك إلى الحي الذي لا يموت جل جلاله، فمن توكل عليه كفاه وشفاه ويَسَّرَ له كلَّ شديد وقَرَّبَ له كلَّ بعيد، قال تعالى:﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾

والتوكل لغة: التفويض. **واصطلاحا:**صدق اعتماد القلب على الله في جلب ما ينفع ودفع ما يضر مع اتخاذ الأسباب المشروعة .



والتوكل لا ينافي الأخذَ بالأسباب بل من التوكل الأخذُ بها بل ذكر ابن القيم رحمه الله أن التوكل لايصح إلا مع القيام بالأسباب وإلا فهوَ بطالةٌ وتوكُّلٌ فاسدٌ.

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ:" مَن طَعَنَ في الحركةِ فقد طَعَنَ في السُّنَّةِ، ومَن طَعنَ في التَّوكُّلِ فقد طَعَنَ في الإيمانِ، فالتَّوكُّلُ حالُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-، والكسبُ سُنَّتُه، فمَن عملَ على حالِه فلا يتركَنَّ سُنَّتَه"،وذكر ابن رجب رحمه الله أنَّ عُمرَ رضي الله عنه: " لَقي أناسًا من أهلِ اليمنِ، فقال: مَن أنتم؟ فقالوا: نحنُ المتوكِّلون، قال: بل أنتم المتكلون، إنَّما المتوَكِّلُ الَّذي يُلقي حَبَّهُ في الأَرضِ وَيَتَوَكَّلُ عَلى اللهِ".

وخص صفة الحياة في الآية إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في تحصيل المصالح . ولا حياة على الدوام إلا به سبحانه وأما الأحياء المنقطعة حياتهم فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم .

والتَّوكُّلُ ينقسمُ إلى قِسمين:

القسم الأوَّلِ: توكُّلٌ على اللهِ، وهذا مِن أشرفِ أعمالِ القلوبِ وأَجلِّهَا وهو واجب.

القسم الثَّاني: التَّوكُّلُ على غيرِهِ -سُبْحَانَهُ- **وينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:**

الأوَّلِ: التَّوكُّلُ على غيرِ اللهِ في الأمورِ الَتي لا يَقدِرُ عليها إلا اللهُ، كالتوكُّلِ على الأمواتِ، والطَّواغيتِ. في رزقٍ، أو نصرٍ، أو نفعٍ، أو ضرٍّ، ونحوِ ذلك، فهذا شِركٌ أكبَرُ.

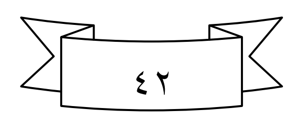
الثَّاني: التَّوكُّلُ في الأسبابِ الظَّاهرةِ، كمَن يتوكَّلُ على أميرٍ، أو سلطانٍ، فيما أَقْدَرَهُ اللهُ عَلَيهِ من رزقٍ، أو دَفعِ أذًى، ونحوِ ذلك، فهذا شِركٌ أصغرُ.

الثَّالثِ: توكيلُ الإنسانِ غيرَه في فعلٍ ما يقدرُ عليه نيابةً عنهُ، فهذه الوكالةُ الجائزةُ لكن ليسَ له أنْ يعتمدَ عليهِ، بل يتوكَّلُ على اللهِ في تيسيرِ أمرِه، ويجعل ذلك من جملةِ الأسبابِ .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات الحياة الكاملة لله . سبحانه ونفي الموت عنه، ففيها الجمع بين النفي والإثبات في صفات الله تعالى .

مسألة:ما حكم قول:(المادة لا تفنى) التي توجد في بعض كتب العلوم والكيمياء ؟

الجواب:إن أريد أن المادةَ تبقى بنفسها فهذا ليس بصحيح والعبارةُ خطأٌ، وإن أريد أنها تبقى بإبقاءِ الله لها فهذا حق .



وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الحكيم له معنيان:

أحدهما : أنه الحاكم بين خلقه بأمره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري في الدنيا والآخرة كما قال الله: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ .

الثاني : أنه المحكم المتقن للأشياء، مأخوذ من الحكمة وهي وضع الأشياء في مواضعها . فهو سبحانه الحاكم بين عباده الذي له الحكمة في خلقه وأمره لم يخلق شيئا عبثا ولم يشرع إلا ما هو عين المصلحة.

والحكمةُ تتضمَّنُ ما في خلقِه وأمرِه من العواقبِ المحمودةِ، والغاياتِ المحبوبةِ، هذا هو منهج أهل السنة والجماعة، من إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى **وهذا بخلاف أهل البدعة والضلالة من الأشعرية ونحوهم الذين يزعمون أنه لا حكمة ولا تعليل في أفعال الله تبارك وتعالى، ولا في شرعه ودينه** حتى أن شيخُهم الأكبر الجهمُ كان يقف على الجذماءِ ويقول:"أرحم الراحمين يفعلُ هذا" إنكاراً للرحمة والحكمةُ ؛ **وعللوا ذلك** بأن قول: إن الله فعل كذا، من أجل كذا أو شرع كذا من أجل كذا، نكون بذلك قد جعلنا الله تبارك وتعالى يفعل الشيء من أجل حصول شيء آخر وهذا لا يليق به كما زعموا لذلك فهم يرون أنهم ينزهون الله تعالى من أن يفعل فعلاً أو يشرع شرعاً لغرض معين يريده سبحانه وتعالى.

وهذا القول باطل لم يرد في كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله صلى الله عليه ولا كلام السلف الصالح والأدلةُ على رد هذا القول كثيرةٌ ذكرها ابنُ القيم من تسعين وجهاً والخلاصة في كلام السلف الصالح عن هذه المسألة يدور حول هذه النقاط:

١- أن أفعاله تعالى لا تكون إلا لحكمة وغاية ، لا كما ذهب إليه نفاة التعليل من الأشاعرة إلى أن أفعاله ليس لها حكمة ولاغاية وإنما هي فقط كما زعموا من منطلق محض الإرادة والمشيئة وقد وافق الأشاعرة في ذلك ابن حزم عفا الله عنه.

٢- أن الحكمة صفة قائمة به تعالى يعود عليه منها حبه لها ورضاه بها ، لا كما قالت المعتزلة من أن الحكمة مخلوقة منفصلة عنه تعالى ، وأنه لا يعود منها إليه شئ فنفعها يعود إلى العباد فقط.

ويلاحظ أن من نفى الحكمة والتعليل كالأشاعرة أنه دفعه ذلك إلى الميل إلى الجبر وإثبات الكسب والقدرة غير المؤثرة للعبد،ومن أثبت حكمة تعود إلى العباد فقط كالمعتزلة،دفعه ذلك إلى أن الحكمة لا تتم إلا بأن يكون العباد هم الخالقين لأفعالهم ،أما أهل السنة والجماعة فلم يلزمهم لازم من هذه اللوازم الباطلة، ولذلك جاء مذهبهم وسطا في باب القدر.

وقد استدل السلف رحمهم الله على ما ذهبوا إليه من إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى بعدة أدلة منها :

١- ما يشهد به العقل ، من أن الفاعل المتقن لأفعاله لا تكون أفعاله عبثا بلا غاية ، بل لا بد أن تكون لغاية باهرة وحكمة ظاهرة لا تنكرها العقول السليمة .

٢- ما ورد في القرآن الكريم من نصوص تدل على ثبوت الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى ، ومن ذلك :

١) التصريح بلفظ الحكمة قال تعالى:{ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }. ولا شك أن معطي الحكمة لغيره يجب أن يكون حكيما .

٢) التعليل بلام التعليل قال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وقال:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} فاللام هنا لام التعليل ، وليست لام العاقبة كما يدعي نفاة التعليل ، لأن لام العاقبة لا تكون إلا في حق من هو جاهل بالعاقبة ،كما في قوله تعالى:﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواًّوَحَزَناً ﴾ فآل فرعون لم يلتقطوه ليكون عدواً، إنما التقطوه ليكون لهم قرة عين، لكن الذي حصل أن العاقبة كانت بخلاف ذلك لجهلهم وأما من هو بكل شئ عليم وعلى كل شئ قدير فيستحيل في حقه دخول هذه اللام،والقول بأن لامُ التَّعليلِ داخلةٌ في أفعالِ اللهِ وأحكامِه هو قول أكثر أهل السنة والجماعة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. (انظر:منهاج السنة (١/ ١٤٢)

فقوله:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} معناه أن الله تعالى لم يخلقنا بالذات إلا لعبادته.

أما هم فيقولون: معنى (ليعبدون): لتكون العاقبة أن يعبدوني؛ أي: لم يرد الله ذلك، ولم يكن له غرض في ذلك ولا حكمة لكن هذا باطل من وجوه:

- أن هذا ينافي الشرع؛ لأن الرسل لم يبعثوا مبشرين ومنذرين للناس إلا ليعبد الله وحده، وهذا ما فهمته منه أممهم قال تعالى: ((قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)).
- أن هذا مخالف للعقل لأن مقتضاه أن الجن والإنس كلهم يعبدون الله، والواقع خلاف ذلك، فمنهم من يعبده، ومنهم من يشرك به ويستكبر عن عبادته، فلو أنها لام عاقبة، لكانت العبادة هي العاقبة، لكنها لم تكن كذلك، وهذا بخلاف قوله تعالى: ((لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا))؛ فقد كان عدواً وحزناً فعلاً، فليس الأمر إذاً كما يقول نفاة التعليل؛ لا من جهة الأدلة ولا من جهة العقل أيضاً.

٣) التعليل بأداة كي الصريحة في التعليل قال تعالى:﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾

٤) التعليل بلعل قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وجاءت لعل هنا للتعليل ، لأن لعل تكون في كلام الله سبحانه للتعليل مجردة عن معنى الترجي ، لأنه لا يصح الترجي في حق الله تعالى .

وقوله:﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾:الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها .

والشاهد من الآية أن فيها إثبات اسمين من أسمائه سبحانه : الحكيم، الخبير، وهما يتضمنان صفتين من صفاته وهما الحكمة والخبرة.

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يعلم سبحانه ما يدخل الأرضَ من البذور والكنوز والموتى وغيرِ ذلك، ويعلم ما يخرجُ منها من النبات والمعادن وما ينزلُ من السماء من المطر والملائكة وما يعرجُ فيها أي: ما يصعدُ في السماء من الأعمال والملائكة والأرواح وغير ذلك .

وَقَوْلُهُ:﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

مفاتح الغيب أي: خزائنه أو الطرق الموصلة إلى علمه، ولا يعلمها إلا هو، ومفاتح الغيب خمسة وردت في آخر سورة لقمان، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللَّهُ:﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ** ﴾) رواه البخاري ومسلم ،قال المناوِيُّ رحمه اللهُ: فَمن ادَّعى علمَ شيءٍ منها كَفَرَ. **وفي هذا الرَّدُّ على مَن زَعَمَ** أنَّ رسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- يعلمُ الغيبَ، فهي صريحةٌ في أنَّ هذه الخمسَ لا يعلمُها إلا اللهُ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- كما تقدَّمَ.

والمرادُ بالغيبِ المشارِ إليه هو الغيبُ المطلقُ: وهو مالا يعلمهُ إلا اللهُ، لا الغيبُ المقيَّدُ: وهو ما عَلِمَه بعضُ المخلوقاتِ دونَ بعضٍ، فهو غيبٌ بالنِّسبةِ لمن لم يعلمْهُ دونَ من عَلِمَه، فيكونُ غيبًا عَمَّنْ غابَ عنه من المخلوقِين، لا عَمَّن شهِدَهُ، **فتلخَّص أنَّ الغيبَ ينقسمُ إلى قِسمين: مطلقٍ، ومقيَّدٍ.**

وبينت الآية أنه جل وعلا يعلم مَا فِي البَرِّ من النَّباتِ والدَّوابِّ ونحوها،وما فِي البَحْرِ من الحيواناتِ والجواهِرِ ونحوها ،ومَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ من أشجارِ البرِّ والبحرِ ونحوها إلاَّ يَعْلَمُها سُبْحَانَهُ بل ولاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ولا صغير ولا كبير ولا دقيق ولا جليل إلاَّ فِي كِتَابٍ مكتوبٍ في اللَّوحِ المحفوظِ، قبلَ خلق السَّماواتِ والأرضَ، وجميعُ الحوادثِ تقع طِبقَ ما جَرى به القلمُ، وعلمه سبحانه الشَّاملُ لجميعِ الأشياءِ أَحَدُ مراتبِ القضاءِ والقدرِ الأربع ، وثانيها: كتابُه المحيطُ بجميعِ الموجوداتِ، وثالثها:مشيئتُه العامَّةُ الشَّاملةُ لكلِّ شيءٍ، ورابعها:خلقُه لجميعِ المخلوقاتِ، وسيأتي الكلامُ على هذا إنْ شاءَ اللهُ في الكلامِ على القدرِ

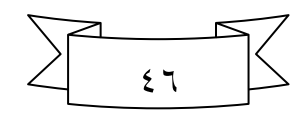
وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ ﴾ أي: يعلم في أيِّ يومٍ تحمل وفي أي يوم تضع وهل هو ذكرٌ أو أنثى، وأنَّهُ منفردٌ بعلمِ ما في الأرحامِ لاسيما قبل نفخ الروخ وعلمِ مدَّةِ إقامتة الجنين فيها، وهذا أَحَدُ أنواعِ الغيبِ الَّتي لا يعلمُها إلا اللهُ **وفي هذا إثبات لصفة العلم لله تعالى على ما يليق بجلاله .**

وَقَوْلُهُ: ﴿ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ **هذه الآية فيها إثبات صفة القدرة لله تعالى على ما يليق بجلاله وهي من الصفات الذاتية** فجميعُ الأشياءِ مُنقادَةٌ لقدرتهِ، تابعةٌ لمشيئتِه سُبْحَانَهُ.

قال ابنُ بطَّالٍ: القدرةُ من صفاتِ الذَّاتِ،والقوَّةُ والقدرةُ بمعنًى واحدٍ، وقالَ الإمام أحمدُ رحمهُ اللهُ:"القدَر قدرةُ اللهِ" واستحسنَ ابنُ عقيلٍ هذا من أحمدَ، والمعنى أنَّه لا يمنعُ من قدرةِ اللهِ شيءٌ،فيدخلُ فيه أفعالُ العبادِ من الطَّاعاتِ والمعاصي، فإنَّها داخلةٌ تحتَ قدرةِ اللهِ ومشيئتِه، وكما أنَّه المريدُ لها القادرُ عليها فهم الفاعلون لها، الواقعةُ بقدرتِهم ومشيئتِهم، كما قالَ –سُبْحَانَهُ– وتعالى: (لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

والقدريَّةُ تُنكِرُ دخولَ أفعالِ خلقِه تحتَ قدرتِه ومشيئتِه وخلقِه، فهم في الحقيقةِ مُنكرونَ لكمالِ عزَّتِهِ ومُلكِه وهذا من الضلال المبين.

تنبيهٌ: يجيءُ في كلامِ بعضِ النَّاسِ ((وَهُوَ على ما يَشاءُ قَديرٌ)) وليس ذلك بصوابٍ، بل الصَّوابُ ما جاءَ في الكتابِ والسُّنَّةِ، (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لعمومِ قدرتِهِ ومشيئتِهِ، خلافًا لأهلِ البدعِ من المعتزلةِ وغيرِهم.



وفي الآية إثبات صفة العلم على ما يليق بالله سبحانه، والسلف الصالح رحمهم الله إذا أرادوا الكلامَ على مقتضى وأثر صفة العلم فإنهم يقولون:يعلم ما كان، وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الكلياتِ والجزئياتِ وأفعالَه وأفعالَ خلقه، وقولهم: ومالم يكن لو كان كيف يكون دليله قوله تعالى:﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .**والشاهد من الآيتين** : أن فيهما إثبات علم الله المحيط بكل شيء وإثبات قدرته على كل شيء .

وَقَوْلُهُ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ الرزاق صيغة مبالغة من رَازِقٍ، ومعناه الذي يرزق عباده رزقا بعدَ رزق في إكثارٍ وسعةٍ وهذه الصفة من الصفات الفعلية .

ورزق الله على نوعين :

الأول:رزق عامٌّ وهو الذي يعمُّ المكلفينَ مؤمنَهم وكافرَهم وغيرَهم كالبهائمِ وهو سَوْقُ القوتِ لكلِّ مخلوقٍ، وهذا يكونُ من الحلالِ والحرامِ، واللهُ رازقُهُ، قال تعالى: (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا). .

الثاني:رزق خاصٌّ وهو الرزق المستمرُّ نفعُه في الدنيا والآخرة، وهو للمؤمنين **وهو نوعان**:

١.معنوي وهو: رزق الأنفس والقلوب بالإيمان والعلم .

٢.حسي وهو: الذي يتعلق بالأبدان وهو الرزق الحلال .

مسألة:هل يقال عن المال المحرم بأنه رزق ؟

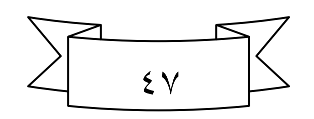
فيه قولان: الأول:أنه رزق وهو مذهب السلف لقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ وقوله:﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لكن هذا الرزق يذم به العبد .

القول الثاني:أنه ليس برزق وهو مذهب المعتزلة، فعلى قولِهم يكونُ مَن أكَلَ الحرامَ طُولَ عُمرِهِ لم يَرْزقْه اللَّهُ، وهَذَا باطِلٌ مخالِفٌ للكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ، فإنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رازِقُ كُلِّ الخَلْقِ، وليس مخلوقٌ بغيرِ رِزقٍ، ومعلومٌ أَنَّ الحرامَ مَعيشةٌ لبعضِ النَّاسِ، وقد قال تعالى: (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا).

وقوله:﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾القوي صاحبُ القوَّةِ التَّامَّةِ الَّذي لا يعتريهِ ضعفٌ،والمتين قال ابن قتيبة: الشديد القوي،وهو أخص من القوي،وقال البيهقي: القوي التام القدرة لا يُنسب إليه عجز في حال من الأحوال، **فالقوة تدل على القدرة التامة، والمتانة تدل على شدة القوة لله تعالى. وكلاهما من الصفات الذاتية .**

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات اسم الرزاق لله تعالى ووصفه بالقوة التامة التي لا يعتريها نقص ولا ضعف.

مسألة:هل الرازق من أسماء الله ؟



ج: في هذا خلاف بين أهل العلم فمنهم من أثبته اسم لله تعالى هو والمسعِّر والقابض والباسطُ لما روى أَنَسٍ قال: " قال النَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، غَلَا السِّعْرُ فَسَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُطَالِبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ) .رواه أبو داود والترمذي وصححه وقال ابن عبد البر في (الإستذكار): "روي من وجوه صحيحة لا بأس بها" وصححه ابن دقيق العيد في(الإقتراح) وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" ، وله شواهد وممن أثبته ابن منده والبيهقي والأصبهاني ومن المعاصرين الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

ومنهم من ذهب إلى أن هذه ليست من الأسماء الحسنى ، وإنما يُخبَر بها عن الله تعالى إخبارا فقط لأن باب الخبر أوسع ، كما يخبر عن الله بأنه : موجود ، وإنه شيء ، ولا يسمى بأنه موجود ، ولا بأنه شيء .

وهو ما قرره الشيخ عبد الله الغنيمان والشيخ عبد المحسن العباد ، والخلاف في المسألة سائغ ، وكلٌّ يتكلم بما أداه إليه اجتهاده والله أعلم .

مسألة:هل يسمى الله بالشديد ؟ أما من باب الخبر فيسمى، وأما من باب الإنشاء فلا يسمى بذلك لأن أسماء الله توقيفية وعليه يحمل قول ابن عباس:المتين:الشديد .

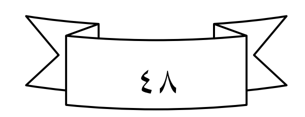
وَقَوْلُه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

تقدم الكلام على هذه الآية وسنكتفي هنا بكلام الشوكاني رحمه الله عندما بين أهمية فهم هذه الآية حيث قال رحمه الله:"ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: وهو السميع البصير فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للماثل قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، وانثلاج القلوب، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة، والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيرا من البدع، وتهشم بها رؤوسا من الضلالة، وترغم بها آناف طوائف من المتكلفين، ولا سيما إذا ضممت إليه قول الله سبحانه: ولا يحيطون به علما". **(فتح القدير للشوكاني (٤/ ٦٠٥)**

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾

نِعِمَ من ألفاظِ المدحِ و ((ما)) قيلَ: نكرةٌ موصوفةٌ، كأنَّه قيل: نعمَ شيئًا يعظُكم به،وقيل: إنها موصولةٌ، أي: نعمَ الشَّيءُ الَّذي يعظُكُم به.وقولُه: (يَعِظُكُمْ): أي: يأمُرُكم به من أداءِ الأماناتِ، والحُكمِ بين النَّاسِ بالعدلِ.

وهذه الآية والتي قبلها تدل على إثبات السمع والبصر لله حقيقةً كما يليق بجلاله وعظمته فعن أبي هريرةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّه سَمِعَ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- (يَقْرَأُ هذه الآيةَ وَيَضَعُ إبهامَهُ على أُذُنِهِ والَّتي تَليها على عَيْنِهِ



وَيَقُولُ: هَكَذَا سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- يَقْرَؤُهَا وَيَضَعُ إِصْبَعَيْهِ)رَوَاهُ أبو داودَ، وابنُ حبَّانَ في صحيحِه، والحاكمُ في مستدركِه.

وعملُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- هذا دليلٌ على إثباتِ هاتينِ الصِّفتين، وأنَّهما غيرُ صفةِ العلمِ، وإلا لأشارَ إلى صدرِه، ووضعُه إبهامَيْه والتي تليهما تحقيقًا لصفةِ السَّمعِ والبصرِ، وأنَّهما حقيقةٌ لا مجازٌ، خلافًا لأهلِ البدعِ.

وفيه أن صفةَ السمع غيرُ صفة البصر لأن العطفَ يقتضي المغايرةَ،ومن هنا نأخذ قاعدة في باب السماء والصفات ألا وهي:

أن الصِّفاتُ بالنَّظرِ إلى الذَّاتِ من قبيل المترادف،لأنَّها كلَّها صفاتٌ لذاتٍ واحدةٍ، وبالنَّظرِ إلى الصِّفاتِ من قبيل المتباين لأنَّ كلَّ صفةٍ غيرُ الصِّفةِ الأخرى، فالسَّمعُ غيرُ البصرِ، وكذلك العلمُ وهَلُمَّ جَرًّا.

والسميع له معنيان:

١.المجيب لقوله:﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

٢.إدراك المسموع وهو أقسام:

الأول:ما يراد به عموم سمع الله كقوله:﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

الثاني:ما يراد به النصر والتأييد كقوله:﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ .

الثالث:ما يراد به التهديد والوعيد كقوله:﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ .

....

وقَوْلُهُ:﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ **وَقَوْلُهُ:**﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ **وَقَوْلُهُ:**﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ **وَقَوْلُهُ:**﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾.

....

قَوْلُهُ:﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

قوله : { ولولا إذ دخلت جنتك } أي : هلا إذ دخلت بستانك . { قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله } أي : إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها اعترافا بالعجز وأن القدرة لله سبحانه . قال بعض السلف : "من أعجبه شيء فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله" .

وفي هذه الآية إثبات صفة القوة وإثبات صفة المشيئة الشاملةِ العامةِ فما وقع من شيءٍ فقد شاءَهُ الله وأرادَهُ لا راد لأمره ولا معقب لحكمه .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ أي : لو شاء سبحانه عدم اقتتالهم لم يقتتلوا، لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يريد، لا راد لحكمه ولا مبدل لقضائه .

وَقَوْلُهُ: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

أي :أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما جاء به النص مما كان منها وحشيا فإنه صيد لا يحل لكم حال الإحرام بالحج أو العمرة، وقوله:{ إن الله يحكم ما يريد } من التحليل والتحريم لا اعتراض عليه .

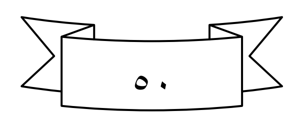
وَقَوْلُهُ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ من أراد الله له الهداية والتوفيق لها. { يشرح صدره للإسلام } أي: يوسع الله صدره ويجعله منشرحا لقبول الإسلام ومن شاء سبحانه أن يصرفه عن قبول الحق فإنه يجعل صدره ضيقا{ حرجا } أي: شديد الضيق لا يتسع لقبول الحق والخير { كأنما يصعد في السماء } أي:كأنما تكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء وهنا شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء .

وفي هذه الآيات إثبات صفة الحكم والإرادة والمشيئة لله سبحانه كما يليق بجلاله تعالى .

أما الحكم فلقولُه تعالى: (إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) أي: يحكُمُ ما يريدُ من التَّحليلِ والتَّحريمِ، لا اعتراضَ عليهِ، فهو الحَكَمُ -سُبْحَانَهُ- الحكيمُ لا حاكمَ غيرُهُ، فكلُّ حُكمٍ سوى حكمِه فهو باطلٌ ومردودٌ، وكلُّ حاكمٍ بغير حُكْمِهِ وحُكمِ رسولهِ فهو طاغوتٌ كافرٌ باللهِ، قال تعالى: (وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) وهذا عامٌّ شامِلٌ فما من قضيَّةٍ إلا وللهِ فيها حُكمٌ كما قال تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ) ولا شكَّ أنَّ مَنْ أعرضَ عن كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولهِ واعتاضَ عنها بالقوانينِ الوضعيَّةِ أنَّه كافرٌ باللهِ.

أما الإرادة فلم يزلْ الله مُريدًا بإراداتٍ متعاقِبةٍ، فنوعُ الإرادةِ قديمٌ، وأمَّا إرادةُ الشَّيءِ المعيَّنِ إنَّما يريدُه في وقتِه، فالإرادةُ مِن صفاتِ الفاعلِ.

وتنقسم الإرادة إلى قسمين:



١.إرادة كونية قدرية، ٢.إرادة شرعية دينية .

أما الإرادةُ الكونية القدرية فهي: مرادفة ومتضمنة للمشيئة الشاملة لكل الموجودات وهي تتعلق بكل ما يقدره الله في المخلوقات من خير أو شر قال تعالى:﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ وقوله تعالى : { وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها } وقوله تعالى : { وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له }.

وأما الإرادة الشرعية الدينية فهي:المتضمنة للمحبة والرضا وهي تتعلق بما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه في كتبه أو على ألسنة رسله،قال تعالى:﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ وقوله تعالى:{ والله يريد أن يتوب عليكم }.

وتجتمعُ الإرادتانِ في حقِّ المُخلصِ المُطيعِ، وتنفردُ الإرادةُ الكونيَّةُ في حقِّ العاصي، ومَن لم يُفرِّقْ بين النَّوعين فقدْ ضَلَّ كالجهميَّةِ والقدريَّةِ إذ أنهم لم يُقسموا الإرادة إلى قسمين فضلوا، فالجهمية الجبرية من الأشاعرة ونحوهم أثبتوا الإرادة الكونية فقط حيث غلوا في إثبات القدر وقصروا في إرادة العبد وقدرته، والمعتزلة القدرية أثبتوا الإرادة الشرعية فقط حيث غلوا في إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا في القدر، فضل هؤلاء، وضل هؤلاء. واصطفى الله أهل السنة إلى الحق فأثبتوا الإرادتين وفرقوا بينهما .

والفرق بين الإرادة الكونية والشرعية مايلي :

١.**أن الإرادةَ الكونيةَ واقعة لا محالةَ** بخلاف الشرعيةِ فقد تقع وقد لا تقع .

٢.**أن الإرادةَ الكونيةَ متعلقة بالخلق بأن يريد الله ما يفعله هو،** أما الشرعية فتتعلق بالأمر للمخلوق .

٣.**أن الإرادةَ الكونيةَ قد تكون فيما يحبه الله كالإيمان والمؤمن وقد تكون فيما لا يحبه كالكفر والكافر،** أما الشرعية فلا تكون إلا فيما يحبه الله ويرضاه فالله تعالى مثلا أراد المعصية كوناً ولا يرضاها شرعاً .

٤.**أن الإرادة الكونية مقصودة لغيرها،** كخلق إبليس وسائر الشرور لتحصل بسبب ذلك المجاهدة والتوبة والاستغفار وغير ذلك من المحاب . والإرادة الشرعية مقصودة لذاتها، فالله أراد الطاعة كونا وشرعا وأحبها ورضيها.

وعُلم من ذلك أن الإرادةَ تنقسمُ إلى قِسمين كما تقدم،بينما المشيئةَ لا تنقسمُ، وإنّما هي مرادِفةٌ للإرادةِ الكونيَّةِ فقط،أي: أن مشيئة الله تعالى لاتنقسم إلى قسمين بل هي مشيئة كونيّة قدريّة فقط فماشاء كان وما لم يشأ لم يكن فما وقع في الكون فهو بمشيئته ومالم يقع فهو لعدم مشيئته،فالإرادة و المشيئة يجتمعان فيما كان وما سيكون ، و يفترقان في ما لم يكن ولا هو كائن.

كما عُلِمَ أيضاً مما تقدم أنَّ المحبَّةَ والرِّضا أخصُّ مِن مطلقِ الإرادةِ، وأنَّ الأدلَّةَ دلَّتْ على الفرقِ بين المشيئةِ والمحبَّةِ والرِّضا، وأنَّ مَنْ جمعَ بينهما فقد ضلَّ ضلالاً مُبينًا، وصادمَ أدلَّةَ الكتابِ والسُّنَّةِ، وجمعَ بيَن ما فَرَّقَ الله، **ففي ذلك**

الرد على من سوى بين المشيئة والمحبة وقال : إنهما متلازمان فكل ما شاء الله فقد أحبه وقد قدمنا أن في ذلك تفصيلا، فقد يشاء الله ما لا يحبه ككفر الكافر وسائر المعاصي . وقد يشاء ما يحب كالإيمان وسائر الطاعات ..

واعلم أن أفعال العباد تنقسم إلى أربعة أقسام بالنسبة إلى الإرادتين الكونية والشرعية:

١.ما لاتتعلق بها واحدة من الإرادتين كالأفعال السيئة فرضاً من النبي ﷺ فهذه لم يردها الله كونا؛ لأنها لم تقع، ولم يردها شرعا؛ لأنه لا يأمر بالفحشاء ولابسئ الأعمال .

٢.ما تعلقت بها الإرادتان معاً كالأفعال الصالحة من النبي ﷺ فهذه أرادها الله كونا؛ لأنها وقعت، وأرادها شرعا؛ حيث أمر بها .

٣.ما تعلقت به الإرادة الكونية دون الشرعية كالأفعال السيئة من أبي جهل أرادها الله كونا؛ لأنها وقعت، ولم يردها شرعا؛ لأنه لا يأمر بالفحشاء وسئ الأعمال .

٤.ما تعلقت به الإرادة الشرعية دون الكونية كالأفعال الصالحة من أبي جهل فلم يردها الله كونا؛ لأنها لم تقع، وأرادها شرعا؛ لأنه أمر بها .

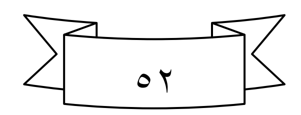
فالأعمال الصالحة إذا وقعت تعلقت بها الإرادتان معا،وإذا لم تقع تعلقت بها الإرادة الشرعية فقط،والأعمال السيئة إذا وقعت تعلقت بها الإرادة الكونية فقط،وإذا لم تقع لم تتعلق بها واحدة من الإرادتين.

مسألة:هل يسمى الله بالمريد ؟

ج/ أما من باب الخبر فيسمى وأما في الدعاء فلا يسمى فلا يجوز أن تقول:يا مريدُ اغفرلي لكن لو قال:يا مريداً للتوبة تب عليَّ فهذا جائز؛ لأنه أضافه إليه إضافة حسنة، قال ابن تيمية رحمه الله:"ويفرق بين دعائِه والإخبارِ عنه فلا يدعى إلا بالأسماء الحسنى وأما الإخبارُ عنه فلا يكون باسم سيءٍ لكن قد يكون باسم حسن أو اسم ليس بسيءٍ وإن لم يحكم بحُسنه مثل اسم شيء وذات وموجود؛ إذا أريد به الثابت وأما إذا أريد به " الموجود عند الشدائد " فهو من الأسماء الحسنى وكذلك المريد والمتكلم" . (الفتاوى ١٤٢/٦) .

وفي الآيات إثباتُ صفة المشيئَةِ للهِ -سُبْحَانَهُ- وتعالى، وأنَّ ما شاءَه لا بُدَّ من وقوعِه، وكلُّ ما وجِدَ فهو بمشيئتِه -سُبْحَانَهُ- لا رادَّ لأمرِه ولا مُعَقِّبَ لحكمِه، وهذا يُبْطِلُ قولَ المعتزلةِ، لأنَّه أخبرَ أنَّه لو شاءَ أَنْ لا يَقتتِلوا لم يقْتتِلوا، وهم يقولونَ شاءَ أَنْ لا يقتتِلوا فاقتَتلوا، والأدلَّةُ على بُطلانِ قولِ المعتزلةِ كثيرةٌ جدًّا، ومَن أضلُّ سبيلاً وأكفرُ ممَّن يزعمُ أَنَّ اللهَ شاءَ الإيمانَ من الكافرِ، والكافِرَ شَاءَ الكُفرَ، فغلبتْ مشيئَةُ الكافِرِ مشيئَةَ اللهِ: (تعالى اللهُ عن قولِهم).

وفي الآيةِ إثباتُ الهدايةِ للهِ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- ومِن أسمائِه -سُبْحَانَهُ- الهادي، وهو الَّذي بصَّرَ عبادَهُ وعرَّفهم طريقَ معرفتِه، وهدى كلَّ مخلوقٍ إلى ما لابُدَّ له منه، **وتنقسمُ الهدايةُ إلى قِسمين:**



الأوَّل: هدايةٌ خاصَّةٌ باللهِ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- لا هاديَ غيرُه ولاتُطلبُ إلا منه، وهي هدايةُ التَّوفيقِ والقبولِ والإلهامِ، وهي المستلزمةُ للاهتداءِ، وهي المذكورةُ في قولِه -سُبْحَانَهُ- وتعالى: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ).

الثَّاني: الهدايةُ العامَّةُ، وهي هدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ والبيانِ، وهي المذكورةُ في قولِه: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وهذه الهدايةُ لا تستلزمُ الاهتداءَ، ولهذا ينتفي معها الهُدى، كما في قولِه تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) أي: بيَّنا لثمودَ وأرشدْناهم فلم يهتدُوا.

فالهدايةُ المنفيَّةُ عن النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وغيرِه هي: هدايةُ التَّوفيقِ والقبولِ، وأمَّا المثبتةُ له كغيرِه من الأنبياءِ والمرسلين وأتباعِهم فهي هدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ.

وفيها أيضاً إثباتُ الصِّفاتِ الفعليَّةِ، وأنَّها تنقسمُ إلى قِسمين: صفات مُتَعَدِّيَةٍ، وصفات لازمةٍ.

١- **صفات متعدّيةُ:** ما تعدَّى إلى مفعولٍ، مثلِ خلقَ ورزقَ وهَدَى وأضلَّ.

٢- **صفات لازمةُ** غير متعدية كقولِه: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماءِ) (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) إلى غيرِ ذلِك ممَّا لا يُحْصى من النَّوعينِ، كما قال ابن تيمية وابنُ القيِّمِ رحمهما اللهُ.

....

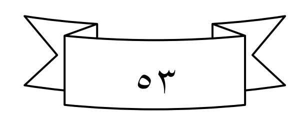
وَقَوْلُهُ:﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ :﴿ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ وَقَولُهُ:﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ وَقَولُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ .

....

وَقَوْلُهُ:﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

بدء المصنف رحمه الله بذكر الآيات المثبتة لصفة المحبة لله جل وعلا على مايليق بجلاله سبحانه وتعالى فهو مُحْسِنٌ يُحِبُّ المحْسِنين، ومُؤمِنٌ يُحِبُّ المؤمنينَ، ومحبة الله للعبد من أشرف المقامات قال أحد السلف:"ليس الشأن أن تحب الله إن الشأنَ كلَّ الشأن أن يحبَّك الله".

وفي هذه الآيةِ وأمثالِها دليلٌ على أنَّ محبَّته -سُبْحَانَهُ وتعالَى- تتفاضلُ، فيحبُّ بعضَ المؤمنين أكثرَ من بعضٍ، وأنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، وفيه أنَّ الإحسانَ أَعظَمُ سَبَبٍ لمحبَّةِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- للعبدِ، لأنه على مقاماتِ الطَّاعةِ، وهو الإتيانُ بالعملِ على أحسنِ أحوالِه وأكملِها فعن شدَّادِ بنِ أوسٍ أنَّ رسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ



عليهِ وسلَّمَ– قال: ((إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلى كُلِّ شَيءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)) رواه مُسلمٌ.

والإحسان على درجتين:

١.إحسانٍ في عبادة الله، وهوأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما في حديث جبريل المشهور، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"الإِحْسَانُ:أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" رواه مسلم.

٢.إحسانٍ في معاملة خلق الله ويكون ذلك ببذلِ الندى وهو المعروف وكفِّ الأذى والإبتسامةِ ونحو ذلك وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ . قال ابن المبارك رحمه الله:"حُسْنُ الخلق: شيءٌ هَيِّنٌ وَجْهٌ طَلْقٌ وكلام لَيِّنٌ" .

وفي الآية إثباتِ فِعلِ العبدِ وكسبِه، وأنه يُثَابُ على حَسَنِه ويُعاقَبُ على سيِّءِه، فتضمَّنتْ هذه الآيةُ الرَّدَّ على القدريَّةِ والجبريَّةِ، وفيها إثباتُ العلَّةِ والحكمةِ.

وَقَوْلُهُ:﴿ **وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ** ﴾ أي: اعدلوا في معاملاتكم إن الله يحب العادلين، **ومن أسمائِه سُبْحَانَهُ: المُقْسِطُ** أي العادلُ،والعدل مع الرعية سببٌ لمحبَّةِ اللهِ، وهو من أفضلِ القُرَبِ، سواءٌ كانتْ رعيَّةً عامَّةً كالحاكمِ مع الناس،أوِ خاصَّةً كعدلِ آحادِ النَّاسِ في بيتِه وولدِهِ، كما في الحديثِ: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رعيَّتِه)) وفي صحيحِ مُسلمٍ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو عن النَّبيِّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– أنَّه قال: ((إِنَّ المقْسِطِينَ عَلى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا)) وفي التِّرمذيِّ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِي اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– قال: ((إِنَّ أَحَبَّ العِبَادِ إِلى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ)). **وهناك فرق بين فعلين هما قَسَطَ وأَقْسَطَ:**

فالأول:قَسَطَ وهو بمعنى الجورِ والظلم قال تعالى:﴿ **وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** ﴾ .

الثاني:أَقْسَط وهو بمعنى العدل، وهذه الهمزة التي دخلت على قَسَطَ تُسمَّى عند الصرفيين همزةَ السَّلْبِ لأنها سلبت قَسَطَ معناه وأعطته معنىً مغايراً وهو العدل، قال ابن المرحل في موطأة الفصيح عن هذين الفعلين:

وَقَسَطَ الْفَاجِرُ فَهْوَ يَقْسِطُ		وَأَقْسَطَ الْعَادِلُ فَهْوَ يُقْسِطُ
وَالْمُقْسِطُ الْعَادِلُ فِي أَفْعَالِهِ		وَالْقَاسِطُ الجَائِرُ فِي أَحْوَالِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

هذه الآياتُ تدل على إثبات صفة المحبة لله على ما يليق به سبحانه وتعالى، خلافًا للمبتدعَةِ من الجهميَّةِ والمعتزلةِ، الَّذين أنكروا محبَّتَه سُبْحَانَهُ، فإنَّه عندَهم لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، **فَأَوَّلُوا نصوصَ محبَّةِ العبادِ له على محبَّةِ طاعتِه وعبادتِه، وأوَّلوا نصوصَ محبَّتِه لهم بإحسانِه إليهم،** وإعطائِهم الثَّوابَ، ونحوِ ذلك من التَّأويلاتِ الفاسدةِ، المصادمةِ لأدلَّةِ الكتابِ والسُّنَّةِ الكثيرةِ في إثباتِ المحبَّةِ من الجانبينِ ذلك أن مودته ومحبته سبحانه وتعالى لعباده على حقيقتهما كما يليق بجلاله كسائر صفاته ليستا كمودة ومحبة المخلوق.

وبإنكارهم محبة الله هم في الحقيقةِ مُنكرون للإلهيَّةِ، فإنَّ الإلهَ هو المألوهُ الَّذي تألَهُهُ القلوبُ محبَّةً وإجلالاً وخوفًا وتعظيمًا.

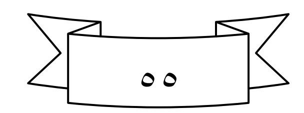
وأولُ من أنكر صفة المحبة لله الجعدُ بنُ درهمٍ، موئسس مذهب التعطيل وذلك في أوائلِ المائةِ الثَّانيةِ وقد قَتَلَهُ الأميرُ خالدُ القسريُّ بعدَ استشارةِ العلماءِ من التابعين ونحوهم بمدينةِ واسطٍ يومَ النحرِ، قال ابن القيم في النونية:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... قَسْرِيُّ يومَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيسَ خَلِيلَهُ ... كَلا وَلا مُوسَى الْكَلِيمُ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... لله دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

وتلقى عن الجعد مقالةَ التعطيلِ الجهمُ بنُ صفوانَ فنشرها وناضل من أجلها ولهذا نُسِبَتُ الجهميةُ إليه لأنه ناشرها وقد قَتَلَهُ أميرُ خراسانَ سَلْمُ بْنُ أَحْوَزَ، ثمَّ **انتقلَ ذلك إلى المعتزلةِ** أتباعِ عمرِو بنِ عبيدٍ، وظهَرَ قولُهم في أثناءِ خلافةِ المأمونِ،حتَّى امتحنَ أئمَّةَ الإسلامِ ودَعوهم إلى الموافقةِ على ذلك .

فإن قلت من أين أتى الجعد بهذه المقالة ؟

ج/ أنه أخذها عن رجل يقال له أَبَّانَ بنِ سَمْعَانَ، وأَبَّانُ أخذها عن طَالُوتَ ابْنِ أُخْتِ لَبِيدِ بنِ الأَعْصَمِ، الَّذي سَحَرَ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أنَّ الجهمَ تلميذ الجعد قابلَ قوماً من السُّمنيَّةِ وسألوه عن اللهِ فتحيَّرَ ومكث أربعين يوماً لا يصلِّي، ويُرْوَى أنَّه دخلَ حَرَّانَ وقابلَ قوماً من الصَّابئةِ وبَاحَثَهُمْ، فمقالتُهم أَخْبَثُ مَقَالَةٍ، وكفى بقومٍ أَعْرَضوا عن كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ وتتلمذُوا على هؤلاءِ الضُّلاَّلِ الذي أصلُ مقالتهم كم قال شيخ الإسلام ابن تيمية مأخوذٌ عن المشركينَ والصَّابئةِ .



مسألة:هل يجوز أن يقول العبد:أعشق الله ؟

ج: لا؛ لأنه لم يرِد إطلاق هذا اللفظ في الكتاب والسنة، ثم إنه يفهم منه معنىً فاسدٌ. (انظر:النبوات للمصنف ص١٠١)

قال ابن القيم رحمه الله :إن المحبةَ لا توصف ولا تحد بأوضحَ من كلمة (المحبة) ولا أقربَ للفهمِ من لفظِها فهي ألطفُ وأرقُّ من كل ما يعبرُ به عنها . (انظر: طريق الهجرتين (ص: ٣١٠)

وقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فيه تقديمُ التَّوابينَ على المتطهِّرينَ وذلك من بابِ تقديمِ السَّببِ على المسبَّبِ؛ لأنَّ التَّوبةَ سَبَبُ الطَّهارةِ كما قال ابنُ القيّمِ (انظر: بدائع الفوائد (١/ ٦٢) وفي صحيح مسلم: (الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ).

وقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ قالَ الحسنُ:"ادَّعى قومٌ أنَّهم يُحِبّون اللهَ فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ مِحْنَةً لهم"

فهذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ مَن ادَّعى ولايةَ اللهِ ومحبَّته وهو لم يَتَّبِعْ ما جاءَ به رسولُه –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– فليسَ من أولياءِ اللهِ، بل من أولياءِ الشَّيّطانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ مَنْ تولَّى عن نُصرةِ دينِ الله وإقامةِ شريعتِهِ فإنَّ اللهَ يستبدلُ به مَنْ هو خيرٌ منه وأقومُ سبيلاً، كما قال تعالى: (وَإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم) وصفة هؤلاء كما في نهاية الآية:(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ): أي: أهلِ رقَّةٍ وتواضعٍ للمؤمنينَ، وأهلِ غلظةٍ وشدَّةٍ على الكافرين.

قال عطاءٌ:" للمؤمنينَ كالولدِ لوالدِه، والعبدِ لسيِّدِه، وعلى الكافرين كالأسدِ على فريستِه "كما قالَ سُبْحَانَهُ: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ).لا يَرُدُّهم عن دين الله رَادٌّ، ولا يَصُدُّهم عنه صَادٌّ.

قال أبوذرٍّ رضي الله عنه :"أَمَرَنِي خَلِيلِي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلى مَنْ هُوَ دُونِي وَلاَ أَنْظُرَ إِلى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ، وَأَمَرَنِي أَنْ لاَ أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ الحقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمَرَنِي أَنْ لاَ أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ" رواه أحمد وصححه الألباني.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ دلت الآيةُ على فضلَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ والحثَّ عليه،**وإثباتَ المحبَّةِ للهِ** –سُبْحَانَهُ وتعالَى– وهو قولُ جميعِ السَّلفِ، **وأنكرتِ الجهميَّةُ**

حقيقةَ المحبَّةِ من الجانبينِ، زعمًا منهم أنَّ المحبَّةَ لا تكونُ إلا لمناسبةٍ بين المحِبِّ والمحبوبِ، وأنَّه لا مُناسبةَ بينَ القديمِ والمحْدَثِ تُوجِبُ المحبَّةَ، وهذا القولُ باطلٌ تَرُدُّه أدلَّةُ الكتابِ والسُّنَّةِ المتكاثرةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾

هذه الآية **تضمنت اسمينِ الغفورَ والودودَ فأما الغفورُ**: فمبالغةٌ من الغَفْرِ وهو السِّتْرُ ومنه المِغْفرُ فهو –سُبْحَانَهُ وتعالَى– يَغفرُ لمن تابَ إليه،ويَسترُ ذنوبَه ويتجاوزُ عن خطاياه.

قال ابنُ رجبٍ رحمهُ اللهُ تعالى:المغفرةُ مَحْوُ الذَّنبِ وإزالةُ أثرِهِ ووقايةُ شرِّهِ، ومنه المِغْفرُ لِما يَقِي الرَّأسَ من الأذَى، لا كما ظنَّه بعضُهُم السَّترُ، فالعِمامةُ لا تُسمَّى مِغْفَرًا مع سترِها، فلا بُدَّ في لفظِ المغفرِ من الوقايةِ. (انظر:جامع العلوم والحكم (١/ ٤٤١)و(مدارج السالكين (١/ ٣١٤)

وأما الودودُ: فمأخوذٌ من الوُدِّ وهو خالصُ الحبِّ وأرقه،**وقد اختلف أهلُ العلم فيه على قولين:**

القول الأول:أنه فَعُولٌ بمعنى فَاعِلٍ أي: الوَادُّ المحبُّ لملائكته وعباده وهذا عليه أكثر أهل العلم، كما قال ابن تيمية رحمه الله. (انظر:النبوات لابن تيمية (١/ ٣٥٩)

القول الثاني:أنه فَعُولٌ بمعنى مَفْعُولٍ أي المودودُ المحبوبُ لملائكته وعباده وهذا المعنى هو تفسير البخاري في صحيحه لاسم الودود.

ورجحَ ابنُ القيم كِلا القولينِ فقال رحمه الله:" والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين على كونه وادا لأوليائه ومودوداً لهم فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه".(التبيان في أقسام القرآن (:٩٣)

والشاهد من هذه الآيات الكريمة : أن فيها إثبات المحبة والمودة لله سبحانه وأنه يحب ويود بعض الأشخاص والأعمال والأخلاق دون بعض على ما تقتضيه حكمته البالغة فهو يحب المحسنين ويحب المقسطين ويحب المتقين . ويحب المتبعين لرسوله صلى الله عليه وسلم . ويحب المجاهدين في سبيله . ويحب التوابين والمتطهرين . وفيها إثبات المحبة من الجانبين، جانب العبد وجانب الرب كما قال تعالى:{ يحبهم ويحبونه }وقال:{ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله }.

....

وَقَوْلُهُ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

....

في هذه الآيات إثبات اسم: الرحمن والرحيم وإثبات صفة الرحمة وسبق الكلام على الفرق بينهما وهو أن الرحمنَ دالٌ على اثبات صفة الرحمة القائمة بالذات الإلهية، والرحيمَ دالٌ على تعلقها بالمرحوم أي: أن الرحيم دال على صفة الفعل فهو الرحيمُ برحمتِه، فكان الأولُ: للوصفِ والثاني للفعلِ،فالأولُ دالٌ على أن الرحمةَ صفتُه، والثاني: دالٌ على أنه يرحم خلقَهُ برحمته . (انظر:الفوائد لابن القيم) .

والرَّحمةُ صفةٌ من الصفاتِ الثابتة اللهِ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- اللائقةِ بجلالِه وعظمتِه، وأنَّها حقيقةٌ لا مجازٌ وهذا بخلافِ ما عليه أهلُ البدعِ، الَّذين نَفَوا هذه الصِّفةَ وَأَوَّلُوها بالإِنْعَامِ، أو بإرادةِ الإنعامِ، إلى غيرِ ذلك من التَّأويلاتِ الفاسدةِ، فالرَّحمةُ ثابتةٌ للهِ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- كغيرِهَا من الصِّفاتِ.

وفي الآيات بيان أن الرحمنَ والرحيمَ اسمان وصفتان لله تعالى خلاف لمن قال من السلف بأنهما اسمان يعودان لصفة واحدة،ورحمة الله وسعت وشملت كلَّ شيءٍ فما من مسلمٍ ولا كافرٍ إلا وهو متقلبٌ في نعمتِهِ ورحمته، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:(إِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ، قَسَمَ مِنْهَا رَحْمَةً بَيْنَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، فَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى أَوْلَادِهَا، وَأَخَّرَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أخرجه مسلم وأحمد .

واعلم أن الرَّحمنُ أبلغُ من الرَّحيمِ؛ لأنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى، **واسم الرَّحمنُ خاصٌّ باللهِ** -سُبْحَانَهُ وتعالَى- لا يُسمَّى ولا يوصف به غيرُه، بخلافِ الرَّحيمِ، فيوصَفُ به غيرُه -سُبْحَانَهُ وتعالَى- فيقالُ رجلٌ رحيمٌ.

فاسم الرحمن يدل على صفة الرحمة الذاتية التي لم يزل ولا يزال متصفا بها.

أما الرحيم فهو يدل على صفة الرحمة الفعلية التابعة لمشيئته كما قال تعالى:(إن يشأ يرحمكم) وقال :(ويرحم من يشاء...).

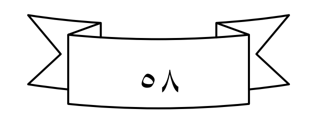
وَقَوْلُهُ:﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

قال الحسنُ وقتادةُ:"وَسِعَتْ رحمتُه -سُبْحَانَهُ- في الدُّنْيَا البَرَّ والفَاجِرَ، وهي يومَ القيامةِ لِلمُتَّقِينَ خاصَّةً".

فهذه الآيات فيها إثباتُ لصفة الرَّحمةِ وشمولِها،**وهي تدل على أنَّ الرَّحمةَ تنقسمُ إلى قِسمين:**

القسم الأَوَّلِ: رحمةٌ عامَّةٌ وهي الرَّحمةُ المشْتَرَكَةُ بين المسلمِ والكافرِ، فما يَصِلُ إليه من رزقٍ وصحَّةٍ ونحوِ ذلك فكلُّه من رحمةِ اللهِ كما في قوله:(ورحمتي وسعت كل شيء).

القسم الثَّاني: رحمةٌ خاصَّةٌ بالمؤمنينَ، كما في قوله: (وَكَانَ بِالمؤمِنينَ رَحِيمًا).



وَقَوْلُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي أنه أوجبها على نفسه تفضلاً وإحساناً.

والكتابة على نوعين:

الأولى: كتابة كونيةٌ كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي فَهْوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ) متفق عليه.

وهذه الكتابة أوجبها الله على نفسه تفضلا منه على خلقه وإنعاما، وإلا فليسَ للعبادِ حقٌّ واجبٌ عليه كحقِّ المخلوقِ على المخلوقِ، كما تَزْعمُ المعتزلةُ، فإنَّ المعتزلةَ تَزْعُمُ: أنَّه واجبٌ عليه بالقياسِ على المخلوقِ، وهذا ضلال منهم، وقياس مع الفارق، فالعبدَ لا يَسْتَوْجِبُ على اللهِ بِسَعْيِهِ نَجَاةً، ولا فَلاحًا، ولا يَدْخُلُ أحدٌ الجَنَّةَ بعملِه، فاللهَ – سُبْحَانَهُ – هو الَّذي كتبَ على نفسِه الرَّحمةَ، ولم يوجبْها عليه أحد، قال بعضُهم:

مَا لِلْعِبَادِ حَقٌّ عَلَيْهِ وَاجِبٌ ... كَلاَّ وَلاَ سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ

إن عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ.

قال الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ رحمه اللهُ تعالى: "كونُ المطيعِ يَسْتحقُّ الجزاءَ هو استحقاقُ إِنْعامٍ وفضلٍ، وليس هو استحقاقُ مُقَابَلَةٍ كما يستحقُّ المخلوقُ على المخلوقِ".

وهذا كما في حديثِ: ((لَوْ عَذَّبَ اللهُ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيرًا لَهُمْ))، وجاء في الحديثِ: ((لَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ أحد منك بعمله))، وهذا لا يُنافِي قولَه: (جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) فإنَّ الرَّسولَ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ– نَفى باءَ المقَابَلَةِ والمعَادَلةِ، والقرآنُ أثبتَ باءَ التَّسَبُّبِ.

فَالْمَنْفِيُّ: اسْتِحَقَاقُهَا بِمُجَرَّدِ الأعمالِ وكونِ الأعمالِ ثَمَنًا وعِوَضًا لها كما تَزْعُمُهُ المعتزلةُ، والمثْبَتُ كونُها سببًا لدخولِ الجَنَّةِ بتوفيقِه وهُداهُ.

الثانية: كتابة شرعيةٌ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

ومن رحمته الواسعة على عباده وفضلِه عليهم أنه مَنْ عصاه ثم تَابَ، تَابَ الله عليه كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ والله أرحمُ بعباده من الأمِّ بولدها كما في حديث عمرَ قال: قدم على رسول اللهِ ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول اللهِ ﷺ: (أَتَرَونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟) قلنا: لا واللهِ وهي تقدر أن لا تطرحه، فقال ﷺ: (للَهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِوَلَدِهَا) رواه البخاري ومسلم. والله سبحانه لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي.

وَقَوْلُهُ:﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ هنا جمع الله بين إثبات الاسمين والصفتين على ما يليق به سبحانه؛ لأنه بالمغفرة سقوط عقوبة الذنوب، وبالرحمةِ حصولُ المطلوب وقدم الغفور على الرحيم حتى تكون التخلية قبل التحلية.

وَقَوْلُهُ:﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

حِفظُ الله تعالى للعبد خيرٌ من حفظ غيره، فمَن حفظ الله في الرخاء وفَوَّضَ أمرَه إليه كَفَاهُ، وَوَقَاه، وحفِظَه وحَمَاهُ، فلا سبيلَ لأحدٍ عليه ولا قدرةَ لأحدٍ أنْ يصلَ إليه بما يُؤْذِيه.

ومِن أسمائِه جل وعلا الحفيظُ وهو نوعانِ:

الأول: حِفْظُه ما يعمل العباد من خيرٍ أو شرٍّ، وطاعةٍ أومعصيةٍ.

الثَّاني: أنَّه الحافظُ لعبادِهِ من جميعِ ما يَكرهونَ .

وأفادت هذه الآية أنَّ الرَّحمةَ المضافةَ إليه سُبْحَانَهُ وتعالَى تنقسِمُ إلى قِسمين:

القسم اللأول: قسمٍ يُضافُ إليه -سُبْحَانَهُ وتعالَى- **من إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ**، كما قالَ سُبْحَانَهُ: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) وكما في الحديثِ: ((بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ)).

القسم الثَّاني: قسم يُضافُ إليه سُبْحَانَهُ وتعالَى من بابِ إضافةِ المخلوقِ إلى خالقِهِ،**وهي الرَّحمةُ الْمَخْلُوقَةُ** كما في الحديثِ ((إِنَّ اللهَ خَلَقَ مائَةَ رَحْمَةٍ)) وقالَ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- للجنَّةِ ((أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ)).(انظر بدائع الفوائد)

وقَوْلُهُ:﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ في هذه الآية إثبات صفة الرضا لله سبحانه كما يليق بجلاله، **ولا يقالُ: الرِّضا إرادةُ الإحسانِ، والغضبُ إرادةُ الانتقامِ، كما تَزْعمُهُ المبتدِعةُ، فإنَّ هذا نفيٌ للصِّفةِ وصَرْفٌ للقرآنِ عن ظاهرِه وحقيقتِه بغيرِ مُوجبٍ، وهذا لا يجوزُ.**

وفيها دليل على إثبات أفعال الله الاختيارية وأدلة ذلك من الكتاب والسنة لا تحصر، **وفيها** دليل على أن الجزاء من جنس العمل، **وفيها** إثبات فعل العبد وأن له فعلاً اختيارياً **وفيها** فضل الرضا عن الله .

والرضا هو: أن يُسْلِمَ العبدُ أمرَه إلى اللهِ ويُحْسِنَ الظَّنَّ به ويَرْضى عنه في ثوابِه.(فتح المجيد)

قال ابن القيم:الرضا ثلاثة أقسام: ١.الرضا بالله ٢.الرضا عن الله ٣.الرضا بقضاء الله.

فالرضا بالله فرض، والرضا عنه وإن كان من أجَل الأمور وأشرفِها فلم يطالَبْ به العمومُ لعجزهم عنه ومشقتِه عليهم، وأوجَبَهُ بعضُهم، **وأما الرضا بكل مَقْضِيٍّ فلا يجب بل المقضيُّ ينقسم إلى ما يجب الرضا به وهو المقضيُّ الدينيُّ** قال تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾

ومقضيٌّ كونيٌّ قدريٌّ فإن كان فقراً أو مرضاً ونحوَ ذلك استُحِبَّ الرضا به ولم يجب وأوجَبَه بعضهم، **وإن كان كفراً أو معصيةً حَرُمَ الرضا به** فإنَّ الرضا به مخالفةٌ لربه فإنه سبحانه لا يرضى بذلك ولا يحبه قال تعالى:﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ﴾ **وأما القضاء الذي هو صفةُ الله وفعلُه** فالرضا به واجب.

....

وَقَوْلُهُ:﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ .

....

في هذه الآيات إثباتُ بعض صفات الأفعال لله عز وجل كالغَضَبِ واللَّعْنِ والسُّخْطِ والْكُرْهِ والأَسَفِ والانْتِقَامِ والمِقْتِ على مايليق بجلال الله تعالى،**والأسف هو**:شدة الغضب،**والسخط والانتقام** هما:المكافئة بالعقوبة، **والمقت هو**:أشد البغض .

وَقَوْلُهُ:﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا ﴾ في هذه الآية خرج قتلُ الكافر وقتلُ الخطأِ، فمن فعلَ هذا الفعلَ توعدَه اللهُ بخمس عقوبات وهي: جهنمُ، والخلودُ فيها، وغضبُ الله عليه، ولعنُه، والعذابُ العظيمُ .

مسألة:ما معنى قوله:﴿ خَٰلِدٗا فِيهَا ﴾ اختلف المفسرون فيها على قولين:

القول الأولُ:أن الخلودَ خلودٌ أبديٌّ، لكنها محمولة على الكافر، وقيل: محمولة على المؤمن الذي استحل قتل المؤمن واستحلال ماحرم الله كفر .

القول الثاني:أن الخلودَ خلودٌ أمديٌّ فالمرادُ بالخلودِ في الآية المكثُ الطويلُ، واستعمالُ الخلودِ بمعنى: المكثِ الطويلِ سائغٌ في لغةِ العربِ، ومنه في القرآن أن الله تعالى كثيراً ما يذكرُ عن المؤمنين أنهم خالدونَ في الجنة أبداً وعن الكفار أنهم خالدونَ في النارِ أبداً ولو كان الخلودُ لا يستعملُ إلا بمعنى الأَبَدِيَّةِ لما كان لقوله:أبداً فائدة وهذا الراجح .

مسألة:إذا تاب القاتل هل يستحقُّ الوعيد ؟

على الراجح لا وهو الذي عليه جمهور أهل العلم سلفاً وخلفاً؛ لورود الأدلة من الكتاب والسنة على عدم استحقاقه للوعيد منها قوله تعالى:﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ومنها حديثُ أبي سعيدَ الخدريّ أن النبيّ الله ﷺ قال:(إِنَّ رَجُلاً قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ:إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ ؟ قَالَ:لَقَدْ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَلَيسَتْ لَهُ تَوبَةٌ ؟ قَالَ:فَانْتَضَى سَيفَهُ فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ مِئَةً، ثُمَّ إِنَّهُ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ، فَقَالَ:إِنَّهُ قَدْ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ ؟ فَقَالَ:وَمَنْ يَحُولُ بَينَهُ وَبَينَ التَّوبَةِ، اُخْرُجْ مِنَ الْقَرْيَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَنْتَ بِهَا، إِلَى قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا، فَاعْبُدْ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا، قَالَ:فَخَرَجَ وَعَرَضَ لَهُ أَجَلُهُ، فَاخْتَصَمَ فِيهِ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ وَمَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ، قَالَ إِبْلِيسُ:إِنَّهُ لَمْ يَعْصِنِي سَاعَةً قَطُّ، قَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةُ:إِنَّهُ خَرَجَ تَائِباً) وعن أبي رافع قال:فبعث الله ملكا فاختصما إليه -رجع الحديثُ إلى حديثِ قتادةَ- قال:(أُنْظُرُوا إِلَى أَيِّ الْقَرْيَتَينِ كَانَ أَقْرَبَ، فَأَلْحِقُوهُ بِهَا) قال قتادة:فقرب الله منه القرية الصالحة، وباعد عنه القرية الخبيثة، فألحقوه بأهلها.

فإن قيل ما الجواب عن ما ورد ابن عباس رضي الله عنهما وغيره بأن القاتل :لا توبةَ له؟

الجواب: أن صح ذلك عنه فله احتمالين:

الأول:أنه استبعد توبتَه ورأى أنه لا يوفق إليها أو أنه قال ذلك فيمن خشي منه الإقدام على القتل .

الثاني:أنه لا توبةَ له بحق المقتول لأن القاتلَ عمداً يتعلقُ به **ثلاثةُ حقوقٍ** كما قال ابن القيم:

١.حقُّ اللهِ وهذا لا شكَّ أن التوبةَ تدفعُه للآية والحديثِ المتقدمينِ .

٢.حقُّ أولياءِ المقتول وهذا يسقطُ إذا سَلَّمَ نفسه إليهم فأخذوا حقهم منه بِالاسْتِيفَاءِ أو الصُّلحِ أو العفوِ .

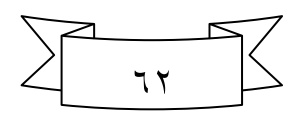
٣.حقُّ المقتولِ وهذا لا يخلصُ منه في الدنيا لكنْ إذا كانتِ التوبةُ خالصةً فإنَّ اللهَ يُصْلِحُ بينهما فلا يُضَيِّعُ حقَّ القاتلِ ولا حقَّ المقتولِ .

وبتقديرِ دخولِ القاتلِ النَّارَ فليس بِمُخلَّدٍ فيها أبدًا، بل الخلودُ هو المكثُ الطَّويلُ ما تقدم، وقد تواترتِ الأحاديثُ عن رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: أَنَّهُ ((يَخرجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ))،

فالنَّاسُ ينقسِمونَ بحسبِ ما تقدَّمَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلِ: المشركون والكفَّارُ،كُفْرٌ يُخْرِج عن المِلَّةِ الإسلاميَّةِ، فهؤلاء يَدخلونَ النَّارَ ويُخَلَّدون فيها دائمًا، ولا يَخْرجون منها أبدًا.

النَّوعِ الثَّاني: مَن ماتَ على التَّوحيدِ وليسَ عليه ذنوبٌ فهذا يدخلُ الجنَّةَ من أوَّلِ وهلةٍ.



الثَّالثُ: مَن ماتَ مُوَحِّدًا وعليه ذنوبٌ ومعاصٍ، فهذا تحتَ مشيئةِ اللهِ، إنْ شاءَ اللهُ عَفَا عنه وأَدْخَله الجنَّةَ من أوَّلِ وهلةٍ، وإن شاءَ عذَّبَه بقدرِ ذنوبِه ثمَّ أدخلَه الجنَّةَ، هذا ما عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهو الَّذي تواترتْ به الأدلَّةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ، عكسُ ما عليه المرجئةُ والخوارجُ والمعتزلةُ.

وَقَوْلُهُ:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ ﴾

هذه الآيةُ فيها إثباتَ صفةِ السَّخَطِ والرِّضا، وأنَّه -سُبْحَانَهُ وتعالى- يَسْخَط ويَرْضى حقيقةً، كما يليقُ بجلالِه وعظمَتِه،**وفي الآيةِ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ**، وأنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ سببٌ للسَّعادةِ، والأعمالَ السَّيِّئةَ سببٌ للشَّقَاوةِ، ولا يكونُ العبْدُ مؤمنًا حتى يُقَدِّمَ محبَّةَ الرَّسولِ على محبَّةِ جميعِ الخَلْقِ، ومحبَّةُ الرَّسول تابِعَةٌ لمحبَّةِ مُرْسِلِهِ، والمحبَّةُ الصَّحيحةُ تقتضي المتابعةَ والموافقةَ في حُبِّ المحبوباتِ لله ورسوله وبُغْضِ المكروهاتِ لهما، قالَ تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وأزواجكم وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) **وفيها الرَّدُّ على مَن زعَمَ**: أنَّه لا ارتباطَ بينَ العملِ والجزاءِ.

وفي قوله:﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ **ظاهر الآية أن من أسماء الله -سُبْحَانَهُ- المنتقِمُ**، كما جاءَ في حديثِ أبي هُريرةَ الَّذي رواه التِّرْمِذيُّ في جامِعه، في عددِ الأسماءِ الحُسنى، ومعنَاهُ المبَالِغُ في العقوبَةِ لِمَن يشاءُ، **إلا أن شيخُ الإسلام ابن تيمية** -رحمه اللهُ- قال:"المنتَقِمُ ليسَ مِن أسماءِ اللهِ الْحُسْنَى الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وإنَّما جاءَ في القرآنِ مقيَّدًا كقوله -سُبْحَانَهُ-: (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)، وقولِهِ: (وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) والحديثُ الَّذي في عدَدِ الأسماءِ الحُسنى ويُذْكَرُ فيها المنتقِمُ فليسَ هوَ عندَ أهْلِ المعرفةِ بالحديثِ مِن كلامِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- بلْ هذا ذكَرهُ الوليدُ بنُ مسلمٍ عن بعضِ شيوخِهِ، ولهذا لم يوردْهُ أحدٌ مِن أهْلِ الكُتُبِ المشهورَةِ إلاَّ التِّرمذيُّ".

ويقصد ابن تيمية رحمه الله: أن إطلاقُ اسمِ المنتقمِ على الله بلا تقييدٍ لا يصحُّ، فإما إن يقُيِّدَ اسماً يدل على المدح والكمال والمقابلة كقوله:﴿ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ وقوله:﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ **وإلا لا يصح أن يسمى به .**

والفرق الضالة فسروا الغضبَ والسخطَ بتفاسيرَ خاطئةٍ حيثُ قالوا:إنهما الانتقامُ أو إرادتُه، والجواب عما قالوا:أنْ يقالَ بأن الانتقامَ لا يكونُ إلا نتيجةَ الغضبِ والسخطِ فنتائجُ الغضب هي الانتقامُ .

ولهذا فإن هذه الآية:﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ ردٌ عليهم حيث أنَّ معنى آسفونا:أغضبونا، فتبين أن الغضبَ غيرُ الانتقام فالغضب من الصفات الثابتة لله جل وعلا على ما يليق بجلاله .

وقد ذكر أهلُ العلم أن للأسفِ معنيين:

الأول:الحزنُ والندمُ كقوله:﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وهذا ممتنعٌ على الله عز وجل .

الثاني:الغضب وهو ثابتٌ لله لأن الله وصفَ به نفسه كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾.

وقوْلُهُ:﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ في الآية الكلام عن حال المنافقين وكيف أن الله سبحانه ابغَض وكره خروجَهم مع المؤمنين إلى الغزوِ حيث ثبطهم أي كسَّلهم عن الخروج للغزوِ،مع أنه قدْ أمرَهم بالغزوِ وأقدرَهُم عليه، ولكنْه خذلَهُم عنه لحِكمةٍ يعلمُها سُبْحَانَهُ وتعالى: (لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـأَلُونَ) وفي هذا تنبيه للمسلم أنه إذا رأى من نفسه كسلاً عن العباده أن يخشى على نفسه من الوقوع في النفاق،وفي الآية إثبات صفة الكره لله جل وعلا على مايليق به سبحانه وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته .

وَقَوْلُهُ:﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾

في الآية التحذير من نقض العهود، والأمر بالوفاء بها، ومعنى كبر مقتاً أي: عظم بغظاً عند الله مخالفة الفعل للقول في العهود ونحوها، والمقت أشد انواع البغض، وفيها الآية دليلٌ على إثباتِ صفةِ البُغضِ للهِ –سُبْحَانَهُ وتعالَى- كَمَا يليقُ بجلالِه وعظمتِه، وأنَّ بُغضَه –سُبْحَانَهُ وتعالَى- يتفاوتُ، فبَعضُه أشدُّ مِن بعضٍ، كما في الحديثِ: ((إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ مِثلَهُ، ولنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثلَهُ)).

....

وَقَوْلُهُ:﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ .

....

أراد المصنف رحمه الله من ذكر هذه الآيات إثبات صفة المجيء الله سبحانه وتعالى على ما يليق به لفصل القضاء يوم القيامة بين عباده.

وَقَوْلُهُ:﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ .

هذا الآية تهديد للكفار الذين لم يدخلوا في الإسلام هل ينتظرون { إلا أن يأتيهم الله }بذاته سبحانه لفصل القضاءِ بينهم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله وإتيانه سبحانه يكون { في ظلل من الغمام } و {فِي}: هنا

بمعنى (مع)، فهي للمصاحبة، وليس للظرفية قطعاً، لأنها لو كانت للظرفية، لكانت الظلل محيطة بالله، ومعلوم أن الله تعالى واسع عليم، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

والظلل : جمع ظلة وهي ما يظلك،فمعنى {فِي ظُلَلٍ}، أي: مع الظلل، فإن الله عند نزوله جل وعلا للفصل بين عباده {تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} والغمام هو:السحاب الأبيض الرقيق وسمي بذلك لأنه يغم، أي : يستر كما قال تعالى ممتناً على بني إسرائيل: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}.

وقوله:{ والملآئكة } أي : والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام ليحيطوا بالخلق .

{ وقضي الأمر } أي : فرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم .

وعلى هذا فتشقق السماء بالغمام وإحاطة الملائكة بالخلق يكون مقدمة لنزول وإتيان الله تعالى لفصل القضاء يوم القيامة.

وَقَوْلُهُ:﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ تأتي لقبض الأرواح .

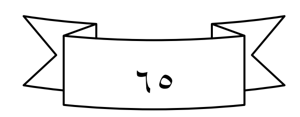
وَقَوْلُهُ:﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ أي:بذاته جل شأنه يومَ القيامة لفصل القضاء .

وَقَوْلُهُ:﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ هو طلوعُ الشمس من المغرب، وهي أحدُ أشراطِ الساعةِ الكبرى، فإذا طلعت الشمس من المغرب أُغْلِقَ بابُ التوبة، وإذا رآها الناس آمنوا أجمعون، ولكن لا يُقْبَلُ لأحد منهم توبةٌ مالم يكن آمن من قبلِ ذلك، فعن أبي هريرة قال:قال رسول الله ﷺ :(ثَلاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَو كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيراً:طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ) رواه مسلم .

وَقَوْلُهُ:﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ كلا حرف ردع وزجر ودكت أي: زلزلت حتى ينهدمَ كلُّ بناءٍ عليها وينعدمَ دكًّا بعدَ دكٍّ وكَرَّرَ الدكَّ عليها حتى عاد الأرض هباءً منبثاً .

وَقَوْلُهُ:﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ أي:بذاته سبحانه يجيء لفصل القضاء بين عباده، والملائكة مصطفين صفا بعد صف،كل أهل سماء يكونون صفا واحدا محيطين بالأرض ومن فيها فيكونون سبعة صفوف محيطين بالخلق قال القرطبيُّ:وليس مجيئُه تعالى حركةً ولا انتقالاً ولا زوالً، لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً والذي عليه جمهور أئمة أهلِ السنة أنهم يقولون:يجيءُ وينزلُ ويأتي ولا يكيفون؛ لأنه جل وعلا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ:﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾



يوم القيامة تتشق السماء بالغمام،والغمامُ:السحابُ الأبيضُ، وتَنْزِلُ الملائكةُ إلى الأرض فيحيطونَ بالخلائق في أرض المحشرِ ثم يجيءُ الربُّ لفصلِ القضاءِ بينَ عباده، وهذه الآيةُ تلاحظ أنه ليس فيها ذكر المجيءِ لله سبحانه تصريحاً وإنما **فيها إشارةٌ إلى المجيءِ**؛ لأن تشققَ السماءِ لا يكون إلا لمجيءِ اللهِ تعالى، **لكنَّ الآياتِ المتقدمة أفادتْ إثباتَ صفة المجيءِ والنزولِ والإتيانِ حقيقة بذاته سبحانه** كما يليق بجلاله وعظمته من مِن غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومِن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ .

وقد فسر أهل البدع مجيءَ لله تعالى وإتيانه بمجيءِ أمرِه، ويقولونَ هذا مجازُ حذفٍ، والتَّقديرُ في: (وَجَاءَ رَبُّكَ): أي أمرُه وهذا باطل من وجوه:

١.أنه خلاف ما عليه السلف الصالح .

٢.أنه لا دليل عليه من الكتاب والسنة .

٣.أن الإتيانَ والمجيءَ المضافينِ لله تعالى كما يقول ابن القيم رحمه الله على نوعينِ:

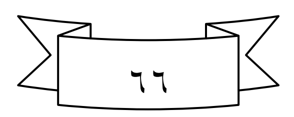
الأول:إتيانٌ مقيدٌ كقوله:﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ . وكما في الحديث : (حتى جاء الله بالرحمة والخير)

الثاني:إتيانٌ مطلقٌ وهذا لا يكون إلا مجيئَه سبحانه كقوله:﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ** ﴾وقَوْلُهُ:﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .

وأفادتْ الآياتُ المتقدمة إثباتَ أفعالِه -سُبْحَانَهُ- الاختياريَّة، فالإتيانُ والنُّزولُ والمجيءُ كلها أفعاله جل وعلا، وهو فَعَّالٌ لِما يريدُ، وأفعالُه كصفاتِه قائمةٌ به سُبْحَانَهُ، ولولا ذلكَ لم يكنْ فَعَّالاً ولا موصوفًا بصفاتِ كمالِه، **وأفعالُه سُبْحَانَهُ: نوْعَان:** لازمةٌ كالإستوى، ومتعدِّيةٌ كالخلق، كما دلَّتِ النُّصوصُ الَّتي هي أكثرُ مِن أنْ تُحصرَ على إثباتِ النَّوعين، وأنَّها حقيقةٌ ليست بمجازٍ، وليست كأفعالِ المخلوقِ، فصفاتُه -سُبْحَانَهُ- تليقُ به، أمَّا المبتدعةُ فإنَّهم نَفَوْا أفعالَه، **فزعمُوا أنَّها مجازٌ، فوقَعوا في مَحذورينِ: محذورِ التَّشبيهِ، ومحذورِ التَّعطيلِ** كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

وفي الآياتِ دليلٌ على إثباتِ علُوِّ اللهِ على خلقِه، لأنَّه لا يمكنُ أَنْ يأتِيَ إلا مِن جهةِ العُلوِّ.

وَقَوْلُهُ:﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾



هذه الآيات أراد بها المصنف رحمه الله إثبات صفة الوجه لله تبارك وتعالى وتفسيرها يدور حول أَنَّ جميعَ أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماء سيموتونَ ويذهَبُون إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ، ولا يبقى سوى وجهُه سُبْحَانَهُ وتعالى للآيات المتقدمة ولقوله تعالى:{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} **والمُسْتثنى من الهلاكِ والفناءِ ثمانيةٌ، نَظمها السُّيوطيُّ بقَولِهِ:**

ثمانيةٌ حُكْمُ البقاءِ يَعُمُّهَا　　　مِنَ الخلْقِ والبَاقونَ في حيِّزِ العَدَمِ
هي العَرشُ و الكرسِيُّ نارٌ وجنَّةٌ　　　وعجبٌ وأرواحٌ كذا اللَّوحُ والقلمُ.

وهل الحور العين مستثناة أيضا؟ نعم قال أهل العلم المراد بالجنة الجنة وما فيها.

وهاتان الآيتان فيها إثباتُ صفةِ الوجهِ لله جل وعلا على ما يليق به { ليس كمثله شيء }، وهو من الصفاتِ الذاتيةِ الخبريةِ ووَجْهُ الله وُصِفَ في النصوص بالجلال والإكرام، وكلُّ آية في القرآن فيها إضافةُ الوجه لله جل وعلا فهي من باب إضافة الصفةِ للموصوفِ، إلا في آيةٍ واحدةٍ اختلفَ فيها السلفُ هل هي من الصفات أم لا وهي قوله:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ **على قولين:**

القول الأول: -وهو قول مجاهد والشافعي واختاره ابن تيمية رحم الله الجميع أنها ليست من آيات الصفات وإنما يراد بها القبلة .

القول الثاني: -وهو قول الدارمي وذكره في مَعْرِضِ رده على بشرِ الْمِرّيسِيِّ وقولُ ابن خزيمة في (كتاب التوحيد) وابنِ القيم في صواعقه وغيرِهم- أنها من آيات الصفات الدالةِ على صفة الوجه لله سبحانه وتعالى والخلافُ في هذا يسيرٌ ما دامَ الجميعُ يثبت صفة الوجه لله سبحانه كما يليق بجلاله .

وقال أهل البدع:إن قوله:﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ صفةٌ للرب لا للوجه، وهذا خطأ واضح سَبَبُهُ الجهلُ بالعربية لأنه لو كان كذلك لقال:ذي الجلال والإكرام لأن لفظَ الرب مجرورٌ وذو نعت والنعتُ يطابق المنعوتَ في إعرابه والمنعوتُ هنا على قولهم مجرور فيجب أن يكون النعت مجروراً، ولكن لما رُفِعَ دل على أنه نعت للوجه لا للرب،

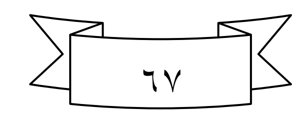
وإن أردت زيادة توضيح فانظر إلى قوله تعالى في نفس السورة:﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ تجدْ أن الله تعالى قال:ذي لأنه وَصَفَ الربَّ ولمْ يَصِفْ الاسْمَ ولو وَصَفَهُ لقال:ذو .

وذكرَ أهلُ العلم أن الجلالَ هو كمالُ العظمةِ والجمالِ لله سبحانه.

وأما الإكرام فله معنيان:

الأول:أنه ذو الكرم البالغ .

الثاني:أنه الْمُكْرَمُ أن يصلَه أذىً أو يعتريَه نقصٌ أو خللٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .



مسألة :جاء في صحيح مسلمٍ من حديث أَبِي مُوسَى قَالَ:قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ:(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ –وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ (النَّارُ)– لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ) فما هي سبحات وجهه ؟

قال ابن خزيمة في توحيده:"إن لوجه ربنا عز وجل من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابَه لأحرقت سبحاتُ وجهِه كلَّ شيءٍ أَدْرَكَهُ بصرُه والوجهُ محجوبٌ عن أبصار أهل الدنيا لا يراه بشر ما دام في الدنيا الفانية" .

مسألة:ورد في البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:(خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ:اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ:السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا:السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ) فما المقصود في الحديث بقوله:(عَلَى صُورَتِهِ) ؟

الجواب:المقصود به أحد وجهين وكلاهما صحيح:

الأول:أن الله خلق آدم على الصورة التي اختارها له، وأضافها لنفسه إضافةَ تشريف وتكريمٍ كإضافة الناقة والبيت لله كقوله:﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ وقولك:بيت الله .

الثاني:أنه خلقه على صورته الحقيقية لكنْ لله وجهٌ يليق بجلاله وللمخلوق وجهٌ يليق به فلا يلزم التماثل.

واختلف العلماء في الضمير هل يعود لله أو لغيره ؟ والصحيح أنه يعود لله ونقل إجماعَ السلف على ذلك ابنُ تيميةَ كما في (نقض التأسيس) وممن خالف في هذا ابن خزيمة رحم الله الجميع.(**انظر: التوحيد لا بن خزيمة**) .

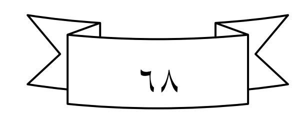
مسألة: ذكر البخاري رحمه الله في قوله:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ عند تفسير سورة القصص قال:يقال إِلاَّ مُلْكَهُ وَيُقَالُ إِلاَّ مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ ؟

الجواب:هذا الكلام من البخاري فيه إشكال، لكنه يزول بأمرين:

الأول:أن البخاريَّ على مذهب أهل السنة والجماعة فقد أثبت صفة الوجه لله تعالى في مواضع أخرى وعلى فتفسيره هذا لم يكن تأويلا لصفة الوجه، بل هو تفسير للآية باللازم، فإن بقاء وجه الله تعالى يستلزم بقاء ذاته وبقاء ملكه وجلاله.

الثاني:أنه إن لم نقل بالأمر الأول فإنه رحمه الله عند نقله قال:(يقال) وهذه صيغة تمريض تدل على أنه لم يثبت ذلك وإنما ذكر هذا لبيان ضعفِ ذلك القولِ .

فقوله:{ كل شيء هالك } أي : كل من في السموات والأرض سيفنى ولا يبقى . { إلا وجهه } منصوب على الاستثناء،وفيه بيان دوام بقاءه وحياته بخلاف غيره.



ومن أدلة أهل السنة والجماعة على إثبات صفة الوجه لله تعالى حديثُ زيد بن ثابت وفيه:(وَأَسْأَلُكَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ) رواه أحمد والنسائي وهو حسن .

وفسر الفرق الضالة الوجهَ بالثواب وهو باطل من وجوه:

الأول:أن هذا فيه مخالفة لظاهر النص وما كان مخالفاً فيحتاج لدليل ولا دليل .

الثاني:أن الوجه صفة من صفات الله غيرُ مخلوقٍ ولا بائنٌ أما الثوابُ فهو مخلوقٌ بائنٌ عن الله فكيف يفسر هذا بهذا .

الثالث:أن الوجه وُصِفَ بعدة صفات ولا تنطبق واحدة منها على الثواب فالوجهُ موصوفٌ بالجلال والإكرام، وبأن له نوراً يستعاذ به، وبأن سبحاتَه تحرقُ ما انتهى إليه بصرُ الله من خلقه فكل هذه الأوصافِ تمنع أن يكون المرادُ به الثوابَ .

ومنهم من فسره بأنه مجاز عن الذات وهذا أيضاً خطأ من وجوه:

١- أنَّه فرَّقَ بين الذَّاتِ والوجهِ، وعطفُ أحدِهما على الآخرِ يَقْتَضِي المغايرةَ، كما في حديثِ: ((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المسْجِدَ قَالَ أَعُوذُ باللهِ الْعظِيمِ وبِوجْهِهِ الكرِيْمِ))وتأمَّلْ أيضاً كيفَ قرنَ بينَ الاستعاذةِ بالذَّاتِ والاستعاذةِ بوجهِهِ الكريمِ وهذا صريحٌ في إبطالِ قولِ مَنْ قالَ: إنَّه الذَّاتُ نفسُها، وقولِ مَنْ قالَ: إنَّه مخلوقٌ، إذ الاستعاذةُ لا تجوزُ بمخلوقٍ.

٢- في قوله تعالى:(**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**) أضافَ الوجهَ إلى الذَّاتِ، وأضافَ النَّعتَ إلى الوجهِ، ولو كانَ ذِكْرُ الوجهِ صلةً ولم يكن صفةً للذَّاتِ لقالَ ذي الجلالِ، فلمَّا قالَ ذو الجلالِ تبيَّنَ أنَّه نعتٌ للوجهِ، وأنَّ الوجهَ صفةٌ للذَّاتِ، كما ذكرَ معنى ذلك البَيْهقيُّ والخطَّابيُّ.

٣- أنَّ الوجهَ حيثُ وردَ فإنَّما وردَ مضافًا إلى الذَّاتِ في جميعِ موارِده، **والمضافُ إلى الرَّبِّ نوعانِ**:

الأول:إضافة أعيانٌ قائمةٌ بنفسِها، كبيتِ اللهِ وناقةِ اللهِ ورَوْحِ اللهِ وعبدِ اللهِ، فهذه إضافةُ تشريفٍ وتخصيصٍ، وهي من باب إضافة المخلوق إلى خالقه .

الثَّاني: إضافة معاني لا تقومُ بنفسِها وهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ، كعلمِ اللهِ وحياتِه وقُدرتِه وسَمْعِه وبصرِه ونورِه ووجهه، فهذه إضافتُها إليه -سُبْحَانَهُ وتعالَى- إضافةُ صفةٍ إلى موصوفٍ بها،لا إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، إلى غيرِ ذلك مِن الوجوهِ الَّتي ذكرها ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ في (**الصَّواعقِ المرسلة**).

٤- أنه لا يعرف في لغة أمة من الأمم أن وجه الشيء بمعنى ذاته أو الثواب، والوجه في اللغة مستقبل كل شيء لأنه أول ما يواجه منه وهو في كل شيء بحسب ما يضاف إليه.

وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ .

....

في هذه الآيات بيان إثبات صفة اليدين لله سبحانه وتعالى على ما يليق به جل وعلا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ لما أمر الله إبليس بالسجود لآدم امتنع فقال الله له ما الذي صدك صرفك عن السجود لما باشرت خلقه بيدي من غير واسطة، وفي هذا تشريف وتكريم لآدم جاء في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو: ((إنَّ اللهَ لَمْ يُبَاشِرْ بِيدِهِ أَوْ لَمْ يَخْلُقْ بِيَدِهِ إلاَّ ثَلاَثًا: خَلَقَ آدمَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ)).

.وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾

سمي اليهود بذلك من قولهم :{ هدنا إليك }من الهود وهو الرجوع وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازما لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح . وقيل : سموا بذلك نسبة إلى يهودا بن يعقوب عليه السلام .

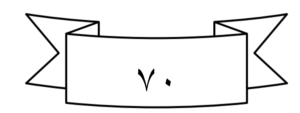
وفي الآية إخبار الله تعالى عن اليهود بأنهم وصفوه بالبخل وأن يده مغلولة أي: ممسكة كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، لا أنهم يعنون أن يده موثقة . { غلت أيديهم }أي: حبسة ومنعت عن الإنفاق وهذا رد عليهم من الله تعالى بما قالوه ومقابلة لهم بما افتروه واختلقوه، وهكذا وقع لهم فإن فيهم من البخل والحسد الشيء الكثير، فلا ترى يهوديا إلا وهو من أبخل خلق الله . { ولعنوا بما قالوا } معطوفة على ما قبله والباء سببية، أي : أبعدوا من رحمة الله بسبب هذه المقالة .

ثم رد عليهم سبحانه بقوله : { بل يداه مبسوطتان } أي : من الجود والعطاء والكرم { ينفق كيف يشاء } : جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده . فإنفاقه على ما تقتضيه مشيئته فإن شاء وسع وإن شاء ضيق فهو الباسط القابض على ما تقتضيه حكمته .

وقد جاءت الأدلة بإثبات اليد على ثلاث صور:

١.**التثنية** كقوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ وقوله: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ .

٢.**الإفراد** كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ وقوله: **{تَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ}**.



ويجاب عن الإفراد مع ثبوت التثنية بأن المفردَ في لغة العرب إذا أضيفَ يعمُّ، فهنا يَدُ لفظٌ مفردٌ وقد أضيف إلى الله فيعمُّ كلَّ ما يثبت لله في هذه الصفة ومنه قوله تعالى:﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ فمعلومٌ أن نعمَ الله ليست نعمةً واحدةً بل نعمُه لا تعدُّ ولا تحصى ولكنْ لما أضافها إلى لفظ الجلالة عمت .

٣.**الجمع** كقوله تعالى:﴿ مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا ﴾ .

ويجاب عن الجمع مع ثبوت التثنية بأن الله جمعها في الآية لأمرين:

أ.للتعظيم فإن الجمع يفيد ذلك .

ب.لمناسبة الضمير المضاف إليه بعدها وهو:(نا) وهو يستعمل مع الجمع لكنه هنا للتعظيم لأن الذي عملَ الأنعامَ واحدٌ، ففي الآية تعظيمٌ بعد تعظيمٍ .

وأما الجمع بين ما جاء بلفظ التثنية وبلفظ الجمع فإن قلنا: أقل الجمع اثنان فلا منافاة أصلاً بين صيغتي التثنية والجمع؛ لاتحاد مدلوليهما.

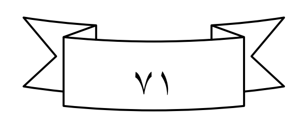
وإن قلنا: أقل الجمع ثلاثة وهو المشهور فالجمع بينهما أن يقال: إنه لا يراد من صيغة الجمع مدلولها الذي هو ثلاثة فأكثر، وإنما أريد بها – والله أعلم – التعظيم والمناسبة، أعني مناسبة المضاف للمضاف إليه؛ فإن المضاف إليه، وهو "نا" يراد به هنا: التعظيم قطعاً؛ فناسب أن يُؤتى بالمضاف بصيغة الجمع ليناسب المضاف إليه؛ فإن الجمع أدلّ على التعظيم من الإفراد والتثنية، وإذا كان كل من المضاف والمضاف إليه دالًّا على التعظيم حصل من بينهما تعظيم أبلغ.(فتح رب البرية٧٤)

وقد جاءت السنةُ مفسرةً هذه الصورَ الثلاثةَ فَيَتَبَيَّنُ أنها يدان فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، وَالأَرَضِينَ بِيَدِهِ أَحْسَبُهُ قَالَ:الأُخْرَى ثُمَّ يَقُولُ:أَنَا الْمَلِكُ)، وجاء في رواية أنه ﷺ قال:(وَيَقْبِضُ الأَرَضِينَ بِيَدِهِ الشِّمَالِ) لكن ضعف بعضُ أهل العلم لفظةَ الشمال وحكم عليها بالشذوذ منهم البيهقيُّ في كتاب (الأسماء والصفات)وكذلك ابن خزيمة في(التوحيد) وقالوا:إنه ليس لله يد شمال وأن اليد الثانيةَ تسمى يميناً كما في حَدِيثِ زُهَيْرٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا) رواه مسلم، ومن أهل العلم من أثبتها كالدارمي وابن تيمية وأبي يعلى ومحمد ابن عبد الوهاب وقالوا:إنها بمنزلة اليمين .

وقد فسر الفرق الضالة اليدينِ بالنعمة أو القوة وهذا باطل من وجوه:

الأول:أن هذا خلاف ظاهر النص .

الثاني:أنه خلافُ ما عليه السلف الصالح .



الثالث:أن اللغةَ لا تَقْبَلُ ذلك في مثل السياق الذي جاءت به مضافة لله تعالى لقوله:﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ فلا يصح أن يكون المعنى لما خلقت بنعمتَيَّ أو قوتَيَّ أو قدرتي،ولو كانَ المرادُ باليدِ القدرةَ لوجبَ أَنْ يكونَ له جل وعلا قُدرتانِ، وقدْ أجمعَ المسلمون على أنَّه لا يجوزُ أَنْ يقال بأن لله قُدرتانِ، وكذلكَ لا يجوزُ أنْ يُقَالَ خَلَقَ آدمَ بِنعمَتين؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ على آدمَ وغيرِهِ لا تُحصى. .

الرابع:أن اليد التي أضافها الله لنفسه جاءت بألفاظ منها: الكف واليد والبسط، ومن صفاتها الثابتة الأصابعِ والقبضِ والبسط والطي والخلق باليدين والمباشرة بهما، وهذا يمنعُ أن يكونَ المرادُ بهما القوةَ أو النعمةَ أو القدرة .

وهناك غيرها من الوجوه وممن أطال في هذا وأجاد ابن القيم في(الصواعق المرسلة) والبيهقي في(الأسماء والصفات) والدارمي في (النقض).

الخامس: أنه لو كان المراد باليد القدرة كما يقولون لبطل تخصيص آدم بخلقه بهما، فإن جميع المخلوقات حتى إبليس خلقت بقدرته، فأي مزية لآدم على إبليس في قوله : { لما خلقت بيدي } . فكان يمكن لإبليس أن يقول : وأنا خلقتني بيديك إذا كان المراد بها القدرة .

مسألة:ما المقصود بالأيدي في قوله:﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ .

الجواب:المقصودُ بها القوةُ فهي مصدر (آدَ - يَئِيدُ) كباع يبيع أي قَوِيَ ولهذا لَمْ يضفْها الله لنفسه .

....

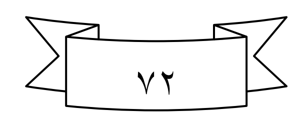
وَقَوْلُهُ:﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾

....

في هذه الآيات أراد المصنف رحمه الله إثبات العينين لله تعالى كما يليق بجلاله الكريم. وَقَوْلُهُ:﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

الصَّبْرُ واجب بالإجماع وهو في اللغةً: الحبسُ والمنعُ، وهو حبسُ النَّفْسِ عن الجزعِ، وحبسُ اللسانِ عن التَّشكّي والتَّسخُّط، وحبسُ الجوارحِ عن لطمِ الخدودِ وشقِّ الجيوبِ.

والصبر على ثلاثةِ أقسامٍ:صبرٌ على طاعةِ اللهِ وهو أفضلها، وصبرٌ عن معصيةِ اللهِ، وصبرٌ على أقدارِ اللهِ المؤلمةِ.
وزاد بعض أهل العلم: الصبرُ عن الأهواءِ المضلَّةِ.



وقد تكاثرتِ الأدلَّةُ على الحثِّ على الصَّبرِ والتَّرغيبِ فيه والثَّناءِ على أهلِه، قال الإمامُ أحمدُ: ذَكَرَ اللهُ الصَّبرَ في تِسعين موضعًا من كتابِهِ.

وفي الآيةِ إثباتُ صفةِ الحُكمِ للهِ –سُبْحَانَهُ– وتعالى كما تقدم وفي الآية إثبات صفة العينين كما يليق بالله تعالى.

وقَوْلُهُ تعالى: (واصبر لحكم ربك) **أي : لقضائه الكوني والشرعي (فَإِنَّكَ بأَعْيُنِنا): أي: بِمَرأى منَّا،** وتحتَ حفظِنا وكَلاءَتِنَا كما قال تعالى:(واللهُ يعصِمُكَ مِن النَّاسِ).

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾

قوله : {وحملناه } أي: نوحا عليه السلام{ على ذات ألواح ودسر } أي : على سفينة ذات أخشاب عريضة ومسامير شدت بها تلك الألواح، ومفرد دسر : دسار{ تجري بأعيننا } أي : بمنظر ومرأى منا وحفظ لها. { جزاء لمن كان كفر } أي :فعَلنا بنوح عليه السلام وبقومه ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثوابا لمن كفر به وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام .

وقوله : { وألقيت عليك محبة مني }أي: وضعت عليك ياموسى المحبة فأحببتك وحببتك إلى خلقي{ولتصنع على عيني } أي : ولتربى وتغذى بمرأى مني ورعايتي .

وقد وردت صفة العينين في القرآن على صورتين:

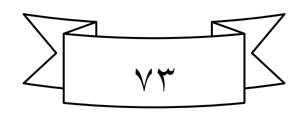
الأولى:الجمعُ كقوله:﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

الثانية:الإفرادُ كقوله:﴿ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ ويقال فيها كما قيل في صفة اليد.

والدليل على إثبات العينين لله تعالى من السنةِ ما ورد عَنْ نَافِعٍ قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللهِ بن عمر:ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَيِ النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ:(إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ أَلاَ إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ) رواه البخاري، وورد عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلاَةِ فَإِنَّمَا هُوَ بَيْنَ عَيْنِي الرَّحْمَنِ ...)رواه أبوداود وقد ضعفه الألبانيُّ، وجَوَّدَ إسنادَهُ ابنُ تيميةَ .

وفي الآيات إثباتُ محبَّةِ الله جل وعلا لعبدِه موسى، وتحبيبِه لخلقِه، وعنايته به وتربيتُه على مَرأًى منه،وهذه المحبة لا ينالها إلا من اتصف بصفة الولاية، ولا يرتقي العبد لهذه الصفة إلا إذا جمع بين الأيمان والتقوى قال شيخ الاسلام ابن تيمية:"من كان مؤمناً تقياً كان لله وليا".

....



وَقَوْلُهُ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

....

هذه الآياتُ فيها إثبات لصفةَ السمعِ والبصرِ لله كما يليق بجلاله وقد سبق الكلام عليهما،وسبب نزول سورة المجادلة هو ما حصل يبن خولةُ بنتُ ثعلبةَ، وزوجُها أوسُ بنُ الصَّامتِ، وذلك حينَ ظاهرَ منها، وقال لها: أنتِ علَيَّ كظهْرِ أمِّي، فأتت النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- فقال: ((قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ)) فَقَالَتْ: إنَّ لِيْ صِبْيةً صِغَارًا إنْ ضَمَمْتُهُمْ إليَّ جَاُعوا، وإنْ ضَمَمْتُهمْ إليهِ ضَاعُوا، فَقَالَ: ((قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ)) فَقَالَت: أَشكو إلى اللهِ فَاقَتي وجَهْدِي، وكُلَّما قَالَ حَرُمْتِ عَلَيْه جَعَلَتْ تَهْتفُ وتَشْكُو)) قالت عائشةُ رَضِي اللهُ عَنْهُا: "الحمدُ للهِ الَّذي وَسِعَ سمعُه الأصواتَ، لقد جاءتِ المجادلةُ تشتَكِي إلى رسولِ اللهِ وأنا في جانبِ الحُجرةِ يخفى عَلَيَّ بعضُ كلامِها فأنزلَ اللهُ قَولَهُ: (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا)"

وفي الآية أنَّ الشَّكْوى إليه -سُبْحَانَهُ- لا تُنافي الصَّبرَ، ومثلها شكايةِ يعقوبَ عليه السلام إلى اللهِ، وأمَّا الشَّكوى إلى المخلوقِ فإنَّها تُنافي الصَّبرَ ما لم تكن إخبارًا بالحالِ كإخبارِ المريضِ للطبيبِ، وقد كانَ النَّبيُّ إذا دَخَلَ على مريضٍ يسأله عن حالِه، ويقولُ: كَيْفَ تَجِدُكَ ؟

وقَولُهُ: (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ ونَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا) سببُ نزولِ هذه الآيةِ: أنَّ اليهودَ حينَ سَمِعوا قَولَهُ: (مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا): قالوا: إنَّ إلهَ محمَّدٍ يَستقرضُ منَّا، فنحنُ إذًا أغنياءُ وهو فقيرٌ. وفي قولِهِ: (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ) تحذيرٌ وتخويفٌ، فليسَ المرادُ به مجرَّدَ الإخبارِ بالسَّمْعِ وإنما الإخبارُ بما يترتَّبُ على ذلك من المجازاةِ بالعدلِ.

وقوله :{أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم}ما يسرون به في أنفسهم أو مع غيرهم سرا { ونجواهم }أي : ما يتناجون به فيما بينهم والنجوى : ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره . { بلى } نسمع سرهم ونجواهم ونعلم به فهو -سُبْحَانَهُ- السَّميعُ الَّذي أحاطَ سمعُهُ بجميعِ المسموعاتِ. . { ورسلنا لديهم يكتبون } أي: أن الحفظة وهم الملائكة يكتبون جميع ما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال.

وقوله : { إنني معكما } أي: ياموسى هارون أنا معكم بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي {أسمع وأرى} أي : أسمع كلامكما وكلام عدوكما وأرى مكانكما ومكانه وما يجري منكما ومنه وهذا تعليل لقوله:{لا تخافا} .

وهذه المعيَّةُ معية خاصة وهي تَقْتَضي الحفظ والنصر والتأييد والإعانة وسيأتي أن المعيَّةُ تنقسمُ إلى قسمينِ: معيَّةٍ خاصَّةٍ ومعيَّةٍ عامَّةٍ، فالعامةُ: هي معيَّةُ العِلْمِ والإحاطةِ،والثانية: وهي المعية الخاصة، وهي معية القرب وسيأتي فيما بعد الكلام على المعية بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

وقوله : { ألم يعلم } أما يعلم أبو جهل حينما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة والهدى {بأن الله يرى} ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء والاستفهام للتقريع والتوبيخ .

وقوله :{ الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين } أي : يبصرك حين تقوم للصلاة وغيرها لوحدك أو في تقلبك راكعا وساجدا وقائما مع الجماعة { إنه هو السميع } لما تقوله { العليم } به .

وقوله : { وقل اعملوا } أي : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : { اعملوا } ما شئتم واستمروا على باطلكم ولا تحسبوا أن ذلك سيخفى { فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون } أي : ستظهر أعمالكم للناس وتُرى في الدنيا { وستردون } بعد الموت { إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون } فيجازيكم على ذلك .(شرح الفوزان)

وفي الآيات بيان اطلاع الله جل وعلا على خلقه، ورؤيته لهم، وأنه لاتخفى عليه خافية من أحوالهم،فحركاتهم وسكناتهم وسرهم وجهرهم، وجميع أفعالهم تحت نظره وقهره.

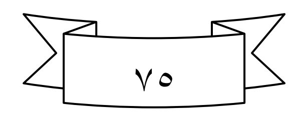
والرؤيةُ المضافةُ لله تأتي على معنيين:

الأول:العلم، وتعرف بما إذا نَصبت مفعولين، كقوله:﴿ **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا** ﴾ .

الثانية:رؤية المبصرات وتعرف بما إذا نصبت مفعولاً واحداً، كقوله:﴿ **ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ** ﴾ .

وفي هذه الآياتِ إشارةٌ إلى أنه ينبغي للعبد أن يعبدَ الله على استحضار قربِه واطلاعِه وأنه بينَ يديه وذلك يوجب الخشيةَ والخوفَ والهيبةَ والتعظيمَ لله ويوجب النصحَ في العبادة وهذا هو مقامُ الإحسان كما في حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال عن الإِحْسَانِ:(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...) رواه البخاري ومسلم .

وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضعَ كثيرةٍ وكذلك وردت أحاديثُ صحيحةٌ بالندب إلى استحضار هذا القرب حال العبادة كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :(إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي الصَّلاَةِ فَإِنَّمَا يُنَاجِي رَبَّهُ فَلاَ يَبْزُقَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ) رواه البخاري انتهى من كلام ابن رجب



رحمه الله .

....

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴾ .

....

هذه الآيات فيها إثبات صفة المحال والمحال من المحل وهو المكر والكيد، والأخذُ بقوة وشدةُ المحال إنما هو لمن طغى، **وفيها إثباتُ صفة المكر وهو فعل شيءٍ يراد به ضدُّه وهو على نوعين:**

الأول:مكرٌ محمود وهو إيصال المكروه لمن يستحقه من حيث لايشعر جزاء على فعله وهذا المعنى هو الذي يليق بالرب سبحانه وتعالى،ويُنْسَبُ إلى الله أعظمُه وأكملُه قال تعالى: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).

الثاني:مكرٌ مذموم وهو استدراج الآخر بطريق خفيةٍ وهو لا يستحق ذلك وهذا لا يجوز نسبته لله تعالى .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أي أن كفَّارُ بني إسرائيلَ حين أرادُوا المكر بعيسى وقتله وصَلبَه،جازَاهم الله على مكرِهم، بأنْ مكر بهم عز وجل حيث رفعَ عيسى إلى السَّماءِ وألقَى شَبهَهُ على مَنْ أرادَ اغتيالَهُ حتَّى قتلَ، كما نُقل.

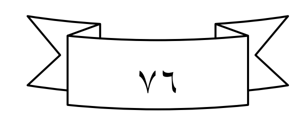
وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ هذه الآية في قوم صالحٍ عليه السلام حيث دبَّروا أمرَهُم على قتل صالح وأهلِه على وجهِ الخِفْيةِ، خوفًا مِن أوليائِه مكراً من عند انفسهم لكن الله تعالى نصرِ صالح عليهم وحفظه منهم، وأهلك القوم المكذبين .

قال تعالى: (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) قالَ الحسَنُ رحمَهُ اللهُ تعالى: "مَن وسَّعَ اللهُ عليه فلا يَرَى أنهَ يَمْكُرُ به فلا رأْيَ له"، وفي الحديثِ: ((إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فاعْلَمْ أَنَّما هُوَ اسْتِدْرَاجٌ)) رواه أحمدُ وابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ.

وهذا هو تفسيرُ المكرِ في قولِ بعضِ السَّلفِ: يستدرجُهُمُ اللهُ بالنِّعمِ إذا عصَوهُ، ويُملِي لهم ثمَّ يأخذُهم أخْذَ عزيزٍ مُقتدرٍ، وهذا مَعنى المكرِ والخديعةِ ونحوِ ذلك (تفسير الطبري).

قال بعض السلف:"إذا رأيتَ نعمَ الله على العبد نازلةً وهو مُوغِلٌ في العصيان والفسوقِ فهذا هو المكرُ" .

وفي الآيات إثباتُ صفة الكيدِ كما قال:﴿ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴾ أي أجازيهم على كيدهم وأستدرجهم **والكيدُ:** الاستدراجُ قال ابن القيم:"واللهُ يكيدُهم كما يكيدون دينَه ورسولَه وعبادَه، وكيدُه سبحانه استدراجُهم من حيث لا يعلمون والإملاءُ لهم حتى يأخذَهم على غِرَّةٍ وهم لا يشعرون كما قال تعالى:﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾



فالإنسانُ إذا أراد أن يكيدَ غيرَه يُظْهِرُ له إكرامَه وإحسانَه إليه حتى يطمئن إليه فيأخذُه كما يفعل الملوكُ فإذا فعل ذلك أعداءُ الله بأوليائِه ودينِه كان كيدُ الله لهم حسناً لا قُبْحَ فيه فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجُهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً ﴾ . (أنظر:التبيان في أقسام القرآن ١ / ٦٤) .

والكيد نوعان :

١- **قبيح مذموم** وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

٢- **حسن محمود** وهو إيصاله إلى من يستحقه عقوبة له وهذا اللائق بالله تعالى.

وهذه الصفات: المحال والمكر والكيد تُثْبَتُ لله على ما يليق بجلاله وكماله وجماله **وهي من الصفات الفعلية التي تليق به لكن لا يوصف الله بها إلا من باب المقابلة .**

وكل هذه الصفات تلاحظ أنها تدور حولَ إيصالِ العقوبة إلى الخصمِ بالطرق الخفية لمن يستحق العقوبة .

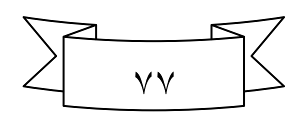
لكن الله لا يوصف بها على الإطلاق كما تقدم قال ابنُ القيِّم رحِمه اللهُ: " واللهُ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- لم يصفْ نفسَهُ بالكيدِ والمكرِ والخداعِ والاستهزاءِ مطلقًا، ولا ذلك داخلٌ في أسمائِه الحُسْنى، فإنَّ هذه الأفعالَ ليست ممدوحةً مطلقًا، بل تُمدحُ في موضعٍ وتُذمُّ في موضعٍ، فلا يجوزُ إطلاقُ أفعالِها على اللهِ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- مطلقًا، فلا يقالُ: إنَّ اللهَ يمكرُ ويخادعُ ويستهزئُ، فكذلك بطريقِ الأوْلَى أن لا يُشْتَقَّ لَه منها أسماءٌ يُسمَّى بها؛ بل إذا كانَ لم يأتِ في أسمائِه الحُسنى المريدُ ولا المتكلِّمُ ولا الفاعلُ ولا الصَّانعُ؛ لأنَّ مسمَّياتِها تنقسمُ إلى ممدوحٍ ومذمومٍ، فكيفَ يكونُ منها الماكرُ والمخادعُ والمستهزئُ، وهذا لا يقولُهُ مسلمٌ ولا عاقلٌ، والمقصودُ أنَّ اللهَ لم يصفْ نفسَه بالكيدِ والمكرِ والخداعِ إلا على وجهِ الجزاءِ لمن فعلَ ذلك لغيرِ حقٍّ، وقد عُلم أنَّ المجازاةَ حسنةٌ من المخلوقِ فكيف من الخالقِ سُبْحَانَهُ وتعالى".(مختصر الصواعق المرسلة ٣٠٧)

فنسبة الكيد والمكر ونحوهما إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالى، والفعل أوسع من الاسم ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء ولم يسم بالمريد والشائي وكذا مكر ويمكر وأكيد كيدا، ولا يقال الماكر والكائد لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم كما تقدم من كلام ابن القيم رحمه الله .

....

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ .

....



هذه الآيات فيها وصف الله تعالى بالعفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة اللائقة به.

وقوله:{ إن تبدوا خيرا } أي: تظهروه{ أو تخفوه} أي:تسروه { أو تعفوا عن سوء } أي : تتجاوزوا عمن أساء إليكم { فإن الله كان عفوا قديرا } عن عباده يتجاوز عنهم مع قدرته على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم فاقتدوا به سبحانه فإنه يعفو مع القدرة، وجمع اللهُ بينَ العفو والقدرة لأن كمالَ العفو لا يكون إلا عن قدرةٍ على الإنتقام .

وَقَوْلُهُ:﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

العفْوُ: السَّترُ والتَّجاوزُ، **والصّفحُ**: الإعراضُ، مشتقٌّ مِن صفحةِ العُنُقِ، وهو الإعراض عن عقابِ المذنبِ وعتابِه، وكأنَّه ولاَّه صفحةَ عُنقهِ، وهو أبلغُ مِن العفوِ؛ لأنَّ الصَّفحَ لا لومَ فيه ولا تَثريبَ.

وهذه الآيةُ نزلَتْ في شأنِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ حين حلفَ أنْ لا يُنْفِقَ على مِسطَحِ ابنِ خالتِه لخوضِه في أمْرِ عائشةَ، وكان مسكينًا بدريًّا مهاجِرًا، فلمَّا تلاها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على أبي بكرٍ قالَ: بلى أحِبُّ أنْ يغفرَ اللهُ لي، وردَّ على مِسطحٍ نفقتَه.

قال أهل العلم:"هناك فرق بين العفو والصفح وذلك أن الصفحَ أوسعُ لأن مَنْ صَفَحَ فقد نَسِيَ الإساءَةَ والعدوانَ، بخلاف العفو إذ قد لا يَصْحَبُهُ نسيانٌ للإساءة" .

وقالوا : العفو الذي يُثْنَى على صاحبه هو العفوُ المقرونُ بالإصلاح:﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فإن كان عفواً بلا إصلاح فهو عفو ناقص.

وفي الآية إثباتُ فعلِ العبدِ وأنَّه فاعلٌ حقيقةً،وهذا رد على المجبرةِ الَّذين يزعمونَ أنَّ العبدَ لا فِعلَ له، وإنَّما يُنسبُ إليه الفعلُ على جهةِ المجازِ، **ولو كان الأمرُ كما يزعمونَ** لم يُؤمرْ بما ذُكِر، ولم يُنسبْ إليه الفعلُ، ولم يعاقَبْ على سوءٍ، وقَولُهُم باطلٌ تردُّه أدلَّةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، بل الفطرةُ والعقلُ وطردُه يَختلُّ به النِّظامُ، ولا يمكنُ أنْ تعيشَ عليهِ أمَّةٌ أبدًا.

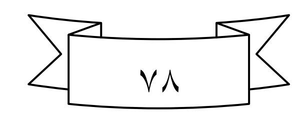
ثم ذكر المصنف رحمه الله الآيات الدالة على وصف الله تعالى بالعزة،والعزة على ثلاثة معان:

الأولى:بمعنى ممتنع الجناب عن أنْ يصلَ إليه ضررٌ أو يلحقَه نقصٌ أو عيبٌ كقوله:﴿ **وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ .

الثانية : بمعنى القوة كقولهم:(من عزيز) أي قوي.

الثالثة : بمعنى غلبة الغير وقهرِه من عَزَّ يَعَزُّ بفتح العين، ومنه قوله:﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾ أي غلبني.

وكلُّ هذه المعانِي ثابتةٌ لله سبحانه وتعالى بمقتضى اسمه العزيز، كما قال: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فَألْ تفيدُ الاستغراقَ والشُّمولَ لجميعِ معانِي العزِّ **وهي من الصفات الذاتية الثابتة لله** تعالى كما يليق بجلاله سبحانه.



وقوله: { ولله العزة ولرسوله } هذا رد على المنافقين الذين زعموا أن العزة لهم على المؤمنين والعزة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسوله وصالحي عباده لا لغيرهم .

وَقَوْلُهُ:عن إبليس أنه قال :﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أي:أقسم بعزة الله تعالى :{ لأغوينهم أجمعين } لأضلن بني آدم بتزيين الشهوات لهم وإدخال الشبهات عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً ثم لما علم أن كيده لا ينجح إلا في أتباعه من أهل الكفر والمعاصي استثنى فقال:{ إلا عبادك منهم المخلصين }

في الآية دليلٌ على جواز الحلف بعزَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وكذا غيرُها من صفاتِه، وفيها دليلٌ على أنَّ صِفاتِ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ، إذ الحَلِفُ بالمخلوقِ شِركٌ، **والعزَّةُ المضافةُ إليه –سُبْحَانَهُ– تنقسمُ إلى قِسمين:**

القسم الأول:قسم يضافُ إليه –سُبْحَانَهُ– من بابِ إضافةِ المخلوقِ إلى خالقِه، وهي العزَّةُ المخلوقةُ الَّتي يُعِزُّ بها أنبياءَه وعبادَه الصَّالحينَ.

القسم الثَّاني: يقسمُ ضافُ إليه من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، كما في هذه الآيةِ:﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ ، وكما في الحديثِ: ((أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ)).

وفي الآية بيان إقرار الشيطان بصفات الله تعالى وإذا كان هذا من الشيطان وهو ولي الشر يقر بها فكيف نجدُ من بني آدم مَنْ ينكرُ صفاتِ الله تعالى؟ فهل الشيطانُ أعلمُ من هؤلاء النفاة ؟ .

واعلم أن عزةَ الله لا يعتريها ذلٌ بخلاف عزة المخلوق فإنه يعتريها ذلٌ لحكم عظيمة كما في قوله:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وكما حصل في غزوة حنين عندما ولَّوا مدبرين ولم يبقَ إلا الرسولُ ﷺ وفئةٌ قليلةٌ وهنا حصلت الذلةُ لهذه الطائفة المؤمنة ومنهم النبي ﷺ .

ومن يردْ العزَّةَ فليطلُبْهَا بطاعةِ اللهِ ورسولِه،فالعزَّةُ والعلوُّ إنَّما هما لأهلِ الإيمانِ، قال تعالى: (وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ) **فللعبدِ من العلُوِّ والعزة بحسبِ ما معه من الإيمانِ، فإذا فاتَه حظُّه من العُلوِّ والعزَّةِ ففي مقابَلةِ ما فاتَه من حقائقِ الإيمانِ عِلمًا وعَملاً، ظاهرًا وباطِنًا،** فالمؤمنُ عزيزٌ عالٍ مُؤَيَّدٌ منصورٌ مُكفيٌّ مدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أينَ كان، ولو اجتمعَ عليه من أقطارِها إذا قامَ بحقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه، فمنْ نقصَ إيمانُه نقصَ نصيبُهُ من النَّصرِ والتَّأييدِ بحسبِ ما نَقصَ من إيمانِه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وَقَوْلُهُ: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ .

....

بدأ المصنف رحمه الله بالكلام على إثبات الاسم لله تعالى ونفي المثل عنه فذكر قَوْلُهُ تعالى: **﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾** **البركةُ لغةً**: النَّماءُ والزِّيادةُ. **والتَّبريكُ** : الدُّعاءُ بالبركة، **ومعنا تبارك** أي: تعاظم وعلا وارتفع وهذا اللفظ(تبارك) لا يطلق إلا على الله.

والبركةُ كما قال ابن القيم رحمه الله نَوعانِ:

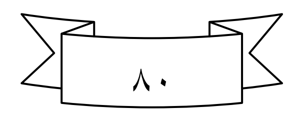
" **أحدُهما: بركةٌ هي فِعلُه**، والفعلُ منها بارَكَ، والمفعولُ منها مُبارَكٌ، وهو ما جَعلَ فيها ذلك، فكانَ مُباركًا بجعلِه سُبْحَانَهُ.

والثَّاني: بركةٌ تُضافُ إليه إضافةَ الرَّحمةِ والعزَّةِ، والفعلُ منها تَبارَكَ، ولهذا لا يُقالُ لغيرِهِ ذلك ولا يصلحُ إلا له سُبْحَانَهُ، فهو المتبارِكُ ورسولُه مُبارَكٌ. كما قالَ المسيحُ: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ) فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك،**وأمَّا صِفتهُ –سُبْحَانَهُ وتعالَى– (تبارَكَ) فمختصةٌ به –سُبْحَانَهُ–**، كما أطْلقَها على نفسِه بعدة آيات منها قوله تعالى :(تبارك الله رب العالمين)(تبارك الذي بيده الملك) (تبارك الله أحسن الخالقين)". (بدائع الفوائد (/ ١٨٥)

وما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله من المنع من إطلاق لفظ (تبارك على المخلوق) واختصاصها بالله هو ما اختاره الشيخ ابن إبراهيم في الفتاوى (٢٠٧/١) والشيخ ابن باز في شرحه للبلوغ في كتاب الجامع والشنقيطي في الأضواء في أول سورة الفرقان.

وذهب الشيخ بكر أبوزيد إلى أنه لفظ لا محذور فيه (أنظر:معجم المناهي اللفظية ص٦٢٨) وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قول العامة (تباركت علينا) لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله عز وجل وإنما يريدون أصابنا بركة من مجيئك والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان قال أسيد بن حبير لما نزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة الذي ضاع منها قال :" ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر "(المناهي اللفظية)

وعلى كل حال فإن البعد عن هذه اللفظة أسلم للمسلم وأبرأ لدينه وأما قول: فلان مبارك أو فيه خير وبركة أو يدعى له بالبركة كقول بارك الله فيه أو قول هذا ببركة فلان فهذا جائز إستنادا لقول أسيد بن حضير رضي الله عنه عند ضياع عقد عائشة رضي الله عنها :"ما هذه بأول بركتكم ياآل أبي بكر".



وفي الآية كما تقدم إثبات الاسم لله تعالى واسم الله اذا صاحب شيئا حلت فيه البركة بإذن الله ففي الحديث وإن كان فيه مقال:(كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر) أي: ناقص البركة.

أما الجلال والإكرام فقد تقدم الكلام عليهما في آيات إثبات الوجه.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾

العبادةُ لغةً: الذُّلُّ، يُقالُ طريقٌ معبَّدٌ إذا كان مذلَّلاً قد وطئَتهُ الأقدامُ. وعرَّفَها الشَّيخُ تقِيُّ الدِّينِ بنُ تيمية رحمهُ اللهُ تعالى **إصطلاحا بقوله**: "العبادةُ اسمٌ جامِعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللهُ وَيَرضَاه، مِن الأقوالِ والأعمالِ الباطنةِ والظَّاهِرةِ"

وفي الآية دليلٌ على أنَّ العبادةَ تجبُ على كلِّ مكلَّفٍ، وأنَّه مهما بلغَ فلنْ يصلَ إلى حدٍّ تسقطُ عنه التَّكاليفُ الشَّرعيَّةُ، ومَن زعَمَ ذلك فهو كافرٌ باللهِ العظيمِ، فإنَّ قَولَهُ: **(فَاعْبُدْهُ واصطبر لعبادته)** خِطابٌ لنبيِّه، وأمَّتُهُ تبعٌ له بالعباده والإصطبار على مشاقها، وإذا كانَ هذا في حقِّه -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- فغيرُه مِن بابِ أوْلى وأحْرَى.

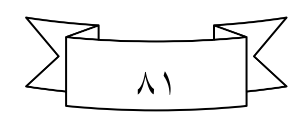
وقوله:(هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا)أي:هل تعلمُ له مُساميًا ومُشابِهًا ومُماثلاً من المِخلُوقين؟ وهذا الإستفهامُ بمعنى النَّفيِ المعلومِ بالعقلِ، أي: لا تعلمُ له مُشابِهًا؛ لأنَّه الرَّبُّ وغيرُه المربوبُ، وهو الكاملُ الَّذي له الكمالُ المِطلقُ، وغيرُه الناقِصٌ ، فلا مِثلَ له ولا شبيهَ ولا نظيرَ ولا سمي، لا في ذاتِه ولا في أسمائه وصِفاتِه، ولا في أفعالِه.

ثم ذكر المصنف رحمه الله آيات الصفات المنفية المتعلقة في تنزيه الله ونفي المثل عنه فقال وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ الكفء هو المثيل والمساوي وهذه الآية قد تقدم الكلام عليها.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

النِدُّ في اللغة: المِثلُ والنَّظيرُ والشَّبيهُ، يُقالُ فلانٌ نِدُّ فلانٍ، أي شبيهُه ونظيرُه،**والمراد هنا** أي: لا تجعلوا لله أمثالاً ونظراءَ تَعبدونَهم كعبادتِه وتُساوونَهم به في المحبَّةِ والتَّعظيمِ **ففي الآيتين المتقدمتين تنزيه الله عن المكافئ والند ونحو ذلك مما ينفى وينزه عنه تعالى.**

واتِّخاذُ النِدِّ على قسمين:



١- **القسم الأول: ماهو من الشِّركِ الأكبر**، كاتِّخاذِ ندٍّ يدعوُه أو يرجُوه أو يخافُه أو يذبحُ له أو ينذرُ له ونحوِ ذلك، كما في الصَّحيحينِ عن ابنِ مسعودٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: ((أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)) الحديثَ.

٢- **القسمِ الثَّاني: ما هو مِن نوعِ الشِّركِ الأصغر** كقولِ الرَّجلِ: ما شاء اللهُ وشئتَ، ولولا اللهُ وأنتَ لم يكنْ كذا، والحلفُ بغيرِ اللهِ ونحوِ ذلك، كما في حديثِ ابنِ عبَّاسٍ أنَّ رجلاً قال للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ما شاءَ الله وشئتَ، فقال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وحدَهُ)) أخرجه النَّسائيُّ وابنُ ماجةَ.

وقَولُهُ: (**وَأنتمْ تَعْلَمونَ**): أي إنَّهُ ربُّكم وخالقُكم وخالقُ كلِّ شيءٍ، فهو المستحقُّ للعبادةِ، فكيفَ تجعلونَ له أندادًا وقد عَلِمتم أنَّه لا نِدَّ له يشارِكُهُ في فعلِه؟!

وفي الآية الرَّدُّ على مَن زعَم أنَّ القرآنَ مخلوقٌ بقولِهِ: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) ويزعمُ: أنَّ جَعَلَ بمعنى خَلَقَ، والصحيح أن المراد صير أي: صيرناه لأن فيها نصب مفعولين. ولهذا ردَّ الإمام أحمدُ عليهم بقولِهِ سُبْحَانَهُ: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَادًا) فليستْ جعلَ بمعنى خَلَقَ هنا.

وقَوْلُهُ:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ أي: من الناس من يتخذ من المعبودات والأندادا شيئاً دون الله جل وعلا، يحبونها كمحبتهم الله تعالى،فيعبُدونَها لتقرّبهم إلى اللهِ زُلفى، فأخبَرَ سُبْحَانَهُ أنَّ مَن أحبَّ من دونِ اللهِ شيئًا كما يُحبُّ اللهَ فهو ممَّن اتَّخذَ من دونِ الله أندادًا، **وهذه المحبَّةُ هي المحبة الشِّركيَّةُ المستلزمةُ للخوفِ والتَّعظيمِ والإجلالِ والإيثارِ على مُرادِ النَّفسِ، وصرفُها لغيرِ اللهِ شِركٌ أكبرُ**، كما قال سُبْحَانَهُ: (وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ).

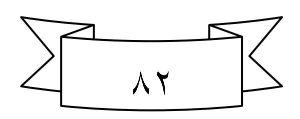
قال ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ: "فتوحيدُ المحبوبِ أنْ لا يتعدَّدَ محبوبُه، أي مع اللهِ بعبادتِه له، وتوحيدُ الحبِّ أنْ لا يَبْقى في القلبِ بِقيَّةُ حُبٍّ حتَّى يبذلَهَا له".

ولهذا صار الَّذين آمَنوا أشدُّ حُبًّا للهِ من محبَّةِ أهلِ الأندادِ للهِ؛ لأنَّ محبَّةَ المؤمنين للهِ خالِصةٌ ومحبَّةَ المِشركينَ لله مُشتركةٌ، قد أخَذت أندادُهُم قِسطًا من محبَّتِهم، والمحبَّةُ الخالصةُ أشدُّ من المِشتركة.

والمحبَّةُ كما قال ابن القيم رحمه الله على أقسام :

الأول: محبَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ،ولا تَكفي وحدَها بالنَّجاةِ من النَّارِ والفوزِ بالجنَّةِ، فإنَّ المِشركين يُحبُّون اللهَ سُبْحَانَهُ.

الثَّاني: محبَّةُ ما يُحبُّه اللهُ، وهذه المحبَّةُ هي الَّتي تُدخِلُ في الإسلامِ وتُخرِجُ من الكُفرِ، وأحبُّ النَّاسِ إلى اللهِ أقومُهم



بهذه المحبَّةِ. **الثَّالث: المحبَّةُ في اللهِ وللهِ**،وهي فرضٌ كمحبَّةِ أولياءِ اللهِ وبغضِ أعداءِ اللهِ، وهي مِن مُكَمِّلاتِ محبَّةِ اللهِ ومِن لوازمِها، فالمحبَّةُ التَّامَّةُ مستلزمةٌ لموافقةِ المحبوبِ في محبوبِه ومكروهِه وولايتِه وعداوتِه.

الرَّابع: المحبَّةُ مع اللهِ وهي المحبَّةَ الشِّركيَّةَ، المستلزمةُ للخوفِ والتَّعظيمِ والإجلالِ فهذه لا تصلحُ إلا للهِ سُبْحَانَهُ، ومتى أحبَّ العبدُ بها غيرَ اللهِ فقد أشركَ الشِّركَ الأكبرَ. **الخامس: المحبَّةُ الطَّبيعيَّةُ** وهي ميلُ الإنسانِ إلى ما يُلائِمُ طبعَه، كمحبَّةِ المالِ والولدِ ونحوِ ذلك، فهذه المحبَّةُ لا تُذَمُّ إلا إنْ أشغلتْ وألهتْ عن طاعةِ اللهِ كما قال سُبْحَانَهُ: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

....

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

....

في هذه الآيات ذكر المصنف رحمه الله الآيات الدالة على نفي الشريك عن الله تبارك وتعالى

وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ ﴾

هذه الآية تسمى بآية العز كما جاء في بعض الأحاديث وفيها مقال، وقد نقل ابن كثير رحمه الله عن قتادة أنه قال:"**ذُكِرَ لنا أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كان يُعَلِّمُ أهلَه هذه الآيةَ الصَّغيرَ والكبيرَ**".

وهذه الآيةِ أمَرَ اللهُ فيها نبيَّه عليه الصلاة والسلام بحمدِه؛ لأنَّه المستحقُّ أنْ يُحمدَ لما اتَّصفَ به مِن صفاتِ الكمالِ،وفيها تنزيهُهُ سُبْحَانَهُ عن الولدِ، لكمال صمديَّتِه وغِناه سبحانه ، قالَ جل وعلا: (قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ).

وفيها تنزيهُه سُبْحَانَهُ عن الشريكُ في المُلكِ مما يدل على تفرُّدَه بالرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ، وتوحُّدَه بصفاتِ الكمالِ الَّتي لا يُوصَفُ بها غيرُه، **وفيها بيان غناه جل وعلا عن الوليِّ أو الوزيرٌ أو المشيرٌ؛** لأنَّه سُبْحَانَهُ عزيزٌ لا يفتقرُ إلى وليٍّ يَحمِيه ويمنعُه مِن الذُّلِّ، لكمال غناه، لكنه جل وعلا لم يَنفِ الولايةَ على وجهِ المحبَّةِ والكرامةِ لمن شاءَ مِن عبادِه، فلم ينفِ الوليَّ نفيًا عامًّا مطلقًا،فقد أثبتَ في موضعٍ آخرَ أنْ يكونَ له أولياءٌ بقولِهِ: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) فهذه موالاةُ رحمةٍ وإحسانٍ، والموالاةُ المنفيَّةُ موالاةُ حاجةٍ وذُلٍّ، كما أشارَ إلى هذا المعنى ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ. فالولاية المنفية ولاية الحاجة والذل أما الثابتة فهي ولاية الرحمة والإحسان والكرم فالله سبحانه لم يتخذ وليا يعاونه ويحالفه لذلت به لأن من احتاج لمعاونة ومخالفة غيره أصابه الذل والله ينزه عن ذلك.

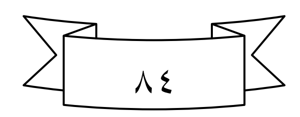
وفي قَوْلُهُ: (**الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**):ردٌّ على اليهودِ والنَّصارى والمشركين، فإنَّ النَّصارى يقولونَ المسيحُ ابنُ اللهِ، واليهودُ يقولونَ عُزيرٌ ابنُ اللهِ، والمشركون يقولونَ الملائكةُ بناتُ اللهِ.

وقَوْلُهُ:(**ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ**): ردٌّ على المجوسِ والمشركين والقدرية والثنوية ونحوهم ممن يقول بتعدد الآلهة،وقوله:(**وكبره تكبيرا**) أي: عظمه وأجله عما يقوله الظالمون .

وَقَوْلُهُ:﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

في الآيةِ دليلٌ على تسبيحِ جميعِ المخلوقاتِ للهِ تعالى، وأنَّه تسبيحٌ حقيقيٌّ، وهذا التَّسبيحُ قيل: بلسانِ الحالِ، وقيل: بلسانِ المقالِ وهو الصَّحيحُ، فاللهُ -سُبْحَانَهُ- قادِرٌ على خَلْقِ الإدراكِ في الجماداتِ وإنطاقِها، كما قالَ -سُبْحَانَهُ- عن الجلودِ: (أنطَقَنَا اللَّهُ الَّذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) والأصلُ في الكلامِ الحقيقةُ، وقد سَمِعَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- تَسبيحَ الحَصَى، ووَرَدَ أَنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ))، وفي الحديثِ: أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- لَمَّا خَطَب على المِنبرِ حَنَّ الجِذْعُ الَّذي كان يخطبُ عليه سابقًا، وقال تعالى: (وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ،والمراد بالتسبيح تنزيه الله تعالى ونفيُ كلِّ نقصٍ وعيبٍ يلحقه .

وقوله:(**له الملك وله الحمد**) الملك والحمد يختصان به ليس لغيره منهما شيء وما كان لعباده من الملكية فهو من عطائه { وهو على كل شيء قدير } فلا يعجزه شيء سبحانه .



وَقَوْلُهُ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾

تقدم الكلام قريبا عن (تبارك) **وفي الآية دليلٌ على أنَّ القرآنَ منَزَّلٌ غير مخلوق، وفيه إثبات علُوِّه الله** تعالى على خلقِه؛ لأنَّ الإنزالَ والتَّنزيلَ لا يكونُ إلاَّ مِن أعلى إلى أسفلَ ونزوله من عند الله **وفي الآيةِ فضلُ نبيِّنا** صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ **حيث أضَافه إليه ووصَفَه بالعبوديَّةِ** الَّتي هي من أشرفِ مقاماتِ العبدِ.

وقَولُهُ: (**لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**):أي جنا وإنسا وهذا من خصوصياته عليه الصلاة والسلام واللامُ في قَولِهِ: (ليكونَ) لامُ العلَّةِ ودخولُ لامِ التَّعليلِ في شَرعِه أكثرُ مِن أنْ يُعَدَّ، ففيهِ دليلٌ على تعليلِ أفعالِ اللهِ وأنَّه لا يفعلُ شيئًا إلا لعلَّةٍ وحكمةٍ وهذا قول السلف الصالح بخلاف ما ذهب إليه جهمٍ وأتباعِه ومن وافقه من الأشاعرة من أنَّه لم يَخلقْ شيئًا لشيءٍ.

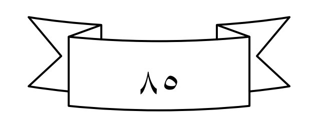
وقَولُهُ: (**لِلْعَالَمِينَ**): فيه دليلٌ على عمومِ رسالتِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبعثتِه إلى الجنِّ والإنسِ، وأنَّ الجنَّ مُكَلَّفون يُثابون على الحسناتِ ويُجازونَ على السَّيئاتِ.

وقَولُهُ: (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ**) أي: خلقَ كلَّ شيءٍ مخلوقٍ، فيدخلُ في ذلك أفعالُ العبدِ، فهي خلقٌ للهِ وفعلٌ للعبدِ، ولا يدخلُ في ذلك أسماءُ اللهِ وصفاتُه؛ لأنَّ الأسماءَ والصِّفاتِ تابعةٌ للذَّاتِ يُحتذى فيها حَذوُها وعمومُ (كُلَّ) في كلِّ مقامٍ بحسبِه كقَولِهِ سُبْحَانَهُ: (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) أي: كلَّ شيءٍ أُمِرَت بتدميرِه، وقَولُهُ: (وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ) أي من كلِّ شيءٍ يصلحُ للملوكِ فلا يدخلُ في ذلك القرآنُ؛ لأنَّ القرآنَ كلامُه وهو صفةٌ من صفاتِه، واللهُ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- بصفاتِه غيرُ مخلوقٍ، كما في الصَّحيحِ من حديثِ خولةَ: ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً وَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)) فاستعاذَ بكلماتِ اللهِ، والاستعاذةُ بالمخلوقِ شِركٌ، فَدَلَّ على أنَّ كلامَه -سُبْحَانَهُ- غيرُ مخلوقٍ كما استدلَّ بذلك أحمدُ وغيرُه.

ففي الآية تنزيه الله جل شأنه نفسه عن الولد وعن الشريك، وأنه خلق كل شيء فقدره تقديرا،فكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره .

وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

تقدم الكلام على معنى أول هذه الآية أما قوله:(....**وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ**) ففيها بيان أن ليس للخلق إلا خالق واحد هو المستحق للعبادة، ولو كان هناك إله غيره



لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ،ومنعَ غيرَه مِن الاستيلاءِ عليه، ولعلا بعضُهم على بعضٍ في المِغَالَبَةَ، كفعلِ ملوكِ الدُّنْيَا، فكلُّ واحدٍ منهم يطلبُ قهرَ الآخرِ، ولو قُدِّرَ ذلك لما انتظمُ الوجودُ، والواقع المِشاهدُ أنَّ الوجودَ مُنْتَظِمٌ مُتَّسِقٌ لا تعدد فيه ولا انقسام، (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ).

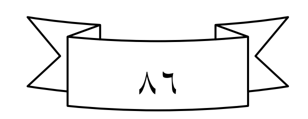
قال ابن القيم رحمه الله عن هذه الآية :" تأَمَّلْ هذا البرهانَ الباهرَ بهذا اللفظِ الوجيزِ البَيِّنِ، فإنَّ الإلهَ الحقَّ لا بُدَّ أَنْ يكونَ خالقًا فاعلاً يُوصلُ إلى عابديه النَّفعَ ويدفعُ عنهم الضُّرَّ، فلو كانَ معه إلهٌ آخرُ لكان له خلقٌ وفعلٌ....ولا بُدَّ من أحدِ أمورٍ ثلاثةٍ:

إمَّا أنْ يذهَبَ كلُّ إلهٍ بخلقِه وسلطانِه، وإمَّا أنْ يعلوَ بعضُهم على بعضٍ، وإما أنْ يكونوا كلُّهم تحتَ قهرِ إلهٍ واحدٍ، وانتظامُ أمرِ العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ وارتباطُ بعضِه ببعضٍ وجريانِه على نظامٍ محكمٍ لا يختلفُ ولا يفسدُ مِن أدلِّ دليلٍ على أنَّ مُدَبِّرَهُ واحدٌ لا إلهَ غيرُه، كما دلَّ دليلُ التَّمانعِ على أنَّ خالقَه واحدٌ لا رَبَّ غيرُه، فذلك تمانعٌ في الفعلِ والإيجادِ، وهذا تمانعٌ في الغايةِ والألوهيَّةِ، فكما يستحيلُ أنْ يكونَ للكونِ ربَّانِ خالِقان متكافِئان، كذلك يستحيلُ أنْ يكونَ له إلهانِ معبودانِ ". **(الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٣)**

وإذا تقرر بطلان المشارك تعين أن يكون إله واحدا {سبحان الله عما يصفون} من الشريك والولد { عالم الغيب والشهادة } أي : هو المختص بعلم ما غاب عن العباد وعلم ما يشاهدونه وأما غيره فهو وإن علم شيئا من المشاهد فإنه لا يعلم الغيب { فتعالى عما يشركون } أي:علا وتنزه وارتفع عمَّا يَصِفُه به المخالفون للرُّسلِ وتعالى وتقدس عن شرك المشركين وعن كل مالا يليق به جل وعلا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

في الآية النهي عن ضرب المثل لله وضربُ المثلِ هو: تشبيهُ حالٍ بحالٍ، **وكان المشركون يقولون :إن الله أجل من أن يعبده الواحد منا فلابد من اتخاذ واسطة بيننا وبينه فكانوا يتوسلون إليه بالأصنام وغيره تشبيها له بملوك الدنيا فنهى سبحانه عن ذلك** لأنه سبحانه لا مثل له فلا يمثل بخلقه ولا يشبه بهم { إن الله يعلم } أنه لا مثل له ولا ندَّ له لا في ذاتِه ولا في أسمائِه وصفاتِه ولا في أفعالِه ، وأنَّه الإلهُ الحقُّ لا إلهَ غيرُه { وأنتم لا تعلمون } وأنتم بجهلِكُم تُشركون به غيرَه من الأوثانِ والأندادِ وتشبِّهونها به. ففعلكم هذا صدر عن توهم فاسد وخاطر باطل" **فلا يجوزُ أن يُشرَكَ هو والمخلوقُ في قياسٍ تمثيلٍ ولا قياسِ شمولٍ تستوي أفرادُه، بل يُستعمَلُ في حقِّه المثلُ الأعلى**، وهو أنَّ كلَّ ما اتَّصفَ به المخلوقُ من كمالٍ فالخالقُ أولى به، وكلَّ ما يُنَزَّهُ عنه المخلوقُ من نقصٍ فالخالقُ أَوْلى بالتَّنزيه"**(مجموع الفتاوى ٣/ ٣٠)**



وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

في قوله :(قل) دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ وليسَ كلامَ غيرِه، وقَوْلُهُ: (إِنَّمَا): أداةُ حصرٍ تُثبتُ المذكورَ وتَنفي ما سواه.

وقَولُهُ:(حَرَّمَ): أي جعلَه حرامًا ومنعَ منه، والحرامُ شرعًا:طلب الكف عن الفعل على وجه الالزام أما ثمرته فهي ما أُثيبَ تاركُهُ امتثالا وعُوقِبَ فاعلُه، وبمعناه المحظورُ والممنوعُ، **والتَّحريمُ ينقسمُ إلى قسمينِ**: شرعيٌ كما في هذه الآيةِ، وكونيٌ قدريٌ كما في قَولِهِ تعالى: (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يَرْجِعُونَ).

ومعنى الآية أي: قلْ يا محمَّدُ للمشركين،إنما حرم ربي جميع الفواحش من القتل والزنا واللواط ونحو ذلك ماظهر منها في العلن وما بطن في السر، **وسُمية الفاحشة** بهذا الإسم لعظم جرمها وتناهي قبحها.

وهذا التحريم على العموم ثم جاء التحريم بالتخصيص بالآثام والذنوب والتعديات بغير الحق والشرك كبيره وصغيره ثم ختم الله هذه المحرمات بالقول على الله بلا علم لأنَّه أصلُها وأعظمُها، وأصلُ كلِّ بدعةٍ وحدثٍ في الدِّينِ.

وفي هذه الآيةِ " رَتَّبَ المحرَّماتِ أربعَ مراتبَ وبدأ بأسْهلِها، وهي الفواحشُ، ثمَّ ثنَّى بما هو أشدُّ تحريمًا منها وهو الإثمُ والظُّلمُ، ثمَّ ثلَّثَ بما هو أعظمُ تحريمًا منهما، وهو الشِّركُ باللهِ، ثمَّ ربَّعَ بما هو أعظمُ تحريمًا من ذلك كلِّه وهو القولُ على اللهِ بلا علمٍ، في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وفي دينِه وشرعِه" (إعلام الموقعين١/ ٣١)

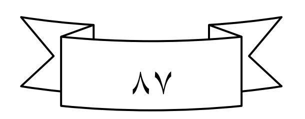
وقَولُهُ: (**وَأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ**): أي تُصرفوا شيئًا من حقِّ اللهِ -سُبْحَانَهُ- إلى غيرِه من الأوثانِ والأندادِ، والشِّركُ باللهِ هو أعظمُ الذُّنوبِ على الإطلاقِ، كما في الصَّحيحِ من حديثِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: ((أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)) قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: ((أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يطْعَمَ مَعَكَ)) قالَ: قلتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: ((أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ)).

وحدُّ الشِّركِ الأكبرِ "هو تسويةُ غيرِ اللهِ باللهِ فيما هو خاصٌّ باللهِ".

وأمَّا الشِّركُ الأصغرُ فحدُّه ما وردَ في النُّصوصِ تسميتُه شركًا، ولم يصلْ إلى حدِّ الشِّركِ الأكبرِ.وقيل: ما كان وسيلة للشرك الأكبر.

وفي الآيات المتقدمة وهي من قوله تعالى: (فاعبده...) إلى قوله:(قل إنما حرم ربي...) بيانُ للصفاتِ المنفيةِ وهي التي تسمى السلبيةَ وهي نفي السمي والكفء والند والولد والشريك والولي من ذل وحاجة.

وفيها أيضا بيان لبعض صفات الإثبات كالملك، والحمد، والقدرة والكبرياء، والتبارك.



وصفاتُ الله جل وعلا من حيث السلبُ والإثبات على قسمين:

الأول: صفاتٌ سلبيةٌ وهي المنفيةُ كقوله:﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ وكقوله:﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ ﴾ وكقوله:﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ ﴾ .

الثاني:صفاتٌ ثبوتيةٌ وهي جميعُ صفاتِ الكمالِ الواردةِ في النصوص الشرعية المضافةِ للرب جل وعلا كقوله:﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ ونحوها .

مسألة:ما الفائدةُ من ذكر الله تعالى للصفات المنفية والمثبتة ؟

هناك فوائدُ كثيرةٌ منها:

١.أن الكمالَ لا يتحقق إلا بالإثبات والنفي فبالإثبات تثبتُ الكمالات وبالنفي تنتفي النقائص .

٢.أن فيهما دفع لشبهِ الكفارِ .

ومن القواعد عند أهل السنة والجماعة في الصفات المنفية أن كلَّ صفةٍ نفاها الله عن نفسِه فيجبُ أن نتعاملَ معها من جهتين:

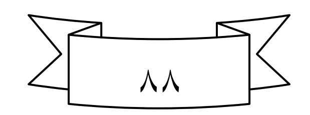
الجهة الأولى:نفيُ الصفة المنفية .

الجهة الثانية:إثبات كمالِ ضدها .

مثال ذلك قوله تعالى: (ولا يظلم ربك أحدا) فهنا ننفي عن الله تعالى صفة الظلم ونثبت له كمال العدل.

....

وَقَوْلُهُ:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ **فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ؛ قَوْلُهُ**:﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا ﴾ **وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ** عليه السلام:﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ﴾ **وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ**:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ **وَقَالَ فِي سُورَةِ طَهَ**:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ **وَقَالَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ**:﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ **وَقَالَ فِي سُورَةِ الٓم السَّجْدَةِ**:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ **وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ**:﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ﴾ .



جاء إثباتُ صفة الاستواءِ لله تعالى كما يليق بجلاله في سبع مواضع في كتاب الله تعالى وهي نصٌّ في معناه الحقيقي وبلفظ واحد هو: {استوى على العرش} فلا يحتملُ التَّأويل لمعنى آخر، **وصريحٌ في أنَّه بذاتِه تعالى استوى استواءً يليقُ بجلالِه** وعظمتِه فلا تُكيِّفُ الإستواء ولا تُمثِّلُه لأنه لا يَعلمُ كيف هوَ إلا هوَ، كما قال مالكٌ: الاستواءُ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ والإيمانُ به واجبٌ والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، فقولُ مالكٍ: الاستواءُ معلومٌ، أي في لغةِ العربِ، وقَولُهُ: والكيفُ مجهولٌ، أي كيفيَّةُ استوائِه لا يعلمُها إلا هوَ، والإيمانُ به أي: بالاستواءِ واجبٌ لتكاثُرِ الأدلَّةِ في إثباتِه، والسُّؤالُ عنه، أي عن الكيفيَّةِ بدعةٌ إذ لاَ يَعلمُ كيفيَّةَ استوائِه إلا هو، **فإنَّ الكلامَ في الصِّفاتِ فرعٌ عن الكلامِ في الذَّاتِ،** فكما نعلمُ أنَّ للهِ ذاتًا لا تشبهُ الذَّواتِ، فكذلك يجبُ أَنْ نُثبتَ له صفاتٍ لا تُشبهُ الصِّفاتِ، فإثباتُنا للصِّفاتِ إثباتُ وجودٍ لا إثباتُ تكييفٍ وتمثيلٍ، **إذ العلمُ بالصِّفةِ فرعٌ عن العلمِ بالموصوفِ،** ولا يعلمُ كيفَ هو إلا هو، وكذلك يُقالُ في بقيَّةِ الصِّفاتِ،**وصفة الإستواء من الصفات الفعلية** المتعلقة بمشيئة الله تعالى .

وورد تفسيرُ الإستواء عن السلف الصالح إذا عُدي بـ(على) على أربعِ تفاسيرَ:

الأول:العلو، **الثاني**:الارتفاع، **الثالث**:الصعود، **الرابع**:الاستقرار، وهذه المعاني كلها صحيحة في معنى استواء الله على عرشه .

والاستواء بمقتضى اللغة العربية التي نزل بها القرآن على قسمين:

الأول:استواءٌ مطلقٌ عامٌّ وذلك إذا لم يقترن مع كلمة الاستواء أيُّ: حرف ويكون المعنى حينئذٍ كَمُلَ كقول القائل:استوى الزرعُ أي: كمل بحيث بدت ثماره وطابت أزهاره كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ .

الثاني:استواء مقيد وذلك إذا اقترن بكلمة الاستواء حرفٌ من الحروف **وهو على ثلاثة أنواع:**

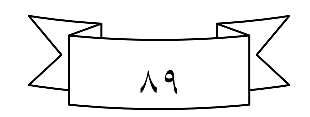
١.أن تقترنَ بكلمة الاستواء واوُ المعية فيكونُ بمعنى المساواة كقولك : استوى الماء المالح والماءُ العذب .

٢.أن تتعدى كلمةُ الاستواء بـ(إلى) فيكونُ بمعنى القصد عن إرادةٍ تامةٍ علوا وارتفاعا كما في قوله:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ .

٣.أن تتعدى كلمةُ الاستواءِ بـ(على) وهذا لا يكون إلا بمعنى العلو والارتفاع والصعود والاستقرار كقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ وهذا بإجماع أهل اللغة القدامى كما قال ابنُ تيمية رحمه الله.

والمعنى الثاني والثالث هو الذي يختص بالرب سبحانه وتعالى .

وقد فسر أهل التعطيل الاستواءَ بالاستيلاء وبعضهم قال: بأنه الملك أو القهر وهذه التفاسير



باطل من وجوه:

١.أن هذا القولَ مخالفٌ لظاهر نص الكتاب والسنة.

٢.أنه مخالف لإجماعِ الصحابة ومَنْ نَهَجَ نَهْجَهُمْ بل إن هذا التَّفسيرَ لم يفسِّرْه أحدٌ مِن السَّلفِ لا مِن الصَّحابة ولا مِن التَّابعيَن، بل أوَّلُ من عُرِفَ عنه هذا التَّفسيرُ بعضُ الجهميَّةِ والمعتزلةِ.

٣.أنه لم يردْ في اللغة العربية أن معنى استوى استولى على الإطلاق ولا نقلَهُ أحدٌ من أئمَّةِ اللغةِ، وإنَّما قاله متأَخِّرو النُّحاةِ ممَّن سلكَ طريقَ الجهميَّةِ والمعتزلةِ، مستدلِّين ببيتٍ للأخطلِ النَّصرانيِّ وهو قَوْلُهُ:

قد استوى بشرٌ على العراقِ من غيرِ سيفٍ أو دمٍ مِهْراقِ

وهذا البيتُ ليسَ من شعرِ العربِ، وأهلُ اللغةِ لما سَمِعوه أنكرُوه غايةَ الإنكارِ، ولم يجعلوه من لغةِ العربِ وقالوا:إنه بيتٌ مصنوعٌ لا يُعرفُ في اللغةِ، فكيف تُعارَضُ أدلَّةُ الكتابِ والسُّنَّةِ ببيتِ شعرٍ لنصرانيٍّ، ومع ذلك لم يثبتْ، قال الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ رحمهُ اللهُ في (لاميَّتِه) المشهورةِ:

قبحًا لمن نبذَ الكتابَ وراءَه وإذا استدلَّ يقولُ قالَ الأخطلُ.

وقال ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ في (النُّونيَّةِ):

ودليلُهم في ذاكَ بيتٌ قالهَ فيما يقالُ الأخطلُ النَّصراني.

٤.أننا لو قلنا بالمعنى الذي تقولون لكان العرش قبلَ استواء الله عليه ملكاً لغير الله تعالى الله عن ذلك .

٥.أن كلمة استولى تدل على المغالبةِ ومعلوم أنه لا أحدَ يغالب الله جل وعلا .

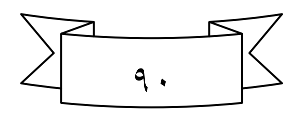
٦. أنَّ معنى هذه الكلمةِ مشهورٌ، كما قال مالكٌ وربيعةُ وغيرُهم.

٧. أنَّ الاستواءَ خاصٌّ بالعرشِ، وأمَّا الاستيلاءُ فهو عامٌّ على سائرِ المخلوقاتِ، فلو كان معنى الاستواءِ الاستيلاءَ لجازَ أنْ يقولَ اسْتَوى على الماءِ والهواءِ والأرضِ.

٨. لو كان المراد بالاستواء على العرش الاستيلاء على الملك لم يكن هناك فرق بين العرش والأرض السابعة السفلى والدواب وجميع المخلوقات، لأنه مستول على الجميع ومالك للجميع . فلا يكون لذكر العرش فائدة .

٩. أن هذا اللفظ {استوى على العرش } قد اطرد في الكتاب والسنة ولم يأت في لفظ واحد (استولى على العرش) حتى تفسر به بقية النصوص .

١٠. أنه أتى ب{ ثم } التي تفيد الترتيب والمهلة، فلو كان معنى الاستواء الاستيلاء على العرش والقدرة عليه لم يتأخر ذلك إلى ما بعد خلق السموات والأرض فإن العرش كان موجودا قبل خلق السموات والأرض، بخمسين ألف سنة كما ثبت في الصحيحين فكيف يجوز أن يكون غير قادر ولا مسئول عليه إلى أن خلق السموات والأرض هذا من أبطل الباطل.



يقول ابنُ القيِّمِ رحمه الله:

نونُ اليهودِ ولامُ جهميٍّ هما في وحيِ ربِّ العرشِ زائدتان.

قالَ الذهبيُّ:"وأوَّلُ وقتٍ سمعتُ مقالةَ مَنْ أنكرَ أنَّ اللهَ فوقَ عرشِهِ هو من الجعدِ بنِ درهمٍ، وكذلك أنكرَ جميعَ الصِّفاتِ، وقتله خالدُ بنُ عبدِ الله القسريُّ وقصَّتُه مشهورةٌ، فأخذَ هذه المقالةَ عنه الجهمُ بنُ صفوانَ إمامُ الجهميَّةِ فأظهرَها واحتجَّ لها بالشُّبهاتِ، وكان ذلك في آخرِ عصْرِ التَّابعين، فأنكرَ مقالتَه أئمَّةُ ذلك العصرِ، مثلُ الأوزاعيِّ وأبي حنيفةَ ومالكٍ والليثِ بنِ سعدٍ والثَّوريِّ وحمَّادِ بنِ زيدٍ وحمَّادِ بنِ سلمةَ وابنِ المباركِ ومَن بعدَهم من أئمَّةِ الهُدى"

إلى غيرِ ذلك من الوجوهِ الَّتي ذكرَها أهلُ العلمِ في ردِّ وإبطالِ هذا التفسيرِ، وقد أنْهاها ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ إلى اثْنينِ وأربعينَ وجهًا.

أما العرش فهو في اللغة يأتي على معنيين:

١١ السقفِ. ٢.سريرِ الملكِ (الجوهريُّ في الصِّحَاحِ) .

والمراد به شرعا:سريرٌ ذو قوائمَ تحملُه الملائكةُ وهو كالقبة على العالم فهو سقفُ المخلوقات هذا ما دل عليه مجموعُ النصوص قال البيهقيُّ رحمهُ اللهُ:"اتَّفقتْ أقاويلُ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ العرشَ هو السَّريرُ، وأنَّهُ جسمٌ خلقَه اللهُ وأمَرَ ملائكتَه بحملِه، وتَعَبَّدَهُم بتعظيمِه والطَّوافِ به، كما خلقَ بيتًا في الأرضِ وأمر بني آدمَ بالطَّوافِ به واستقبالِه"

فالعرشَ مخلوقٌ عظيمٌ ذو قوائمَ وله حملةٌ، وهذا بخلاف قول المبتدعةِ الَّذين ينفُون وجودَ العرشِ ويقولون عرشُه ملكُه، فعلى قولِ هؤلاء المبتدعةِ يكون قولُهُ تعالى: (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) معناه ويحملُ ملكَ ربِّكَ، وهذا قولٌ باطلٌ مردودٌ.

وقد تضمَّنتْ آيات إثباتَ صفة الإستواء على العرش عدة أمور:

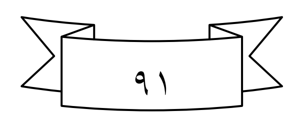
١- بيان أنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ.

٢- الرَّدُّ على الفلاسفةِ القائلين بِقِدَمِ هذه المخلوقاتِ.

٣- عمومَ خلقِه لهذه المخلوقاتِ بذواتِها وصفاتِها.

٤- الاستدلالَ بهذه المخلوقاتِ على وجودِ الخالقِ وأنه جل جلاله ليسَ هو عينَ هذه المخلوقاتِ، ولا صفةً ولا جزءًا منها، فإنَّ الخالقَ غيرُ المخلوقِ، وأنه ليسَ بداخلٍ فيها، بل الآيات صريحةٌ في أنَّه مُباينٌ لها، وأنه ليس حالاً فيها، ولا محلاً لها سُبْحَانَهُ كما قال ابنِ القيِّمِ رحمه اللهُ تعالى.

٥- إثباتَ أسمائِه وصفاتِه وأنَّه المستحقُّ للعبادةِ



٦- إثباتَ الأفعالِ الاختياريَّةِ اللازمةِ والمتعدِّيةِ.

٧- إثباتَ علوِّ للهِ تعالى على ما يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف.

وينقسمُ العلوُّ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلِ: علوُّ القهرِ. **الثَّاني**: علوُّ القدرِ. **الثَّالث**: علوُّ الذَّاتِ، خلافًا للمبتدعةِ الَّذين يُنكرون علوَّ الذَّات.

وقد تواطأتْ أدلَّةُ السَّمعِ والعقلِ والفطرة على إثبات العلو.

أمَّا الاستواءُ فدليلُه سمعيٌّ فقط

٨- أنَّ الاستواءَ على العرشِ كان بعدَ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، لأنَّه عَقَّبَهُ بِثُمَّ.

٩- أنَّ الله تعالى هو المعبودُ الحقُّ، وأنَّ عبادةَ غيرِهِ باطلةٌ، إذ ما سواه عاجزٌ، والعاجزُ لا يصلحُ للأهليَّةِ.

١٠- التَّفريقَ بين الخلقِ والأمرِ، وفيه الرَّدُّ على الجهميَّةِ والمعتزلةِ القائلين بأنَّ كلامَ اللهِ مخلوقٌ، وأنَّ خلقَهُ وأمرَهُ واحدٌ، ويُروى عن سُفيانَ الثوريِّ رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه قالَ:" فرقَ اللهُ بينَ الخلقِ والأمرِ فمنْ جمعَ بينهما فهو كافر" والقرآن من الأمر.

والأمرُ ينقسم إلى قسمين: أمرٍ شرعيٍّ دينيٍّ كقَولِهِ: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) وأمرٍ كونيٍّ قدريٍّ كقَولِهِ: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا) وقوله:(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا).

١١- أن الله تعالى خالق العالم سماواته وأرضه وما بينهما في ستة أيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفي يوم الجمعة اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم. عليه السلام.

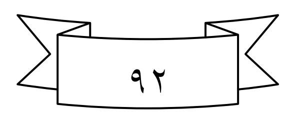
١٢- أن الله رفع السماوات عن الأرض رفعا بعيدا لا ينال ولا يدرك مداه بغير عمد يرى فهو على كل شيء قدير سبحانه وقيل بأن لها عمد ولكن لا نراها . والصحيح الأول.

....

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ .

....

في هذه الآيات إثبات علو الله تعالى على مخلوقاته علوا يليق بجلاله



وَقَوْلُهُ:﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ ﴾ ذلك بأن الله جل وعلا ألقى على عيسى عليه السلام النومَ والنوم يسمى الوفاة الصغرى كما قال تعالى :{ الله يتوفى الأنفس حين موهّا والتي لم تمت في منامها } وبعد أن توفاه الله تعالى رفعه إليه ومعنا الآية أي: قابِضُك من الأرضِ ورافعُك إليَّ من غيرِ موتٍ، من قَولِهِم توفَّيتُ الشَّيءَ واستوفيتُه إذا قبضتُه وأخذتُه تامًّا. **(تفسير الخازن١/ ٣٥٦)**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" والصَّوابُ الَّذي عليه المحقِّقون،أنَّ عيسى عليه السَّلامُ لم يمتْ بحيثُ فارقتْ روحُه بدنَه، بل هو حيٌّ مع كونِه تُوفِّيَ" **(الفتاوى الكبرى٥/ ٣٦٤)**.

قال تعالى: (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ)، والضَّميرُ في قَولِهِ: (قَبْلَ مَوْتِهِ) عائدٌ إلى عيسى، وذلك حينَ ينزلُ إلى الأرضِ قبلَ يومِ القيامةِ، ونزولُ عيسى ثابتٌ وهو أحدُ أشراطِ السَّاعةِ الكبارِ، وفي الصَّحيحين عن أبي هريرةَ أنَّه قال: قالَ رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً مُقْسِطًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الجِزْيَةَ وَيَفِيضُ المالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَه أَحَدٌ)). وفي روايةٍ: ((حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)) ثمَّ يقولُ: ((اِقرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ)

وفي هذه الآيةِ أيضاً:

١- دليلٌ أنَّ اللهَ رفَعَ عيسى إلى السَّماءِ وقبضَه إليه وهي دليلٌ على علوِّه -سُبْحَانَهُ- على خلقِه، إذ الرَّفعُ لا يكونُ إلا من أسفلَ إلى أعلى.

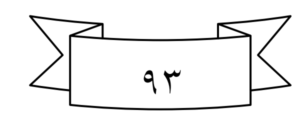
٢- في هذه الآيةِ والَّتي قبلَها الرَّدُّ على اليهودِ الَّذين تَنَقَّصُوهُ وجعلوه ابنَ زِنا وادعو أنهم قتلوه فقال تعالى : {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم} إلى قوله :{ وما قتلوه يقينا }.

٣- فيها الرَّدُّ على النَّصارى الَّذين غلَوْا في عيسى عليه السلام ورفعُوه عن مَقَامِ النبوَّةِ إلى مقامِ الرَّبوبيَّةِ، تعالى اللهُ عَن قَولِهِم عُلُوًّا كبيراً..

٤- فيها إثباتُ الكلامِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالى على مايليق به جل وعلا.

٥- الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّ كلامَه سُبْحَانَهُ معناه المعنى النَّفسيُّ كما تقول الأشاعرة إذ معنى كلامهم أنه لايتكلم بصوت ولا بحرف.

وهذه الآياتُ الخمسةُ فيها إثباتُ صفة العلو لله على ما يليق به سبحانه وتعالى، وهو من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله، وقد تنوعت دلالة علو الله في الكتاب والسنة على أكثرَ مِنْ نوع فتارةً يَذْكُرُ **الفوقيةَ** وتارة بذكر **الاستواءَ** وكونَه **في السماء** وتارةً بذكر **صعودَ الأشياء** إليه كقوله:﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ وتارةً **بنُزُولِهَا منه**وتارة **بإثبات العلو** صراحة كقوله:﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ ووقوله (وهو



العلي العظيم) وأيضا كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ مرفوعا:(أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً) رواه مسلم، وكما في حجة الوداع عندما أشار النبي ﷺ بيده إلى السماء حيث قال:(أَلاَ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ قَالُوا:نَعَمْ قَالَ:اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلاَثًا...) رواه البخاري .

ومن الأدلة أيضاً على علو الله تعالى الفطرة ومن ذلك ما حصل في قصة أبي المعالي الجويني، وهي ما ذكره محمدُ بنُ طاهرٍ المقدسيُّ الحافظُ الصوفيُّ المشهورُ، فقد ذَكَرَ عن أبي جعفرٍ الهمدانيّ "أنه حضر مجلسَ أبي المعالي الجوينيّ وهو يقول:"كان اللهُ ولا عرشَ وهو على ما عليه كان أو كلاماً من هذا المعنى فقال:يا شيخ دَعْنَا من ذكر العرش وأَخْبِرْنَا عن هذه الضرورةِ التي نجدها في قلوبنا فإنه ما قال عارف قط:يا اللهُ إلا وَجَدَ مِنْ قلبه ضرورةً بطلب العلوّ ولا يلتفتُ يمنةً ولا يسرةً فكيف ندفعُ هذه الضرورةَ عن قلوبنا قال:فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه وقال:حيرني الهمدانيُّ حيرني الهمداني".(الاستقامة ١ / ١٦٧) .

ومن ذلك أيضا ماجرى بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وبين بعض النافين لعلو الله تعالى إذ يقول رحمه الله : "ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا من هو من مشايخهم، وهو يطلب مني حاجة، وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكر له، وأخرت قضاء حاجته حتى ضاق صدره، فرفع طرفه ورأسه إلى السماء، وقال: يا الله، فقلت له: أنت محق، لمن ترفع طرفك ورأسك؟ وهل فوق عندك أحد؟ فقال: أستغفر الله، ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته، ثم بينت له فساد هذا القول: فتاب من ذلك، ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فطرهم" . (درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٣٤٣)

وأدلَّةُ إثباتِ العلوّ كثيرةٌ جدًّا تزيدُ على ألفِ دليلٍ كما قال ابن القيم رحمه الله، وفيه أحد عشر إجماعاَ، قيل: لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ كيفَ نعرفُ ربَّنا؟ فقال:" بأنَّه فوقَ السَّماءِ السَّابعةِ على العرشِ بائنٌ من خلقِه"، وقال الأوزاعيُّ:" كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذِكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته جل وعلا "، وقال أبو عمرٍو الطلمنكيُّ في كتابِ (الأصولِ):" أجمعَ المسلمون من أهلِ السُّنَّةِ على أنَّ اللهَ استوى على عرشِه على الحقيقةِ لا على المجازِ، ثمَّ ساقَ بسندِه عن مالكٍ قال: اللهُ في السَّماءِ وَعِلْمُهُ في كلِّ مكانٍ، ثمَّ قال في هذا الكتابِ: أجمعَ المسلمونَ من أهلِ السُّنَّةِ أنَّ معنى قَولِهِ: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) ونحوِ ذلك من القرآنِ أنَّ ذلك علمُه، وأنَّ اللهَ فوقَ السَّماواتِ بذاتِه مستوٍ على عرشِه كيف شاءَ، هذا لفظُه في كتابه، وهذا كثيرٌ في كلامِ الصَّحابةِ والتَّابعين، والأئمَّةُ أثبتوا ما أثبتَهُ اللهُ في كتابِه على لسانِ رسولِه على الحقيقةِ فيما يليقُ بجلالِه وعظمتِه، ونفَوا عنه مشابهةَ المخلوقِين ولم يُمَثِّلُوا أو يُعَطِّلُوا".

وَقَوْلُهُ:﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾ **في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ موسى عليه السَّلامُ كانَ يقولُ: بأن ربُّه في السَّماءِ وفرعونُ يزعم أنه كاذبًا**، فمَن نفى العلوَّ من الجهميَّةِ فهو فرعونيٌّ، ومَن أثبتَهُ فهو مُوسَويٌّ محمَّديٌّ.(التنبيهات)

وَقَوْلُهُ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى التَّحذيرِ مِن الأمنِ مِنْ مكرِ اللهِ، وفيها دلالةٌ واضحةٌ على علوِّ اللهِ سُبْحَانَهُ على خلقِه كما تقدم.

وكذلك الفوقيَّةُ فإنَّها ثَابِتَةٌ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالى، قال اللهُ تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ)، وقَولُهُ: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) وهي من صفاتِ الذَّاتِ. وفوقَ وعلاَ بمعنًى واحدٍ، وفوقيَّته –سُبْحَانَهُ– ثابتةٌ كعلوِّه، تواطأتْ على إثباتِها أدلَّةُ العقلِ والنَّقلِ والفِطرُ الَّتي لم تتغيَّرْ. **وأقسامُ الفوقيَّةِ ثلاثةٌ:**

فوقيَّةُ القدرِ. فوقيَّةُ القهرِ. فوقيَّةُ الذَّاتِ، خلافًا للجهميَّة والمعتزلةِ الَّذين يُنكرون فوقيَّةَ الذَّاتِ.

قال ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ:" وممَّا ادَّعى المعطِّلةُ مَجازَهُ (الفوقيَّةُ)....وحقيقةُ الفوقيَّةِ علوُّ ذاتِ الشَّيءِ على غيرِه، فادَّعى الجهميُّ أنَّه مجازٌ في فوقيَّةِ الرُّتبةِ والقهرِ ،كما يُقالُ الذَّهبُ فوقَ الفضَّةِ والأمير فوق نائبه ، وهذا وإنْ كانَ ثابتًا للرَّبِّ لكنَّ **إنكارَ حقيقةِ فوقيَّتِهِ –سُبْحَانَهُ– وحمْلَها على المجازِ باطِلٌ من وجوهٍ عديدةٍ:**

أحدُها: أنَّ الأصلَ الحقيقةُ والمجازُ على خلافُ الأصلِ.

الثَّاني: أنَّ الظَّاهرَ خلافُ ذلك.

الثالث: أن هذا الاستعمال المجازي لا بد فيه من قرينة تخرجه عن حقيقته، فأين القرينة في فوقية الرب تعالى؟.

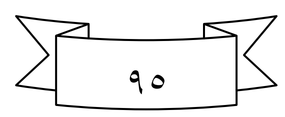
الرابع:أنَّ الفِطَرَ والعقولَ والشَّرائعَ وجميعَ كُتُبِ اللهِ المنزَّلةِ على خلافِ ذلك فالله سبحانه فوق العالم بذاته، فالخطاب بفوقيته ينصرف إلى ما استقر في الفطر والعقول والكتب السماوية". وساقَ رحمه الله وجوهًا عديدةً في إبطالِ ما ذكروه والرَّدِّ عليهم في (مختصر الصواعق ٤٣١).

والفرق بين الاستواء والعلو :

١ . أن العلو من صفات الذات والاستواء من صفات الأفعال، فعلو الله على خلقه وصف لازم لذاته، والاستواء فعل من أفعاله سبحانه يفعله . سبحانه وتعالى . بمشيئته وقدراته إذا شاء ولذا قال فيه :{ثم استوى}وكان ذلك بعد خلق السموات والأرض .

٢ . أن العلو من الصفات الثابتة بالعقل والنقل والاستواء ثابت بالنقل لا بالعقل .

مسألة: هل معنى قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وقوله:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ ﴾ أن الله في الأرض كما أنه في السماء ؟



الجواب:لا، بل المعنى أنه مألوه في السموات والأرض في الآية الأولى، وأنه إلهٌ في السماء وإلهٌ في الأرض في الآية الثانية، كما يقال فلانٌ أميرٌ بالمدينة وأميرٌ بمكةَ مع أنه في إحداهما، فالمعنى أنه سبحانه الإلهُ المعبودُ في السموات والأرض الموحدُ فيها ولا شريك له .

مسألة:هل نثبت أن اللهَ في جهة ؟

الجواب:لا نثبت ولا ننفي وإنما نفصل فإنْ أريد بالجهةِ جهةُ السفل فهذا يُنْفَى عن الله، لأن الله في العلو، وإنْ أريد بها جهةُ علوٍ تحيطُ به الأشياءُ فهذا يُنْفَى عن الله أيضاً، لأن الله أعظمُ من أَنْ يحيطَ به شيءٌ من مخلوقاته وإنْ أريد بها جهةُ علوٍ تليقُ به من غير إحاطةٍ فهذا يُثْبَتُ .

مسألة:ما الجواب عما ثبت من أَنَّ الله في السماء مع أننا نقول:لا يحيط به شي من مخلوقاته ؟

الجواب:أن كونَه في السماء على أحدِ معنيين:

١.أن يراد بالسماء العلو أي: أن الله في العلو أي في جهة العلو والدليلُ على أن السماء تكون بمعنى العلو قوله:﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي من العلو لا من السماءِ نفسِها لأن المطرَ يَنْزِلُ من السحاب، فالسماءُ في أصل اللغة كلُّ ما علاك مشتقة من سَمَا يسمو سُمُوًّا أي علا يعلو، ثم غلب إطلاقها على السماء المعروفة .

٢- أن تكون (في) بمعنى (على) أي أن الله على السماء والدليل على أن (في) تأتي بمعنى (على) قوله تعالى: ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: على الأرض، وقوله تعالى حكاية عن فرعون:﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ (انظر: فتاوى ابن تيمية (١٠٦/٥) .

فائدة:يجوز السؤالُ عن الله بأَينَ وهذا بالإجماع، خلافا للمبتدعة من الأشاعرة وغيرهم، لحديث الجارية عندما سألها النبي ﷺ :(أين الله ؟) قالت:في السماء فقال:(أعتقها فإنها مؤمنة) رواه مسلم .

....

وَقَوْلُهُ:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ **وقوله**:﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ **وَقَوْلُهُ**:﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

هذه الآيات فيها إثبات صفة المعية لله عز وجل على ما يليق بجلاله فإنَّ ((معَ)) في لغة العربِ لا تقتضي أنْ يكونَ أحدُ الشَّيئينِ مختلطًا بالآخرِ.

والآيتانِ الأُوليانِ فيهما إثباتُ المعيَّةِ العامَّةِ،والخمسُ الآياتِ الأخيرةُ فيها إثباتُ المعيَّةِ الخاصَّةِ، ومعيَّتُه سُبْحَانَهُ لا تُنافي علوَّه على خلقِه واستوائِه على عرشِه، بل تجامعُه، فإنَّ قُربَه سُبْحَانَهُ ومعيَّتَه ليست كقربِ المخلوقِ ومعيَّتِهِ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).فهو سُبْحَانَهُ مع خلقِه مع كونِه مستويًا على عرشِه، ولهذا قَرَنَ بين الأمرين كما قالَ سُبْحَانَهُ: ((هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ) فعلوُّه سُبْحَانَهُ لا يُناقِضُ معيَّتَه، ومعيَّتُه لا تُبطِلُ عُلُوَّهُ، فكلاهما حقٌّ.

وفي الآيات إشارةٌ إلى النَّدبِ إلى استحضارِ قربِه واطِّلاعِه على خلقه سبحانه وتعالىكما في الحديثِ: ((الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)).

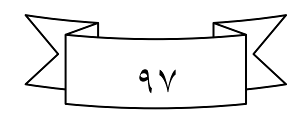
فهو معنا بعلمه رقيب شهيد على أعمالنا حيث كنا في البر أو البحر في اليل أو النهار في البيوت أو القفار على السواء تحت سمعه وبصره يسمع كلامنا، ويرى مكاننا ولا يخفى عليه شيء من أعمالنا، فما يكون من نجوى ثالثة إلا هو سبحانه رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم فهو سبحانه مع كل عدد قل أو كثر إلا هو معهم بعلمه يعلم ما يتناجون فيه ولا يخفى عليه شيء منه .

قال أهل التفسير:إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوؤهم فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك وكثر، شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن لا يتناجون فيما يتناجو دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل قوله:﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ .

وقوله تعالى :{ لا تحزن إن الله معنا } هذا خطاب من النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه حينما كانا في الغار وقت الهجرة وقد لحق بهما المشركون، فحزن أبو بكر رضي الله عنه خوفا على النبي صلى الله عليه وسلم من أذى الكفار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تحزن إن الله معنا) بنصره وعونه وتأييده ومن كان الله معه فلن يغلب فلا تحزن .

وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : {إنني معكما أسمع وأرى } وهذه الآية تقدم الكلام عليها

وقوله تعالى:{ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون } أي إن الله تعالى مع الذين اتقوا المحرمات وأحسنوا بفعل الطاعات والقربات، معهم بتأييده ونصره ومعونته.



وقوله تعالى:{ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله } أي : بإرادته وقضائه ومشيئته { والله مع الصابرين }

ففي الآيات إثبات معية الله للصابرين على طاعته والمجاهدين في سبيله وهي معية خاصة مقتضاها النصر والتأييد .

قال الشوكاني رحمه الله :" ويا حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة " . (تفسير فتح القدير ٢/ ٣١٥)

وذكر أهل العلم أن معية الله على قسمين:

القسم الأول:معيةٌ عامةٌ كما في الآيتين الأوليين ومقتضى هذه المعية إحاطته سبحانه بخلقه وعلمه بأعمالهم خيرها وشرها ومجازاتهم عليها، وهذه المعيةُ توجب لمن آمن بها كمالَ المراقبة، ومِنْ أمثلة هذه المعية قولُه:﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾وقوله:﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾وهذه الآية كما قال الإمام أحمد:" افتتحها الله بالعلمِ واختتمَها بالعلمِ"، فدلَّ على أنَّه معهم بعلمِه، ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ والضَّحَّاكُ وسفيانُ وأحمدُ والثَّوريُّ:"وهو معهم بعلمِه" وقد حكى غيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك كما قال ابن كثير رحمه الله.

وقال أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ رحمه اللهُ:"أجمعَ العلماءُ من الصَّحابة والتَّابعين الَّذين حُمِلَ عنهم التَّأويلُ أنهم قالوا في تأويلِ قولِهِ: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ...) هو على عرشِه وعلمُه بكلِّ مكانٍ، وما خالفَهُم في ذلك مَن يُحتجُّ بقولِهِ".

القسم الثاني:معيةٌ خاصةٌ كما في باقي الآيات الخمس وهذه المعية تقتضي النصرَ والتأييدَ لمن أضيفت إليه وهي مختصة بمن يستحق ذلك من الرسل وأتباعهم، وهي توجب لمن آمن بها كمالَ الثباتِ والقوةِ كقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وقَوْلُهُ:﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ فهو مع المتَّقينَ دونَ الظَّالمين.

وهذه المعية الخاصة على قسمين:

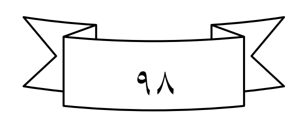
١.معية خاصة مقيدةٌ بشخص كقوله:﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

٢. معية خاصة مقيدةٌ بوصف كقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

ويُعرف الفرق بين المعية العامة والخاصة: أنه إذا جاءتِ المعيَّةُ في سياقِ المحاسبةِ والمجازاةِ والتَّخويفِ فهي عامَّةٌ، وإذا أتتْ في سياقِ مدحٍ أو ثناءٍ فهي معيَّةٌ خاصَّةٌ، وكلا المعيَّتينِ منه سُبْحَانَهُ مصاحبةٌ للعبدِ.

مسألة:هل المعيةُ من الصفات الذاتية أو الفعلية ؟

المعيةُ العامةُ من الصفات الذاتية لأن مقتضاها ثابتٌ لله أزلاً وأبداً، أما **المعيةُ الخاصةُ فهي من الصفات الفعلية** لأن مقتضاها تابع لأسبابها توجدُ بوجودها وتنتفي بانتفائها .



مسألة:ذهب بعض الفرق إلى أن معنى المعية المخالطة والمصاحبة لظاهر قوله:﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ قالوا:إذا كان معنا فهو مخالطٌ لنا **والرد عليهم أن يقال**:أننا لو قلنا بقولكم لحصل تناقضٌ في كتاب الله فكيف يكون الله مستوياً على عرشه وهو مع كل إنسان في أي مكان والتناقض في كتاب الله لا يكون فمعيته سبحانه ليست كمعية المخلوق للمخلوق، فإنه سبحانه { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } .

فإن قالوا:إن المعية لا تعقل إلا مع المخالطة أو المصاحبة في المكان فقط ؟

فيقال:هذا ليس صحيحا على ما ذكرتم لأن المعيةَ في اللغة أوسع من ذلك، فقد تأتي للتهديد كقولك:اذهب فأنا معك، وقد تأتي للمخالطة كقولك:جعلت الماء مع اللبن، وقد تأتي للمصاحبة في المكان كقولك:وجدت محمدا مع علي، وقد تأتي للمصاحبة المطلقة وإن اختلفَ المكانُ كقولك:الملِكُ مع جنوده وإن كان هو بعيداً عنهم، وقد تأتي للنصرة والتأييد كقولك لمن يستغيث بك:أنا معك، وهذا كله على حسب السياق والقرائن والأحوال التي تناسب لفظ (مع) .

وقد يكون الإشكال بمعنى آخر يتضح فيه السؤال السابق وهو كالتالي:

إن قيل إذا كان السلف قد أولوا المعية بالعلم فلماذا لا نؤل الرحمة بالثواب، والغضب بالانتقام، وما أشبه ذلك ؟

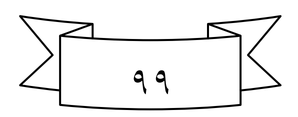
الجواب : أننا ملزمون بما جاء عن السلف والذي جاء أنهم فسروا المعية بالعلم ولا يمكن أن يؤولوا مثل هذا التأويل إلا وقد وقفوا فيه على نصٍ من النبي صلى الله عليه وسلم ولا يمكن أن تكون معيةً ذاتية حلولية؛ لأن الله بائن عن خلقه والمرجع في تفسير هذا المعنى السياق القرآني الذي جاء به بحسب المعنى المناسب له في سياق العرب وكلامهم، ومن قال: إن هذا من باب التأويل أو أن السلف تأولوا المعية فهذا مبني على أن المعية تستلزم الحلول والذاتية، وهذا لا يثبت لا لغة ولاشرعاً ولاعقلاً أن المعية إذا أطلقت لزم منها الحلول والمصاحبة الذاتية. فإذا كان هذا ليس لازماً بين المخلوقات أنفسها فبين الخالق والمخلوق من باب أولى.

فتفسير السلف للمعيةَ بالعلم كما ورد عن ابن عباس وغيره لا يقصدون به أن المعية هي العلم وإنما هذا التفسيرُ من التفسير باللازم والمقتضى، وأرادوا بذلك الردَّ على الحلوليه من الجهمية وأضرابهم القائلين بأن الله حال في كل مكان.

مسألة: هل يقال بأن معية الله ذاتية ؟

الجواب: لايقال بذلك لأنه قد يفهم منه الحلول والإختلاط ولهذا فعندنا في هذه المسألة ثلاث اتجاهات:

١- أن يقال معية الله ذاتية مع عدم الإيمان بالعلو والإستواء وهذا قول باطل قال به الفرق الضالة.



٢- أن يقال معية الله ذاتية مع الإيمان بالعلو والإستواء أن الله معنا مع علوه واستواءه على عرشه وهذا القول لم يستعمله السلف فيما أعلم وهو أيضاً لا يسلم من الإشكالات نعم أشار إليه ابن القيم رحمه الله كما نقله عنه صاحب مختصر الصواعق أنه قال:" فإنه قريب من المحسنين بذاته" لكن هذا التعبير أي قوله:(بذاته) لم يقبله كثير من أهل العلم فالبعد عنه أسلم.

٣- أن يقال معية الله حقيقية بلا تقييد بلفظ (ذاتية) وهذا هو الأفضل والأسلم.وهذا التفصيل هو ما أشار إليه الشيخ صالح آل الشيخ وفقه الله.

مسألة:ما الجمعُ بين نصوص علو الله بذاته ومعيته ؟ الجمع من عدة أوجه:

١.أن النصوص جمعت بينهما والنصوصُ لا تجمع بين محال .

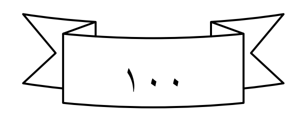
٢.أنه لا منافاة في ذلك لأنه كما تقدم أن المعيةَ لا تستلزمُ الاختلاطَ والحلولَ في المكان لأنه قد يكون الشيء عالياً بذاته ويقال عنه:بأنه معي، كما يقال:ما زلنا نسير والقمر معنا، مع أن القمر في السماء والمسافة بينهم وبينه بعيدة فعلو الله جل جلاله ومعيته لخلقه لا تنافي بينهما .

٣.أنه لو قيل بالتعارض فإن هذا في جانب المخلوق مع المخلوق وأما الخالق فـ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾.

....

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ **وَقَوْلُه:** ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ **وَقَوْلُهُ:** ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾

....



ذكر المؤلف في هذه الآيات **إثبات صفةَ القول والكلام لله جل وعلا** على ما يليق بجلاله سبحانه وتعالى وأنَّهُ **يقولُ سبحانه متى شاءَ إذا شاءَ، وأنَّ الكلامَ والقولَ المضافَ إليه –سُبْحَانَهُ– قديمُ النَّوعِ حادثُ الآحادِ.**

وفيه دليلٌ على أنَّه –سُبْحَانَهُ– يتكلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ كما يليقُ بجلالِه سُبْحَانَهُ وهذا بإجماع السلف الصالح.

ومما يدل على إثبات صفة الكلام لله تعالى من السنة ما ورد عن أبي بكر رضي الله عنه حين قرأ على قريشٍ: (الم * غُلِبَتِ الرُّومُ): فقالوا: هذا كلامُك أو كلامُ صاحبِك، فقال: ليس بكلامي ولا بكلامِ صاحبي ولكنَّهُ كلامُ اللهِ.

وفي سُننِ أبي داودَ أنَّ رسولَ اللهِ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– كان يَعْرِضُ نفسَه على النَّاسِ بالموسمِ فيقولُ: ((أَلاَ رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ لأُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي فَإِنَّ قُرَيْشًا مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي)).**فبيَّن أَنَّ ما يُبلغُه ويتلوه هو كلامُ اللهِ لا كلامُه.**

وفيه الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى النَّفسيُّ، إذ المعنى المجرَّدُ لا يُسمعُ وقد ردَّ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ ابن تيمية رحمه الله على مَن زعَم ذلك من تسعين وجهًا.

قال بعضُ العلماءِ: مَن زعَم أنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى النَّفسيُّ فقد زعمَ أنَّ اللهَ لم يُرسِلْ رسولا ولم يُنزِلْ كتابًا، وزعَم أنَّ اللهَ أخرسَ.

وقال ابنُ حجرٍ رحمه اللهُ : "من ينفي الصوت...يلزم منه أن الله لم يُسمع أحدا من ملائكته ورسله كلامه بل ألهمهم إياه" فتح الباري (١٣/ ٤٥٨).مع العلم أن ابن حجر رحمه الله عنده نوع تذبذب في إثبات صفة الكلام.

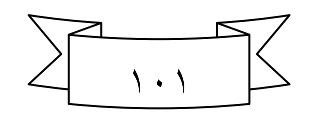
وفي الآياتِ الرَّدُّ على مَن زَعَمَ أنَّ كلامَ اللهِ هو معنًى قائمٌ بذاتِه لا يتجزَّأُ ولا يتبعَّضُ، فإنَّ الأمرَ لو كانَ كما زَعَموا لكانَ موسى عليه السَّلامُ سَمِعَ جميعَ كلامِ اللهِ.

وفي إثباتِ الكلامِ إثباتُ الرِّسالةِ، فإذا **انتَفَت صفةُ الكلامِ انتفتْ صفةُ الرِّسالةِ، إذ حقيقةُ الرِّسالةِ تبليغُ كلامِ المرسلِ.**

ومِن ها هنا قال السَّلفُ: مَن أنكرَ كونَ اللهِ متكلِّمًا فقد أنكرَ رسالةَ الرُّسلِ كلِّهم، والرَّبُّ سُبْحَانَهُ وتعالَى يخلقُ بقَولِهِ وبكلامِه كما قال: (إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)، فإذا انتفَتْ حقيقةُ الكلامِ عنه فقد انتفى الخلقُ.

ومعنىَ قولُهُ تعالى: **(ومن أصدق من الله حديثا) ومثلها(...قيلا)** أي : لا أحد أصدق منه سبحانه حديثاً ولا قولاً وهذا استفهام إنكاري يراد منه إثبات الحديث والقيل لله سبحانه، ففيهما إثبات الكلام له سبحانه .

وقوله تعالى : **(وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم)** هذا القول منه سبحانه يكون يوم القيامة، وهو توبيخ للذين عبدوا المسيح وأمه من النصارى . وفيه إثبات القول لله تعالى وأنه يقول متى شاء إذا شاء.



وقوله: (ابنَ مَرْيَمَ): أضافه إلى أمه لأنه لا أب له، فهو من أم بلا أب.

والمرادُ بالكلمةِ في قوله:(**وتمت كلمة ربك..**) أي:كلامه سبحانه المتضمن أمرُه ونهيهُ ووعدُه ووعيدُه،(**صِدْقًا وعدلا**): أي: صدقًا في الإخبارِ، وعدلاً في الطَّلبِ والأحكام، فكلُّ ما أخبرَ به -سُبْحَانَهُ- فهو حقٌّ لا مرية فيه ولا شكَّ، فكلُّ ما أمَرَ به فهو العدلُ الَّذي لا عدلَ سِواه، وكلُّ ما نهى عنه فباطلٌ؛ لأنَّه لا يَنهى إلا عن مفسدةٍ

وكلماتُ اللهِ نوعان :

النوع الأول:**كلماتُ الله الكونيَّةُ** وهي الَّتي استعاذَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- بها في قَولِهِ: ((أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ)) رواه أحمد والنسائي بسند صحيح، وكقَولِهِ أيضاً: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً).

النَّوعُ الثَّاني: **كلماتُ الله الدِّينيَّةُ** وهي القرآنُ وشرعُ اللهِ الَّذي بَعَثَ به رسولَه، وهي أمرُه ونهيهُ.

وقَولُهُ: (**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيما**): خصَّصَ اللهُ نبيَّه موسى عليه السَّلامُ بهذه الصِّفةِ تشريفًا له، ولذا يُقالُ لموسى عليه السَّلامُ الكليمُ، وهذا دليلٌ على أنَّ التَّكليمَ الَّذي حصلَ لموسى عليه السَّلامُ أخصُّ من مُطلقِ الوحي، **ثم أكَّدَهُ بالمصدرِ الحقيقيّ رفعًا لِمَا توهَّمه المعطِّلةُ من أنَّه إلهامٌ أو إشارةٌ أو تعريفٌ للمعنى النَّفسيّ بِشيءٍ غيرِ التَّكليمِ فأكَّدهُ بالمصدرِ المُفيدِ تحقيقَ النِّسبةِ ورفعَ توهُّمَ المجازِ، قالَ الفرَّاءُ:إنَّ الكلامَ إذا أُكِّدَ بالمصدرِ ارتفعَ المجازُ وثبتتِ الحقيقةُ**.(أنظر:مدارج السالكين ١/ ٦١)

ويُروى أنَّ معتزلياً قال لأبي عمرو بنِ العلاءِ أريدُ أن تَقْرأَ: (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيما)، بنصبِ لفظِ الجلالةِ فقالَ له: هبْ أنِّي قرأتُ ذلك فما تقولُ في قَولِهِ: (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) فبُهِتَ المعتزليُّ.

وقولُهُ: (**مِنْهُم مَّنْ كَلَّمَ اللهُ**): أي: كلَّمَهُ اللهُ، كموسى عليه السَّلامُ ومحمَّدٍ وكذلك آدمُ، كما وردَ به الحديثُ المرويُّ في صحيحِ ابنِ حِبَّانَ عن أبي ذرٍّ رَضِي اللهُ عَنْهُ.

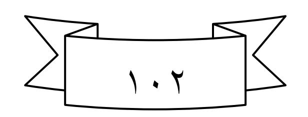
وقَولُهُ: (**وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**): أي كلَّمهُ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- بكلامٍ حقيقيٍّ يليقُ بجلالِه وعظمتِه، وكلامُهُ له بلا واسطةٍ،**والأدلَّةُ الدَّالَّةُ على أنَّ الله تعالى يتكلَّمُ أكثرُ من أَنْ تُحصرَ.**

وفي الآياتِ الرَّدُّ على مَنْ زعمَ أنَّ كلامَه سُبْحَانَهُ معنًى واحدٌ قائمٌ بالنَّفسِ لا يُتصوَّرُ أنْ يُسمعَ.

وتكليمُه سُبْحَانَهُ وتعالَى لعبادِه نوعان:

الأوَّلُ: بلا واسطةٍ، كما كلَّم موسى بنَ عمرانَ، وكما كلَّمَ الأبويْنِ، وكذا نادى نبيَّنا ليلةَ الإسراءِ.

الثَّاني: تكليمُه سُبْحَانَهُ لعبادِه بواسطةٍ، إمَّا بالوحْيِ الخاصِّ للأنبياءِ، وإمَّا بإرسالِه إليهم رسُولا يكلِّمُهم من أمرِهِ بما شاءَ.



وفي الآياتِ المتقدّمةِ أيضًا دليلٌ على أنَّ صفة الكلامَ لله سُبْحَانَهُ وتعالَى من الصفاتِه الذّاتيَّةِ من حيثُ تعلُّقُها بذاتِه واتِّصافُه بها، ومن الصفاتِه الفعليَّةِ من حيث تعلِّقها بقدرتِه ومشيئتِه.

فكلامَ الله تعالى المضافَ إليه ذاتيٌّ باعتبار أصله وتعلقه بذاته ووصفه، وفعليٌّ باعتبار آحاده وتجدده لتعلقه بقدرته ومشيئته، **وهو كلامُ اللهِ اللفظُ والمعنى جميعاً لا تفريقَ بينهما** كما فعلت الفرق الضالة،

ومنه بدأ وإليه يعود، **وقولنا:منه بدأ** أي: أن الله تَكَلَّمَ به ابتداءً لأنَّ الكلامَ إنَّما يُنسبُ إلى مَنْ قاله ابتداءً لا إلى مَن قالَه مبلِّغًا مؤدِّيًا، وهذا فيه ردٌّ على الجهمية القائلين بأن الله خَلَقَهُ في غيره.

وقولنا:إليه يعود له معنيان:

الأول:أنه تعود إليه صفة الكلام فالمتكلم به هو الله جل وعلا .

الثاني:أنه يُرْفَعُ إلى الله في آخر الزمان كما جاء في بعض الآثار كحديث حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلاَ صَلاَةٌ، وَلاَ نُسُكٌ، وَلاَ صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ...) رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

وهذا يقع والله أعلم حين يُعرض الناسُ عن العمل بالقرآن إعرضاً كلياً فيرفعه الله عنهم تكريماً له، وهذا المعنى جزم به ابنُ مسعود وابنُ عباس وابنُ تيمية وابنُ القيم وغيرهم من أهل العلم .

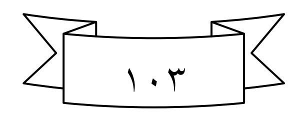
وَقَوْلُهُ:﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ في الآية دليل على إثبات صفة الكلام لله تعالى وأنه متعلق بمشيئته وأن آحادَه حادثةٌ.

وَقَوْلُهُ:**(ناديناه)** و**(نادى)**و**(ناداهما)**و**(يناديهم)** في الآيات فيه دليلٌ على أنه كلامه جل شأنه بصوت لأنه لا يعقل النداء إلا بصوت .

وقد جاءَ النِّداءُ في تسعِ آياتٍ من القرآنِ، وكذلك النَّجاءُ جاء في عدَّةِ آياتٍ منها قَولُهُ تعالى: (وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا): أي مناجيًا، والنِّداءُ هو الصَّوتُ الرَّفيعُ، وضدُّه النَّجاءُ وهو الصوت المنخفض.

ففي الآيات إثباتُ أنَّ اللهَ يتكلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ يليقُ بجلالِه، إذ لا يُعقلُ النِّداءُ والنجاءُ إلا أن يكزن بحرف وصوت، وقد استفاضتِ الآثارُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والصَّحابةِ والتَّابعين ومَن بعدَهم من أئمَّةِ المسلمين بذلك.

وفي الآيات الرَّدُّ على مَن زعَم أنَّ كلامَ اللهِ مخلوقٌ، فإنَّ صفاتِ اللهِ داخلةٌ في مُسمَّى اسمِه، فليسَ اللهُ اسمًا لذاتٍ لا سَمْعَ لها ولا بصرَ ولا حياةَ ولا كلامَ لها، فكلامُهُ وعلمُهُ وحياتُه وقُدرتُه داخلَةٌ في مُسمَّى اسمِه، فهو سُبْحَانَهُ بصفاتِه الخالقُ وما سواهُ المخلوقُ.



وكلامُه سُبْحَانَهُ وتعالى صفةٌ من صفاتِه غيرُ مخلوقٍ، وأمَّا صوتُ القارئِ وكذا المِدادُ والورقُ فهي مخلوقةٌ، لهذهِ الآيةِ والحديثِ: ((بَيِّنُوا القُرآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ))، فبَيَّنَ أنَّ الأصواتَ الَّتي يُقرأ بها القرآنُ أصواتُنا، والقرآنَ كلامُ اللهِ، فالقرآنُ كلامُ الباري والصَّوتُ صوتُ القارئِ.

وقوله تعالى : (**وإن أحد من المشركين**...) أي: يا محمد إن طلب أحد من المشركين جوارك وحمايتك وأمانك فكن له جارا ومؤمنا حتى يسمع كلام الله منك ويتدبره .

وقوله: (**وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله**...) أي : أي :أنه كان فريق من اليهود يسمعون كلام الله وهو التوارة ثم يحرفونه ويتأولونه على غير تأويله من بعد فهموها وهم يعلمون أنهم مخطئون.

وقوله تعالى : (**يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا**...) أي: يريد المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم عوضاً عن المسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. حين خرج عام الحديبية (أن يبدلوا كلام الله) الذي وعد به أهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر فقال الله: قل لهم لن تتبعونا وهذا نفي في معنى النهي أي : لا تتبعونا(كذلكم قال الله من قبل) أي : أن غنيمة خيبر لأهل الحديبية خاصة .

وقوله : (**واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته**) أي: أتل يا محمد ما أوحي إليك من كتاب ربك وواظب على تلاوته فلا مبدل لكلماته سبحانه ولا مغير لها.

وقوله :(**إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون**) أي: أن القرآن يقص: أي يبين ويوضح لبني إسرائيل وهم حملة التوراة أكثر ما يختلفون فيه كاختلافِهم في أمرِ عيسى وَتَبَايُنِهم فيه فاليهود افتروا في حقه والنصارى غلوا فيه ، فجاءَ القرآنُ بالقولِ العَدْلِ الحقِّ أنَّه عبدٌ من عبادِ اللهِ ونبيٌّ مِن أنبيائِه.

وإضافةِ القصصِ إلى القرآن دليل على القول فإذا كان القرآن هو الذي يقص فهو كلام الله تعالى، لأن الله تعالى هو الذي قص هذه القصص فقال سبحانه وتعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ}.**وتضمَّنت هذه الآية أهمية الرُّجوعِ إلى القرآن واتِّباعِه** فإذا كان القرآن حكماً على وفصلاً على اختلاف بني إسرائيل فهذا دليل على عظمته وهيمنته على الكتب السابقة، وتَوْضيحِه لما وَقَعَ فيها من اشتباهٍ.

وفي الآيات المتقدمة دليلٌ على أنَّ القرآنَ الَّذي هو سُوَرٌ وآياتٌ وكلمات وحروفٌ هو عَيْنُ كلامِهِ سُبْحَانَهُ حقًّا لا تأْلِيفُ مَلَكٍ ولا بشرٍ، وأنَّ حروفَه ومعانيَه عَيْنُ كلامِه سُبْحَانَهُ الَّذي تَكلَّمَ به سُبْحَانَهُ حقًّا، وبلَّغه جبريلُ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وَبَلَّغَهُ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فللرَّسولين منه مجرَّدُ التَّبليغِ والأداءِ لا الوضعِ والإنشاءِ، فإضافتُه إلى الرَّسولِ بقولِهِ: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) إضافةُ تبليغٍ وأداءٍ لا إضافةُ وضعٍ وإنشاءٍ، لا كما يقولُهُ أهلُ الزَّيغِ والافتراءِ.

وفيها الرَّدُّ على مَن زعمَ أن هذا الموجودَ بين أيدِينا هو عبارةٌ عن كلامِ اللهِ أو حكايةٍ له، فإنَّه سُبْحَانَهُ أخبرَ أنَّ الَّذي يُسْمَعُ كلامُ اللهِ، وعندهم أنَّ الَّذي يُسْمعُ ليسَ كلامَ اللهِ على الحقيقةِ، وإنَّما هو مخلوقٌ حُكِيَ به كلامُ اللهِ على أحدِ قَولِهِم، وعِبارةٌ عُبِّرَ بها عن كلامِ اللهِ على القولِ الآخرِ، وهي مخلوقةٌ على القولَيْنِ، فالمقروءُ والمكتوبُ والمسموعُ والمحفوظُ ليسَ كلامَ اللهِ، وإنَّما هو عبارةٌ عُبِّرَ بها عنه، كما يُعَبَّرُ عن الَّذي لا ينطقُ ولا يتكلَّمُ مِن أخرسَ أو عاجزٍ، تعالى اللهُ عن قَولِهِم عُلوًّا كبيرًا.

وفيها الرَّدُّ على مَنْ زعمَ أنَّه مخلوقٌ أو أنَّهُ كلامُ بشرٍ أو مَلَكٍ أو غيرِ ذلك.

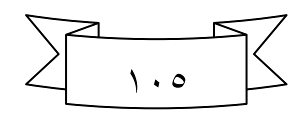
قال الشَّيخُ ابن تيمية رحمه اللهُ: "ولم يقلْ أحدٌ من السَّلفِ إنَّه مخلوقٌ أو أنَّه قديمٌ، بل الآثارُ متواترةٌ عن السَّلفِ مِن الصَّحابةِ والتَّابعين لهم بإحسانٍ أنَّهم يقولونَ: القرآنُ كلامُ اللهِ، **وأوَّلُ** مَن عُرِفَ عنه أنَّه قال مخلوقٌ: الجَعْدُ بِنْ دِرْهَمٍ، وصاحبُه الجهمُ بنُ صفوانَ، **وأوَّلُ** من عُرِفَ عنه أنه قالَ: هو قَدِيمٌ عبدُ اللهِ بنُ سعيدِ بنِ كلابٍ، أمَّا السَّلفُ فلم يَقُل أحدٌ منهم بواحدٍ من القولينِ، ولم يقلْ أحدٌ مِن السَّلفِ: إنَّ القرآنَ عِبارةٌ عن كلامِ اللهِ وحِكايةٌ له، ولا قالَ منهم أحدٌ إنَّ لَفْظِي بالقرآنِ قديمٌ أو مخلوقٌ، بل كانوا يقولونَ بما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ من أنَّ هذا القرآنَ كلامُ اللهِ، والنَّاسُ يَقْرءُونه بأصواتِهم ويكتبونَه بِمِدَادِهِم وما بينَ اللوحَينِ كلامُ اللهِ وكلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ... والمِدَادُ الَّذي يُكتب به القرآنُ مخلوقٌ، والصَّوتُ الَّذي يُقْرأ به هو صوتُ العبدِ، والعبدُ وصوتُه وحركاتُه وسائرُ صفاتِه مخلوقةٌ، فالقرآنُ الَّذي يَقْرؤه المسلمونَ كلامُ الباري، والصَّوتُ صوتُ القارئِ". (الفتاوى ١٢/ ٣٠٢)

قال البخاريُّ رحمه اللهُ في كتابِ (خَلْقِ أَفْعَالِ العِبَادِ) في قَولُهُ سُبْحَانَهُ: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيد * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) وقَولُهُ: (وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ) :" ذكرَ اللهُ أنَّ القرآنَ يُحفظُ ويُسَطَرُ، والقرآنُ الموعى في القلوبِ المسْطورُ في المصاحفِ المتْلوُّ بالألسنةِ كلامُ اللهِ ليس بمخلوقٍ، وأمَّا المِدادُ والورقُ والجلدُ فإنَّه مخلوقٌ" (أنظر:فتح الباري ١٣/ ٥٢٢)

وعلى هذا فهل يصح أن يقال:إن اللفظ بالقرآن مخلوق أو يقال بأنه غير مخلوق أم نسكت ؟

الجواب: لا نثبت ولا ننفي بل نفصلُ فإن أريد باللفظ التَّلَفُّظُ الذي هو فعلُ العبد من حركات اللسان والفم فهذا مخلوقٌ لأن العبدَ وفعلَه مخلوقان، وإن أريد باللفظ الملفوظُ به وهو المقروءُ فهذا كلامُ الله غيرُ مخلوق لأن كلامَ الله من صفاته وصفاتُه غيرُ مخلوقه.

وهذه المسألةُ ابتلي بها البخاريُّ رحمه الله فقد ذكر الذهبي رحمه الله في (السير) أن البخاري عندما قال:"أفعالُ العباد مخلوقةٌ" وكان يقول:"الصوت صوت القاريء والكلام كلام الباريء" فكان يُفصل رحمه الله ففهمَ بعضهم أنه يقصد أن اللفظ بالقرآن مخلوقاً حملاً على الملفوظ به فحصلت فُرْقَةٌ بين أهل السنة ويعتبر هذا أولَ خلافٍ تَبِعَتْهُ فُرْقَةٌ وتحزبٌ نسأل الله أن يجمع قلوب المسلمين على ما يحبه ويرضاه .



مسألة:ورد عن الإمام أحمدَ أنه قال:من قال:لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال:غير مخلوق فهو مبتدع . فما معنى هذا الكلام ؟

الجواب:أن قوله: من قال:لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي يريد إذا كان يقصد بذلك الملفوظَ فهو جهمي لأنه قال بخلق القرآن وهو قول الجهمية، وأما قوله: ومن قال:غير مخلوق فهو مبتدع يريد أنه مبتدع قد قال قولا جديدالَم يقله السلف الصالح .

....

وَقَوْلُهُ:﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾وَقَوْلُهُ:﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

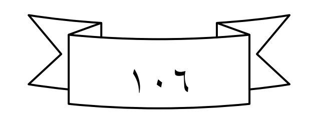
....

لما أورد المصنف رحمه الله الآيات الدالة على إثبات صفة الكلام لله تعالى وأن القرآن العظيم كلامه سبحانه، شرع في سياق الآيات الدالة على إثبات إنزال الله جل وعلا له، **وفي الآيات دليلٌ على عَظَمةِ القرآنِ** وأنَّه لو أُنزلَ على جبلٍ مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة لخشعَ وتَصدَّعَ مِن خشيةِ اللهِ،فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع . وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه .

وفيها دليلٌ على أنَّه سُبْحَانَهُ خلقَ في الجماداتِ إدراكًا بحيثُ تخشعُ وتُسبّحُ، وهذا حقيقةٌ كما دلَّتْ على ذلك الأدلَّةُ ولا يَعلمُ كيفيَّةُ ذلك إلا هوَ سُبْحَانَهُ، وفيها حَثٌّ على الخوفِ من اللهِ والخشوعِ عندَ سماعِ كلامِه، وأنَّه ينبغي أن يُقرأ بتدبُّرٍ وخشوعٍ وإقبالِ قلبٍ وأنَّه ينبغي الرِّقَّةُ عند سماعِ كلامِ الله والبُكاءِ وتلاوتِه بحزنٍ.

وفي قوله: (**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ...**) دليلٌ على وقوعِ النَّسخِ في القرآنِ، وأنَّه لحكمةٍ ومصلحةٍ يعلمُها سُبْحَانَهُ، فهو أعلمُ بمصلحةِ عبادِه فيما يُغيّرُ ويَنْسَخُ من أَحكامِه، وهو دليلٌ على إحاطةِ علمِه سُبْحَانَهُ بكلِّ معلومٍ.

(**قالوا**) أي : كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ : (**إنما أنت**) يا محمد (**مفتر**) أي : كاذب مختلق متقول على الله حيث تزعم أنه أمرك بشيء ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فرد الله عليهم بما يفيد جهلهم فقال :(**بل أكثرهم لا يعلمون**) شيئا من العلم أصلا ولا يعلمون الحكمة في النسخ فإنه مبني على المصالح التي يعلمها الله



سبحانه، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره . ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعلموا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق اللطف .

ثم رد عليهم في زعمهم أن هذا التبديل من عند محمد وأنه بذلك مفتر على الله، فقال سبحانه :(قل نزله) أي: : القرآن **(روح القدس)** أي : جبريل، والقدس : الطهر والمعنى : نزله الروح المطهر، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته **(من ربك)** أي : ابتداء تنزيله من عند الله سبحانه **(بالحق)** في محل نصب على الحال، أي : متصفا بكونه حقا **(ليثبت الذين آمنوا)** على الإيمان فيقولون : كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا . ولأنهم إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتوا على الإيمان **(وهدى وبشرى للمسلمين)** معطوفان على محل ليثبت أي: تثبيتا لهم، وهداية وبشرى.

ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال : **(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر)** أي : ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون : إنما يعلم محمدا القرآن بشر من بني آدم وليس ملكا من الملائكة، وهذا البشر الذي يعمله كان قد درس التوراة والإنجيل والكتب الأعجمية، لأن محمدا رجل أمي لا يمكن أن يأتي بما ذكر في القرآن من أخبار القرون الأولى .

فرد عليهم بقوله :(**لسان الذي يلحدون إليه أعجمي)** أي : لسان الذي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك يا محمد أعجمي، أي : غير عربي، فهو لا يتلكم العربية **(وهذا لسان عربي مبين)** أي: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح، فكيف تزعمون أن بشرا يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم من العجم، وقد عجزتم أنتم عن معارضته أو معارضة سورة أو سور منه وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة ؟ ! (شرح الفوزان (ص: ٧١)

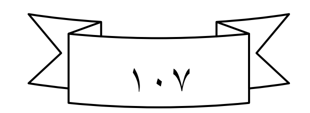
وقوله:(**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**...) أي: القرآن، والتَّنزيلُ والإنزالُ هو مجيءُ الشَّيءِ من أعلى إلى أسفلَ،و(رُوحُ الْقُدُسِ) هو جبريلُ عليه السَّلامُ، فجبريلُ سمِعَهُ من اللهِ والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سمعه من جبريلَ، وهو الَّذي نَزَل بالقرآنِ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبلَّغه محمَّدٌ إلى أمَّتِه كما نصَّ على ذلك أحمدُ وغيرُه من الأئمَّةِ، وجبريلُ هو: الرُّوحُ الأمينُ المذكورُ في قَولِهِ سُبْحَانَهُ: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ).

وفي هذه الآياتِ دليلٌ على أنَّ القرآنَ منَزَّلٌ من عندِ اللهِ، وأنَّه كلامُه، منه بدأَ وظهرَ لا من غيرِه، وأنَّه الَّذي تكلَّم به لا غيرَه، وأمَّا إضافتُه إلى الرَّسولِ في قَولِهِ: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) فإضافةُ تبليغٍ لا إضافةُ إنشاءٍ،**وفيها دليلٌ على علوِّ اللهِ** على خلقِه إذ التنزيل لا يكون من علو.

والتَّنزيلُ والإنزالُ المذكورُ في القرآنِ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأول:إنزالٍ مُطلقٍ كقَولِهِ: (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ).

الثَّاني: إنزالٍ مِن السَّماءِ كقَولِهِ: (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا).



الثَّالِث: إنزالٍ منه سُبْحَانَهُ كقَولِهِ: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ).

وتلاحظ هنا أن الله تعالى فرَّقَ بين النُّزولِ منه والنُّزولِ من السَّماءِ، وحُكمُ المجرورِ بِمِنْ في هذا البابِ حكمُ المضافِ.

والمضافُ ينقسمُ إلى قِسمين: إضافةِ أَعْيَانٍ وإضافةِ معانٍ.

فإضافةُ الأعيانِ إليه -سُبْحَانَهُ- من بابِ إضافةِ المخلوقِ إلى خالقِه،كبيتِ اللهِ وناقةِ اللهِ ونحوِ ذلك، **أمَّا إضافةُ المعاني إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى فهي من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ**، كسمعِ اللهِ وبصرِه وعلمِه وقُدرتِه، فهذا يمتنعُ أنْ يكونَ المضافُ مخلوقًا، بل هو صفةٌ قائمةٌ به وهكذا حُكمُ المجرورِ بمن، فإضافةُ القرآنِ إليه سُبْحَانَهُ من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، لا من بابِ إضافةِ المخلوقِ إلى خالقِه خلافًا للمبتدعةِ من المعتزلةِ والجهميَّةِ وأشباهِهِم.

وفي هذه الآيةِ الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ، أو أنَّه كلامُ بشرٍ وغيرِه، فمَن زعمَ ذلك فهو كافرٌ باللهِ العظيمِ، كما رُوِيَ ذلك عن السَّلفِ.

وفي الآياتِ دَّلالةُ على بُطلانِ قولِ مَن قالَ إنَّه مخلوقٌ خلقَهُ اللهُ في جسمٍ من الأجسامِ المخلوقةِ،كما هو قولُ الجهميَّةِ القائِلين بخلقِ القرآنِ.

وفيها **الدَّلالةُ على بُطلانِ قولِ مَن قال إنَّه فَاضَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من العقلِ الفَعَّالِ أو غيرِه،** كما يَقولُهُ طَوَائِفُ من الفلاسفةِ والصَّابئةِ، وهذا القولُ أشدُّ كفرًا من الَّذي قبلَه.

وفيها الدَّليلُ على بُطلانِ قولِ مَن قال: بأن القرآنَ مخلوق وليس بمنزل،وأن الله خلقه في جبريلَ أو في محمَّدٍ أو في جُرْمٍ آخرَ كالهواءِ، كما يقولُ ذلك الكُلاَّبيَّةُ والأَشعريَّةُ القائلونَ بأنَّ القرآنَ العربيَّ ليسَ هو كلامَ اللهِ، وإنَّما كلامُه المعنى القائمُ بذاتِه، والقرآنُ العربيُّ خُلقَ ليدلَّ على ذلك المعنى، وهذا يُوافقُ قولَ المعتزلةِ ونحوِهم في إثباتِ خلقِ القرآنِ.

وفيها دليلٌ على أنَّ القرآنَ نزلَ باللغةِ العربيَّةِ وتكلَّم اللهُ -سُبْحَانَهُ- بالقرآنِ بها، **وفيها الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّه يجوزُ ترجمةُ القرآنِ باللغاتِ الأعجميَّةِ**؛ لأنَّ القرآنَ مُعجزٌ بلفظِه ومعناه.

....

وَقَوْلُهُ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ .

....

هذه الآيات فيها إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربهم جل وعلا يوم القيامة وقد صح ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام وهو ما فسره به الصحابة رضي الله عنهم كابن عباسٍ رضي الله عنه وغيره أنهم فسروا الزيادةَ الواردة في الاية: برؤية أهل الجنة لربهم جل وعلا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

أي وجوه المؤمنين يوم القيامة (ناضِرَةٌ) من البهاءِ والحسن والإشراق، (إلى ربها) سبحانه ناظِرَةٌ بأبصارها كما تواترت به الأحاديث الصحيحة، وأجمع عليه الصحابة والتابعون وسلف الأمة واتفق عليه أئمة الإسلام.

فَيَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ في عَرَصَةِ القيامةِ، ويراه المؤمنونَ في الجنَّةِ، **ولا يجوزُ حملُ النَّظرِ هنا بمعنى الانتظارِ إلى ثوابِ اللهِ، فإنَّه مُعَدَّى بِإلى،ولا يُعَدَّى بإلي إلا إذا كانَ بمعنى النَّظرِ بالعينِ، وأيضًا فالانتظارُ لا يليقُ في دارِ القرارِ، فهذه الآيةُ صريحةٌ في أنَّ اللهَ يُرى عَيَانًا بالأبصارِ يومَ القيامةِ.**

وفيها **الرَّدُّ على مَن زعَم أنَّ معنى (نَاظِرَةٌ): أي مُنتظرةٌ ثوابَ ربِّها**؛ لأنَّ الأصلَ عدمُ التَّقديرِ، لأنَّ النَّظرَ المعَدَّى بإلى لا يكونُ إلا بمعنى النَّظرِ، لا سيَّما وقد ذُكِرَ الوجهُ الَّذي هو محلُّ النَّظرِ، وقد تواترتِ الأدلَّةُ في إثباتِ النَّظرِ إلى وجهِ اللهِ -سُبْحَانَهُ- وتعالى.

قال ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ في (النُّونيَّةِ):

وَيَرَوْنَهُ -سُبْحَانَهُ- مِنْ فَوْقِهِمْ ... نَظَرَ العَيَانِ كَمَا يُرى القَمَرَانِ

هَذَا تَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ لَمْ ... يُنْكِرْه إلا فَاسِدُ الإِيمَانِ

وقال ابنُ حجرٍ:

مِمَّا تَوَاتَر حَديثُ مَن كَذَب ... وَمَنْ بَنى للهُ بَيْتًا وَاحْتَسَب

وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذي بَعْض.

وفي هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ هذه الرُّؤيةَ خاصَّةٌ بالمؤمنينَ.

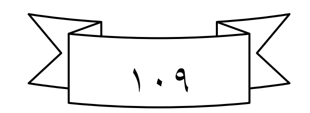
وفيها دليلٌ على أنَّ الرُّؤيَةَ تحصلُ للمؤمنينَ يومَ القيامةِ دونَ الدُّنْيا، ولم يَثبتْ أنَّ أحدًا رآه سُبْحَانَهُ في الدُّنْيا، قالَ اللهُ في حقِّ موسى عليه السَّلامُ: (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي) أي: في الدُّنْيا، وفي صحيحِ مسلمٍ أنَّ رسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا)).

واخْتُلِفَ هل حصلتِ الرُّؤيةُ لنبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أم لا؟

فالأكثرونَ على أنَّه لم يرهُ سُبْحَانَهُ وحكاهُ عثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارميُّ إجماعا عن الصَّحابةِ رضي الله عنهم.

والنَّاسُ في إثباتِ الرُّؤيةِ وعدمِها طَرَفان ووسطٌ.

فقِسمٌ غَلَوا في إثباتِها حتَّى أثبتُوها في الدُّنْيا والآخرةِ وهم الصُّوفيَّةُ وأَضْرابُهم.



وقِسمٌ نفوها في الدُّنْيا والآخرةِ وهم الجهميَّةُ والمعتزلةُ.

والوسطُ هم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ الَّذين أثبتوها في الآخرةِ فقط حسبما تواترتْ به الأدلَّةُ.

وَقَوْلُهُ:﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ الأرائك: جمع أريكة والمراد بها السرر أي: **وهم على السرر والفرش ينظرون إلى وجه ربهم**، وهذا مقابلٌ لما وُصفَ به أولئك الفُجَّارُ في قَولِهِ: (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) أي: عن رؤيته، وقد استدلَّ العلماءُ بقَولِهِ: (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) على إثباتِ رؤيةِ اللهِ، قالوا: لأنَّه لما حَجَبَ أعداءَه عن رُؤْيَته دلَّ على أنَّ أولياءَه يَرَوْنه.

وَقَوْلُهُ:﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وَقَوْلُهُ:﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

الحُسْنَى: هي الجنَّةُ، والزِيَادَةُ: هي النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ، كما فسَّرها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والصَّحابةُ رضي الله عنهم.

ولمَّا عطفَ الزِّيادةَ على (الحُسْنَى) دلَّ على أنَّها جزاءٌ آخرُ وراءَ الجنَّةِ وقَدْرٌ زائدٌ عليها، وثبتَ في صحيحِ مسلمٍ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تفسيرُ الزِّيادةِ: بالنَّظرِ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ.

قال ابنُ رجبٍ رَحمه اللهُ:"وهذا مناسبٌ لجعلِه جزاءً لأهلِ الإحسانِ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعْبدَ المؤمنُ ربَّه على وجهِ الحُضورِ والمراقبةِ كأنَّه يراهُ بقلبِه وينظرُ إليه في حالِ عبادتِه، فكانَ جزاءُ ذلك النَّظرَ إلى وجهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى عيانًا في الآخرةِ وعكسُ هذا ما أخبرَ به عن جزاءِ الكُفَّارِ أنَّهم عن ربِّهم محجوبونَ، وذلك جزاءٌ لحالِهم في الدُّنْيَا، وهو تَرَاكُمُ الرَّانِ على قلوبِهم حتَّى حجبتْ عن معرفتِه في الدُّنْيَا، فكانَ جزاؤُهم على ذلك أَنْ حُجِبوا عن رؤيتِه في الآخرةِ". **(جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٦)**

وقَولُهُ: **(لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيها)**: أي: في الجنَّةِ لهم ما يشاؤون من فنون النعيم وأنواع الخير ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعَتْ ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ، كما في حديثِ أبي هريرةَ عن النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) ثمَّ قرأ: (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) رواه البخاريُّ.

وقَولُهُ: **(وَلَدَيْنا مَزِيدٌ)**: وهو النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وتعالَى كما قالَ ذلك عليُّ بنُ أبي طالبٍ وأنسٌ وغيرُهم،فرؤيَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى من أَجَلِّ نعيمِ الجنَّةِ وأعظمِه فيا ربنا لا تحرمنا النظرَ إلى وجهك الكريم ولذة ذلك إنك جوادٌ كريمٌ وسيأتي فيما بعد بإذن الله تعالى ذكر الشبه الباطلة التي إستند عليها من نفى الرؤية مع الرد عليها والله أعلم.

وقَوْلُهُ:(**وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ**) يقصد المؤلف بالبابَ **باب معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله** وإثبات ماثبت منها على ما جاء به النص من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ونفي ما نفاه النص، وأغلب سور القرآن متضمنة لذلك مما يدل على أهمية هذا الباب وعدم إهماله.

وقَوْلُهُ:(**مَن تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ**) .

جاءَ الحثُّ على التَّدَبُّرِ والتَّفكُّرِ في كتاب الله تعالى على عدة أوجه منها:قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الأَلْبَابِ)، وقوله تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الحاثَّةِ على التَّدبُّرِ وتفهُّمِ معاني القرآنِ.

وفي ذلك الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّه لا وصولَ لمرحلة التدبر والتفهم لمعاني القرآن، وأنَّ بابَ الفهمِ عن اللهِ وعن رسولِه قد أُغلقَ، وبابَ الاجتهادِ قد سُدَّ، وهذا قولٌ باطلٌ تَردُّه أدلَّةُ الكتابِ والسُّنَّةِ.

وما أوتي الإنسان بعد الإيمان والتوحيد أعظمَ من أمرين:

الأول:حسنُ الفهم. **الثاني**:حسنُ القصد،لأن أهل البدع عندهم تدبرٌ للقرآن ولهم تفاسيرُ ولكنْ منهم من لا يحسنُ الفهمَ فيضلُّ ومنهم من يسوءُ قصدُه فيزِلُّ .

وهو ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: "من تدبر القرآن، طالبا للهدى منه".

فمن تدبر كتاب الله تعالى قاصدا طلب الهداية منه والوصول إلى الحق عن طريقه وفقه الله إلى ذلك وسلك به سبيل المرسلين، ومن زعم غير ذلك من كون أن القرآن أو السنة لا يصح الإستدلال بهما على المسائل القطعية والأمور اليقينية فقد أبعد النجعة وخالف الكتاب والسنة.

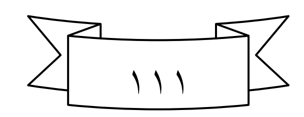
قالَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ بنُ تيميةَ رحمَه اللهُ:"وزعَم قومٌ من غَاليةِ أهلِ البدعِ أنَّه لا يَصحُّ الاستدلالُ بالقرآنِ أو الحديثِ على المسائلِ القطعيَّةِ، بناءً على أنَّ الدَّلالةَ اللفظيَّةَ لا تفيدُ اليقينَ، كما زعموا وزعمَ كثيرٌ من أهلِ البدعِ أنَّه لا يُسْتَدلُّ بالأحاديثِ المتلقَّاةِ بالقبولِ على مسائلِ الصِّفاتِ والقدرِ ونحوِهما ممَّا يُطْلَبُ فيه القطعُ واليقينُ".
الفتاوى (١١/ ٣٣٧)

....

فصل: ثمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِك

....

لـمَّا ذكرَ المصنف رحمه الله أدلَّةَ الكتابِ أتبعها بأدلَّةِ السُّنَّةِ الدالةَ على إثبات الأسماء والصفات ، فإنَّ اللهَ أنزلَ على نبيِّهِ الحِكمةَ كما أنزلَ القرآنَ، **والحكمةُ هي**: السُّنَّةُ باتفاقِ السَّلَفِ ، وقالَ -صلَّى اللهُ عليهِ



وسلَّمَ-: ((أَلاَ وَإِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)) رواه أصحابُ السُّنَنِ من حديثِ المقدامِ بنِ مَعْدي كرِبَ، وقال سُبْحَانَهُ: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى).

فاللهُ تعالى أنْزَلَ على رسولِه وحيَيْنِ، وأوجبَ على عبادِه الإيمانَ بهما والعملَ بما فيهما وهما الكتابُ والسُّنَّةُ، قال تعالى: (وَأَنزَلَ عليكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) والحكمَةُ هي السُّنَّةُ ، **وما أخبرَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنِ اللهِ فهو في وجوبِ تصديقِه والإيمانِ به كما أخبرَ بهِ الرَّبُ على لسانِ رسولِه،** وهذا أصلٌ متفقٌ عليهِ بينَ عُلماءِ الإسلامِ لا يُنكرُه إلا مَن ليسَ منهم.

ويجب أن يَعْلَمَ طالب العلم أَنَّ النظر في الأحاديث في باب الأسماء والصفات خصوصاً ليس كالنظر إلى آيات القرآن لأن آياتِ القران يُنْظَرُ لها من جهة واحدة وهي الدلالةُ على المقصود فقط دُونَ البحث عن ثبوت الآيات لأن القرآنَ متواترٌ وثابت وهذا بالإجماع أما السنة النبوية فينظر لها من جهتين:

الأولى:من حيث صحتها وثبوتُها عند أهل الإختصاص من أهل العلم والمعرفة بالحديث، والحديث الصحيح : هو ما نقله راو عدل تام الضبط عن مثله من غير شذوذ ولا علة قادحة.

الثانية:من حيث دلالتُها على المقصود .

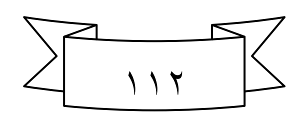
والسُّنَّةُ في اللغةَ: الطَّريقةُ، **وفي الاصطلاح**: أقوالُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأفعالُه وتقريراتُهُ.

والسُّنَّةَ الثابتة هي ككتابِ اللهِ تعالى في إفادةِ العلمِ واليقينِ، وفي وجوبِ القبولِ واعتقادِ ما تضمَّنته، **خلافًا لما عليه أهلُ البدعِ** الَّذين قالوا: لا يُحتَجُّ بكلامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على شيءٍ من الصِّفاتِ، وقالوا في تلك الأدلَّةِ: إنَّها ظواهرُ لفظيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ، وزعموا أنَّ الَّذي يفيدُ اليقينَ هو نُحاتةُ أفكارِهم وسفالةُ أذهانِهم، وهذا إبطالٌ لدينِ الإسلامِ رأسًا.

وهل خبر الآحاد مقبول في باب العقائد ؟

ج/ إذا كان ثابتا فهو مقبول عند أهل السنة والجماعة ولم يخالف في هذا إلا من تأثر ببعض أهل الكلام.

قالَ الشَّيخُ تقِيُّ الدِّينِ بنُ تيميةَ رحمَه اللهُ:" جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن " خبر الواحد " إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقا له أو عملا به أنه يوجب العلم وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك؛ ولكن كثيرا من أهل الكلام أو أكثرهم يوافقون الفقهاء وأهل الحديث والسلف على ذلك وهو قول أكثر الأشعرية " **مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٥١)**



والأدلَّةُ على قبولِ خبرِ الآحادِ كثيرةٌ جدًّا، وقدْ أفاضَ ابن القيم رحمه الله في ذكرِ الأدلَّةِ الدالة على ذلك في كتابه (الصَّواعقِ)و(والنونية)، قالَ ابنُ القاصِّ: "لا خلافَ بينَ أهلِ الفقهِ في قَبُولِ خَبَرِ الآحادِ" (شرح الكوكب المنير (٢/ ٣٦١)

والسُّنَّةُ تفسِّرُ القرآنَ وتعبر عنه وتُبيِّنُ مُجملَه وتُقيِّدُ مطلقَه، فقد كان النَّبيّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يبيِّن لأصحابِهِ القرآنَ الكريم، لفظَه ومعناه كما في الصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ والبيعِ، وغالبِ الأحكامِ الَّتي جاء تفصيلُها في السُّنَّةِ، والبيانِ يحصلُ بالقولِ وبالفعلِ وبالإقرارِ على الفعلِ، ولا يحصلُ البيانُ والبلاغُ المقصودُ إلا بذلك، كما قال سُبْحَانَهُ وتعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ).

وعلى من أراد الإستدلال على معاني القرآن أن يستدل بكتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ثمَّ يُتبعُ ذلك بما قالَهُ الصَّحابةُ والتَّابعون وأئمَّةُ الهُدى، ولا شكَّ أنَّ تفسيرَ القرآنِ بهذه الطَّريقةِ خيرٌ ممَّا هو مأخوذٌ عن أئمَّةِ الضَّلالِ وشيوخِ التَّجهُّمِ والاعتزالِ، الَّذين أحدثوا في الإسلامِ بدعًا وضلالاتٍ وفرَّقوا دينهَم وكانوا شيعًا، وَنَبذوا كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ وراءَ ظهورِهم.

ثم ذكر المصنف عدة أمثلة مما ورد في السنة من إثبات صفات الله عز وجل فقال رحمه الله:

....

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ :(يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ :مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

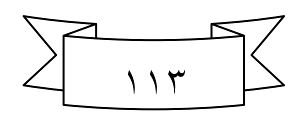
....

من أدلة السنة الدالة على إثبات صفاته جل وعلا قوله ﷺ من حديث أبي هريرة في الصحيحين:**(يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ...)** وقد أتى المصنف رحمه الله بهذا الحديث لإثبات صفة النزول الإلهي إلى السماء الدنياء في الثلث الأخير من الليل على ما يليق بالله تعالى.

وأفادَ هذا الحديثُ عدة فوائدَ منها:

الأولى: إثباتُ نزولِ الرَّبِّ إلى السَّماءِ الدُّنْيَا كلَّ ليلةٍ كما يليقُ بجلالِه وعظمَتِه ولا نشبهه بنزول المخلوق لأنه سبحانه{ليس كمثله شيء} ، فنُثبِتُ نزول الله على حقيقةً، وأمَّا كُنْهُ نزولِه وكيفيَّتِه فلا يعلمُها إلا هو سُبْحَانَهُ كما قال مالكٌ: "الاستواءُ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ".

ثانيًا: إثباتُ العلوِّ للهِ سُبْحَانَهُ، فإنَّ النُّزولَ والتَّنزيلَ والإنزالَ هو مجيءُ الشَّيءِ والإتيانِ بهِ مِن علوٍّ إلى أسْفَلَ، هذا هو المفهومُ مِن لُغةِ العَرَبِ، قال تعالى: (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا).



ثالثًا: الرَّدُ على الجهميَّةِ والمعتزلَةِ المنكرينَ لنُزولِه سُبْحَانَهُ وتعالَى زعمًا منهم أنَّ هذا مِن مجازِ الحذفِ، والتَّقديرِ كما زعموا: ينزلُ أمرُه أو رحمتُه، وهذا باطلٌ مِن وجوهٍ عديدةٍ:

أ- أنَّ الأصْلَ عدمُ الحذفِ.

ب- أنَّه قال: (مَن يدعوني فأستجيبَ له...)، فهلْ أمْرُه أو رحمتُه تقولُ مَن يَدعوني، هذا ممَّا لا يُعْقَلُ أنْ يكونَ القائِلُ له غيرَ اللهِ، فلم يكنْ إلاَّ نزولَه سُبْحَانَهُ بذاتِه، هذا هو صريحُ الأدلَّةِ والمعقولِ.

ت- أنه حدَّدَ لنُزولِه ثُلثَ اللَّيلِ الآخِرَ، ولوْ كانَ أمرَه أو رحمَتَه لم يحدِّدْ ذلكَ بثلثِ الليلِ، فإنَّ أمْرَه ورحمتَه ينزلانِ في كلِّ وقتٍ.

ث- أنه خلاف ظاهر النص لأن الله أضاف النُّزُولَ لنفسه لا إلى غيره .

رابعاً: إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ المتعلقة بمشيئته من خلال إثبات صفة النزول لله تعالى على ما يليق به تعالى.

خامساً: إثباتُ القولِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالى.

سادساً: إثباتُ أنَّ كلامَه سُبْحَانَهُ بحرفٍ وصوتٍ، إذْ لا يُعْقَلُ النِّدَاءُ إلا مَا كان حرفًا وصوتًا.

قال الحافِظُ ابنُ رَجَبٍ رحمه اللهُ:"ومِن البِدَعِ الَّتي أنْكرَها أحمدُ في القرآنِ قولُ مَن قال: إنَّ اللهَ تكلَّم بغيرِ صوتٍ، وأنكرَ هذا القولَ وبدَّعَ قائلَه، وقدْ قيلَ: إنَّ الحارِثَ المحاسبيَّ إنَّما هَجَرَهُ أحمدُ لأجلِ ذلكَ" (شرح الكوكب المنير (٢/ ١٠٧).

سابعاً: إثباتُ أنَّ صِفَةَ الكلامِ صفةٌ فعليةٌ، كما أنَّها مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ أيضًا كما تقدم بيانه.

ثامناً: فيه الرَّدُّ على الجهميَّةِ وأضرابِهِمْ القائلينَ: بأنَّه سُبْحَانَهُ في كلِّ مكانٍ بذاتِه، فَلَوْ كانَ في كلِّ مكانٍ لم يقلْ:(ينزلُ ربُّنا).

تاسعاً: الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّ الَّذي ينزلُ مَلَكٌ مِن الملائكةِ، فإنَّ الملَكَ لاَ يقولُ: مَن يسألُني فأعطيَه، **فإنَّ هؤلاءِ الجهميَّةَ المعطِّلةَ الَّذين ينفونَ نزولَه سُبْحَانَهُ وينفونَ كلامَه يقولونَ زعمًا منهم إن هذا مجازٌ، والتَّقديرُ في قَولِهِ: فيقولُ أي: فيأمُرُ مَلَكًا يقولُ ذلك عنه**، كما يُقالُ: نادى السُّلطانُ، أي أنه أَمَر مُناديًا، ويقولونَ فيما ثبَتَ أنه قالَ ويقولُ وتكلَّم ويُكَلِّمُ ممَّا لا حصْرَ له، كلُّ هذا مجازٌ، **وقولُهُم باطلٌ مِن جهة أنَّ المنادِيَ عنه غيرُه، كمنادِي السُّلطانِ يقولُ: أمَرَ السُّلطانُ بكذا، لا يقولُ إني آمُركم بكذا وأنهاكُم عَنْ كذا، واللهُ -سُبْحَانَهُ- يقولُ في تكليمه موسى: (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا) وفي الحديثُ يقولُ: ((مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ)) وإذا كانَ القائِلُ مَلَكًا قالَ -كَمَا فِي الصَّحِيحين-: ((إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى فِي السَّمَاءِ يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ وَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ)). فقالَ في ندائه عن اللهِ إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحبُّوه، وفي نداءِ الرَّبِّ يقولُ: مَن يدعوني فأستجيب لهُ ؟**

"**(فإنْ قيلَ)**: فقد رُوِيَ أنَّه يأمرُ مناديًا فينادِي، قيلَ هذا ليسَ في الصَّحيحِ، فإنْ صحَّ أمكنَ الجمعُ بين الخبرينِ بأنْ يُناديَ هو ويأمرَ مناديًا ينادي، أمَّا أنْ يُعارضَ بهذا النَّقلِ الصَّحيحِ المستفيضِ الَّذي اتَّفق أهلُ العلمِ على صحَّتِه وتلقِّيهِ بالقبولِ ورواه ثمانية وعشرين نفسا من الصحابة مع أنَّه صريحٌ بأنَّ اللهَ هو الَّذي يقولُ:((مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟)) فلا يجوزُ. (مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١١)

عاشراً: فيه دليلٌ على امتدادِ هذا الوقتِ أيْ وقتِ النُّزولِ الإلهيِّ إلى إضاءَةِ الفجرِ والحثُّ على الدُّعاءِ والاستغفارِ في جميعِ الوقتِ المذكورِ.

إحدى عشر: فيه دليلٌ على نفعِ الدُّعاءِ، **والرَّدِّ على بعض جهلةِ المتصوِّفةِ القائلين بأنَّ الدُّعاءَ لا ينفعُ**، وهو قولٌ مردودٌ بأدلَّةِ الكتابِ والسُّنَّةِ مع أدلَّةِ العقلِ، فإنَّ المشركين كانوا يعرفونَ نفْعَ الدُّعاءِ، قال تعالى: (فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) الآيةَ. فضلاً عن غيرِهِمْ.

إثنا عشر: فيه أنَّ الدُّعاءَ مِن أفضلِ الطَّاعاتِ بنوعيه المسألة والعبادة، فلا يجوزُ صرفُه لغيرِ اللهِ، ومَن دعا غيرَ اللهِ فهو مشركٌ كافرٌ.

ثلاثة عشر: إنَّ ثلثَ اللَّيلِ الآخِرَ مظنَّةُ الإجابَةِ وإنَّ آخِرَ اللَّيلِ أفضلُ للدُّعاءِ والاستغفارِ، ويشهدُ لَهُ قَولُهُ تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)، وقال: (كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) وفيه أنَّ الدُّعاءَ في ذلكَ الوقتِ مجابٌ، وتخلُّفَ الإجابةِ عن بعضِ الدَّاعينَ قد يكونُ بسببِ إخلالٍ ببعضِ شروطِ الدُّعاءِ.

أربعة عشر: فيه تلطُّفه سُبْحَانَهُ بعبادِه ورحمتُه بهم وكونُه سُبْحَانَهُ يأمرهُمْ بدعائِه واستغفارِه.

مسألة:ما الجمع بين نصوص علو الله تعلى بذاته ونزولِه إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل ؟

الجواب:

١.أن النصوصَ قد جمعت بينهما والنصوصُ لا تجمع بين محال .

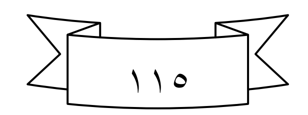
٢.أن الله لا يقاس بخلقه جل وعلا لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في جميع صفاته جل وعلا .

مسألة: هل يخلو العرش من الله سبحانه عند نزوله ؟

لأهل السنة في المسألة ثلاثة أقوال:

القول الأول: ينزل ويخلو منه العرش وهو قول طائفة من أهل الحديث.

القول الثاني: ينزل ولا يخلو منه العرش وهو قول جمهور أهل الحديث ومنهم الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وحماد بن زيد، وعثمان ابن سعيد الدارمي وغيرهم،أي:أنه سبحانه مستو على عرشه مع نزوله إلى السماء الدنيا لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ بخلاف المخلوق فإنه يلزم من انتقاله من مكان إلى مكان خلو المكان الأول عنه.



القول الثالث: ينزل، لكن هذا النزول لا نعقل معناه هل هو بزوال أو بغير زوال وهذا قول ابن بطة والحافظ عبد الغني المقدسي وغيرهما. **وعلى كل حال فالأولى والأسلم عدم الخوض في هذه المسألة التي لا نص فيها**.

مسألة:إذا نزل الله في الثلث الأخير من الليل فهل نزوله يكون دائماً لأنه لا يوجد مكانٌ في الأرض إلا وفيه ليل في جميع بلدان العالم لاختلاف الأوقات ؟

الجواب:هذا الإستنتاج يقال في المخلوق وقدراته أما الخالق فـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فكما أنه يرزق الناسَ في لحظة واحدة ولا يَشْغَلُهُ هذا عن هذا ويسمع الأصوات في لحظة واحدة ولا يَشْغَلُهُ هذا عن هذا ويحاسب الخلائق أجمعين، فكذلك النزولُ وأمثالُه فالله جل وعلا لا يقاس بخلقه مطلقاً لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ثم إن هذه الأسئلة غالبا ما يوردها من أبعد عن الدليل النقلي إلى الدليل العقلي كالأشاعرة ونحوهم ممن يريد نفي صفة النزول فالبعد عن هذا هو الأولى بالمسلم فالصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يستفسروا عن مثل هذا وإنما كان رائدهم هو التصديق والتسليم.

مسألة:عند ذكر النُّزُول هل يقال بذاته أم لا يقال ؟

الجواب: لا يقال بل يتوقف على اللفظ كما وقف السلف الصالح لأن ذكرها قد يأتي بدلالات لا تصح .

....

وَقَوْلُهُ ﷺ:(لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ ﷺ: (يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ ﷺ:(عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ) حَدِيثٌ حَسَنٌ .

....

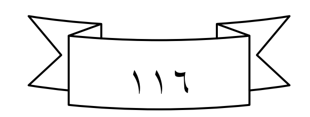
قَوْلُهُ ﷺ:(لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

في هذا الحديث إثبات **صفة الفرح لله تعالى.**

والفرحُ لذَّةٌ تقعُ في القلبِ بإدراكِ المحبوبِ ونيلِ المُشْتَهى، وهو صفةٌ كمالٍ، ولهذا يوصفُ سُبْحَانَهُ بأعلى أنواعِهِ وأكملِهَا، كَفَرَحِه سُبْحَانَهُ بتوبةِ عبدِه،والفرحُ بالشَّيءِ فوقَ الرِّضَا به، فإنَّ الرِّضا طمأنينةٌ وسكونٌ وانشراحٌ، والفرحُ لذَّةٌ وبهجةٌ وسرورٌ، فكلُّ فرحٍ راضٍ، وليسَ كلُّ راضٍ فرحًا، انتهى. (مدارج السالكين (٣/ ١٥٠)

وفي هذا الحديثِ فوائدُ منها:

١- إثباتُ الفرحِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى وهو من **الصفات الفعلية** اللائقة بالله جل وعلا، وهذ الفرح منهُ جل وعلا فرح إحسانٍ وبرٍّ ولطفٍ، لا فرح محتاجٍ إلى توبةِ عبدِه منتفعًا بها، فإنَّه سُبْحَانَهُ لا تنفعُه الطَّاعةُ ولا تضرُّه المعصيةُ.



٢- أَنَّ فرحَه سُبْحَانَهُ يتفاضلٍ.

٣- فيه فضلُ التوبةِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالى.

٤- أنه سُبْحَانَهُ يقبلُ توبَةَ عبدِهِ ويفرحُ بها إذا وقعتْ على الوجهِ المعتَبَرِ شرعًا.

٥- قالَ ابنُ القيّمِ رحمهُ اللهُ:"وفي الحديثِ مِنْ قواعدِ العلمِ: أنَّ اللَّفظَ الَّذي يجري على لسانِ العبدِ خطأً مِن فَرَحٍ شديدٍ أو غيظٍ شديدٍ ونحوِه لا يؤاخَذُ بهِ ولهذا لم يكنْ هذا كافرًا بقولِهِ: أنتَ عبدي وأنا ربُّكَ" (مدارج السالكين (١/ ٢٢٦)

وقد فسرت الفرق الضالة الفرحَ بأنه: الرضا والنعمةُ ونحوُ ذلك وهذا التفسير باطل لأن الوصفَ إذا أضيف إلى الله فلا يكون إلا قائماً به جل وعلا وأما الرضا والنعمة فهما أحدُ لوازمِ الفرح .

وَقَوْلُهُ ﷺ: (يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلُ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ فيقاتل فَيُسْتَشْهَدُ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

في هذا الحديثِ فوائدُ:

أولاً: إثباتُ الضحكِ لله سُبْحَانَهُ وتعالَى وهو من **الصفات الفعلية** اللائقة بالله تعالى بخلاف المبتدعة المحرفين الذين حرفوا الضحك إلى إرادة الثواب.

ثانيًا: فيه فضلُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وعظمِ أجرِ المجاهدِ، وقدْ تكاثرتِ الأدلةُ في الحثِّ على الجهادِ في سبيلِ اللهِ.

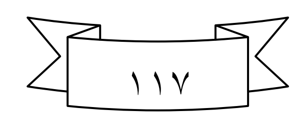
ثالثًا: فيه فضلُ القتلِ في سبيلِ اللهِ، وأنَّ المقتولَ في سبيلِ اللهِ يدخلُ الجنةَ وتكفر ذنوبه.

رابعا: فيه أنَّ التوبةَ تأتي على سائرِ الذُّنوبِ حتى ذنبِ القتلِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ:(عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أزلين قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيب) حديث حسن .

هذا الحديث أخرجه أحمد وابن ماجة والدارقطني وغيرهم وقد تكلم عليه أئمة الحديث من جهة الصحة والضعف، والصحيحُ أنه ضعيفٌ لأن فيه (وكيعَ بنَ عُدسٍ) وهو مجهولٌ لا يعرفُ كما قال الذهبي في (الميزان)، ثم إن اللفظَ الذي أتى به المصنف ليس في طرق هذا الحديث فيما نعلم أعني لفظَ: (عجب - أزلين - قنطين) والذي في الحديث:(ضحك) بدلَ:(عجب) ففيه إثباتُ صفةِ الضحكِ لكن كما قلنا بأنه حديث ضعيف.

لكن ورد في الصحيحين إثباتُ صفة العجب من حديث أبي هريرة في قصة أبي أيوبَ الأنصاريّ وزوجتِه مع ضيف النبي ﷺ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:إِنِّي مَجْهُودٌ. فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ:وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلاَّ مَاءٌ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لاَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلاَّ مَاءٌ. فَقَالَ:(مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ). فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ:أَنَا يَا



رَسُولَ اللَّهِ. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ:هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ. قَالَتْ:لاَ إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي. قَالَ فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِى إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ. قَالَ:فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:(قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ) .

وقَولُهُ: ((**عَجِبَ**)) العَجَبُ لغةً: استحسانُ الشَّيءِ ويكونُ لاستقباحِ الشَّيءِ.

والعجب نوعان:

الأول:ما كان صادراً عن خفاء الأسباب على المتعجبِ فيحصلُ منه الدهشةُ والاستعظامُ ويتعجبُ منه وهذا لا يكون في حق الله تعالى لأن الله ﴿ **لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ** ﴾ .

الثاني:أن يكونَ سببُ العجبِ معلوماً وهو خروجُ الأشياء عن عادتها ونظائرِها مع علم المتعجبِ وهذا هو الثابتُ في حق الله جل جلاله على ما يليق بجلاله وعظمته بخلاف المحرفين الذي حرفوا العجب إلى الرضا .

وقُولُهُ:(**قُنُوطِ**) القنوط:اليأس من حصول شيءٍ ما .

قَولُهُ:(**قُرْبِ غِيَرِهِ**) أي: قربِ تغيرِ الحالِ، وفي بعض النسخ:(خَيرِهِ) بدلَ:(غِيَرِهِ) لكن ما أثبتناه هو الأصح .

قُولُهُ:(**أَزِلِينَ**) الأَزِلُ: مأخوذ من الأَزْلِ بالكسر وهو الضيقُ والشدةُ .

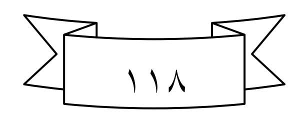
وفي الحديثين المتقدمين عدة فوائد منها:

١- إثباتُ صفة الضَّحكِ والعجبِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى حقيقةً كما يليقُ بجلالهِ وعظمتِه، والأحاديثُ في إثباتِ الضَّحكِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى متواترةٌ.

٢- الردُّ على المعطِّلةِ من الجهميَّةِ والمعتزلةِ وغيرِهم الذينَ ينفونَ صفة الضَّحكَ والعجبَ عن الله ويؤولونَ ذلكَ بتأويلاتٍ فاسدةٍ.

٣- إثباتُ صفة النظرِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالى **وكلُّ هذه مِن الصِّفاتِ الفعليَّةِ** فنثْبتُها للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى حسبَ ما جاءت بذلكَ الأدلَّةُ المتكاثرةُ، وليسَ في إثباتِ هذه الصِّفاتِ محذورٌ ألبتَّةَ، فإنه ضحكٌ ليسَ كمثلهِ شيءٌ، وعجبٌ ليسَ كمثلهِ شيءٌ، وحُكمهُ حكمُ رضاهُ ومحبَّتُهُ وإرادتهُ وسمْعُهُ وبصرُهُ وسائرُ صفاتِه، فالبابُ واحدٌ لا تمثيلَ ولا تعطيلَ، فالقولُ في الصِّفاتِ كالقولِ في الذَّاتِ، فكما أنَّنا نعتقدُ أنَّ للهِ ذاتًا لا تشبهُ الذَّواتَ فالصِّفاتُ يُحذى فيها حذوَ الذَّاتِ، والصِّفاتِ حُكمُها واحدٌ، وبابُها واحدٌ، فإذا أثبْتنا بعضًا ونفيْنا البعضَ الآخرَ تناقضْنَا؛ لأنَّ الأدلَّةَ التي أثبتتْ تلك الصفةَ هي التي ثبتَ بها النوعُ الآخرُ مِن الصِّفاتِ، فإثباتُ بعضٍ ونفيُ بعضٍ تناقُضٌ.

....



وَقَوْلُهُ ﷺ: (لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ) وَفِي رِوَايَةٍ:(عَلَيْهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ:قَطْ قَطْ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

....

هذا الحديث في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، **وفيه إثباتُ صفة الرجل والقدم لله على ما يليق به سبحانه وتعالى وهما اسمان لمسمىً واحدٍ وهي من الصفات الذاتية** وهذا هو مذهب عامة أهل السنة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وفي هذا الحديث فوائد منها:

١- الدلالةُ على أن النارَ مخلوقة وأنها تتكلم حقيقةً لا مجازاً بلسان المقال لا بلسان الحال كما قال بعضهم فالله يخلق لها إدراكا وهوعلى كل شيء قدير ومثلُها كذلك الجنةُ كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :(تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ:أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ:مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ؟ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ:أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ:إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ:قَطِ قَطِ قَطِ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا) متفق عليه .

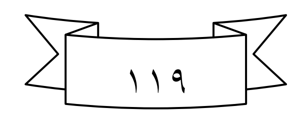
٢- المراد بقوله: ((وَهِيَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)) أيْ: **هل مِن زيادةٍ** فهي تطلبُ الزيادةَ كما رجحه الطبري لسعتِهَا وبُعْدِ قَعْرِهَا،**وليس المراد من ذلك إستفهام الإنكار و النفي** كما قال بعض السلف (**أنظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ٥٩٥)**)

قال ابنُ القيّمِ رحمه اللهُ: "وأخطأَ مَنْ قال إنَّ ذلكَ للنَّفْيِ، أيْ ليس منْ مزيدٍ، فإنَّ الحديثَ الصحيحَ يردُّ هذا التأويل" (**الفوائد لابن القيم ١٢**)

والمراد بقوله:(فَيَنْزَوِي) أي:يَلْتَئِمُ بعضها على بعض، وقوله:(قَطْ قَطْ) أي: حسبي وكافيني.

٣- أنه لما كان مِن مُقتضى رحمتِه أنْ لا يعذِّبَ أحدًا بغيرِ جُرْمٍ وكانت النَّارُ في غايةِ السِّعَةِ حقَّقَ وعدَه، فيضعُ عليها قَدَمه، فيتلاقَى طرفَاها ولا يبْقَى فيها فضلٌ عن أهْلِهَا، وأمَّا الجنَّةُ فيبقى فيها فضلٌ عن أهْلِها فينشئُ اللهُ لها خلقًا آخرينَ، كما ثبتَ ذلك في الحديثِ.

٤- قال البغوي رحمه الله : " والقدم والرجل المذكوران في هذا الحديث من صفات الله سبحانه وتعالى، المنزه عن التكييف والتشبيه، وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب أو السنة كاليد، والإصبع، والعين، والمجيء، والإتيان، فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي من سلك فيها طريق



التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكر معطل، والمكيف مشبه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}"(شرح السنة للبغوي (١٥/ ٢٥٧)

٥- في الحديثِ الرَّدُّ على المعطِّلَةِ الَّذين نَفَوْا صفةَ القَدَمِ للهِ وأوَّلوا ذلك بنوعٍ مِن الخلقِ، وأوَّلوا قَولَهُ في الرِّوايةِ الثَّانيةِ التي فيها إثباتُ الرِّجلِ للهِ بأنه كما يقالُ: رِجلٌ مِن جَرادٍ، وما زَعموه مِن هذه التَّأويلاتِ الفاسدةِ مردودةٌ مِن وجوهٍ:

أوَّلاً: أنَّ الأصْلَ الحقيقةُ.

ثانيًا: أنَّه قال: (حتى يَضعَ) ولم يقلْ حتى يُلْقي فاللفظ راجع للذات، كما قال في أول الحديث قَولِهِ: ((وَلاَ يَزَالُ يُلْقِي فِيهَا))، وأيضاً فإن قولُه:(عليها) يمنع هذا التفسيرَ.

ثالثًا: أن القدمَ لا يصح تفسيرها بالقوم أو الخلق لا حقيقةً ولا مجازاً ثم إنه لا يمكن أن يضيفَ الله جل وعلا أهلَ النار إلى نفسه لأن إضافةَ الشيءِ إلى الله تكريمٌ وتشريفٌ إلى غيرِ ذلك مِن الوجوهِ الَّتي ذكرَها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيرُه في إثباتِ صِفَةِ القَدَمِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى حقيقةً، كما يليقُ بجلالِه وعظمَتِه، والرَّدِّ على مَن زَعَم غيرَ ذلكَ.

مسألة: هل يقال بأن لله قدماً يميناً وقدماً شمالاً كما قيل في اليد أو يقالُ له قدمان كلاهما يمينٌ أو كلتا قدميه يمينٌ ؟

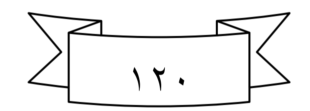
ج :لم يرد شيءٍ في هذا فعليه نسكتُ ونقفُ حيثُ سكت القوم ووقفوا لأنهم عن علم وقفوا .

مسألة: هل يثبت لله ساقاً ؟

من صفات الله تعالى الساق وهذا هو مذهب السلف الصالح لكنهم اختلفوا في قوله تعالى:﴿ **يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ** ﴾ هل يؤخذ منها إثبات صفة الساق أم لا على أقوال:

القول الأول:أنها لا دلالةَ فيها على إثبات صفة الساق وإنما المعنى: يوم يكشفُ عن شدةٍ وذهب إلى هذا ابنُ عباس إن صح عنه قالوا:لأن الساق جاءتْ هنا منَكرةً، قال ابنُ القيم:ليس في الآية ما يدل إثباتَ صفةِ الساقِ لأنه لم يضفِ الصفةَ لنفسه بل ذكره منَكرا مجرداً، ودليلُهم على إثبات صفة الساق من غير هذه الآية هو حديث أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:(يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا) رواه البخاري .

القول الثاني: وبه قال أبوسعيد رضي الله عنه أنها من آيات الصفات الدالة على إثبات الساق لله تعالى، والجواب عن القول الأول أن تنكيرَ لفظةِ (ساقٍ) من باب التعظيمِ والتفخيمِ كأنه قال: يكشفُ عن ساقٍ عظيمةٍ



وأن القولَ بأن الآيةَ محمولةٌ على الشدة لا يصحُّ لأن الفعلَ كَشَفَ إذا استُعْمِلَ مع الشدة ونحوِها فإن العربَ تُعَدِّيهِ بنفسه لا بالحرف فتقول:كشف اللهُ الشدةَ أو العذابَ، ولا تقول:كشف اللهُ عن الشدةِ، وهنا الفعل كشف عُدِّيَ بالحرف فلا يصح أن يقال إن المراد بالساق الشدةُ، ومن استعماله مع الشدة ونحوِها قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾ فهنا عُدِّيَ الفعلُ بنفسه، وهذا القول هو الأقرب. (أنظر:الفتاوى ابن تيمية ٣٩٤/٦) .

....

وَقَوْلُهُ ﷺ:(يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:يَا آدَمُ فَيَقُول:لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوتٍ:إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّار) مُتَّفقٌ عَلَيْهِ

....

هذا الحديث فيه إثبات صفة النداء والصوت والكلام لله تعالى على ما يليق به وقد رواه البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحهِمَا، مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ، وتمامُه: ((قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ)) فاشتدَّ ذلكَ عليهِمْ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، أيُّنا ذَلكَ الرَّجُلُ؟ قال: ((أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، أَنْتُمْ فِي الأَرْضِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) فكبَّرْنَا، ثم قال ((ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) فكبَّرنا، ثم قال: ((شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) فكبَّرنا))، وروى هذا المعنى جماعةٌ مِن الصَّحابَةِ.

وقَولُهُ: ((**لَبَّيْكَ**)): لبيكَ من ألبَّ بالمكانِ إذا أقامَ به، أي: أنا مقيمٌ على طاعتِكَ، وهي مختلف فيها لفظا ومعنى، فأما لفظها فالصحيح ما ذهب إليه سيبويهِ والفراءُ من أنها على مثنى لا مفرد، وأما معناها ففيه خلاف يصل إلى ثمانية أقوال ذكرها ابنُ القيم في (تهذيب سنن سنن أبي داود (٥/ ١٧٥) واختار أن معناها: أُجِيبُكَ إِجَابَةً بَعْدَ إِجَابَةٍ .

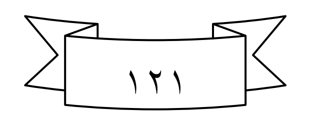
وقَولُهُ: ((**وَسَعْدَيْكَ**)): مِن المساعدةِ وهي المطاوعةُ، ومعناها إسعادٌ بعدَ إسعادٍ لك يا ربنا حباً لك وتذكراً

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله عدة فوائد وقواعد من كلمات التلبية فمنها:

" **أوَّلاً**: أنَّ قَولَهُ لبَّيْكَ يتضَّمنُ إجَابَةَ داعٍ دعاكَ ومنادٍ نادَاكَ، ولا يصحُّ في لغةٍ ولا عَقْلٍ إجابَةُ مَن لا يتكلَّمُ ولا يدعُو مَن أجابَه.

ثانيًا: أنها تتضمنُ المحبةَ، ولا يُقالُ لبَّيكَ إلا لمنْ تُحِبُّهُ وتُعظِّمُه.

ثالثًا: إنها تَتضمَّنُ التزامَ دوامِ العُبوديَّةِ...



رابعًا: أنها تَتضمَّنُ الخضوعَ والذُّلَّ...

خامسًا: أنها تتضمَّنُ الإخلاصَ، ولهذا قيلَ: إنها مِنَ اللَّبِّ وهو الخالصُ.

سادسًا: أنها تتضمَّنُ الإقرارَ بسمعِ الرَّبِّ إذ يستحيلُ أن يقولَ الرَّجُلُ لمنْ لا يُسمعُ دَعاؤه لبَّيكَ"(تهذيب السنن لابن القيم (٥/ ١٧٧).

وقَوْلُهُ: ((**فَيُنَادِي**)): بكسرِ الدَّالِ، أي اللهُ سُبْحَانَهُ وتعالى،وقَوْلُهُ: ((**بِصَوْتٍ**)): فيه إثباتُ الصَّوتِ حقيقةً كما يليقُ باللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى، **وصوتُه مِن صفاتِ ذاتِه لا يشبِهُ خَلْقَهُ ولاَ حاجةَ أن يقيِّدَ النِّداءُ بصوتٍ**، فإنَّه بمعناهُ، فإذا انتفى الصوتُ انْتَفى النِّداءُ، ولهذا قيَّده بالصوتِ إيضاحًا وتأكيدًا كما قيَّدَ التَّكْلِيمَ بالمصدرِ في قَوله: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)،وقَوْلُهُ: ((**بَعْثًا إِلَى النَّارِ**)):أي:ميَّزَ أَهْلَ النَّارِ مِن غيرِهم.

"**وإنما خصَّ آدمَ بذلِكَ** لكونِه والدَ الجميعِ، ولِكَوْنِه كان قد عَرَف أهلَ السَّعَادةِ مِن أَهْلِ الشَّقاءِ". (فتح البَارِي لابن حجر (١١/ ٣٨٩)

ء) **وأفادَ هذا الحديثُ عدة فوائد منها:**

١- إثباتَ صفةِ القولِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى وأنه قال ويقولُ متى شاءَ إذا شاءَ كما يليقُ بجلالِه.

٢- إثباتَ النِّدَاءِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى وأنَّه نداءُ حقيقَةٍ بصوتٍ.

٣- أنَّ النِّداءَ والقَوْلَ يكونُ يومَ القيامَةِ، وهذا مِن أدلَّةِ الأفعالِ الاختياريَّةِ.

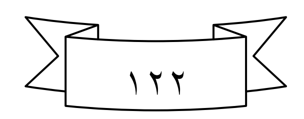
٤- إثباتَ صفةِ الكلامِ، وأنها صفةُ ذاتٍ وفعلٍ، فإنَّه سُبْحَانَهُ متَّصفٌ بهذه الصِّفةِ ويتكلَّمُ متى شاءَ إذا شاءَ كيفَ شاءَ، فكلامُه سُبْحَانَهُ قديمُ النَّوعِ حادثُ الآحادِ.

قال ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ:"وقد دلَّ القرآنُ وصريحُ السُّنَّةِ والمعقولُ وكلامُ السَّلَفِ على أنَّ اللهَ يتكلَّمُ بمشيئَتِهِ، كمَا دلَّ على أنَّ كلامَه صفةٌ قائمةٌ بذاتِه، وهي صفةُ ذاتٍ وفعلٍ، كما قال تعالى: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)" . (مختصر الصواعق ٥٠١)

٥- فيه دليلٌ على أنَّ اللهَ يتكلمُ بحرفٍ وصوتٍ، لأنَّ النداءَ لا يكونُ إلا بحرفٍ وصوتٍ بإجماعِ أهلِ اللغةِ، وكانَ أئمةُ السُّنَّةِ يعدُّونَ مَن أنْكر تكلُّمَه بصوتٍ مِن الجهميَّةِ، كما قال الإمامُ أحمدُ لما سُئِلَ عمَّن قالَ إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ بصوتٍ؟ فقال:" هؤلاءِ إنما يَدوُرون على التَّعْطِيلِ".

قالَ شيخُ الإسلامِ بنُ تيميَةَ: أوَّلُ ما ظهرَ إنكارُ أنَّ اللهَ يتكلَّمُ بصوتٍ في أثناءِ المائةِ الثَّالثةِ لَمَّا ظهرتِ الجهميَّةُ والمعطِّلَةُ. (أنظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٧٩،) (الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٤٦٦)

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ: "قلتُ لأبي: يا أبتي، إنهم يقولون: إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ بصوتٍ! فقالَ: بلى يتكلَّمُ بصوتٍ".



وقال البخاريُّ رحمه اللهُ:"ويذكرُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنه كانَ يحبُّ أنْ يكونَ الرجلُ خفيض الصوتِ، ويكرهُ أن يكونَ رفيعَ الصوتِ، وأنَّ اللهَ يُنادي بصوتٍ يسمعهُ مَن بَعُدَ، كما يسمعُهُ مَنْ قَرُبَ، وليس هذا لغيرِ اللهِ، قال: وفي هذا دليلٌ على أنَّ صوتَهُ لا يُشبهُ أصواتَ الخلقِ؛ لأنَّ صوتَ اللهِ يسمَعُهُ مَن بعُدَ كما يسمَعُه مَن قربَ وأنَّ الملائكةَ يصعقونَ مِن صوتِه، وساقَ حديثَ جابرٍ أنَّه سَمِعَ عبدَ اللهِ بنَ أنيسٍ يقولُ: سمعتُ رسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- يقولُ: ((يَحْشُرُ اللهَ الْعِبَادَ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ)) الحديثَ"، ثمَّ احتجَّ بحديثِ أبي سعيدٍ المتقدِّمِ. (خلق أفعال العباد للبخاري ٩٨)

فهذانِ إماما أهلِ السُّنَّةِ على الإطلاقِ، أحمدُ بنُ حنبلٍ، والبخاريُّ وكلُّ أهْلِ السُّنَّةِ على قولِهِمَا.

وقَدْ صرَّح بذلِكَ أي: أن كلام الله بصوت وحكاهُ إجماعًا حربُ بنُ إسماعيلَ، صاحبُ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ وإسحاقَ، وصرَّح بهِ غيرُه،وقد احتجَّ بحديثِ ابنِ مسعودٍ وغيرِه، وأخبرَ أنَّ المُنكرِين لِذَلك هُمْ الجهميَّةُ.

وقدْ **روى في إثباتِ الحرفِ والصَّوتِ في كلامِ اللهِ أكْثَرَ مِن أربعينَ حديثًا**، بعضُها صِحاحٌ وبعضُها حِسانٌ ويُحتجُّ بها، أخرجَهَا الضِّياءُ المقدِسيُّ وغيرُه، وأخرجَ أحمدُ غالِبَها واحتجَّ بهِ، واحتجَّ بها البخاريُّ وغيرُه مِن أئمَّةِ الحديثِ، فقد صحَّحوا رحمَهُم اللهُ هذه الأحاديثَ واعتقدوهَا واعتمدُوا عليها مُنَزِّهِينَ اللهَ عمَّا لا يليقُ بجلالِه، كما قالُوا في سائرِ الصِّفاتِ مِن النزولِ والاستواءِ والمجيءِ والسَّمعِ والبصرِ والعينِ وغيرِها، فأثْبَتُوا هذه الصِّفاتِ كمَا يليقُ باللهِ إثباتًا بِلا تمثيلٍ وتنزيهًا بلا تعطيلٍ.

٦- فيه دليلٌ على أنَّ اللهَ نادى آدَمَ وكلَّمه.

٧- فيه الرَّدُّ على مَن زعَم أنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى النَّفسيُّ، فإنَّ آدمَ عليه السلامُ سمعَ كلامَ اللهِ، والمعنى المجرَّدُ لا يُسْمَعُ.

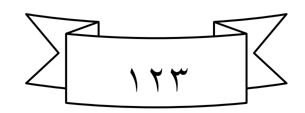
٨- فيه الرَّدُّ على مَن زعمَ أن كلامَ اللهِ شيءٌ واحدٌ لا يتجزَّأُ ولا يتبعَّضُ.

....

وَقَوْلُه ﷺ:(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ) .

....

هذا الحديثُ رواه البخاريُّ ومسلمٌ مِن حديثِ عديِّ بنِ حاتمٍ، قال: قال رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلاَ يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)) هذا لفظُ البخاريِّ، وفي روايةٍ لهما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ((اتَّقُوا النَّارَ))، ثم أعرضَ وأشاحَ، ثم قال: ((اتَّقُوا النَّارَ)) ثم أعرضَ وأشاحَ ثلاثًا حتى ظننَّا أنَّه ينظرُ إليها، ثم قال: ((اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ)).



وهذا الحديث فيه أيضا إثبات صفة الكلام لله تعالى على ما يليق به جل وعلا وظاهِرُ الخطابِ فيه أنه خاص بالصَّحابةِ رضي الله عنهم، لكن الصحيح أنه يلتحقُ بهم المؤمنونَ كلُّهم سابِقُهُمْ ومُقَصِّرُهُم.

وفيه دلالة أيضاً على أنَّه يكلِّمُ جميعَ النَّاسِ، وأمَّا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وتعالى: (لاَ يُكَلِّمُهُم وَلاَ يُزَكِّيهِمْ) الآيةَ، فالمرادُ لا يكلِّمُهمْ كلامًا يسرُّهم.

وتكليمُ الله لعباده على نوعين :

الأوَّلُ: بِلا واسطةٍ أي: مباشرة، كما في هذا الحديثِ وكما حصل مع موسى ومحمد عليهما السلام.

الثَّاني: بواسطةٍ كما يقع لأكثر الرسل وذلك عن طريق رسولِ الوحي جبريلَ عليه السلام وقدْ تقدَّمتِ الإشارةُ إليهِ.

قَوْلُهُ: ((تُرْجُمَانٌ)): فيها لغتان صحيحتان:فتحُ التاء وضمُّ الجيم (تَرْجُمَانٌ)، وضمُّ التاء والجيمِ معاً (تُرْجُمَانٌ)، والمراد بها من يعبر بلغة عن لغة أخرى كما قال بعضُهم:

ومَنْ يفسِّرْ لغةً بلغةٍ   مترجمٌ عندَ أهيلِ اللُّغَةِ.

وقيل: هو الواسطة بين شخصين أو أكثرَ لإيضاح لغةِ قومٍ إلى قومٍ آخرينَ .

وكلا المعنيين متقارب.

....

وَقَوْلُهُ ﷺ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ:(رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ؛ فَيَبْرَأَ) حدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغيرُهُ، وَقَوْلُهُ:(أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ) حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُهُ ﷺ :(وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ) حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ، وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ:(أَيْنَ اللهُ قَالَتْ فِي السَّمَاء قَالَ: (مَنْ أَنَا) قَالَتْ:أَنْتَ رَسُولُ اللهِ قَالَ أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ) رَوَاهُ مُسْلِم.

....

ذكر المصنف رحمه الله هذه الأحاديثَ لإثبات صفة العلو لله تعالى على ما يليق به سبحانه وتعالى، **وَقَوْلُهُ ﷺ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ:(رَبَّنَا اللهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ...)** هذا الحديث رواه أحمد وأبو داودَ مِن حديثِ أبي الدَّرْداء رضي الله عنه وفي سنده (زياد بن محمد الأنصاري) وهو منكر الحديث فالحديث لا يصح فإن قيل لماذا أتى به المصنف إذاً ؟

ج/ لأن هناك أدلة أخرى وقواعد شرعية تدل على معانية وما يؤخذ منه، هذا غير ما سيذكره رحمه الله من الأدلة الأخرى الدالة على أصل المسألة.

ويستفاد من حديث الرقية المتقدم عدة فوائد منها:

١- إباحة الرقية وقد دل على إباحة الرقية الشرعية أحاديث أخرى كثيرة غير هذا الحديث، وقد أجمعَ العلماءُ على جوازِ الرُّقَى عند اجتماعِ ثلاثةِ شروطٍ:

(١) أنْ تكونَ بكلامِ اللهِ أوْ بأسمائِهِ وصفاتِه.

(٢) أنْ تكونَ باللِّسَانِ العربيّ وما يُعْرَف معناهُ.

(٣) أنْ يعتقدَ أنَّ الرُّقْيَةَ لا تؤثِّرُ بذاتها بل بتقديرِ اللهِ.

٢- أن قولُهُ: ((رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ)): فيه إثباتُ العلوِّ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى على الخَلْقِ، وفسَّرَ قَولَهُ سُبْحَانَهُ: ((فِي السَّمَاءِ)) بتفسيرينِ:

الأوَّلِ: أنَّ (فِي) بمعنى على، فقَولُهُ فِي السَّمَاءِ، أي على السَّمَاءِ، كقَولِهِ -سُبْحَانَهُ- وتعالى: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)، وقَولُهُ: (فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ) أي عليها.

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالسَّمَاءِ: العلوُّ، فقَولُهُ: ((فِي السَّمَاءِ))، أي العلوُّ، والسَّمَاءُ كلُّ ما علاَكَ وأظلَّك، فهو سُبْحَانَهُ فِي جِهَةِ العلوّ.

٣- أن قولُهُ: ((أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)): أي: **أمْرُكَ الكونيُّ الْقَدَرِيُّ، وأمرُكَ الدينيُّ الشّرعِيُّ، فأمرُه سُبْحَانَهُ وتعالَى ينقسمُ إلى قِسمينِ:**

الأوَّلِ: أمرٌ كونيٌّ قَدَرِيٌّ كقَولِهِ سُبْحَانَهُ: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)، وقَولُهُ سُبْحَانَهُ: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) .

الثَّاني: الأمرُ الدِّينيُّ الشَّرعيُّ كقَولِهِ سُبْحَانَهُ: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) الآيةَ، فأمرُه سُبْحَانَهُ الكونيُّ نافِذٌ لا رادَّ له ولا معقب لحكمه جل شأنه فِي السَّمَاءِ والأرضِ.

٤- أن قَولُهُ: ((كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ)): فيه إثباتُ صفةِ الرَّحمةِ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى كما يليقُ بجلالِه.

٥- قَولُهُ: ((أَنْزِلْ رَحْمَةً مِن رَحْمَتِكَ)): فيه إثباتُ العلوِّ، **وهذه الرَّحْمَةُ مخلوقَةٌ، فإنَّ الرَّحْمَةَ المضافةَ إليهِ تنقسِمُ إلى قسمينِ:**

القسم الأوَّلِ: رحمةٌ تضافُ إليه سُبْحَانَهُ وتعالَى مِن بابِ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصوفِ، كقَولِهِ: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)، وقَولِهُ فِي الحديثِ: ((بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ)).

القسم الثَّاني: رحمةٌ تضافُ إليهِ سُبْحَانَهُ مِن بابِ إضافَةِ المخلوقِ إلى خَالِقِه، كَمَا قال في هذَا الحديثِ: ((أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ)) وكما في حديثِ: ((خَلَقَ اللهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ)) وقَوْلُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ((قَالَ سُبْحَانَهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ))

٦- قَوْلُهُ: ((أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ)): جَمْعُ طيِّبٍ، **وخصَّهُمْ بالذِّكْرِ لما اتَّصفُوا بهِ مِن الطَّيبِ**، ومعلومٌ أنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ سواء اتصف بالطِّيبِ أو الخُبْثِ، ولكنْ هذه ربوبيةٌ خاصَّةٌ بأنبيائِهِ وعبادِه الصَّالحينَ، لما اختصاصٌ على الرُّبُوبيَّةِ العامَّةِ للخلْقِ، فإنَّ مَن أعطاهُ اللهُ مِنَ الكَمالِ أكثرَ مما أعطى غيرَه، فقد رَبَّهُ وربَّاه رُبُوبيَّةً وتربيةً أكملَ مِن غيرِه، **فالرُّبوبيَّةُ تنقسم إلى قسمينِ:**

الأوَّل: ربوبيةٌ عامَّةٌ، وهي لسائرِ الخَلْقِ.

الثَّاني: ربوبيةٌ خاصَّةٌ، وهي ربوبيةٌ لأنبيائِه وعبادِه الصَّالِحِين.

٧- قوله: ((أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ)) فيه إشارةٌ إلى التَّوَسُّلِ بربوبيَّتِه سُبْحَانَهُ للطَّيِّبينَ، وهذا التَّوسُّلُ مِن أعظمِ الوسائلِ للحصولِ على المقصودِ، ولاَ يكادُ يُردُّ دعاءَ مَن توسَّلَ بها.

٨- فيه أنَّهُ ينبغي عند الدعاء أن يذكر الداعي مِن صفاتِه تعالى في كلِّ مقامٍ بما يناسِبُه، كلفظِ الغفورِ عندَ طلبِ المغفرةِ، والرَّازِقِ عندَ طلَبِ الرِّزْقِ ونحوِ ذَلِكَ، والقرآنُ والأدعيةُ النبويَّةُ مملوءَةٌ بذلكَ.

٩- الفرق بين الحوب والخطأ هو أن الحوب: الإثم، والخطايا هي الذنوب .

وَقَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم : (أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ).

هذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها قال فقسمها بين أربعة نفر بين: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة بن علاثة وإما عامر بن الطفيل فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء قال فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال:(ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء) قال: فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار فقال يا رسول الله: اتق الله فقال:ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله ثم ولى الرجل فقال :خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه فقال: لا لعله أن يكون يصلي قال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم قال: ثم نظر إليه وهو مقف فقال: إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز

حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قال: أظنه قال لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود)) وهذا لفظ مسلم وفي لفظ في الصحيحين أنه قال: ((فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ)).

وقَولُهُ: ((**وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ**)): أي: أمينُ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى على وحيه الَّذي في السَّمَاءِ في تبليغِ شرعِه ودينِه.

وقيلَ: إنَّ القائِلَ للنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذلك هو ذو الخويصرةِ اليمَنِيُّ.

فأوَّلُ بدعَةٍ وقعت في الإسلامِ فتنةُ الخوارجِ والشيعه، وكانَ مبدؤُهم بسببِ الدُّنْيَا حين قَسَّم النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- غنائمَ حُنينٍ، فكأنَّهم رأوا في عقولِهم الفاسدةِ أنَّه لم يعْدِلْ في القِسْمَةِ، ففاجَئوه بهذهِ المقالَةِ، ثمَّ كانَ ظهورُهُمْ فِي أيَّامِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ فقتلَهُم في النَّهْرَوانِ، ثمَّ تشعَّبَتْ منهمْ شعوبٌ وآراءٌ وأهواءٌ ومقالاتٌ ونِحَلٌ كثيرةٌ منتشرةٌ، **ثم حدَثتْ بعدَهم بدعةُ القَدَريَّةِ والمرجئة، ثم المعتزلةِ، ثم الجهميَّةِ،** وغيرِ ذلكَ مِن البِدَعِ التي أخبرَ عنها الصَّادقُ المصدوقُ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- في قَولِهِ: ((وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً)) قَالُوا: وَمَا هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)) أخرجَهُ الحاكمُ في مستدرَكِهِ.

وأفادَ حديثُ:(ألا تأمنوني...) عدة فوائِدَ منها:

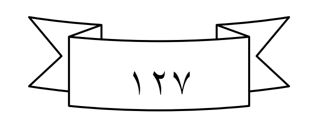
١- ما كان عليه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الصَّبرِ والتَّحمُّلِ لأذى المنافقين والزائغين عن الحق.

٢- تركُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذا المنافِقَ وغيرَه استبقاءً لانقيادِهم وتأليفًا لقلوبِهم

٣- فيهِ دليلٌ لِمَنْ لم يُكَفِّرُ الخوارجَ، قال النَّوويُّ:"ومذهبُ الشَّافِعيِّ وجماهيرِ أصحابِه وجماهيرِ العلماءِ أنَّ الخوارجَ لا يُكَفَّرون، وكذلِكَ الْقَدَرِيَّةُ والمعتزِلَةُ وسائِرِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ" (شرح النووي على مسلم (٧/ ١٦٠).

٤- فيه دليلٌ على علوِّ اللهِ على خَلْقِه، فقَولُهُ: ((فِي السَّمَاءِ)) فُسِّرت "في" بمعنى على، أو أنَّ المرادَ بالسَّماءِ العلوُّ، ولا تنافِيَ بين التفسيرين، وقد تقدَّمَ، فليس معنى قَولِهِ ((فِي السَّمَاءِ)) أنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّه أو تُقلُّه أو تحيطُ به أو تَحويهِ، فإنَّ هذا ما لا تُوجِبُه اللُّغةُ، وخلافُ ما فَطَرَ اللهُ عليهِ الخَلْقَ.

قالَ الشَّيخُ ابن تيمية رحمه اللهُ :"ثم مَن توهَّم أنَّ كونَ اللهِ في السَّمَاءِ تحيطُ بِهِ وتحويهِ فهوَ كاذبٌ إنْ نقلَه عنْ غيرِه وضالٌّ إنِ اعتقَدَه في ربِّه، ومَا سمعْنَا أحدًا يفهمُه مِن اللَّفظِ، ولا رأيْنا أحدًا نَقَلَه عَن أحدٍ، ولو سُئِلَ سائرُ المسلمينَ هل يَفهمونَ مِن قولِ اللهِ ورسولِه أنَّ اللهَ في السَّمَاءِ أنَّ السَّمَاءَ تحويه لبادَر كلُّ أحدٍ أنْ يقولَ هذا شيءٌ لعلَّه لم يخطُرْ ببالِنَا، وإذا كانَ الأمرُ هكذا فمِنَ التَّكلُّفِ أنْ يُجعل ظاهرُ اللَّفْظِ شيئا مُحالاً لا يفهمُهُ النَّاسُ منه ثم يريدُ أنْ يتأوَّلَه، بلْ عندَ المسلمينَ أنَّ اللهَ في السَّمَاءِ وهو على العَرْشِ شيءٌ واحدٌ، إذ السَّماءُ إنَّما يُراد بِهِ العلوُّ، فالمعنى أن اللهَ في العلوِّ لا في السُّفْلِ، وقد عَلِمَ المسلمونَ أنَّ كرسيَّه سُبْحَانَهُ وسِعَ السَّمَاواتِ والأرضَ، وأنَّ الكرسيَّ



فِي العرشِ كحَلَقَةٍ ملقاةٍ فِي أرضٍ فلاةٍ،وأنَّ العرشَ خَلْقٌ مِن مخلوقات اللهِ لا نسبةَ له إلى قُدْرَةِ اللهِ وعظمَتِه، فكيفَ يتوهَّمُ متوهِّمٌ بعدَ ذلِكَ أنَّ خلقًا يحصرُه أو يَحويِه، وقال اللهُ سُبْحَانَهُ وتعالَى عن فرعونَ: (لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ)، وقال: (فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ) بمعنى على، ونحوِ ذلكَ، وهو كلامٌ عربيٌّ حقيقةً لا مجازًا ". (الفتوى الحموية الكبرى (ص: ٥٢٥)

وَقَوْلُهُ:(وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ) حَدِيثٌ حَسَنٌ .

هذا الحديث أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجة وابن خزيمة في التوحيد وغيرهم مِن حديثِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ رضي الله عنه وهذا نصه: عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: كنت بالبطحاء في عصابة، وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرت به سحابة، فنظر إليها، فقال: «ما تُسَمُّون هذه ؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزْن». قالوا: والمزن. قال: «والعَنَان». قالوا: والعنان. قال: «كم ترون بينكم وبين السماء ؟» قالوا: لا ندري. قال: «فإن بينكم وبينها إما واحدًا أو اثنين أو ثلاثًا وسبعين سنة. والسماء فوقها كذلك». حتى عَدّ سبع سموات. «ثم فوق السماء السابعة بحر، بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن كما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش، بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء، ثم الله فوق ذلك، تبارك وتعالى»

وهذا الحديث يسمى بحديثَ الأوعالِ والأوعال مفردها: «وَعْل»، وهو تَيْس الجبل، وهو جنس من المعز الجبلية.

وقد اختلف العلماء في الحكم على الحديث على ثلاث أقسام:

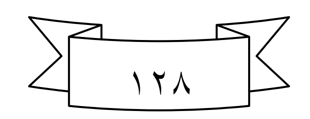
القسم الأول: أنه مقبول وصحيح فقد صححه ابن خزيمة في كتاب التوحيد ، وحسنه الترمذي واستغربه، وسكت عنه أبو داود في سننه، وقد قال: وما سكتُ عنه فهو صالح، وصححه الجوزقاني في كتاب (الأباطيل)، وقواه أبو العباس بن تيمة في مجموع الفتاوى (٣/ ١٩١) وابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٩١) وكذلك صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

القسم الثاني: أنه ضعيف مردود وممن ضعفه ورده ابن الجوزي في «العل المتناهية في الأحاديث الواهية» وابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» والعقيلي في «الضعفاء الكبير» ومن المعاصرين الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة» والشيخ عبد الله السعد.

القسم الثالث: أنه متلقف من إسرائيليات بني إسرائيل كما قاله ابن العربي في (شرح الترمذي ١٢/ ٢١٨) .

وأفادَ هذا الحديثُ عدَّةَ فوائدَ منها :

١- إثباتُ العرشِ، وقدْ تكاثَرتِ الأدلَّةُ مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ على إثباتِه.



٢- فيه الرَّدُّ على مَن نَفَى العَرْشَ وزعَمَ أنَّ معنى عرْشِهِ مُلْكُه وقُدرَتُه، ولا شكَّ في بُطلانِ ذلكَ.

٣- فيه دليلٌ على أنَّ الْعَرْشَ فوقَ المخلوقَاتِ، وأنَّه ليسَ فوقَهُ مِن المخلوقاتِ شيءٌ.

٤- فيه دليلٌ على أنَّ اللهَ في السَّمَاءِ مستوٍ على العرشِ، فلو كانَ في كلِّ مكانٍ لم يكنْ لهذا التَّخْصِيصِ معنًى، ولا فائدةٌ.

٥- فيه تفسيرُ الاستواءِ بالعلوِّ، كما فسَّره الصَّحابةُ والتابعونَ والأئمَّةُ، خلافًا للمعطِّلَةِ مِن الجهميَّةِ والمعتزِلَةِ ومَنْ أخَذَ عنهم مِن الأشَاعِرَةِ وغيرِهم ممَّن ألحَدَ في أسماءِ اللهِ وصفاتِه، وصرفَها عن المعنى التي وُضِعتْ له ودلَّت عليه مِن إثباتِ صفاتِ اللهِ التي دلَّت على كلامِه جلَّ وعلا.

٦- فيه إثباتُ فوقيَّتِه سُبْحَانَهُ وتعالَى وعلوِّه على خلْقِه، **وهذا الحديثُ صريحٌ في فوقيَّةِ الذَّاتِ، ففيه الردُّ على مَن زعم أن الفوقيَّةَ فوقيَّةُ رتبةٍ وشرفٍ**، فإنَّ حقيقةَ الفوقيَّةِ علوُّ ذاتِ الشَّيءِ على غيرِه، وقد تقدَّم ذِكْرُ أنواعِ الفوقيَّةِ، فله سُبْحَانَهُ الفوقيَّةُ التَّامَّةُ والعلوُّ الكاملُ المطلَقُ، هذا مذهبُ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، وبدَّعُوا وضلَّلوا مَن خالَفَهُ مِن الجهميَّةِ والمعتَزِلَةِ.

٧- فيه إثباتُ علمِه المحيطِ بكلِّ معلومٍ، فلا تَخفى عليه خافيةٌ، **وفيه الجمْعُ بينَ الإيمانِ بعلوِّه على خَلْقِه واستوائِه على عرْشِه وبين الإيمانِ بإحاطَةِ عِلْمِه بالموجوداتِ كلِّها**، وقد جمعَ بين الأمرين في عدَّةِ مواضِعَ.

وَقَوْلُهُ لُلْجَارِيَةِ:(أَيْنَ اللهُ قَالَتْ فِي السَّمَاء قَالَ: (مَنْ أَنَا) قَالَتْ:أَنْتَ رَسُولُ اللهِ قَالَ أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ) رَوَاهُ مُسْلِم.

هذا الحديثُ رواه مسلمٌ مِن حديث معاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ، وأخرجَه أبو داودَ، والنَّسَائِيُّ، وروى سببَه بألفاظٍ متعدِّدةٍ، وفي بعضِ ألفاظِه عن الحكمِ بنِ معاوِيَةَ السُّلَمِيِّ قال: اطَّلَعْتُ على غُنيمةٍ ترعَاها جاريةٌ لي قبلَ أُحُدٍ والجوَّانِيَّةِ فوجدتُ الذِّئبَ قد أصابَ منها شاةً وأنا مِن بني آدمَ آسَفُ كما يأسفونَ فصككتُها صكَّةً ثم انصرفتُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرتُه فعظَّم ذلكَ علَيَّ، قال: قلتُ يا رسولَ اللهِ: أفلا أَعْتِقُهَا؟ قال: ((بَلَى جِئْنِي بِهَا)) قال: فجئتُ بها رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ لها: ((أَيْنَ اللهُ ؟)) قالت: في السماءِ، قال: ((مَنْ أَنَا؟)) قالت: أنتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، قال: ((اعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)).

قال الحافظُ الذَّهَبِيُّ في كتابِ (العُلُوِّ):"هذا حديثٌ صحيحٌ رواهُ جماعةٌ مِن الثِّقَاتِ... وأخْرَجَه مسلمٌ، وأبو داودَ، والنَّسائيُّ، وغيرُ واحدٍ منَ الأئمةِ في تصانِيفهمْ، يَمُرُّونه كما جاءَ ولا يَتعرَّضونَ له بتأويلٍ ولا تحريفٍ" (العلو للعلي الغفار ١٤) ثم بيَّنَ الذهبيُّ رحمه الله طُرَقهُ واختلافَ ألفاظِهِ.

وهذا الحديثُ فيه فوائدُ:

١- فيه جوازُ السُّؤالِ عن اللهِ بأينَ خلافًا للمبتدِعَةِ.

٢- فيه جوازُ الإشارةِ إلى العلوِّ، كما جاءَ صريحًا في حديثِ أبي هريرةَ الَّذي أخرجَه أبو داودَ في بابِ (الأيمانِ والنُّذورِ) وفيه: (فأشارتْ بأصبُعِهَا إلى السَّماءِ).

٣- فيه إثباتُ العلوِّ للهِ سُبْحَانَهُ وتعالى، فإنَّ معنى قَولِهِ: ((فِي السَّمَاءِ)): أي على السَّماءِ، يعني على العرش.

٤- فيه الدَّليلُ على أنَّ مَن شَهِدَ هذه الشهادةَ أنَّه مؤمنٌ.

٥- فيه دليلٌ على أنَّ مَن شَهِدَ هذه الشَّهادةَ يُكتفَى في ذلكَ بإيمانِهِ ويُقبلُ منه ذلكَ، ولو لم يُذْكَرْ دليلٌ، فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَبِلَ منها مجرَّدَ الشَّهادةِ بعلوِّ اللهِ ورسالَةِ رسولِه، خلافًا للمتكلِّمينَ الَّذين يقولونَ: لا بُدَّ مِن النَّظرِ والقصدِ إلى النَّظرِ أو الشَّكِّ، فإنَّ هذه أقوالٌ باطلةٌ، فإنَّ معرِفَة اللهِ سُبْحَانَهُ فِطريَّةٌ فَطَرَ اللهُ عليهَا عِبَادَه،كما في الحديثِ قال: ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ)).

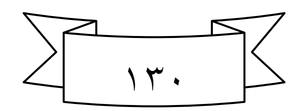
٦- فيه دليلٌ عَلى أنَّ الاعترافَ بعلوِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى وفوقيَّتِه مفطورٌ عليهِ الخَلْقُ مغروزٌ في نفوسِهِمْ، وقدْ جرتْ عادَةُ المسلمينَ عامَّتِهم وخاصَّتِهم بأنْ يَدعوا ربَّهم عندَ الابتهالِ والرَّغبَةِ إليه، فيرفَعوا أيديَهُم إلى السَّماءِ وذلك لاستفاضَةِ العِلْمِ عندَهم بأنَّ ربَّهُم المدعوُّ في السَّماءِ، وقدْ تطابقَ أدلَّةُ العَقْلِ والنَّقلِ على إثباتِه.

وأذكر قصة لطيفة ذكرها شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا المعنى يقول رحمه الله:

"ولهذا تجد المنكر لهذه القضية [أي ثبوت صفة العلو لله تعالى] يقر بها عند الضرورة ولا يلتفت إلى ما اعتقده من المعارض لها، فالنفاة لعلو الله إذا حزب أحدهم شدة وجه قلبه إلى العلو يدعو الله.

ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا من هو من مشايخهم وهو يطلب مني حاجة، وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكر له، وأخرت قضاء حاجته حتى ضاق صدره فرفع طرفه ورأسه إلى السماء وقال: يا الله!

فقلت له: أنت محقق! لمن ترفع طرفك ورأسك؟ وهل فوق عندك أحد؟ فقال: أستغفر الله، ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته، ثم بينت له فساد هذا القول فتاب من ذلك ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فطرهم".



وقَوْلُه ﷺ :(أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْت) حَدِيثٌ حَسَنٌ . وَقَوْلُه ﷺ :(إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ؛ فَلاَ يَبصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُه:(أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْت)

هذا الحديث رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه وقد أورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال:"رواه الطبراني في الأوسط والكبير وقال : تفرد به عثمان بن كثير قلت : ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح" وقد وثقه ابن حبان والحاكم كما في (التهذيب) وقد روى عنه نعيم بن حماد وفيه مقال عند أهل الحديث **فالحديث بعضهم حسنه وهو ظاهر كلام شيخ الإسلام كما في المتن وبعضهم ضعفه كالألباني في (ضعيف الجامع) لكن معناه صحيح وتدعمه الأدلة الأخرى.**

وقد أتى المصنف رحمه الله تعالى بهذا الحديثِ لإثبات صفة المعية لله تعالى والمعيَّةُ كما تقدم تنقسمُ إلى قِسمينِ عامة وخاصة **وهذا الحديثُ فيهِ ذِكْرُ المعيَّةِ العامَّةِ، وهي معيةُ العِلْمِ والاطِّلاعِ**، وقدْ تكاثرتِ الأدلَّةُ بالنَّدبِ إلى استحضارِ قُربه سُبْحَانَهُ في حالِ العباداتِ، كقَولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الصحيحين: ((إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ)) رواه البخاري ومسلم. وقَولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ((إِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلاَتِهِ مَالَمْ يَلْتَفِتْ)) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

قالَ ابنُ رجبٍ رحمه اللهُ:"ومَن فهمَ مِن هذه الأحاديثِ تشبيهًا أو حلولاً أو اتِّحادًا فإنما أُتِيَ مِن جهلِه وسوءِ فهمِه عن اللهِ ورسولِه، واللهُ ورسولُه بريئانِ مِن ذلك كلِّه، فسبحان مَن ليس كمثلِه شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ"
(جامع العلوم والحكم (١/ ١٣١)

وفي هذا الحديثِ عدة فوائد غير ما تقدم منها:

١- فيه دليل على أنَّ الإيمانَ يتفاضلُ وأنَّ بعضَ خصالِ الإيمانِ أفضلُ مِن بعضٍ.
٢- فيه دليلٌ على أفضليَّةِ عملِ القلبِ، ودليلٌ على أنَّ أعمالَ القلوبِ داخلةٌ في مُسمَّى الإيمانِ.
٣- فيه الردُّ على مَن زعمَ أنَّ الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينقصُ.
٤- فيه دليلٌ على أنَّ الإحسانَ أكملُ مراتبِ الدِّينِ، وهو أنْ يعبدَ العبدُ ربَّهُ كأنَّه يراهُ فيستحضرُ قُربَ اللهِ واطِّلاعَهُ وأنَّه بينَ يدَيهِ وذلكَ يوجبُ الخشيةَ والخوفَ والتعظيمَ، ويوجبُ النُّصحَ في العبادةِ وبذلَ الجهدِ

في تحسينها وإتمامِهَا، فيجمعُ العبدُ بينَ الإيمانِ بعلوِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى واستحضارِ قربِهِ، ولا منافاةَ بينَ الأمرينِ.

وَقَوْلُه:(إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ؛ فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَو تَحْتَ قَدَمِهِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

هذا الحديث في الصحيحين وفيه فوائد منها:

١- إثبات كون الله قبل وجه المصلي مع علوه جل وعلا وفوقيته وهذه حقيقة كما تقول عندما تنظر أمامَك أو عندَمَا تستلقي:إنَّ الشمسَ قِبَلَ وجهي، وهذا القول لا يقتضي أنها حالةٌ أو مختلطةٌ بك.

٢- فيه دليلٌ على قُربِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى وإحاطتهِ كما يليقُ بجلالهِ وعظمتهِ كما قالَ سُبْحَانَهُ: (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) " فإذا كانَ محيطًا بالعالمِ فهوَ فوقهُ بالذَّاتِ عالٍ عليهِ مِن كلِّ وجهٍ وبكلِّ معنًى، فالإحاطةُ تتضمَّنُ العلوَّ والسعةَ والعظمَةَ...وأن إحاطتُهُ -سُبْحَانَهُ- بخلقهِ لا تَنفي مباينتَهُ ولا علوَّهُ على مخلوقاتهِ بلْ هو -سُبْحَانَهُ- فوقَ خلقهِ محيطٌ بهِمْ مُباينٌ لهم ".(**مختصر الصواعق ٤٨٥**)

٣- نَزَع بهذا الحديثِ بعضُ المعتزلةِ إلى أنَّ اللهَ في كلِّ مكانٍ بذاتِه، وهذا جهْلٌ فاضحٌ، والأدلةُ المتواترةُ تردُّ ذلكَ، وتفيدُ علوَّ اللهِ واستواءَهُ على عرشِه، وأيضاً فإنَّ آخرَ الحديثِ ينقضُ قولَهُمْ وهو قَوْلُهُ: ((أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ))

٤- في الحديثِ إشارةٌ للندبِ إلى استحضارِ قُرْبِه -سُبْحَانَهُ وتعالَى- ومَعيَّتِهِ في حالِ العبادةِ، فإنَّ ذلكَ يوجبُ الخشيةَ والخوفَ مِن اللهِ، ويدعو إلى إتمامِ العبادةِ على الوجهِ اللائِقِ.

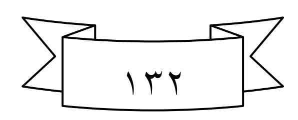
٥- جاء عند الإمام أحمد" أن اللهُ يكون قِبَلَ وجهِ عبدِه في الصلاة ما لم يلتفتْ".

قال ابن القيم رحمه الله:" الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان:

(**احدهما**) التفات القلب عن الله عز وجل (**الثاني**) التفات البصر وكلاهما منهي عنه،ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره أعرض الله تعالى عنه". (**الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٢٠)**)

٦- فيه النَّهيُ عنِ البُصَاقِ قِبلَ وجهِهِ والنَّهيُ عن البصاقِ عن يمينِه تشريفًا لها، وفي روايةِ البخاريِّ ((ولا عن يمينه فإنَّ عن يمينِه مَلَكَين)) وجوازُ البصاقِ تحتَ قدمِه وعن يسارِه.

والمرادُ إذا كان خارجَ المسجِد فأمَّا في المسجِد فلا يجوزُ البصاقُ في أرضِ المسجدِ مطلقًا، لحديثِ ((الْبُصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا)) فهذا مخصِّصٌ للحديثِ المتقدِّمِ، فإذَا بَدرَه البُصاقُ في المسجدِ بصقَ في ثوبِهِ ودلَّك بعضَهَا في بعضٍ كما دلَّت على ذلكَ الأحاديثُ المخصِّصَةُ لما تقدَّم.



وَقَوْلُهُ ﷺ :(اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

هذا الحديثُ أخرجَه مسلمٌ في صحيحه مِن حديثِ سهيلٍ قال: كان أبو صالحٍ يأمُرُنا إذا أرادَ أحدُنا أنْ ينامَ أن يضْطَجِعَ على شِقِّه الأيمنِ ثم يقولُ: ((اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ)) الحديثَ، قال: وكان يَروي ذلك عن أبي هريرةَ وأخرجَه أيضًا أهلُ السُّنَنِ.

وهذا الحديث أتى به المصنف رحمه الله لإثبات صفة العلو والأولية والأبدية وغيرها من الصفات.

وقَولُهُ: ((اللَّهُمَّ)): أصلُه يا اللهُ، فالميمُ عِوَضٌ عن ياءٍ، ولذلكَ لا يُجمعُ بينهُمَا، وشذَّ قولُ بعضِ العربِ:

إِنِّي إذَا ما حَدَثٌ أَلَمَّا أَقُولُ يَا اللَّهُمَّ يا اللَّهمَّا.

قال الحسنُ البصريُّ:"اللهمَّ مجمَعُ الدُّعاءِ"، وقال النَّضرُ بن الشُّمَيْلِ: مَن قال:"اللهمَّ فقد دعا اللهَ بجميعِ أسمائِه".

وقَولُهُ: ((**رَبَّ السَّماواتِ السَّبْعِ،وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**...)) جاء في الحديثِ: ((مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا فِيهِنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلاَّ كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلاَةٍ وَأَنَّ الْكُرْسِيَّ بِمَا فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ كَتِلْكَ الْحَلَقَةِ فِي تِلْكَ الْفَلاَةِ)) .

قال الضحَّاكُ عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما:"إنما سُمِّي عرشًا لارتفاعِه".

وقال ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنه:"العرشُ لا يقدرُ قدْرَه إلاَّ اللهُ"

وفي هذا الحديث فوائد منها:

١- فيه إثباتُ عظمَةِ العرشِ، وأنَّه خلق من أعظمُ المخلوقاتِ.

٢- فيه إثبات عظمةُ الباري بعظمَةِ مخلوقَاتِه.

٣- فيه الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّ العرشَ ليسَ بمخلوقٍ، أو أنَّ عرشَهُ مُلكُه، أو قُدرَتُه، وقدْ تقدَّم الكلامُ على هذا.

٤- في قَولُهُ: ((رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ)) إثباتُ عمومِ ربوبيَّتِه ومُلكِه، وأنَّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وأنَّه المنعِمُ الحقيقيُّ على سائرِ الخلقِ، **وفيها الرَّدُّ على القَدَرِيَّةِ الذين يزعُمون أن العبدَ يخلقُ فِعلَ نفسِه، فإنَّ ربوبيَّته العامَّةَ وقدرتَه التَّامَّةَ تشملُ أفعالَ خلقِه، فمَن زعَمَ أنَّ العبدَ يخلقُ فعلَ نفسِه فقدْ أثبتَ خالِقًا مع اللهِ**، ولم يُدخلْ أفعالَ خلقِهِ في عمومِ قُدرتهِ وربوبيَّتِهِ.

٥- قَوْلُهُ: ((فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى)): أي شاقُّ حبَّ الطعامِ ونوى التمرِ ونحوَهما للإنباتِ.

٦- قَوْلُهُ: ((مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)) **فيهِ دليلٌ على أنَّ هذه الكتبَ مِن كلامِ اللهِ، وأنها منزَّلةٌ مِن عندِ اللهِ، وأنها غيرُ مخلوقةٍ،** خلافًا لأهلِ البدعِ الذينَ يزعمونَ أنَّ كلامَ اللهِ مخلوقٌ، أو أنها كلامُ غيرِه، **وفيه دليلٌ على علوّ اللهِ سُبْحَانَهُ؛** لأنَّ الإنزالَ والنزولَ والتنزيلَ المعقولَ عندَ العربِ لا يكونُ إلاَّ مِن أعلى إلى أسفَلَ.

٧- قَوْلُهُ: ((أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ،وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ)): هذا تفسيرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلا تفسيرَ أكمَلُ مِن تفسيرِه، وفيه دليلٌ على أوَّلِيَّتِه –سُبْحَانَهُ– وأنَّه قَبْلَ كلِّ شيءٍ، وفيه الردُّ على مَن زَعَم قِدَمَ هذه المخلوقاتِ، وفيه دليلٌ على أبديَّتِه –سُبْحَانَهُ– وبقائِه بعدَ كلِّ شيءٍ، وفيه دليلٌ على عُلوِّهِ –سُبْحَانَهُ– على خلقِه وفوقيَّتِه واستوائِه على عرشِه، فإنَّ الظَّاهِرَ هو العالي المرتفعُ.

٨- قَوْلُهُ: ((وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فليس دونك شيء)): فيه دليلٌ على قُربِه –سُبْحَانَهُ– وإحاطتِه وأنَّه أقربُ إلى كلِّ شيءٍ مِن نفسِه، وقُربُه –سُبْحَانَهُ– لا يُنافِي ما ذُكِرَ مِن علوِّه وفوقيَّتِه، فإنه ليسَ كمثلِه شيءٌ، وليسَ قربهُ كقربِ الأجسامِ بعضِها منْ بعضٍ – تعالى اللهُ أنْ يُشبهَه شيءٌ منْ خلقهِ – **فهذهِ الأسماءُ الأربعةُ متقابلةٌ، اسمانِ منها لأزليَّةِ الربِّ وأبديَّتهِ وهما الأول والآخر، واسمانِ لعلوهِ وقربِهِ وهما الظاهر والباطن،** ففي الحديث: إثبات أوليته، وآخريته، وظاهريته، وباطنيته،فإن سبحانه كما يقول ابن القيم رحمه الله: قد "سبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، وأحاط بكل شيء ببطونه".(مدارج السالكين (٣/ ١١١)

٩- فيه أهمية دعاءُ اللهِ بأسمائهِ وصفاتِه،وهو من التوسلُ الشرعيُّ والمتوسلُ بهذه الوسيلةِ جديرٌ بالإجابَةِ.

١٠- الحرص على هذا الدعاء لمن ألم به الدين واجتاله الفقر.

....

وَقَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ:(أَيُّهَا النَّاسُ اِرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا .إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

....

هذا الحديث فيه إثبات قرب الله تبارك وتعالى لعباده حال الدعاء، ولهذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام الصحابة رضي الله عنهم بخفض أصواتهم في غزوة خيبر، فقال لهم:(اربعوا على أنفسكم) أي : ارفقوا وهونوا على أنفسكم (فإنكم لا تدعون أصم) أي: لا يسمع (ولا غائبًا) لا يرى (إنما تدعون سميعا) لأصواتكم (بصيرا) بأفعالكم (إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) وعنق الراحلة قريب جدًّا للراكب ومع هذا فالله

أقرب للإنسان من ذلك، فلا حاجة لرفع الصوت بالدعاء والذكر؛ فإنه جل وعلا يعلم السر وأخفى، يسمع الأصوات إذا خفضت كما يسمعها إذا رفعت ، وهذا القرب لا ينافي علوه على خلقه واستواءه على عرشه لأن الله جلا وعلا (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

وقَوْلُهُ:(فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ) الأصمُّ يطلق على معنيين في اللغة:

الأول:ثقيلُ السمع .

الثاني:من لا يسمع إطلاقا.

والله مُنَزَّهٌ عن هذين المعنيين لأنه سبحانه سميعٌ بصيرٌ يسمع ويبصر دبيبَ النملة السوداء في الليلة الظلماءِ على الصخرة الصماء .

وهذا الحديث فيه فوائد:

١- إثبات قرب الله تعالى ومعيته لعباده قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}.

٢- فيه ذكر لبعض الصفات السلبية : كنفي كونه أصم أو غائبًا؛وما ذلك إلا لكمال صفة السمع والبصر والعلم والقرب.

٣- جواز تشبيه الغائب بالحاضر للإيضاح؛ حيث قال: "إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته".**(شرح ابن عثيمين)**

٤- الحرص على مراعات المعاني القريبة من الأفهام فهؤلاء مسافرون، وكل منهم على راحلته، فضرب المثل بما هو قريب من عقولهم؛ مما يبين الصورة ويقرب المراد كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام.**(شرح ابن عثيمين)**

٥- فيه أن معاني الأسماء والصفات مفهومة المعنى،وهذا فيه رد على المفوضة القائلين بأن الأسماء والصفات لا يُدْرَى ما هي، ولذلك قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: («فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»).

....

وَقَوْلُهُ:(إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن لاَّ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

....

هذا الحديثُ في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وقد رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما من حديثِ جريرِ بنِ عبدِ اللهِ البجليِّ قال: كنا جلوسًا عند النَّبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فنظر إلى القمرِ ليلةَ أربعَ عشْرَةَ، وقالَ: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيَانًا كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فَافْعَلُوا، ثم قرَأَ: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) وفي بعضِ ألفاظِه: ((سَتُعَايِنُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تُعَايِنُونَ الْقَمَرَ)).

وفي الصحيحينِ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أنَّ ناسًا قالوا: يا رسولَ اللهِ، هل نرى ربَّنا يومَ القيامَةِ؟ فقالَ رسولُ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((هَلْ تضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟)) قالوا: لا يا رسول اللهِ، قال: ((هَلْ تضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيسَ دُونَهَا حِجَابٌ؟)) قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: ((إِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ)). إلى غيرِ ذلكَ منَ الأحاديثِ التي بلغتْ حدَّ التواتُرِ.

قال يحيى بنُ معينٍ:"عندي سبعةَ عشرَ حديثًا في الرؤيَةِ، كُلُّها صحاحٌ"، وقال أحمدُ:"والأحاديثُ التي رُوِيتْ عن النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- ((إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ)) صحيحةٌ، وأسانيدُها غيرُ مدفوعةٍ، والقرآنُ شاهدٌ أنَّ اللهَ يُرى في الآخرةِ".

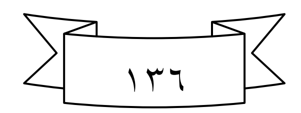
قال الإمام أحمد رحمه الله :" فينظرون إلى الله لا إله إلا هو، وإنا لنرجو أن يكون الجهم وشيعته ممن لا ينظرون إلى ربهم ويحجبون عن الله، لأن الله قال للكفار: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} فإذا كان الكافر يحجب عن الله، والمؤمن يحجب عن الله، فما فضل المؤمن على الكافر؟ " **(الرد على الجهمية والزنادقة ١٣٣)**

وقيل لسفيان بن عيينة :"إن بشراً يقول: إن الله لا يرى يوم القيمة، فقال: قاتله الله، دويبة، ألم يسمع الله يقول: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} ، فجعل احتجابه عنهم عقوبة لهم فإذا احتجب عن الأولياء والأعداء، فأي فضل للأولياء على الأعداء ؟"(**نقض عثمان بن سعيد (١/ ٦٦)**

وقد تَواطأَ على إثباتِ ذلكَ أدلَّةُ الكتابِ والسُّنَّةِ المتواترَةِ وإجماعُ الصَّحابةِ وأئمةِ الإسلامِ وأهلِ الحديثِ، **وقد أنكرَ الرؤيةَ الجهميةُ والمعتزلةُ وأضرابُهم**، اعتمادًا على عقولِهم الفاسدةِ وتقليدًا لأعداءِ الدِّينِ الذين نَبذوا كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ وراءَهم ظِهريًّا.

وقَولُهُ: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ)): **السينُ للتنفيس ويراد بها التأكيدِ للوعدِ وتحقيقِ الأمْرِ،والرؤيةَ هنا رؤية بصريةً عينية،** والمخاطبُ بذلكَ المؤمنونَ، فالكفارُ محجوبونَ عن رؤيتهِ كما قالَ تعالى (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ).

وقَولُهُ: ((كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ الَبدْرِ)): البدرُ هو : القمرُ ليلةَ كمالهِ وهو الممتلئُ نورًا، وهي الليلةُ الرابعةَ عشرَ مِن الشهرِ، وسُمِّي بذلك لمبادرةِ طلوعِهِ قبلَ غروبِ الشمسِ، وطلوعِها قبلَ غروبِه.



وقَولُهُ: ((كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ)): المراد من هذا التشبيه تحقيقاً للرؤيةِ ونفيًا لتوهُّمِ المجازِ الَّذي يظنهُ المعطِّلون فترونهُ رؤيةً حقيقيةً بالعينِ البصريةِ.

والتشبيهُ في قَولِهِ: ((كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ)) تشبيهٌ للرؤيةِ بالرؤيةِ، لا تشبيه للمرئيّ بالمرئيّ فإنه –سُبْحَانَهُ– لا شبيهَ ولا نظيرَ له، فالله تعالى شبه رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة برؤية الناس للقمر في الدنيا.

فليس المراد تشبيه الله بالقمر، تعالى الله، فالله تعالى لا يشبه أحدا من خلقه، والقمر مخلوق وهو المرئي في الدنيا، والمرئي في الآخرة هو الله، فالتشبيه الذي في الحديث هو تشبيهٌ للرؤيةِ بالرؤيةِ، لا للمرئيّ بالمرئيّ.

وقَولُهُ: ((لا تُضَامُون في رُؤْيَتِهِ)):فيه ست روايات: وكلها ثابتة صحيحة كما قرر ذلك الحافظ ابن حجر وغيره في (الفتح) منها: ضمّ الفوقيةِ وتخفيفِ الميمِ، أي: لاَ يَلْحقُكم ضَيْمٌ، ورُوي بالفتحِ وتشديدِ الميمِ منَ التضامّ والازدحامِ، كما ينضمُّ بعضٌ إلى بعضٍ في رؤيةِ الشَّيءِ الخفيِّ، كالهلالِ، يعني: إنكمْ ترونه رؤيةً محقَّقةً كلٌّ منكم يراهُ في مكانِه، فهذا الحديثُ أفادَ إثباتَ رؤيةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى في الآخرَةِ.

قال ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ:" **دلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ المتواترةُ وإجماعُ الصَّحابةِ وأئمةُ الإسلامِ وأهلُ الحديثِ على أنَّ اللهَ –سُبْحَانَهُ– يُرَى بالأبصارِ عيانًا، كما يُرَى القمرُ ليلةَ البدرِ صَحْوًا،** وكما تُرَى الشمسُ في الظهيرةِ، فإنْ كان لذلكَ حقيقةٌ وأنَّ الرؤيةَ حقٌّ فلا يمكنُ أنْ يروهُ إلاَّ منْ فوقِهم لاستحالةِ أنْ يَروه مِنْ أسفلَ منهمْ أوْ خلفهمْ أوْ أمامِهم، وإنْ لمْ يكنْ لذلكَ حقيقةٌ كما يقَولُهُ أفراخُ الصابئةِ والفلاسفةِ والمجوسِ والفرعونيةِ بطلَ الشرعُ والقرآنُ".

(حادي الأرواح ٣٤٢)

وفي الحديث من الفوائد أيضا:

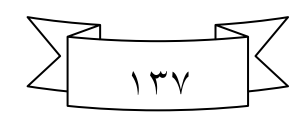
١- الردُّ على مَن زعمَ أنَّ المرادَ بالرؤيةِ العلمُ؛ لأنَّ رأى التي بمعنى علمَ تتعدَّى إلى مفعوليْن، تقولُ: رأيتُ زيدًا فقيهًا، أي علمتُه، فإنْ قلتَ: رأيتُ زيدًا، لم يُفهمْ منهُ إلا رؤيةُ البصرِ.

ويزيدهُ تحقيقاً قَولُهُ في الحديثِ: ((إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيَانًا)) لأنَّ اقترانَ الرؤيةِ بالعيانِ لاَ يحْتمِلُ أن يكونَ بمعنى العلمِ

٢- فيه دليلٌ على إثباتِ علوّ اللهِ، وأنهمْ يرونهُ منْ فوقِهمْ كما في حديثِ جابرٍ الَّذي رواهُ أحمدُ وغيرُه.

٣- التوجيه بعدم الاشتغالِ عن صلاتيِ الصبحِ والعصرِ، فهي المرادةُ بقوله في الحديث:(...**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن لاَّ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا**)، ففي هذا الحديثِ دليلٌ على فضلِ هاتين الصلاتينِ، وأنَّ المحافِظَ عليهما سبب ظاهر في رؤية الرب يومَ القيامَةِ.

٤- قال العلماءِ: "ووجهُ مناسبةِ ذكرِ هاتينِ الصلاتينِ عندَ ذكرِ الرؤيةِ أنَّ الصلاةَ أفضلُ الطاعاتِ، وقدْ ثبتَ أن لهاتين الصلاتيْنِ منَ الفضلِ على غيرِهما، ما ذُكِر من اجتماعِ الملائكةِ فيهما، ورفعِ الأعمالِ وغيرِ



ذلكَ، فهما أفضلُ الصلواتِ، فناسبَ أن يجازىَ عليهما بأفضلِ العطايَا. وهو النظرُ إلى وجهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالَى"(فتح الباري (٢/ ٣٤)

مسألة:هل يرى الله يوم القيامة ؟

نعم يراه المؤمنون في موضعين :

١- في العرصات وهي المكان الواسع الذي لابناء فيه وفيه تكون مواقف الحساب يوم القيامة.

٢- في الجنة نسأل الله من فضله وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله تعالى .

مسألة: اختلف أهل السنة والجماعة وغيرهم فيمن يرى الله في الآخرة قبل دخول الجنة على أقوال:

وقبل ذكر الخلاف لا بد من معرفة عدة أمور:

الأول: أهل السنة والجماعة متَّفقون على أن المؤمنين يرَوْن ربهم في المحشر، فلم يخالفْ في ذلك أحد.

الثاني: أهل السنة والجماعة مُتَّفِقون على أن رؤية الله في عَرَصَات يوم القيامة لا تكون رؤية نعيمٍ وتكريمٍ وتلذُّذٍ إلا للمؤمنين، بخلاف غيرهم من الكفار والمنافقين، فعلى القول أنهم يرونه، فإنها ليست رؤية نعيم وتكريم.

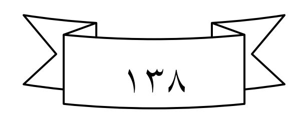
الثالث: أن الخلاف في هذه المسألة أي: مسألة رؤية الكفار والمنافقين لله نشأ بعد المائة الثالثة؛ أي: في بداية القرن الرابع، وأما قبل ذلك فلَم يكُن الخلاف مَوْجُودًا عند السلف - رحمهم الله - وإنما كانت المسألة الشائعة عندهم: هل يُرى الله - جل وعلا - أو لا يُرى؟

الرابع: أن الخلاف في هذه المسألة ليس من الخلاف الذي يؤثِّر في الاعتقاد، فسواء قيل: بأن الكفار والمنافقين يرونه أو لا يرونه؛ فالقضية قضيةُ نظرٍ واجتهادٍ، ولا تؤثِّر في الاعتقاد، ولشيخ الإسلام ابن تيمية قصة في هذه المسألة فحينما حصل النزاع والفرقة والعداوة بين أهل البحرين بسبب هذه المسألة، فكتبوا لشيخ الإسلام يسألونه، وبيَّن لهم أن هذه المسألة من المسائل التي لا يحصل بها هجران وتبديع وافتراق، فليستْ من مسائل الأصول التي يكون فيها موالاة أو معاداة، وإنما هي من المسائل الاجتهادية.(تيسير رب العباد شرح لمعة الإعتقاد)

أما الخلاف في هذه المسألة فهو كالتالي:

الأول:**أنه لا يراه إلا المؤمنون فقط** فلا يراه المنافقون ولا الكفار وهذا القول عليه أكثر السلف واختاره ابن تيمية كما في رسالته لأهل البحرين لقوله:﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ أي: الفجارَ وغير ذلك من أدلتهم فدل ذلك على إثبات الرؤية للمؤمنين فقط .

الثاني:**أنه يراه المؤمنون والمنافقون ثم يحتجب عن المنافقين** ، فالمنافقين عند أهل هذا القول يرونه في العرصات لا في الجنة، واختاره من السلفِ أبو يعلى والفراءُ وابنُ خزيمةَ كما في كتابه (التوحيدِ) .



الثالث:**أنه يراه الجميع في العرصات لكنَّ الرؤيا تختلف فهي للمؤمنين تشريفٌ ولذةٌ وللمنافقين والكفارِ عذابٌ وشدة** كاللص حين يَرَى السلطانَ.

واعلم: أنه باتفاق أهل السنة والجماعة: أن المؤمنين يرَوْن ربهم في الجنة، والجنة لا يدخلها إلا نفسٌ مؤمنةٌ، ورؤية الله في الجنة أعظم نعيم، ورؤية المؤمنين لربهم في الجنة دلَّ عليها الكتاب والسنة والإجماع.

مسألة:هل يُرى الله في الدنيا ؟

فيه أقوال:

القول الأول:أنه يُرى في الدنيا والآخرة وهذا قول الصوفية وهو باطل .

القول الثاني:أنه لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة وهذا قول الجهمية والمعتزلة وهو باطل .

القول الثالث:أنه يُرى في الآخرة فقط وهذا قولُ أهل السنة والجماعة، ففي حديث النَّوَّاس بن سمعان في ذكر الدَّجَّال، وفيه قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((اعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربَّه حتى يموت)) رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله:"وكذلك كل مَن ادَّعى أنه رأى ربه بعينيه قبل الموت، فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة؛ لأنهم اتفقوا جميعهم على أن أحدًا من المؤمنين لا يرى ربه بعيني رأسه حتى يموت، وثبت ذلك في "صحيح مسلم" عن النوَّاس بن سمعان، عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: أنه لما ذكر الدجال قال: ((واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت))".(**الفتاوى ٣/٣٨٩**)

مسألة: هل رأى النبيُّ ﷺ ربَّه في الدنيا ؟

هذه المسألة على قسمين:

القسم الأول:ويتعلق برؤيته في الأرض وهذا باتفاق أهل العلم أنه لم يره أبدا، ولن يراه أحد بعينيه في الأرض حتى يموت كما جاء في الحديث.

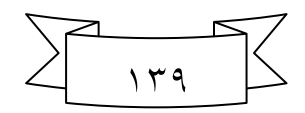
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"وكل حديث فيه أنَّ محمدًا – صلى الله عليه وسلم – رأى ربَّه بعينه في الأرض، فهو كَذِبٌ باتفاق المسلمين وعلمائهم،هذا شيءلم يَقُلْه أحدٌ من علماء المسلمين، ولا رواه أحد منهم".(**الفتاوى٣/٣٨٦**)

القسم الثاني: ويتعلق برؤيته لربَّه ليلة المعراج ؟

فيه قولان:

القول الأول: أنه رآه بعينه وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما كما عند الترمذي والنسائي واختار هذا القول أبو يعلى والفراء وابن خزيمة في (كتاب التوحيد) والنووي في (شرح مسلم) .

لكن أجيب عنه: بأن قول ابن عباس رضي الله عنه ليس بصريح.



القول الثاني: وهو الذي عليه أكثر أهل العلم واختار شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بل حكى الدارمي في كتابه (نقض عثمان بن سعيد) الإجماعَ عليه أنه لم يَرَه بعينه وإنما بفؤاده مرتين ويدل على ذلك عدة أدلة منها:

١- ما روى مسروق قال:كنت متكئاً عند عائشةَ فقالت:يا أبا عائشة ثلاثٌ مَنْ تكلم بواحدةٍ منهن فقد أعظم على الله الفريةَ:مَنْ زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفريةَ على الله والله يقول:﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ وكنت متكئاً فجَلَسْتُ فقلت:يا أمَّ المؤمنين أَنْظِرِيني ولا تُعْجِلِيني أليس يقول الله:﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ قالت:أنا أولُ من سأل عن هذا رسولَ الله ﷺ قال:(إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ مَا رَأَيْتُهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا غَيرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطاً مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل اللهُ عليه فقد أعظم الفريةَ على الله، يقول الله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ومن زعم أنه يعلم ما في غَدٍ فقد أعظم الفريةَ على الله، والله يقول:﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ رواه مسلم، ومسروقُ هو بنُ عبد الرحمن بن الأجدعِ ويُكْنَى أَبَا عائشةَ .

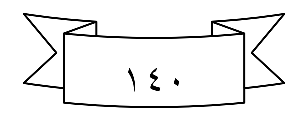
٢- وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ، فَقَالَ:(نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ) رواه مسلم .

٣- حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النَّهار قبل عمل الليل، حجابُه النُّور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))؛ رواه مسلم.

أما الجوابُ عن قول ابن عباس: فإنه ليس بصريح ثم إنه قد ورد عنه أنه قال:"رأى محمد ﷺ ربه بفؤاده مرتين" رواه مسلم. فهو رآه بقلبه لا في عينه وعلى هذا فالذي رُوِيَ عن ابن عباس حديثان:

أحدهما: مطلقٌ وهو أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه لكن من غير التنصيص على أن الرؤية بالعين.

الثاني: حديث مقيَّد وهو أنه رآه بفؤاده، فيحمل المطلق على المقيَّد؛ لأنه لَم يُرْوَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه بعينَي رأسه.



وأيضاً يحمل قول عائشة – رضي الله عنها – على أنه لَم يراهُ بعيني رأسه، فلا خلاف حينئذٍ، فيكون مَنْ نَفَى الرؤية حملها على رؤية البصر، ومَنْ أثبتها حملها على رؤية الفؤاد.

ومما تقدم يتبين لنا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أن الخلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في هذه المسألة هو من قبيل الخلاف اللفظي وأنه لا تعارض بين أقوالهم أصلا. (منهاج السنة النبوية ٦٣٦,٦٣٧/٢)

مسألة: هل يُرَى الله في المنام ؟

نعمْ وهذا مذهبُ أهل السنة والجماعة لكنَّ رؤيتَهُ في المنام ليست على صورته جل جلاله التي هو عليها لأنه لا يمكن لأحد أن يراه فيها على الحقيقة وإنما رؤيتُه جل وعلا في المنام تكون على قدر إيمان الرائي فإن كان إيمانه قوياً رأى صورةً حسنةً كما قال ﷺ :(رَأَيتُ رَبِّي الْبَارِحَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ)، وقولُه:(فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ) لأنه ﷺ أكملُ المؤمنين إيماناً فمن رآه فإنما يَرَى ما يتمثل له إيمانُه فيه . (فتاوى ابن تيمية (٣٣٦/٢) تلبيس الجهمية(٧٢/١) .

القول الثاني: أنه لا يُرى لعموم قوله ﷺ :(تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ).

والراجح هو القول الأول وهذا يجرنا إلى مسألة مهمة وهي ما يتهم به بعض المبتدعة شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه مجسِّم ويستشهدون بتصحيحه لحديث: ((رأيت ربي في صورة شاب أمرد له وفرة جعد قطط في روضة خضراء)) فهل حقاً صحح شيخ الإسلام هذا الحديث؟ وهل هو حديث صحيح؟

وللجواب على هذا السؤال أقول:

هذا الحديث ورد من طريقين وبألفاظ مختلفة.

الطريق الأول: من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

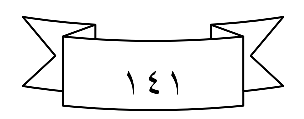
ومن ألفاظه:

((رأيت ربي في صورة شاب أمرد جعد عليه حلة خضراء))

وهذا الحديث من هذا الطريق صححه جمعٌ من أهل العلم كالإمام أحمد في (المنتخب من علل الخلال: ص٢٨٢، وإبطال التأويلات لأبي يعلى ١٣٩/١) وأبو زرعة الرازي وأبو يعلى والطبراني في (إبطال التأويلات لأبي يعلى) وابن تيمية في (بيان تلبيس الجهمية ٢٩٠/٧، ٣٥٦) وغيرهم

وضعفه ابن الجوزي في (العلل المتناهية: ٣٦/١) واستنكره الذهبي كما في (سير أعلام النبلاء ١٠ / ١١٣) وقال السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى ٢ / ٣١٢):"موضوع مفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم"

الطريق الآخر: من حديث مروان بن عثمان عن عمارة بن عامر عن أم الطفيل امرأة أبي بن كعب مرفوعاً.



ومن ألفاظه:((رَأَيْتُ رَبِّي فِي المنام في صورة شاب مُوَقَّرٍ فِي خَضِرٍ، عليه نَعْلانِ من ذهب، وَعَلَى وجهه فراش مِنْ ذهب)).

وهذا الحديث صححه الحسن بن بشار وأبو يعلى كما في (**طبقات الحنابلة لأبي يعلى: ٥٩/٢**).

وضعفه واستنكره أكثر أهل العلم،كالإمام أحمد (**المنتخب من علل الخلال لابن قدامة ص٢٨٤**) ويحي بن معين (**تاريخ بغداد للخطيب: ٣١١/١٣**) والنسائي (**العلل المتناهية لابن الجوزي: ٣٠/١**) وابن حبان في (**الثقات: ٢٤٥/٥**) والسبكي في (**طبقات الشافعية الكبرى ٢ / ٣١٢**) وابن حجر في (**تهذيب التهذيب ٨٦/١٠**)

وكلُّ من صحح الحديث أثبت أنه رؤيا منام لا رؤيا عين، لذلك فلا إشكال ولا مطعن لأهل الأهواء فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "(وكلها (يعني روايات الحديث) فيها ما يبين أن ذلك كان في المنام وأنه كان بالمدينة إلا حديث عكرمة عن ابن عباس وقد جعل أحمد أصلهما (أي حديث ابن عباس وأم الطفيل) واحداً وكذلك قال العلماء" (**بيان تلبيس الجهمية: ٢٢٩/٧**)

وقال رحمه الله: "وهذا الحديث الذي أمر أحمد بتحديثه قد صرح فيه بأنه رأى ذلك في المنام " (**بيان تلبيس الجهمية: ١٩٤/٧**) وله رحمه الله كلامٌ صريحٌ في أنَّ الله لا يُرى في الدنيا بالأبصار قال رحمه الله: "وكل من قال من العُبَّاد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأى ربه بعين رأسه فهو غالط في ذلك بإجماع أهل العلم والإيمان" (**الوصية الكبرى: ص٧٧**)

وشيخ الإسلام ابن تيمية ليس وحده الذي نفى أن يكون في الحديث إشكال لأنه رؤيا منام، بل ذكر ذلك غير واحد من أهل العلم ومن هؤلاء:

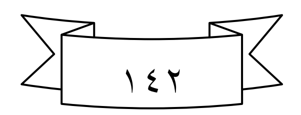
١- الذهبي قال: "وهذه الرؤية رؤيا منام إن صحت." (**ميزان الاعتدال**) (**٥٩٤/١**)

٢- المعلِّمي قال: "إن لهذا الحديث طرقاً معروفة في بعضها ما يشعر بأنها رؤيا منام، وفي بعضها ما يصرح بذلك، فإن كان كذلك اندفع الاستنكار رأساً " (**التنكيل (٢٥٣/١)**

٣- الدارمي عند كلامه على حديث: ((أتاني ربي في أحسن صورة)): "وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، وفي المنام يمكن رؤية الله تعالى على كل حال وفي كل صورة". (**النقض على المريسي: ٧٣٨/٢**)

وغيرهم ...

فكون شيخ الإسلام ابن تيمية أو غيره يصحح حديث: (رأيت ربي في صورة شاب أمرد...). لا يعني أنه يعتقد بأن الله حقيقة على صورة شاب أمرد بل كما قال: "فلا نعتقد أن ما تخيله الإنسان في منامه أو يقظته من الصور أن الله في نفسه مثل ذلك فإنه ليس هو في نفسه مثل ذلك بل نفس الجن والملائكة لا يتصورها الإنسان ويتخيلها على حقيقتها بل هي على خلاف ما يتخيله ويتصوره في منامه ويقظته". (**بيان تلبيس الجهمية (١/ ٧٤)**



فكيف يقال بعد ذلك أن شيخ الإسلام ابن تيمية يشبِّه الله بالشاب الأمرد؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ،بل شيخ الإسلام رحمه الله من أشد الناس بعداً عن التشبيه والتمثيل، وكلامه في تنزيه الله عز وجل والرد على المجسِّمة كثيرٌ جداً، من ذلك قوله: "والمثبتة [أي: من المجسِّمة] أدخلوا في ذلك من الأمور ما نفاه الله ورسوله، حتى قالوا: إنه يُرى في الدنيا بالأبصار، ويصافَح، ويُعانق، ويَنزل إلى الأرض، وينزل عشية عرفة راكباً على جمل أورق يعانق المشاة ويصافح الركبان، وقال بعضهم: إنه يندم ويبكي ويحزن وعن بعضهم: أنه لحم ودم ونحو ذلك من المقالات التي تتضمن وصف الخالق جل جلاله بخصائص المخلوقين والله سبحانه منزَّهٌ عن أن يوصف بشيء من الصفات المختصة بالمخلوقين، وكل ما اختص بالمخلوق فهو صفة نقص، والله تعالى منزَّهٌ عن كل نقص ومستحق لغاية الكمال، وليس له مِثل في شيء من صفات الكمال، فهو منزَّهٌ عن النقص مطلقاً، ومنزَّهٌ في الكمال أن يكون له مِثلٌ" **(منهاج السنة: ٢/٣١٣)**

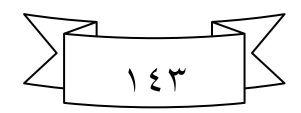
....

إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ ﷺ عَن رَّبِهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ، فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ.

....

يشير المصنف رحمه الله إلى أن هناك أحاديث أخرى غير ما ذكر تدل على ما أورده من معتقد أهل السنة والجماعة مما يجب الإيمان به في باب الأسماء والصفات، فإنَّ أهلَ السنَّةِ يؤمنونَ بذلكَ، كما يؤمنونَ بما جاءَ في القرآنِ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، فإنَّ السنَّةَ كالقرآنِ في وجوبِ القبولِ والعمل وإفادةِ العلمِ واليقينِ.

وفي كلام المصنف رحمه الله إشارةٌ إلى الردِّ على الجهْميةِ والمعتزلَةِ والرافضةِ الذين نَبذوا كتابَ اللهِ وسنةَ رسولهِ وراءَ ظهورِهِمْ وقَدحوا في دِلاَلَتِهما على الصفاتِ، وقالوا: الكتابُ والسنةُ ظواهرُ لفظيةٌ لا تفيدُ اليقينَ، وأنَّ القواطعَ العقليةَ والبراهينَ اليقينيةَ في المناهجِ الفلسفيةِ والطرقِ الكلاميةِ، فانظرْ كيفَ لعبَ بهمُ الشيطانُ حتى أخرجَهمْ مِن الإيمانِ، قال تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) الآيةَ.
وفي الحديثِ أنَّ رسولَ اللهِ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– قال: ((لاَ يُؤْمِنُ أحدُكمْ حتىَّ يَكُونَ هَوَاه تَبَعًا لما جِئْتُ به)).
وطريقُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ هو التمسكُ بالنصِّ الصحيحِ، ولا يعارض بمعقولٍ ولا مقول، فكتابُ اللهِ وسنَّةُ رسولِه هما المعيارُ، فما طابَقهما قُبِلَ وما خالفَهما رُد.



قالَ الإمامُ أحمدُ رحمهُ الله: "عجِبْتُ لقومٍ يعرفونَ الإسنادَ وصحَّتهُ ويذهبونَ إلى رأيِ سفيانَ، واللهُ –سُبْحَانَهُ– يقولُ: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أتدري ما الفتنةُ؟ الفتنةُ: الشركُ، لعلَّهُ إذا رَدَّ بعضَ قَولِهِ أن يقعَ في قلبهِ شيءٌ مِنَ الزيْغ فيهلِكَ".

وقالَ الإمامُ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ: " أجمعَ العلماءُ على أنَّ من استبانتْ لهُ سُنَّةُ رسولِ اللهِ لم يكنْ لهُ أنْ يدعَهَا لقولِ أحدٍ من الناس"، ونظائرُ ذلكَ كثيرٌ في كلامِ السَّلفِ.

وتقدَّمَ الكلامُ على أنَّ خبرَ الواحدِ إذا تلقَّته الأمَّةُ بالقبولِ عملاً به وتصديقًا له يفيدُ العلمَ اليقينيَّ عندَ جماهيرِ الأمَّةِ، ولم يكن بينَ سلفِ الأمَّةِ في ذلكَ نزاعٌ، وهو الحقُّ الَّذي تشهدُ له الأدلَّةُ، **كخبرِ عمَرَ**: ((إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ)) **وكقَولِهِ**: ((يَحْرُمُ مِنَ الرِّضاعِ ما يُحَرِّمُ النَّسَبُ)) إلى أمثالِ ذلك، وهو نظيرُ **خبرِ الَّذي أتى مسجدَ قباءَ وهمْ يصلونَ وأخبرَ أنَّ القبلةَ تحوَّلتْ**، فاستداروا إلى القبلةِ، **وكانَ رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– يُرسِلُ رسلَهُ آحادًا، ويرسلُ كتبهُ مع الآحادِ**، والأدلةُ على ذلكَ كثيرةٌ، وقد حقَّقَ ذلكَ الشيخُ تقيُّ الدينِ بنُ تيميةَ وتلميذهُ ابنُ القيِّمِ، وأطالَ عليهِ في (الصَّواعقِ)، وذكرَ الأدلةَ وردَّ على المخالفينَ ردًّا وافيًا، وكذلكَ في (النُّونيَّةِ)، وأشارَ إلى ذلكَ صاحب (فتحِ المجيدِ)، وذهبَ غيرُ واحدٍ إلى أنَّ خبرَ الصحيحينِ يفيدُ العلمَ اليقينيَّ وهوَ الحقُّ.

....

بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ .

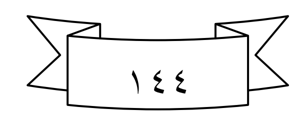
....

أهل السنة والجماعة وسط بين فرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم فغلا بعضها وتطرف، وتساهل بعضها وانحرف كما أن الأمة وسط بين جميع الأمم السالفة.

والوسَطُ: يأتي بمعنى التَّوسطِ بينَ الشيئيْنِ، ويأتي بمعنى العدل الخيار، **وأهلُ السُّنَّةِ وسطٌ عدولٌ خيارٌ معتدلونَ بين الطرفيْنِ المنحَرِفَيْنِ في جميعِ أمورهِم**، وفي الحديثِ: ((خَيْرُ الأمورِ أَوْسَاطُهَا))، وقد جاء عنه ﷺ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال:(الْوَسَطُ الْعَدْلُ)أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق في مصنفيهما وصححه الألباني في الجامع الصغير.

قال عليٌّ رضي اللهُ عنه: "خيرُ الناسِ النمطُ الأوسطُ الَّذي يرجعُ إليهم الغالي ويلحقُ بهم التالي".

وقد مدحَ اللهُ أهلَ التوسطِ، ونهى عن الإفراطِ والتفريطِ والغلوِ والتقصيرِ في غيرِ موضعٍ مِن كتابِه، قال تعالى: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)، وقال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا). **قال بعضُ السلَفِ: "دينُ اللهِ بينَ المغالي فيه والجافي عنه"**. وفي حديثِ ابنِ عباسٍ رضي



اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ)) أخرجهُ النسائيُّ وابنُ ماجةَ وصححهُ ابنُ خزيمةَ، وابنُ حبانَ، وصححهُ الحاكِمُ.

والغلو:هوَ المبالغةُ في الشَّيءِ والتشديدُ فيه بتجاوزِ الحدِّ، قالَ الشاعِرُ:

ولا تغلُ في شيءٍ مِن الأمرِ واقتصد كلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميم.

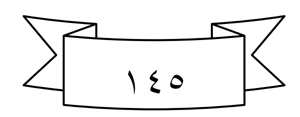
قال ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ في من كان في قلبه داعي للبدعة أو داعي للسنة وحال الشيطان معه في كلام معناه:ومِن كيدِ عدوِّ اللهِ إبليسَ أن يشمَّ قلبَ العبدِ، فإنْ رأى عندهُ قوةَ إقدامٍ وعلوَّ همةٍ قلَّلَ عندهُ المأمورَ وأوهمهُ أنَّه لا يكفي، وأنهُ يحتاجُ معهُ إلى مبالغَةٍ، وإنْ رأى الغالبَ عندهُ الانكفافَ والإحجامَ ثبَّطهُ عنِ المأمورِ وثقَّلهُ عليه، حتى يتركَهُ أو بعضَه، كما قال بعضُهم: ما أمرَ اللهُ بأمرٍ إلاَّ وللشيطانِ فيهِ نزغتانِ، إمَّا إلى إفراطٍ وتقصيرٍ، وإمَّا إلى مجاوزةٍ وغلوٍّ، ولا يبالي بأيِّهما ظفَرَ، وقد اقتطعَ أكثرُ الناسِ إلاَّ القليلَ في هذين الوادِيينِ.(أنظر:مدارج السالكين (٢/ ١٠٨)

وكما أن أهل السنة وسط بين فرق الأمة فهذه الأمَّةَ وسط بين الأمم قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)، **أي: عَدلاً خيارًا،** لتوسُّطِها بين الطَّرفين المذمُومينِ، فلا غلوا كغلوِّ النَّصارى، ولا تقصير كتقصيرِ اليهودِ، فهم مُعتدلون مثلاً **في بابِ توحيدِ الله إذ كان اليهودُ يصفونَ اللهَ بالنقائِصِ ويشبِّهونه بالمخلوقِ،** كما أخبرَ اللهُ عنهمْ أنهم: (قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ونحن أغنياء) **ونَفى عنْ نفسهِ اللغوبَ الَّذي وصفوهُ بِه، أما النصارى فقد وصفوا المخلوقَ بصفاتِ الخالقِ التي اختصَّ بها، فلا يشركهُ فيها غيرُهُ كالإلهيةِ وغيرِهَا، وقالوا: بأنَّ المسيحَ هوَ اللهُ، وأنه ابنُ اللهِ وثالثُ ثلاثَةٍ.**

أما أمَّةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام فقد توسطوا واعتدلوا فلا يعبدونَ إلا اللهَ سُبْحَانَهُ وتعالَى ولا يصفونَه إلا بما وصفَ بهِ نفسَه ووصفهُ بهِ رسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ غيرِ تعطيلٍ ولا تشبيه فوصفوهُ بصفاتِ الكمالِ ونزَّهوهُ عنْ صفاتِ النَّقصِ والعيبِ.

وكذلكَ في النبوَّاتِ، فاليهودُ تقتلُ الأنبياءَ، وتستكبرُ على أتباعهِم، **والنَّصارى** يجعلونَ مَن ليس بنبيٍّ ولا رسولٍ نبيًّا ورسولاً، وهذه الأمَّةُ تؤمنُ بجميعِ أنبياءِ اللهِ ورسلِه، **وأمَّا الشرائعُ فاليهودُ** منعوا الخالقَ أنْ يبعثَ رسولاً بغيرِ شريعةِ الرَّسولِ الأوَّلِ، **والنصارى** جوَّزوا لأحبارهِمْ أنْ يُغيروا مِن الشرائعِ ما بعثَ اللهُ بهِ رُسُلَهُ، **وكذلكَ في العباداتِ فالنصارى** يعبدونهُ ببدعٍ ما أنزلَ اللهُ بها مِن سلطانٍ، **واليهودُ** معرضونَ عن العباداتِ، **والمسلمونَ** عبدوهُ بما شرعَ ولم يعبدوهُ بالبدَعِ.

وكذلكَ في حقِّ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، فلم يَغلوا فيهم كما غلتِ النَّصارى في المسيحِ، ولا جَفوهم كما جفتْ فيهم اليهودُ، فالنَّصارى عبدوهم واليهودُ قتلوهمْ وكذَّبوهم،أما هذه الأمَّةُ، فقد آمنوا بهِمْ وعزَّروهم ونَصروهم.



وفي باب النجاساتِ فاليهودُ شددوا فإذا وقع على أحدهم نجاسة قطع ثوبَه، **والنصارى** تساهلوا في ذلك حتى يمرُّ على أحدهم الشهورُ ولا يَتَنَظَّفُ **وكذلك هم وسطٌ بين الصوفيةِ والرافضةِ** فالصوفيةُ رفعوا النبي محمد ﷺ فوقَ منزلتِه والرافضةُ جعلوا أئمتهم أرفع منه .

فهذهِ الأمَّةُ أفضلُ الأممِ على الإطلاقِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وفي حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه: ((أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ))، وأمَّا قَولُهُ سُبْحَانَهُ وتعالَى في بني إسرائيلَ: (وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) فالمرادُ أنه سُبْحَانَهُ فضَّلهمْ على عالمي زَمانِهِمْ، كشعبِ بُخْتَنَصَّرَ وغيرِهِمْ.

....

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ.

....

لما بين المصنف رحمه الله موقفَ أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة بَيَّنَ مكانتهم وقدرهم **حتى يُعرف فضلُهم عند المقارنة بغيرهم،فأهلُ السنة وسط في صفات الله بين المعطلة الجهمية والممثلة المشبهة.**

والجهميةُ:ينسبون إلى الجهمِ بنِ صفوانَ التِّرمذيِّ الضَّالِّ، والنسبةُ إليهِ جَهميٌّ بفتحِ الجيمِ، والجهمُ أخذَ بدعتهُ هذه، أي بدعةُ تعطيلِ الصفاتِ مِن الجعدِ بنِ درهَمٍ، فهو أولُ مَنْ تكلمَ في التعطيلِ في الإسلامِ، فقتلهُ خالدُ بنُ عبدِ الله القسريُّ بعدَ أنْ استشارَ علماءَ التابِعين فأفتَوْا بقتلِه، فخطبَ في يومِ عيدِ الأضحى فقالَ: يا أيها الناسُ ضحُّوا تقبَّلَ اللهُ ضحاياكمْ فإني مُضَحٍّ اليوم بالجعدِ بنِ درهَمٍ، فإنه زعمَ أنَّ اللهَ لم يتخذْ إبراهيمَ خليلاً ولمْ يكلمْ موسى تكليمًا، فنَزلَ فذبحهُ في أصلِ المنبرِ.

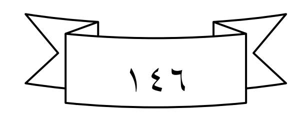
قال ابن القيِّمِ رحمهُ اللهُ.

ولذا ضَحَّى بجعدٍ خالدُ الـ   قسريُّ يومَ ذبائحِ القربانِ.

إذْ قالَ إبراهيمُ ليسَ خليلَه   كلاَّ ولا موسى الكليمُ الدَّاني.

شكرَ الضَّحيةَ كلُّ صاحبِ سُنَّةٍ   لله درُّكَ من أخي قربانِ .

والجعدُ بنُ درهمٍ أوَّلُ مَن قال بخلقِ القرآنِ، أخذَ بدعتَه عن أبانَ بنِ سمعانَ، وأخذها أبانُ عن طالوتَ بنِ أختِ لبيدِ بنِ الأعصمِ زوجِ بنْتِه، وأخذَها لبيدُ عن يهوديٍّ باليمنِ، وأخذَ هذه البدعةَ عنِ الجعدِ الجهمُ بنُ صفوانَ التِّرمذيُّ، وأخذَ عن الجهمِ بِشرٌ المرِّيسيُّ، وأخذها عن بشرٍ أحمدُ بنُ أبي داودَ، وأما الجهمُ بنُ صفوانَ فقتلهُ سلمُ بنُ أحوزَ أميرُ خراسانَ سنةَ مائةٍ وثمانيةٍ وستينَ، **ونُسبت الطائفةُ إلى الجهْمِ؛** لأنَّه الَّذي ناضلَ عن هذا المذهبِ الخبيثِ وأظهرهُ ودعا إليهِ، وتقلدَ هذا المذهبَ الخبيثَ بعدهُ المعتزلَةُ، ولكنْ كانَ الجهمُ أدخلَ وأشد في التعطيلِ مِنهم؛ لأنَّهُ ينكرُ الأسماءَ حقيقةً وهمْ لا ينكرونَ الأسماءَ بل الصفاتِ.



قال جمعٌ مِن العلماءِ في الجهميةِ:إنهم ليسوا مِن فرقِ هذهِ الأمَّةِ الثنتينِ والسبعينَ فرقَةً، منهم عبدُ اللهِ بنُ المباركِ ويوسفُ بنُ أسباطٍ وغيرُهم.

قال ابنُ القيّمِ رحمةُ اللهُ في (النُّونيَّةِ):

ولقدْ تقلدَ كُفرَهمْ خمسونَ في   عشرٍ منَ العلماءِ في البلدانِ

واللالكائيّ الإمامُ حكاهُ عنهم   بلْ قدْ حكاهُ قبلهُ الطبراني

قالَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ بنُ تيميةَ رحمَه اللهُ:"**المشهورُ مِن مذهبِ الإمامِ أحمدَ وعامَّةِ أئمَّةِ السنةِ تكفيرُ الجهميةِ**، وهم المعطلةُ لصفاتِ الرحمنِ، فإنَّ قَولَهُمْ صريحٌ في مناقضةِ ما جاءتْ بِهِ الرسلُ من الكتابِ والسنَّةِ، **وحقيقةُ قَولِهِمْ جحودُ الصانعِ وجحودُ ما أخبرَ بِهِ على لسانِ رسولهِ** بلْ وجميعِ الرسُلِ، ولهذا قال عبدُ اللهِ بنُ المبارَكِ:إنا لنحكي كلامَ اليهودِ والنَّصارى ولا نستطيعُ أنْ نحكيَ كلامَ الجهميَّةِ.وقال غيرُ واحدٍ من الأئمَّةِ:إنهم أكفرُ مِن اليهودِ والنصارَى".(**الفتاوى (١٢/ ٤٨٥)**)

ومعطلة الجهمية هم: من نَفوا أسماءَ اللهِ وصفاتهِ وحقائقها، **فالجهميةُ نفَوا صفاتِ اللهِ لَفظاً ومعنا، وزعموا أنَّ إثباتَهَا يفضي إلى التشبيهِ بصفات المخلوق فعطَّلوهَا، فوقَعوا في أشدَّ مِن ذلكَ، وهو تشبيهُه سُبْحَانَهُ وتعالَى بالمعدوماتِ والناقصاتِ**، فشبَّهوا أوَّلاً ثم عطلوا ثانيًا، ثم شَبَّهوا ثالثًا، **فإنَّ مَن لا صفاتَ لهُ بالكليَّةِ لا وجودَ لَهُ**، فإنَّ مَن ليسَ لهُ سمعٌ ولا بصرٌ ولا قدرةٌ، ولا إرادةٌ ولا هو فوقَ ولا أسفلَ ولا يمينَ ولا شمالَ إلى آخرِ ما هوَ موجودٌ في كُتبهم ليسَ لهُ وجودٌ بالكليةِ، بلْ هوَ مقدَّرٌ في الأذهانِ لا وجودَ له في الأعيانِ، تعالى اللهُ عنْ قَولِهِمْ علوًّا كبيرًا، **وأهلُ العلم يطلقونَ تسميةَ الجهميةِ ويَعْنُونَ بها أحدَ أمرين:**

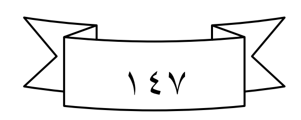
الأول:نفاةَ الصفات كلِّها أو بعضِها فيدخلُ في هذا الجنس مَنْ وافق الجهمَ في آرائه ومن لم يوافقْه في جميع آرائه، وإنما وافقه في نفي الصفات كالمعتزلة .

الثاني:مَنْ أخذ بجميع أراء الجهم وجعلها مذهباً له.

وشيخ الإسلام رحمه الله يقصد المعنى الأول فقطْ كما تقدم. (**انظر درءَ تعارض العقل والنقل**) .

وأمَّا المعتزلةُ فأثبتوا الأسماءَ ونَفَوا المعانيَ، فيقولون إنَّهُ سُبْحَانَهُ سميعٌ بلا سمعٍ، بصيرٌ بلا بصرٍ، عليمٌ بلا علمٍ إلى غيرِ ذلك مما يقولونه، وتصوُرَ هذا المذهبِ كافٍ في ردِّه وإبطالِه، **وأمَّا الأشاعرةُ** فأثبتوا للهِ بعضَ الصفاتِ ونفَوا البعضَ، فاضطربوا وتناقَضُوا.

أما أهلُ التمثيلِ المشبهةُ فهم: الذينَ شبَّهوا اللهَ بخلقهِ ومثَّلوه بهم تعالى اللهُ عنْ قَولِهِمْ علوًّا كبيرًا وقد تقدم الكلام على أقسام التمثيل والأدلة على منعه.



فالمعطِّلةُ غلوا في النَّفي حتى شبَّهو الله بالمعدوماتِ والناقصاتِ، **والمشبهةُ غلوا في الإثباتِ** حتى شَبهوهُ بالمخلوقاتِ، **وأهلُ السُنَّةِ والجماعةِ أثبتوا للهِ الأسماءَ والصفاتِ ونفَوا عنه مشابهَةَ المخلوقاتِ.**

....

وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّة، وفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغِيْرِهِمْ وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَ الْخَوَارِجِ

....

أهل السنة والجماعة وسطٌ في أفعالِ اللهِ بينَ الجبريةِ القائلين بأن العبد مجبور على فعله **والقدريَّةِ** القائلين بأن الإنسان خالق فعل نفسه.

والجبريةُ سموا بذلك نسبةً للجبر لأن العبد عندهم مجبورٌ على فعله **فهم غلوا في إثبات أفعال الله** فَغلوا في إثباتِ القَدَرِ **حتى نفوا أفعالَ العبد** وعلى هذا فحركاتُ العبد وأفعالُه كلها اضطرارية عندهم كحركات المرتعش وحركةِ الريشة في مَهَبِّ الريح،**قالوا: وأما إضافةُ الفعل إلى العبد فهي من قبيل المجاز** فالجبريةُ نفوا أفعالَ العبادِ، وزعموا **أنهُمْ لا يفعلونَ شيئًا ألبتَّةَ، وإنَّما اللهُ هو فاعلُ تلكَ الأفْعَالَ حقيقةً، فهي نفسُ فعلِه لا أفعَالِهم**، والعباد لا قدرةٌ لهم ولا إرادةٌ ولا فعلٌ لهم ألبتَّةَ، وإنَّما أفعالُ العبادِ كحفيفِ الأشجارِ أو كحركةِ المرتعشِ والكلُّ فعلُ اللهِ، **وعليهِ فسائرُ أفعالِ العبد من الطاعات حتى لو كانت معاصي**؛ لأنَّها موافِقةٌ لإرادةِ اللهِ الكونيَّةِ القَدَرِيَّةِ، فالزِّنا واللِّواطُ والقتلُ وشربُ الخمرِ على هذا القولِ طاعاتٌ، وقدْ قالَ بعضُ غلاتِهِمْ:

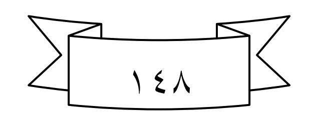
أصبحتُ منفعلاً لما يختارُهُ ربِّي ففعلِي كلُّه طاعاتُ.

ولا شكَّ في فسادِ هذا المذهبِ، وأدلَّةُ الكتابِ والسنَّةِ بل والعقلُ متواطِئةٌ على ردِّه وإبطالِه، بلْ لا يمكنُ أن تعيشَ أمَّةٌ على هذا المذهبِ الخبيثِ، أو تَنْتَظمَ أمورُها، ولاَ شكَّ أنَّ هذا المذهبَ مخالفٌ لجميعِ أديانِ الأنبياءِ.

ولفظُ الجبرِ لفظٌ مبتدعٌ أنكرهُ السَّلفُ، كالثوريِّ، والأوزاعيِّ، وأحمدَ، وغيرهِم، وقالوا: الجبرُ لا يكونُ إلاَّ مِن عاجزٍ.

وأصلُ قولِ الجبريةِ مأخوذٌ عن الجهمِ بنِ صفوانَ، فهو إمامُ المجبِّرَةِ، والجبريَّةُ عكسُ القَدَريَّةِ نفاةِ القَدَرِ، فإنَّ القَدَرِيَّةَ نُسبوا إلى القدرِ لنفيهمْ إياهُ، **وقدْ تُسمَّى الجبريَّةُ قَدَرِيَّةً**؛ لأنهم غلوا في إثباتِ القَدَرِ، والتَّسميةُ على النَّافين أغلبُ.

أما القَدَرِيَّةُ النُّفاةُ فهمُ الَّذين وَرَدَ فيهم الحديثُ الَّذي في السُّنَنِ: (أنَّهم مجوسُ هذهِ الأمَّةِ)، **وأكثرُ المعتزلَةِ على هذا المذهبِ الباطِلِ**، فإنهم يقولونَ: إنَّ أفعالَ العبادِ وطاعتِهِمْ ومعاصيهِمْ لم تدخلْ تحتَ قضاءِ اللهِ وقدَرِه، فاللهُ سُبْحَانَهُ



وتعالَى على زعمِهمْ لا يَقْدِرُ على أفعالِ العبادِ ولا شاءَها منهمْ، ولكنَّهم يعملونَها دونَ مشيئةِ اللهِ وقدرتِه، وأنَّ اللهَ لا يَقدِرُ أنْ يَهدِيَ ضالاً ولا يُضِلَّ مهتديًا، فأثبتوا خالِقًا مع اللهِ سُبْحَانَهُ، وهذا إشراكٌ مع اللهِ في توحيدِ الرُّبُوبيَّةِ.

قالَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ بنُ تيميةَ رحِمَه اللهُ: "**وقَولُ القدريَّةِ يتضمَّنُ الإشراكَ والتَّعطِيلَ، فإنَّه يتضمَّنُ إخْراجَ بَعضِ الحوادثِ عن أنْ يكونَ لها فاعِلٌ**، ويتضمَّنُ إثباتَ فاعِلٍ مستقِلٍّ غيرِ اللهِ، وهاتانِ شُعبتانِ مِن شُعَبِ الكُفرِ، فإنَّ أَصْلَ كُلِّ كُفرٍ هو التَّعطيلُ والشِّركُ". (منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٧٨)

وقد وَرَدَتْ أحاديثُ في ذمِّ القدريَّةِ وأنَّهم مجوسُ هذه الأمَّةِ، وذلك لمضُاهاةِ قولِهم لقولِ المجوسِ، فإنَّ المجوسَ يُثبِتونَ خالِقَيْنِ، خالِقِ الخيرِ وخالِقِ الشَّرِّ، وهما النُّورُ والظُّلمةُ، فالنُّورُ خالِقُ الخيرِ، والظُّلمةُ خالِقَةُ الشَّرِّ، وكذلك القدريَّةُ أَثْبَتوا خالِقَيْنِ: أَثْبَتوا أنَّ اللهَ خالِقُ الحيوانِ وأنَّ الحيوانَ يَخْلُقُ فِعلَ نَفْسِه، فمِمَّا ورَدَ في ذَمِّهِم حديثِ ابنِ عمرَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ)) رواه أبو داودَ وصححه ابن القطان وحسنه الألباني. ورُوِيَ في ذمِّ القَدَرِيَّةِ أحاديثُ أُخَرُ، تكلَّمَ أهلُ الحديثِ في صِحَّةِ رَفْعِها، والصَّحيحُ أنَّها موقوفةٌ.

وأوَّلُ مِن تكلَّمَ في القَدرِ معبدٌ الجهنيُّ، ثمَّ غيلانُ الدِّمشقيُّ، وكانَ ذلكَ في آخرِ عصرِ الصَّحابَةِ، وأنكرَ عليهمُ الصَّحابةُ وتبرَّءوا منهم وبدَّعُوهم، **فالجبريَّةُ غَلَوْا في إثباتِ القدَرِ، والمعتزلَةُ غَلَوْا في نَفْيِه، وهَدى اللهُ أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ للقولِ الوسَطِ الَّذي تؤيِّدُه أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ، فأَثْبَتوا أنَّ العِبادَ فاعِلون حقيقةً، وأنَّ أفعالَهم تُنْسَبُ إليهم على جِهةِ الحقيقةِ لا على جِهةِ المجازِ، وأنَّ اللهَ خالِقُهم وخالِقُ أفعالِهم، كما قال: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) وأثبتوا للعبدِ مَشيئةً واختيارًا تابِعَيْنِ لمشيئةِ اللهِ، كما قال سبحانه: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)**. ففي الآيتين إثباتُ عملٍ للعبد هو مِنْ خلق الله وتقديرِه وإثباتُ مشيئة للعبد تأتي بعد مشيئة الله وسيأتِي الكلامُ على هَذِهِ المباحِثِ إنْ شاءَ اللهُ.

وَقَوْلُهُ:(وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغِيْرِهِمْ)

أهل السنة والجماعة وسط في باب وعيد الله وتخويفه **بين المرجئة الذين يغلبون جانب الرجاء على الخوف وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم الذين يغلبون جانب الخوف على الرجاء.**

والمُرْجِئةُ: نسبةٌ إلى الإرجاءِ، أيْ: التَّأخيرِ؛ لأنَّهم أخَّروا الأعمالَ عن مسمى الإيمانِ، **حَيْثُ زَعَموا** أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ غيرُ فاسقٍ، **وأنَّ النَّاسَ في الإيمانِ سواءٌ، وأنه لا يضر مع الإيمان ذنبٌ** كما لا ينفع مع الكفر طاعةٌ **فزعموا** أن مرتكبَ الكبيرة كاملُ الإيمان فالمعاصي عندهم لا تنقص الإيمان .

فإيمانُ أفْسَقِ النَّاسِ كإيمانِ الأنبياءِ، وأنَّ الأعمالَ الصَّالِحَةَ ليست مِن الإيمانِ، ويكذِّبون بالوعيدِ

والعِقابِ بالكُلِّيَّةِ، ومذهبُهم باطلٌ تردُّه أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ولا شكَّ أنَّ هذا المذهبَ مِن أخبثِ المذاهبِ وأفسدِها؛ إذ يدعو إلى الانسلاخِ مِن الدِّينِ وإهمالِ جميعِ الأعمالِ، واستباحةِ جميعِ المنكَراتِ.

فإن قيل متى بدأ الإرجاء ؟ فالجواب ما قاله قتادة:" إنما حدث الإرجاء بعد فتنة فرقة ابن الأشعث"

قال الشَّيخ تقيُّ الدِّينِ ابن تيمية: " وأما المرجئة : فلا تختلف نصوصه–أي الإمام أحمد– أنه لا يكفرهم؛ فإن بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع " **(مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٥)**

ومع هذا فقد عظم القول في ذم ((الإرجاء)) عند السلف الصالح ؛ حتى قال إبراهيم النخعي:" لفتنتهم – يعني: المرجئة – أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة" –وهم الخوارج– . وقال الزهري:" ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الأرجاء". وقال الأوزاعي:"كان يحي بن أبي كثير وقتادة يقولان: ليس شيء من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء". وقال شريك القاضي – وذكر المرجئة؛ فقال – :" هم أخبث قوم، حسبك بالرافضة خبثاً، ولكن المرجئة يكذبون على الله". وقال سفيان الثوري: "تركت المرجئة الإسلام أرق من ثوب سابري" والثوب السابري هو الثوب الرقيق. **(أنظر فتاوى الفتاوى٧ / ٣٩٤ – ٣٩٥)**

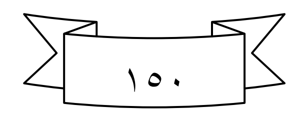
- **واعلم أن لفظ المرجئة يأتي على معنيين:**

الأول: معنىً عامٌّ وهو تأخيرُ العمل عن مسمى الإيمان فيقولون: إن الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينقصُ لأن مسمى الإيمان هو التصديق بالقلب أو بالقلب واللسان على خلاف بينهم .

الثاني: معنىً خاصٌّ وأصحابه على توجهين:

التوجه الأُول: فهم الذين قالوا: إنَّ الإيمانَ هُوَ مجرَّدُ التَّصدِيقِ بالقلبِ فقط، وإنْ لم يَتكلَّمْ به،وأن العمل لا أهمية له وهذا التوجه يدخل تحته فرقة الجهمية والمريسية والماتريدية ونحوهم ولا شكَّ في فسادِ هَذَا القولِ، ومصادمَتِه لأدلَّةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، فإنَّ الإيمانَ قولٌ باللِّسانِ، وعملٌ بالأركانِ، واعتقادٌ بالجَنَانِ، فإذا اختَلَّ واحدٌ مِن هَذِهِ الأركانِ لم يكُن الرَّجُلُ مؤمنا، وعلى هَذَا أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ودَرَج على هَذَا السَّلَفُ الصَّالِحُ مِن الصَّحابةِ والتَّابِعينَ ومَن بعدَهم مِن أئِمَّةِ المسلِمِينَ.

التوجه الثَّاني: مرجئة الفقهاء وهم أتباع أبوحنيفة رحمه الله الذين قالوا: إن الإيمان قول واعتقاد فقط أما الأعمالَ فلاتدخل في مسمى الإيمانِ فشارب الخمر عندهم كامل الإيمان لأن الإيمان عندهم هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان فقط ، **إلا أنهم مع كونهم مبتدعةً في هَذَا القولِ فهم يرون**



أهمية العمل وأن تاركه معرض للعقوبة في الآخرة فقد وافقوا أهلَ السُّنَّةِ على أنَّ اللَّهَ يعذِّبُ مَن يشاء مِن أهلِ الكبائرِ بالنَّارِ، ثم يخرجُهم بالشَّفاعةِ، كما جاءتْ به الأحاديثُ الصَّحيحةُ، **وعلى أنَّه لا بُدَّ في الإيمانِ أنْ يتكلَّمَ به بلسانِه، وأنَّ الأعمالَ المفروضةَ واجبةٌ وتاركُها مستحِقٌّ للذَّمِّ والعِقابِ**، وقد أُضِيفَ هَذَا القولُ إلى بعضِ الأئِمَّةِ مِن أهلِ الكوفةِ.

- وليُعلم أن الإرجاءَ فكر وليس فرقة فهو يدخلُ فيه طوائفُ وجماعاتٌ كما تقدم فتجد من الجهميةِ من هو مرجئٌ ومن الحنفيةِ من هو مرجئٌ ومن الفقهاء من هو مرجئٌ وهذا الذي يسميه العلماء إرجاءَ الفقهاءِ نسبة إلى الفقيه أبي حنيفة كما هو ثابت عنه في الفقه الأكبر وغيرِه .

مسألة:هل الخلافُ بين أبي حنيفةَ وأهلِ السنة في مسألة الإرجاء حقيقيٌّ أو لفظيٌّ ؟

اختلف فيه على أقوال:

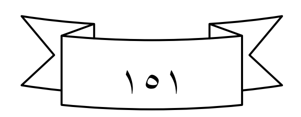
الأول:أنه خلافٌ لفظيٌّ وبه قال ابن أبي العز (شارح الطحاوية) .

الثاني:أنه خلافٌ حقيقيٌّ واختاره الألوسي والشيخ ابن باز حم الله الجميع .

الثالث:أنه منه ما هو حقيقي ومنه ما هو لفظي وهو ظاهر اختيار ابن تيميةَ في مجمل كتبه وهذا هو القول الراجح فهو لفظي من جهة إتفاقهم مع أهل السنة في أن فاعل الكبيرة وتارك الواجب يستحق المحاسبة والعذاب في الآخرة،فالخلاف بهذا الإعتبار لفظي؛ لأن المؤدى في النتيجة عند الله سبحانه وتعَالى واحد، **أما الخلاف الحقيقي بيننا وبينهم فهو يتعلق بكمال الإيمان ونقصانه** فمثلاً: الفاسق شارب الخمر هو عند أبي حنيفة ومن سار على نهجه من مرجئة الفقهاء: مؤمن كامل الإيمان، لأن الإيمان عندهم هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان فقط والإيمان لايزيد ولا ينقص،أما نحن فلا نطلق عليه أنه مؤمن كامل الإيمان،فالخلاف إذاً حقيقي باعتبار ولفظي باعتبار.

أما الوعيديَّةُ : فهُم الذين غَلَّبُوا جانبَ الوعيد وشَدَّدُوا فيه،وقالوا:١- إنَّ اللَّهَ لا يَغفِرُ لمرتكبِ الكبيرةِ إلاَّ بالتَّوبةِ. ٢- وأنَّ أهلَ الكبائرِ مخلَّدون في النَّارِ إذا ماتوا من غير توبة. ٣- ويخرِجُونهم مِن الإيمانِ بالكُلِّيَّةِ. ٤- ويكذِّبون بشفاعةِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وغيرِه **زعْمًا منهم أنَّه إذا أوْعَدَ عبيدَه فلا يجوزُ أنْ يعذِّبَهم ويُخلِفَ وعيدَه. وهَذَا المذهبُ يقولُ به المعتزِلةُ والخوارجُ**، وهُوَ باطلٌ تردُّه أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ المتواترةُ والإجماعُ.

قال اللَّهُ تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) قال في (فَتح المجِيدِ):" وفي الآيةِ ردٌّ على الخوارجِ المكفرِّين بالذُّنوبِ، وعلى المعتزِلةِ القائِلينَ بأنَّ أصحابَ الكبائرِ يخلَّدون في النَّارِ،



وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفارٍ، **ولا يجوزُ أنْ يُحمَلَ قولُه سبحانه: (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) على التَّائبِ، فإنَّ التَّائبَ مِن الشِّركِ مغفورٌ له، كما قال تعالى: (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) فهُنا عَمَّمَ وأَطْلَقَ؛ لأنَّ المرادَ هنا التَّائبُ، وهناك خصَّ وعلَّقَ؛ لأنَّ المرادَ به مَن لم يَتُبْ،** هَذَا ملخَّصُ كلامِ شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ" (فتح المجيد (ص: ٧٣)

أمَّا القولُ الوسَطُ الذي عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ فهُوَ أنَّ الفاسِقَ معه بعضُ الإيمانِ، وهذا الإيمان أصل يستوجِبُ به الجَنَّةَ، وهُوَ تحت مشيئةِ اللَّهِ إنْ شاء عفى عنه بفضله وكرمه وأدخَلَه الجَنَّةَ مِن أوَّلِ وهلةٍ، وإلاَّ عذَّبه بقدْرِ ذُنوبِه، ثم أدخَلَه الجَنَّةَ، فلا بدَّ له مِن دخولِ الجَنَّةِ، فلا يُعطَى الإيمانَ المطلَقَ، ولا يُسلَبُ عنه مُطلَقُ الإيمانِ، بل يُقالُ مؤمِنٌ بإيمانِه، فاسِقٌ بكبيرتِه، أو يقالُ مؤمِنٌ ناقصُ الإيمانِ، وهَذَا هُوَ الحقُّ الذي دلَّتْ عليه أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ودَرَج عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ، **عَكْسَ ما عليه الخوارجُ والمعتزِلةُ والمُرْجِئةُ،** فالمرْجِئةُ في طرَفٍ، والخوارجُ والمعتزِلةُ في طرَفٍ آخَرَ، **فالخوارجُ والمعتزِلةُ غلَوْا، والمُرْجِئةُ جفَوْا، فالمُرْجِئةُ يقولونَ: لا يَضُرُّ مع الإيمانِ ذنبٌ، والخوارجُ يقولون: يكفُرُ المسلمُ بكُلِّ ذنبٍ. وَكَذَلِكَ المعتزِلةُ يقولون: يَحبَطُ إيمانُه كُلُّه بالكبيرةِ فلا يبقى معه شيءٌ مِن الإيمانِ، لكنَّ الخوارجَ يقولون: يَخرجُ مِن الإيمانِ، ويدخُلُ في الكُفْرِ، والمعتزِلةُ يقولون: يخرجُ مِن الإيمانِ، ولا يدخُلُ في الكُفرِ، بل يكونُ في منزلةٍ بَيْنَ مَنزِلتَيْنِ، وبقولِهم بخروجِه مِن الإيمانِ أوْجَبوا له الخلودَ في النَّارِ،** وكِلاهما مخالِفٌ للسُّنَّةِ المتواترةِ ولإجماعِ سلَفِ الأمَّةِ وأئِمَّتِها.

وأمَّا استدلالُهم بقولِه سبحانه: (لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى) فقدْ بَيَّنَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ هَذَا الصِّلِيَّ لأهلِ النَّارِ الذين هم أهلُها، كما في حديثِ أبي سعيدٍ، وأما الذين ليسوا هُم مِن أهلِها، فإنَّها تُصيبُهم بذُنوبِهم، ثم اللَّهَ يُميتُهم فيها حتَّى يصيروا فَحْما، ثم يُشَفَّعُ فيهم فيخرجون، ويؤتَى بهم إلى نَهرِ الحياةِ فيَنبُتون كما تَنْبُتُ الحَبَّةُ في حميلِ السَّيلِ، وهَذَا المعنى مستفِيضٌ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بل متواتِرٌ في أحاديثَ كثيرةٍ في الصَّحيحَيْنِ وغيرِهما مِن حديثِ أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ وغيرِهما، قال: والصِّلِيُّ المذكورُ في الآيةِ هُوَ الصِّلِيُّ المطلَقُ، وهُوَ المكْثُ فيها والخلودُ على وجهٍ يَصِلُ العذابُ إليهم دائما، فأمَّا مَن دخَلَ وخَرَجَ فإنَّه نوعٌ مِن الصِّلِيِّ المطلَقِ فليس هو الصلي المطلق لا

سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله كله فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود والله أعلم. كما قال شيخ الإسلامِ ابنِ تيميَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ. (انظر:مجموع الفتاوى ١٦/ ١٩٧)

وَقَوْلُهُ:(وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ) .

أهل السنة والجماعة وسط بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية في بابِ أسماءِ الإيمانِ والدِّينِ في من فعل الكبيرة فهذه الفرق الضالة تَنازعوا في الأسماءِ والأحكامِ ونقصد بالأسماء أسماءِ الدِّينِ والإيمان: مِثلَ مسلمٍ وكافرٍ وفاسقٍ،أما الأحكام فالمراد بها الحكم على الأشخاص في الدُّنْيَا والآخرةِ.

فالخوارجُ (الحرورية) والمعتزِلةُ **متَّفِقونَ في التسمية الدِّينية** مِثلَ: مؤمنٍ ومسلمٍ وفاسقٍ وكافرٍ، **إلاَّ أنَّ المعتزِلةَ أحْدَثوا المنزلةَ بَيْنَ المنزِلتَيْنِ**، وَهَذِهِ خاصَّةُ المعتزِلةِ التي اختُصُّوا بها دونَ غيرِهم .

والخوارجُ والمعتزِلةُ يقولون: إنَّ الدِّينَ والإيمانَ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، **ولكنْ لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، ومَن أتى كبيرةً** كفَرَ عندَ الحَروريَّةِ، وصار فاسقًا عندَ المعتزِلةِ في منزلةٍ بَيْنَ المنزِلتَيْنِ، لا مؤمِنٌ ولا كافرٌ.

وأمَّا امن ناحية الحُكمُ، فالمعتزِلةُ وافَقوا الخوارجَ على حُكمِهم في الآخرةِ، فعندَهم أنَّ مَن أتى كبيرةً فهُوَ خالدٌ مخلَّدٌ في النَّارِ لا يَخرجُ منها لا بشفاعةٍ ولا بغيرِ شفاعةٍ، **أمَّا في الدُّنْيَا** فالخوارجُ حَكَموا بكفرِ العاصي واستحَلُّوا دَمَه ومالَه، وأمَّا المعتزِلةُ فحَكَموا بخروجِه مِن الإيمانِ ولم يُدخِلُوه في الكفرِ، ولم يستحِلُّوا منه ما استحلَّتْهُ الخوارجُ، **وعلى هذا فالخوارجُ والمعتزلةُ اتفقوا على شيئين واختلفوا في شيئين في هذا الباب**

فاتفقوا على:

١.نفيِ الإيمان عَمَّنْ فعل الكبيرةَ

٢.خلودِه الأبديّ في جهنمَ وأن الشفاعة لاتنفعه .

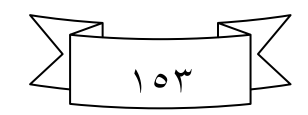
واختلفوا في أمرين:

١.أن الخوارجَ قالوا:إنه كافر في الدنيا أما المعتزلة فقالوا:في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر .

٢.أن الخوارجَ قالوا:كافرٌ حلالُ الدمِ والمالِ أما المعتزلةُ فلم يُحِلُّوا دمَه ومالَه لأنهم لم يحكموا عليه بالكفر في الدنيا .

وقابلَتُهم المُرْجِئةُ والجهميَّةُ ومَن اتَّبعَهُم، فقالوا: ليس مِن الإيمانِ فِعلُ الأعمالِ الواجبةِ، ولا تَرْكُ المحظوراتِ البَدَنيَّةِ، فإنَّ الإيمانَ لا يَقبلُ الزِّيادةَ ولا النُّقصانَ، بل هُوَ شيءٌ واحدٌ يَستوي فيه جميعُ المؤمنينَ مِن الملائكةِ والمقتَصِدينَ والمقرَّبينَ والظَّالِمينَ.

فالمُرْجِئةُ يقولون: الإيمانُ مجرَّدُ التَّصديقِ، والجهميَّةُ يقولون: مجرَّدُ المعرفةِ، **أما الأعمالُ** فكلاهم يقول بأنها ليست مِن الإيمانِ، فإيمانُ أفسقِ النَّاسِ كإيمانِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وقالوا: لا يَضُرُّ مع الإيمانِ ذنبٌ.



فالخوارجُ والمعتزلةُ غَلَوْا، والمُرْجِئةُ والجهميَّةُ جَفوا، وهَدى اللَّهُ أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ للقولِ الوَسَطِ، وهُوَ أنَّ الإيمانَ والدِّينَ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، وأنَّه يَزيدُ ويَنقُصُ إلى غيرِ ذلك مما تقدم بيانه .

فإن قيل من هم الحرورية والمعتزلة ؟

ج: **الحروريَّةُ**: هم الخوارجُ،وسُمُّوا حروريَّةً نسبةً إلى قريةِ حَروراءَ وهي قريةٌ بالعراقِ قريبةٌ مِن الكوفةِ اجتمعوا فيها حين خرجُوا على عليٍّ رضي اللَّهُ عنه فسُمِّيَ الخوارجُ حَروريَّةً.

وأمَّا المعتزِلةُ فهم أصحابُ واصلِ بنِ عطاءٍ الغزَّالِ، اعتزلَ عن مجلِسِ الحسَنِ البصريِّ، وأخَذَ يقرِّرُ أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ لا مؤمنٌ ولا كافرٌ، ويُثبِتُ له المنزِلةَ بَيْنَ المنزلتَيْن. فقال الحسَنُ:"قد اعتزلنا واصل".

ويُلقَّبُون بالقَدَريَّةِ لإسنادِهم أفعالَ العِبادِ إلى قُدْرتِهم، وقالوا: إنَّ مَن يقولُ بالقدَرِ خيرِه وشرِّه مِن اللَّهِ أولى باسمِ القَدَريَّةِ، ويردُّه قولُه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ:((القَدَريَّةُ مَجوسُ هَذِهِ الأمَّةِ)).

ولَقَّبوا أنفُسَهم بأصحابِ العدلِ والتَّوحيدِ، لقولِهم بوُجوبِ الأصلحِ على اللَّهِ، وقولِهم: بنَفْيِ الصِّفاتِ، وبأنَّ كلامَه مخلوقٌ مُحدَثٌ، وبأنَّه غيرُ مَرئيٍّ في الآخرةِ، ويجِبُ عليه رعايةُ الحكمةِ في أفعالِه، وثوابُ المطيعِ والتَّائبِ، وعِقابُ صاحبِ الكبيرةِ، ثم افترَقوا عشرين فِرقةً يكفِّر بعضُهم بعضا.

وَقَوْلُهُ:(وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَ الْخَوَارِجِ) .

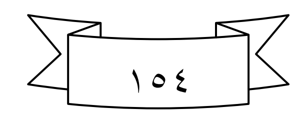
أهل السنة والجماعة وسط في أصحاب النبي ﷺ بين الرافضة والخوارج،فالخوارجُ والرَّافضةُ في أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم في طرَفَيْ نَقيضٍ.

فالرَّافضةُ غَلَوْا في عليِّ بنِ أبي طالبٍ وأهلِ البيتِ، **وكفَّروا** جميعَ الصَّحابةِ كالثَّلاثةِ، ومَن وَالاهُم وفسَّقُوهم، ويكفِّرون مَن قاتلَ علِياً، ويقولون إنَّ علياً إمامٌ معصومٌ، **وقالوا:** لا ولاءَ إلا ببراءٍ، أيْ لا يتولَّى أحدٌ علياً حتى يتبرَّأَ مِن أبي بكرٍ وعمرَ.

وأمَّا الخوارجُ فإنهم **يكفِّرون علياً** وعثمانَ ومَن وَالاهُما وكفروا كثيراً من الصحابة وقاتلوهم واستحلوا دماءَهم وأموالَهم، **وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ** فتوسطوا في الصَّحابةِ وقالوا قولا وسَطًا فلم يَغْلُوا غُلُوَّ الرَّافضةِ، ولم يَجْفُوا كالخوارجِ، بل وَالَوْا جميعَ الصَّحابةِ وأَحَبُّوهم وعرَفُوا فضْلَهُم وأنْزَلُوهم مَنازِلَهُم التي يستحِقُّونها،واعتقدوا فيهم أنَّهم أفْضلُ هَذِهِ الأمَّةِ عِلماً وعَملاً بعد نبيها، فرِضوانُ اللهِ عليهم أجمعين.

فإن قيل من هم الرافضة والخوارج ؟

ج: **الرَّافضةُ:** أسم مأخوذ من الرَّفْضِ وهُوَ التَّرْكُ، سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لأنَّهم قالوا لِزَيدِ بنِ عليِّ بنِ الحُسينِ بنِ أبي طالِبٍ: "تبرَّأْ مِن الشَّيخَيْنِ أبي بكرٍ وعُمرَ رضي اللَّهُ عنهما" فقال: "معاذَ اللَّهِ، وَزِيرا جَدِّي" فتركوه ورَفضوه، فسُمُّوا رافِضةً،



والنِّسبةُ رافضيٌّ، والرَّافِضةُ فِرقٌ شتَّى، قد تكفَّلَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ بنُ تيميَةَ ببيانِ مذهبِهم والردِّ عليهم في كتابِه (منهاجِ السُّنَّةِ) ويُلقَّبون بالشِّيعةِ، **وكان هَذَا اللَّقَبُ في الأصلِ كما يقال إن ثبت هذا أنه للذين ألفوا عليا** رضي الله عنه في حياتِه كسلْمانَ وأبي ذَرٍّ والمقدادِ وعمارٍ وغيرِهم، **ثم صار بعد ذلك لقبًا على مَن يرى تفضيلَه على كُلِّ الصَّحابةِ**، ويرى أمورًا أُخْرى لا يَرضاها عليٌّ ولا أَحدٌ مِن ذُرِّيَّتِه ولا غيرِهم ممَّن يُقتدَى به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"سُمُّوا بالشِّيعةِ لما افْترَقَ النَّاسُ فِرقتَيْنِ: فرقةٌ شايَعتْ أولياءَ عثمانَ، وفرقةٌ شايَعتْ عليًّا رضي اللَّهُ عنه" **(منهاج السنة النبوية ٢/ ٩١)**.

وقال رحمه الله: "ولم يكونوا يُسَمَّوْن رافضةً في ذلك الوقتِ، وإنَّما سُمُّوا رافضةً لما خرجَ زيدُ بنُ عليِّ بنِ الحسينِ في الكوفةِ في خلافةِ هشامِ بنِ عبدِ الملِكِ، فسألَتْهُ الشِّيعةُ عن أبي بكرٍ وعُمرَ فترَحَّم عليهما فرَفَضَه قومٌ. فقال: رفضتموني فسُمُّوا رافضةً، وتولاَّه قومٌ فسُمُّوا زَيْديَّةً لانتسابِهم إليه" **(منهاج السنة النبوية ٢/ ٩٦)**

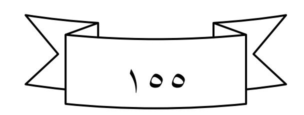
وأوَّلُ مَن ابتدعَ الرَّفضَ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: **عبدُ اللَّهِ بنُ سبأٍ**،وكان منافقًا زِنديقًا أرادَ إفسادَ دينِ الإسلامِ، **كما فَعلَ بولس** صاحبُ الرسائلِ التي بأيدي النَّصارى، حَيْثُ ابتدعَ لهم بِدعًا أفسَدَ بها دِينَهم وكان يهوديًّا فأظْهَرَ النَّصرانيَّةَ نفاقًا لقَصدِ إفسادِ مِلَّتِهم، وَكَذَلِكَ كانَ ابنُ سبأٍ يهوديًّا من أهل صنعاء فأظْهرَ الإسلامَ والتَّنسُّكَ والأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكرِ، ليتمكَّنَ بِذَلِكَ مِن أغراضِه الفاسدةِ، فسعى في فتنةِ عثمانَ بنِ عفَّانَ وقتْلِه، ثم لما قَدِمَ الكوفةَ أظْهَرَ الغُلُوَّ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ، فبَلَغ ذلك علياً فطلَبه ليَقتُلَه فهرب إلى قرقيسا. **(الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١/ ٧١ بتصرف)**

وأمَّا الخوارجُ فسُمُّوا بِذَلِكَ لخُروجِهم على عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي اللَّهُ عنه ومفارقَتِهم له، وقد ثَبَتَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((تمرُقُ مارِقةٌ على حينِ فُرْقةٍ مِن النَّاسِ، تقتُلُهم أوْلى الطَّائفتَيْنِ بالحَقّ)) فخَرجوا في زَمَنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي اللَّهُ عنه فقتَلَهُم عليٌّ وطائفتُه.

وقال صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في حقِّهم: ((يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، يَقْرَؤُونَ الْقُرآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجراً عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ)).

وفي التِّرْمِذِيِّ عن أبي أمامةَ الباهِليِّ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في الخوارجِ: ((إِنَّهُمْ كِلاَبُ أَهْلِ النَّارِ)) وقرأ هَذهِ الآية (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ).

وقال الإمامُ أحمدُ: "**صحَّ الحديثُ في الخوارجِ مِن عشَرةِ أوجُهٍ**". وقد خرجَّها مسلمٌ في "صحيحِه"، وخرَّجَ البخاريُّ طائفةً منها، **وقد اتَّفقَ الصَّحابةُ على قِتالِهم**.



وقال الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:"**الخوارجُ هم أوَّلُ مَن كفَّرَ المسلِمِينَ بالذُّنوبِ، ويكفِّرونَ مَن خالَفهم في بِدْعَتِهم، ويَستحِلُّون دمَه ومالَه....وأوَّلُ بدعةٍ حَدَثتْ في الإسلامِ بدعةُ الخوارجِ والشِّيعةِ** حدثتا في أثناءِ خلافةِ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، فعاقَبَ الطَّائفتَيْنِ، أمَّا الخوارجُ فقاتَلُوه فقتَلَهم، وأمَّا الشِّيعةُ فحرَّقَ غاليتَهُم بالنَّارِ، وطلبَ قتْلَ عبدِ اللَّهِ بنِ سبأٍ فهرَبَ منه، وأمَرَ بجَلْدِ مَن يُفضِّلُه على أبي بكرٍ وعمَرَ، وروي عنه من وُجوهٍ كثيرةٍ، أنَّه قال: خيرُ هَذِهِ الأمَّةِ بعد نبِّيها أبو بكرٍ وعمرُ. ورواهُ عنه البخاريُّ في صحيحِه" (**مجموعة الرسائل والمسائل (٥/ ٢٣٩)**

....

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَن رَّسُولِهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ.

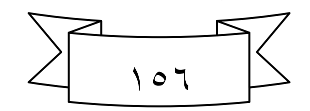
....

مما يدخل في الإيمانِ باللَّهِ: الإيمانُ بعُلُوِّه وفوقيَّتِه واستوائِه على العرشِ جل وعلا، فمَن لم يؤمِنْ بعُلُوِّه وفوقيَّتِه واستواءِه على عرشه لم يؤمِنْ به، ولم يُصَدِّقْ رُسلَه، ولم يؤمِنْ بكتابِه، وبما جاء به رسولُه مُحَمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ. قال سبحانه: (وهو العلي العظيم) وقال:(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ). وقولُه: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِن فَوْقِهِمْ) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الآياتِ الصَّريحةِ في إثباتِ العُلُوِّ التَّامِ بجميعِ أنواعِه والفَوقِيَّةِ، **وقد تَقدَّمَ ذِكرُ أنواعِ العُلُوِّ والفَوقِيَّةِ والإستواء، وأدلَّةُ إثباتِ العُلُوِّ والفوقيَّةِ متواتِرةٌ، وانضمَّ إلى ذَلِكَ شهادةُ الفِطَرِ والعُقولِ المستقيمةِ والنُّصوصِ الواردةِ الدَّالَّةِ على عُلُوِّ اللَّهِ، وكَونِه فوقَ عِبادِه تَقْرُبُ مِن عشرين نوعًا، وإفرادُ هَذِهِ الأنواعِ لو بُسِطَتْ لبَلَغَتْ نحوَ ألْفِ دليلٍ** كما ذَكَرَه ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرُه. (**انظر:إعلام الموقعين ٢/ ٢١٧)**

قال ابنُ خزيمةَ رحمه الله:"مَن لم يُقِرَّ بأنَّ اللَّهَ على عرشِه استوى فوقَ سبعِ سماواتٍ، وأنَّه بائِنٌ مِن خَلقِه، فهُوَ كافِرٌ يُستتابُ، فإنْ تابَ وإلاَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه، وأُلْقِيَ على مِزْبلةٍ لئلاَّ يتأذَّى برِيحِه أهلُ القِبلةِ وأهلُ الذِّمَّةِ" ذكره الحاكم بسند صحيح في كتابيه: معرفة علوم الحديث والتاريخ..

والتَّواتُرُ لغةً: التَّتابُع بِعُلُوٍّ. **واصطلاحًا**: ما رواه جماعة يستحيل في العادة تواطئهم على الكذب وأسندوه إلى شيء محسوس. فأدلة إثبات العلو والفوقية من الأدلة المتواترة التي لا ينكرها إلا من ضل السبيل.

ودل أيضاً على إثبات العلو والفوقية إجماع سلف الأمة من السَّلَفُ الصَّالِحُ، وهم الصَّدْرُ الأوَّلُ مِن التَّابِعينَ وغيرِهم، الذين هُم حَمَلةُ الشَّريعةِ، ونَقَلَةُ الدِّينِ على التَّحقيقِ: قال أبو عُمرَ الطلمنكيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :" أجمعَ أهلُ السُّنَّةِ على أنَّ اللَّهَ على عرشِه على الحقيقةِ لا على المجازِ"، ثم ساقَ بِسَنَدِه عن مالِكٍ قولَه:" اللَّهُ في السَّماءِ وعِلمُه في كُلِّ مكانٍ"، ثم قال:" أجمعَ المسلِمونَ مِن أهلِ السُّنَّةِ أنَّ معنى قولِه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) ونحوِ ذَلِكَ مِن القرآنِ: أنَّ ذَلِكَ عِلمُه، وأنَّ اللَّهَ فوقَ السَّماواتِ بِذاتِه مُسْتوٍ على عرشِه"



وهَذَا كثيرٌ في كلامِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ والأئمَّةِ، فأثبتُوا ما أثْبَتَهُ اللَّهُ في كتابِه وعلى لِسانِ رسولِه على الحقيقةِ على ما يَلِيقُ بجلالِ اللَّهِ وعظَمَتِه.

....

وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لاَ تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيهِ السَّلَفُ وَخِلافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيهِ الْخَلْقِ، بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ .

....

بعد ما بين المصنف رحمه الله أن من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله في كتابه وسنة ورسوله وثبت به الإجماع من إثبات علو الله وفوقيته، بين أنه جل وعلا مع عِبادِه بعِلمِه وإحاطَتِه واطِّلاعِه ومُشاهَدَتِه، لا يَخفَى عليه منهم شيءٌ،**وأنه لا تنافي بين عُلُوِّه وفوقِيَّتِه واستواءه على عرشه وبين معيته لخلقه**، فإنَّه جَمَعَ بينهما في قولِه: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...)، كما أشارَ إلى ذَلِكَ المصنِّفُ بقولِه:

(كما جَمَعَ بين ذَلِكَ في قولِه: (وهُوَ الذي خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ) إلخ.

فأخبر سُبْحَانَهُ أنَّه خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وأنَّه استوى على عرشِه، وأنَّه مع خَلقِه يُبصِرُ أعمالَهم مِن فوقِ عرشِه، **فعُلُوُّه سبحانَهُ وتعالَى لا يُناقِضُ معيتَّه، ومعيتُّه لا تُبطِلُ عُلُوَّه بل كِلاهما حَقٌّ.**

وَهَذِهِ الآيَةُ مِن أدلِّ الأدلة الدالة على مُبايَنةِ الرَّبِّ لخَلقِه، فإنَّه لم يخلُقْهم في ذاتِه، بل خَلقَهُم خارجًا عن ذاتِه، ثم بانَ عنهم باستوائِه على عرشِه، وهُوَ يَعلمُ ما هم عليه.

وفيها إثباتُ عِلمِه، وإحاطته جل شأنه بالكُلِّيَّاتِ والجُزئِّياتِ، وبما كان وما يكونُ، وما لم يَكنْ، لو كان كيف يكونُ. **وفيها الرَّدُّ على مَن زَعَم أنَّ الاستواءَ مجازٌ**، وأنَّ معنى استوى استولى؛ لأنَّ اللَّهَ قال: استوى في عِدَّةِ مواضِعَ، والاستواءُ غيرُ الاستيلاءِ، فإنَّ الاستواءَ معناه العُلُوُّ والارتفاعُ، وأمَّا الاستيلاءُ فلا يكونُ إلا بعدَ مغالَبةٍ، ولأنَّه سُبْحَانَهُ خَصَّ العرشَ بالاستواءِ، ولو كان المرادُ الاستيلاءُ لم يَخُصَّه؛ لأنَّه مستولٍ على الخلقِ جميعِهم، وقد رُدَّ تأويلُ الاستواءِ بالاستيلاءِ مِن وجوهٍ عديدةٍ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أنهاها إلى اثنَيْنِ وأربعينَ وجْهًا، وقد تَقدَّمَ ذِكرُ بعضِها، وفي الآيةِ فوائدُ غيرُ ما ذُكِرَ، قد تَقدَّمَت الإشارةُ إليها في الكلامِ على الآياتِ.

ومن لُبس عليه وظن أن معية الله لخلقه تعني الإختلاط والإمتزاج بهم أو أنه حالٌّ فيهم **أو أنه في كُلِّ مكانٍ بذاتِه** إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأقوالِ المبتدَعةٌ **فيرد عليه من وجوه** :

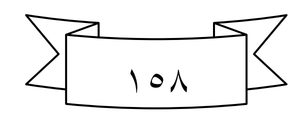
١- أن هَذَا مما لا تُوجِبُه اللُّغةُ العربية حيث إن (مع) لا تفيد ولا توجب اختلاطا أو امتزاجًا أو مجاورة، فإنَّ (مع) في كلامِ العربِ للصُّحبةِ اللاَّئِقةِ ومطلق المصاحبة التي لا تُشْعِرُ بامتزاجٍ، ولا اختلاطٍ، ولا مماسَّةٍ، ولا مجاورةٍ، فتقولُ: زوجتي معي، وهي في مكانٍ وأنتَ في مكانٍ، ويقال: ما زِلْنا نَسيرُ والقمرُ معنا وهو في السماء ويكون مع المسافر وغير المسافر أينما كان . وإذا صح أن يقال هذا في حق القمر وهو مخلوق صغير، فكيف لا يقال في حق الخالق الذي هو أعظم من كل شيء ؟ وقال تعالى: (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ). فليس في هَذَا ما يَدُلُّ على الاختلاطِ والامتزاجِ،وليس في ذَلِكَ ما يَدلُّ على أنَّ ذاتَه فيهم، ولا مُلاصِقةً لهم ولا مُجاوِرةً بوجهٍ مِن الوُجوهِ، وغايةُ ما تَدلُّ عليه المصاحَبةُ، وهي في كُلِّ موضعٍ بحسَبِه.

٢- أن هذا خلافُ ما أَجمعَ عليه سَلَفُ الأمَّةِ من الصحابة والتابعين وتابعيهم (وهم القرون المفضلة)، فإنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ أجمعوا على أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مُستوٍ على عرشِه، عالٍ على خَلقِه، بائنٌ منهم ليس في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، ولا في مخلوقاتِه شيءٌ مِن ذاتِه، كما تواتَرَتْ بِذَلِكَ الأدِلَّةُ،وقد تَقَدَّمَ ذِكرُ إجماعِ السَّلَفِ على معنى قولِه: (وَهُوَ مَعَكُمْ) أنَّه معهم بعِلمِه، وقال الآجُرِيُّ رحمه الله : " فإنْ قال قائلٌ فما معنى قولِه: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ...) قِيل له: عِلمُه معهم، واللهُ على عرشِه، وعِلمُه محيطٌ بهم، كذا فسَّرَهُ أهلُ العِلمِ، والآيةُ تدلُّ أوَّلُها وآخِرُها على أنَّه العِلمُ، وهُوَ على عرشِه، هَذَا قولُ المسلِمِينَ" **(الشريعة للآجري ٣/ ١٠٧٦)**.

٣- أنَّ هذا خِلافُ ما فَطَرَ اللهُ عليه الخَلقَ أي: ركزه في قلوبهم ، فإنَّ الخَلقَ فُطِروا على الإقرارِ بعُلُوِّه سُبْحَانَهُ على خَلقِه، ولِماسأَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الجاريةَ: ((أَيْنَ اللَّهُ؟)) قالت: في السَّماءِ.

وقال يزيدُ بنُ هارونَ: عندما قيل له من الجهمية ؟ فقال : " مَن زعَم أنَّ الرَّحمنَ على العرشِ استوى على خلافِ ما تَقرَّرَ في قلوبِ العامَّةِ فهُوَ جَهْمِيٌّ".

قالَ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ :"والذي تَقرَّرَ في قلوبِ العامَّةِ هُوَ ما فَطَرَ اللهُ عليه الخليقَةَ مِن تَوجُّهِها إلى ربِّها عندَ النَّوازِلِ والشَّدائدِ والدعاء والرغبات إليه تعالى نحوَ العُلُوِّ، لا تَلْتَفِتُ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، مِن غيرِ مُوقِفٍ وقَفَهم عليه- أي: من غير أن يرشدهم إلى ذلك أحد - ،ولكنَّ فِطرةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وما مِن مولودٍ إلاَّ وهُوَ يُولدُ على هَذهِ الفِطرةِ حتى يُجهِّمَهُ ويَنقُلَهُ إلى التَّعطيلِ مَن يُقيِّضُ له " نقله عنه ابن القيم رحمه الله في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢١٤)



٤- أن هذا خلاف ما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله من أنه سبحانه وتعالى على عرشه علي على خلقه وهو معهم أينما كانوا.

....

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِم إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ .

....

تَقدَّمَ الكلامُ على الأدلَّةَ الدالة على إثبات عُلُوِّ اللّهِ وفوقِيَّتِه وبلوغها حَدَّ التَّواتُرِ، وأنه تَواطأ على ذَلِكَ دليلُ العقلِ والفِطرةِ.

وجاءت الأدلة أيضاً بإثبات إطلاع الله على خلقه ومراقبته لهم قال اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) والرقيبُ من أسماء الله والمراد به:الحافظ المطلع على خوافي الأمور.

وفي الآية الإرشادُ والحثُّ على مراقَبَةِ اللّهِ، واستحضارِ قُربِه، كما في الحديثِ: ((أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ)).

وكما أن الله تبارك وتعالى مطلع على عباده رقيب عليهم فهو أيضاً مهيمن عليهم، **والمهيمن هو كما قال ابنُ عباسٍ وغيرُ واحدٍ من السلف: الشَّاهِدُ على خَلقِه بأعمالِهم**، بمعنى هُوَ رقيبٌ عليهم، كقولِه سُبْحَانَهُ: (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

إلى غيرِ ذَلِكَ مِن معاني رُبوبِيَّتِه فإن مقتضى رُبُوبِيَّتَه سُبْحَانَهُ إنَّما تَتحقَّقُ بكونِه فَعَّالا مُدَبِّراً متصرِّفاً في خَلقِه، يَعلَمُ ويُقدِّرُ، ويَسمعُ ويُبصِرُ، فإذا انْتفَتْ أفعالُه وصِفاتُه انتفَتْ رُبُوبِيَّتُه.

....

وَكُلُّ هَذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ – مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا – حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لاَ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ.

....

هنا بين الشيخ رحمه الله أن كل ما تقدم بيانه من الأدلة الدالة على أن الله جل وعلا فوق عرشه وهو معنا أين ماكنا وأنه لا تنافي بين ذلك حق على حقيقته يجب الإيمان به لِتَواطُؤِ الأدلَّةِ على إثباتِه،لا يحتاجُ إلى تحريفٍ **وفي هذا إشارةٌ للرَّدِّ على المُعطِّلةِ الذين حرَّفُوا الأدلَّة وسَمَّوْا تحريفَهم تأوِيلا**، تَروِيجاً على الجُهَّالِ، وهُوَ في الحقيقةِ

تبديلٌ وتغييرٌ لكلامِ اللَّهِ ورسولِه، فإنَّ ما جاء مِن الأدلَّةِ في إثباتِ العُلُوِّ والفَوقِيَّةِ وغيرِ ذَلِكَ مِن الصِّفاتِ صريحُ اللَّفظِ، واضِحُ المعنى، نَصٌّ في معناه لا يَحتمِلُ التَّأويلَ.

وفي كلامه أيضاً رحمه الله إشارةٌ للردّ على المعطِّلةِ مِن الجهميَّةِ والمعتزلةِ وأشباهِهم الذين يَزعمُونَ أنَّ ما جاءَ مِن ذِكرِ فَوقِيَّتِه وعُلُوِّه واستوائِه على عرشِه ليس بحقيقةٍ، وإنَّما هُوَ مجازٌ، وما زَعموه باطلٌ مصادِمٌ لأدلَّةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ الصَّريحةِ، وإجماعِ السَّلَفِ على أنَّ ذَلِكَ حقيقةٌ كما يَلِيقُ بجلالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وعظَمَتِه.

هذا هو الحق الذي يجب بيانه والإيمان به،**والحقُّ في اللُّغةِ**: هُوَ الثَّابِتُ الذي لا يُسَوِّغُ إنكارُه، **وفي اصطلاحِ أهلِ المعاني**: "هُوَ الحُكمُ المطابِقُ للواقِعِ، يُطلَقُ على الأقوالِ والأديانِ والعقائدِ والمذاهِبِ باعتبارِ اشتِمالِها على ذَلِكَ، ويُقابِلُه الباطلُ، انتهى" **(تعريفاتٌ)**.

وهذا الحق الذي تقدم ذكره من أن الله فوق عرشه وأنه معنا يجب أن يصان ويُحفَظُ عن الظُّنونِ الكاذبةِ والظَّنُّ خلافُ اليَقِينِ،وقد يُستعمَلُ بمعنى اليَقِينِ كقولِه سبحانَه: (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُواْ اللّهِ) .

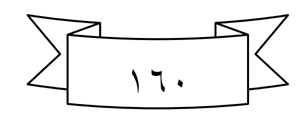
فلا يظن مثلاً أن ظاهر قولِه: (أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السَّماءِ) وقولِ الجاريةِ لمَّا سألَها النَّبِيُّ –صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ– أين الله قالت: ((في السَّماءِ)) فلا يظن في مثل هذا أن السماء تقله أي: تحمِلُه وتَرفَعُه،**أو يظن أنها تُظِلُّه** أي: تَسترُه من فوق،عندما ينزل إلى السماء الدنيا أو إذا كان مستوي على العرش، **فهَذَا الظن ظَنٌّ كاذب وشبهة فاسدٌة وخطأ ظاهر لأمرين:**

١- أن هذا الظن باطل بإجماع أهل العلم والإيمان.

٢- أن هذا الظن مصادِمٌ لأدلَّةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ الصَّريحةِ الدَّالَّةِ على عُلُوِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وفَوقِيَّتِه، وعلى أنَّه فوقَ عرشِه حقيقةً، بائنٌ مِن خَلقِه لا يَحِلُّ فيهم ولا يَختلِطُ، فليس في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، ولا في مخلوقاتِه شيءٌ مِن ذاتِه، مَن زعَم غيرَ ذَلِكَ فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوْءِ وتَنَقَّصَه غايةَ التَّنقُّصِ.

٣- أن قوله تعالى : { أأمنتم من في السماء } إن أريد بالسماء السماء المبنية (ففي) بمعنى (على) أي : على السماء كقوله : { لأصلبنكم في جذوع النخل } أي : على جذوع النخل فيكون المعنى: أن الله على السماء . وإن أريد بالسماء العلو كان المعنى (في السماء) أي : في العلو فيكون المعنى: أن الله في العلو؛ أي: في جهة العلو، والسماء بمعنى العلو ثابت في القرآن. قال الله تعالى: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} ؛ أي: من العلو لا من السماء نفسها؛ لأن المطر ينزل من السحاب.

وقال الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ –رَحِمَهُ اللَّهُ–:" فأهلُ السُّنَّةِ إذا قالوا: إنَّه فوقَ العرشِ، أو أنَّه في السَّماءِ لا يقولون: إنَّ هناكَ شيءٌ يحويه أو يَحصُرُه ويكونُ مَحلاً له أو ظَرْفا أو وِعاءً، تعالى اللَّهُ عن ذَلِكَ، بل هُوَ فوقَ كُلِّ شيءٍ، وهُوَ مُستغْنٍ عن كُلِّ شيءٍ، وكُلُّ شيءٍ مفتقِرٌ إليه، وهُوَ عالٍ على كُلِّ شيءٍ، وهُوَ الحامِلُ للعرشِ ولحمَلَةِ العرشِ بقُوَّتِه



وقُدرتِه، وهُوَ غَنِيٌّ عن العرشِ وعن كُلِّ مخلوقٍ،ومافي الكِتابِ والسُّنَّةِ مِن قولِه: ((في السَّماءِ)) قد يَفهَمُ منه بعضُهم أنَّ السَّماءَ نَفْسُ المخلوقِ العالي العرشَ فما دونَه، فيقولون إنَّ قولَه: ((في السَّماءِ))، بمعنى " على السماء كما قال: (لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) أي: على جذوع النخل...ولا حاجةَ لهَذا، بل السَّماءُ اسم جِنسٌ للعالي لا يَخصُّ شيئا، فقولُه: ((في السَّماءِ))، أي العُلُوُّ دُون السُّفْلِ، وهُوَ العليُّ الأعلى، فله أَعْلى العُلُوِّ، وهُوَ ما فوقَ العرشِ، وليس هناك غيرُ العليِّ الأعلى سُبْحَانَهُ". (مجموع الفتاوى ١٦/ ١٠١)

فالجهميَّةُ وأشباهُهم لا يَصِفونه سُبْحَانَهُ بالعُلُوِّ، بل إمَّا أنْ يَصِفُوه بالعُلُوِّ والسُّفولِ، وإمَّا أنْ يَنْفُو عنه العُلُوَّ والسُّفولَ، فهُم نوعانِ: قِسمٌ يقولون: إنَّه في كُلِّ مكانٍ بذاتِه. والقِسمُ الآخَرُ يقولون: إنَّه لا داخِلَ العالَمِ ولا خارِجَه، فالقِسمُ الأوَّلُ وَصَفُوه بالحُلولِ في الأمكِنةِ ولم يُنَزِّهُوه عن المَحالِّ المستَقْذَرةِ، والقِسمُ الثَّاني وَصَفوهُ بالعَدَمِ – تعالى اللَّهُ عن قولِهم عُلُواًّ كبيرًا. (أنظر:مجموع الفتاوى ١٦/ ١٠٠)

فإن قيل ما الرد على زعم الفرق الضاله من أنه لا يصح إثبات صفة الفوقية لله تعالى وأن هذا من قبيل المجاز؟

ج: تكلم أهل العلم عن هذه المسألة وبينوا الرد على من ضل فيها ومن أبرز من رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصَّواعِقِ"وساقَ أدلَّةً كثيرةً على إثباتِ الفَوْقيَّةِ الكاملةِ مع جميعِ الوجوهِ ومن ذلك:

١- أنَّ الأصلَ الحقيقةُ، والمجازُ على خلافِ الأصلِ.

٢- أنَّ الظَّاهِرَ خلافُ ذَلِكَ.

٣- أنَّ الاستعمالَ المجازيَّ لا بدَّ فيه مِن قرينةٍ تُخرجُه عن حقيقتِه فأَيْنَ القَرينةُ في فوقيَّةِ الرَّبِّ؟

٤- أن هذا ما دل عليه الكتاب والسنة والغجماع والفطرة العقل السليم.

قال أبو عُمرَ الطلمنكيُّ: "أَجمَعَ أهلُ السُّنَّةِ على أنَّ اللَّهَ استوى على عَرشِه على الحقيقةِ لا على المجازِ"(الوصول إلى معرفة الأصول ٥٧).

وقال الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "النُّفاةُ للعُلُوِّ ونحوِه مِن الصِّفاتِ مُعترِفون بأنَّه ليس مستَنَدَهم خبرُ الأنبياءِ، ولا الكتابُ، ولا السُّنَّةُ، ولا أقوالُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، ولا مستَنَدَهُمْ فِطرةُ العقلِ وضرورتُه، ولكنْ يقولون معنا النَّظَرُ العقليُّ، وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ المثبِتون للعُلُوِّ فيقولون: إنَّ ذَلِكَ ثابتٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، مع فِطرةِ اللهِ التي فَطَرَ العِبادَ عليها، وضرورةِ العقلِ مع نَظَرِ العقلِ واستدلالِه". (مجموع الفتاوى ١٦/ ١١٠)

....

فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ ﴿ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا ﴾، ﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ ﴾؛ ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ ﴾

....

لَمَّا ذَكَرَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ العُلُوَّ والفَوقِيَّةَ، وأنَّهما حقيقةٌ ثابتةٌ لِلَّهِ على ما يَليقُ بجلالِه وعظَمَتِه أَوْرَدَ بعد ذَلِكَ الأدلة الدالة على عظمته وغناه عن خلقه وحاجة خلقه إليه، ومن مخلوقاته كرسيه الذي وسع السَّماواتِ والأرضَ أي: مَلأَ وأحاطَ، والكرسيُّ مخلوقٌ عظيمٌ بين يَدَيِ العرشِ، وهُوَ أعظمُ مِن السَّماواتِ والأرضِ والعرش أعظم منه، فإذا كانت السَّماواتُ والأرضُ أصغر من الكرسي والكرسي أصغر من العرش،والله أعظم من كل شيء، فكَيْفَ تحويه السَّماواتُ والأرضُ، أو تَحوطُه أو تُقِلُّه أو تُظِلُّه ؟ !

ومثل ذلك قولُه: (وهُوَ يُمسِكُ السَّماواتِ والأرضَ أنْ تَزُولا) أيْ: أنْ تَضطرِبا عَن أماكِنِهما.،وقولُه: (ويُمسِكُ السَّماء أنْ تَقَعَ على الأرضِ إلا بإذْنِه) أيْ: إلاَّ بأمْرِه ومشيئَتِه. وفي الصَّحيحَيْنِ عن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يومَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّماءَ بِيَمِينِهِ، ثم يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ ؟)).ومثله أيضاً قولُه: (ومِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ والأرْضُ بأَمْرِهِ) أي: مِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وُجودِه سُبْحَانَهُ وعظيمِ قُدرتِه قيام السماء والأرض بأمره خضوعا له ورهبة وطاعة.

فَهذِهِ الآياتُ صريحةٌ في أنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ ليس هُوَ عَينَ هَذهِ المخلوقاتِ ولا صفةً ولا جُزءًا منها بل هي صريحةٌ في أنَّه مُباينٌ لها، وأنَّه ليس حالاً فيها، ولا محلاً لها، فإنَّ الكرسيَّ في العرشِ كحَلْقةٍ مُلقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، والعرشُ مِن مخلوقاتِ اللَّهِ، لا نِسبةَ له إلى قدرةِ اللَّهِ وعظَمَتِه، فكَيْفَ يُتوهَّمُ بعدَ هَذَا أنَّ خَلْقاً يحصُرُه أو يحويه ؟ **فالسموات والأرض بحاجة إليه وهو الذي يمسكها أن تزولا أو أن تقع وهي تحت أمره. فلا يعقل مع هذا أن يكون سبحانه بحاجة إليها لتقله أو تظله،** تعالى الله عن هذا الظن الباطل علوا كبيرا .

....

فصل : وَقَد دَّخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ مُجِيبٌ؛ كَمَا جَمَعَ بينَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ وَقَوْلِهِ ﷺ :(إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِّن عُنقِ رَاحِلَتِهِ)

وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لاَ يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

....

هذا الفصل عقده الشيخ رحمه الله **ليبين أن من الإيمان بالله الإيمان بقربَ الله جل وعلا من خلقه إجابته لهم عند دعائهم وعدمَ تنافي ذلك مع علوه وفوقيته** سبحانه لأنه ليس كمثله شيء جل شأنه .

وقد جمع سبحانه وتعالى بين قربه وإجابته في قوله تعالى : { وإذا سألك عبادي عني }. **وسببُ نزولِ الآيةِ** أنَّ أعرابيًّا قال: يا رسولَ اللهِ، أقريبٌ ربُّنا فنُناجِيه أَمْ بعيدٌ فنُنادِيه؟ فسَكَتَ النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– فأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيةَ. رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ جريرٍ.

وروى الإمامُ أحمدُ عن أبي موسى قال: كُنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةٍ، فجعَلْنا لا نَصْعَدُ شَرَفاً ولا نَعْلُو شَرَفاً ولا نَهبطُ وادِيًا إلا رَفَعْنا أصواتَنا بالتَّكبيرِ، قال: فدَنَا منا فقال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غَائِباً، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ، يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً كُنُوزِ الجَنَّةِ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ)) خَرَّجاهُ في "الصَّحيحَيْنِ".

وقولُه: (ارْبَعُوا) معناه ارْفُقوا بأنْفُسِكم، واخفِضوا أصواتَكم، فإنَّ رَفعَ الصَّوتِ إنَّما يَفعَلُه الإنسانُ لبُعدِ مَن يخاطِبُه ليَسمَعُه، وأنتم تَدْعُونَ اللهَ، وليس هُوَ بأصمَّ ولا غائبا، بل هُوَ سميعٌ قريبٌ،وفي الخفَضَ تَوقِير له وتعظيمٍ، فإنْ دَعَت الحاجةُ إلى الرَّفعِ رَفَعَ كما في التَّلبِيةِ وغيرِها، فقد وَرَدَ الشَّرْعُ برَفعِه فيها.

وقولُه: (هُوَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ) المرادُ به قُربُ الإحاطةِ والعِلمِ، كما في قولِه: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ).

ومِن أسمائِه سُبْحَانَهُ القريبُ، وقُربُه سُبْحَانَهُ نوعانِ:

الأول:قُربٌ عامٌّ، وهُوَ إحاطةُ عِلمِه بجميعِ الأشياءِ كما في الحديثِ المتقدِّمِ.

وقيل: إنَّ المرادَ بذلك قُربُ ملائكَتِه منه، وأضافَ ذَلِكَ إلى نَفْسِه بِصيغةِ الجمعِ على عادةِ العظماءِ في إضافةِ أفعالِ عَبيدِها إليها، وبه قال ابن تيمية وتلميذه ابنُ القيِّمِ.

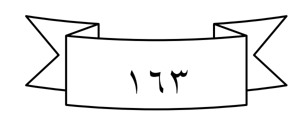
الثَّاني: قُرْبٌ خاصٌّ، ويَنقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ:

١- **قُربُه مِن داعِيه بالإجابةِ** كقولِه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي) ، ٢- **قُرْبُه مِن عابِدِه بالإثابةِ** كقولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ))..

وهَذَا القُربُ لا يُنافِي كمالَ مبايَنَتِه سُبْحَانَهُ لخَلقِه واستوائِه على عرشِه، بل يجامِعُه ويُلازِمُه، فإنَّه ليس كقُربِ الأجسامِ بعضِها مِن بعضٍ، تعالى اللهُ عن ذَلِكَ عُلُواًّ كبيرًا، ولكنَّه نوعٌ آخَرُ يختلف عما تتوهمه العقول.

واعلم أن إجابَتُه سبحانَهُ وتعالَى لمن دعاه على نوعين:

(الأوَّل) إجابةٌ عامَّةٌ لِكُلِّ مَن دَعاه دُعاءَ عِبادةٍ أو دُعاءَ مسألةٍ، كما قال: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ). فهَذَا يَقعُ مِن البَرِّ والفاجرِ، ويَستجيبُ اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ مَن دعاهُ بحسَبِ الحالِ المقتضِيَةِ، وبحسَبِ ما تقتضيه حِكمتُه سُبْحَانَهُ، وهَذَا مما يُستَدَلُّ به على كَرَمِ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وشُمولِ إحسانِه، ولا يَدلُّ على حُسْنِ حالِ



الدَّاعي إنْ لم يَقْتَرِنْ بِذَلِكَ ما يَدلُّ عليه، كسؤالِ الأنبياءِ ودُعائِهم على قَومِهم ولِقومِهم فيجيبُ سُبْحَانَهُ فإنَّه يدلُّ على صِدقِهم فيما أَخبَروا به، وكرامتِهم على اللَّهِ سُبْحَانَهُ وتعالى.

(الثَّاني) إجابةٌ خاصَّةٌ، ولها أسبابٌ عديدةٌ، منها: **دعوةُ المضْطرِّ**، قال اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) ومِنها: **طُولُ السَّفَرِ** ، **والتَّوسُّلُ إلى اللَّهِ** سُبْحَانَهُ بأَحَبِّ أسمائِه وصِفاتِه ونعَمِه، وَكَذَلِكَ **دَعوةُ المريضِ والمظلومِ والصَّائمِ والوالدِ على ولَدِه أو له، وفي الأوقاتِ والأحوالِ الفاضِلةِ.**

وفيما تَقدَّمَ رد على مَنْ زَعَم مِن المتصوِّفَةِ وأتباعِهم أنَّ الدُّعاءَ لا يَنفعُ، وقولُهم باطلٌ مردودٌ بأدِلَّةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ المتواتِرةِ، والعقلِ، وتجاربِ الأُمَمِ.

وينقسِمُ الدعاء إلى قسمينِ: دُعاءُ عبادةٍ ودُعاءُ مسألةٍ، فدُعاءُ المسألةِ "هُوَ طَلَبُ ما يَنفعُ الدَّاعي مِن جَلْبِ نفعٍ أو دَفعِ ضُرٍّ، وأمَّا دعاءُ العبادةِ فهُوَ سائرُ العباداتِ مِن تسبيحٍ وتهليلٍ وتكبيرٍ وصلاةٍ وغيرِ ذَلِكَ؛ لأنَّ العابِدَ سائلٌ في المعنى، فيكونُ داعيًا عابدًا.

وكل ما ذُكِرَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ مِن قُربِه لا يُناقض ما ذُكِرَ مِن عُلُوِّه وفوقِيَّتِه لأن الكل حق والحق لا يتناقض. فإنَّ عُلُوَّه سُبْحَانَهُ مِن لوازِمِ ذاتِه، فلا يكونُ قطُّ إلا عاليًا، ولا يكونُ فوقَه شيءٌ أَلْبتَّة، كما قال أَعْلمُ الخَلقِ بربِّه: ((وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ)). فهُوَ سُبْحَانَهُ قريبٌ في عُلُوِّه عالٍ في قُربِه ودنوه، ولا يقال : إذا كان فوق خلقه فكيف يكون معهم ؟ لأن هذا السؤال ناشئ عن تصور خاطئ وهو قياسه سبحانه بخلقه وهذا قياس باطل، لأن الله سبحانه { ليس كمثله شيء }في نعوته أي: في صفاتِه، والوصْفُ والنَّعتُ مترادِفانِ، وقيل: متقارِبانِ، فالوصفُ للذَّاتِ والنَّعتُ للفِعلِ.

فالقرب والعلو يجتمعان في حقه لعظمته وكبريائه وإحاطته بخَلقِه، وأنَّ السَّماواتِ السَّبعِ في يدِه كخَردلَةٍ في يدِ العبدِ، فكَيْفَ يَستحِيلُ في حقِّ مَن هَذَا بعضُ عظمَتِه أنْ يكونَ فوقَ عرشِه، ويَقْرُبُ مِن خَلقِه كَيْفَ شاءَ وهُوَ على العرشِ. **(انظر:مختصر الصواعق ص: ٤٨٣)**

....

فصل:وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ الإيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامُ غَيْرِهِ.

....

تقدم أن من أركان الإيمانِ **الإيمان باللَّهِ وكُتُبِهِ** ويدخل في هذين الأصلين **الإيمانُ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ وكلامه من صفاته** ومَن لم يُؤمِنْ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ لم يؤمِنْ باللَّهِ وكُتُبه. قال عبدُ اللَّهِ بنُ المبارَكِ:" مَن كَفَرَ بحرفٍ مِن القرآنِ فقد كفَرَ بالقرآنِ، ومَن قال لا أؤمِنُ بهَذَا الكلامِ فقد كَفَرَ".

ومما يدل على أن القرآن كلام الله قوله تعالى: (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ). وعن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كان يَعرِضُ نَفْسَه في المَوْسِمِ فيقولُ: ((أَلاَ رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ لأُبَلِّغَ كَلاَمَ رَبِّي)). رواه أبو داودَ وقد تقدم ذكر أدلة ذلك.

قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ:" من أنْكَرَ أنْ يكونَ اللَّهُ متكلِّماً أو يكونَ القرآنُ كَلامَه فقد أنْكَرَ رسالةَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ "، بل ورسالةَ جميعِ الرُّسلِ التي حقيقَتُها: تبليغُ كلامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فإذا لم يكُنْ ثَمَّ كلامٌ فماذا يُبلِّغُ الرَّسولُ، بل كَيْفَ يُعقلُ كونُه رسولا ؟ ولِهَذَا قال مُنكِرو رسالَتِه عن القرآنِ: (إِنْ هَذَا إِلاَّ قولُ البَشَرِ) فمَن قال: إنَّ اللَّهَ لم يتكلَّمْ به أي: القرآنِ فقد ضاهَى قولُه قولَهم تعالى اللَّهُ عمَّا يقولون عُلُواًّ كبيرًا.

فالله تعالى موصوف بأنه يتكلم بما يشاء إذا شاء لم يزل ولا يزال يتكلم وكلامه لا ينفد، ونوع الكلام في حقه أزلي أبدي ومفرداته لا تزال تقع شيئا فشيئا حسب حكمته سبحانه وتعالى .

وفي قول المصنف رحمه الله: (مُنَزَّلٌ) ردٌّ على الجهميَّةِ والمعتزِلةِ القائلين: بأنَّ القرآن لم يُنَزَّلْ مِن الله، وإنما نزل مِن بعضِ المخلوقاتِ كاللَّوْحِ المحفوظ أو والهواءِ وهذا القول إفتراء على اللَّهِ وتكذيب لكتابه، قال تعالى: (تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ). وقال: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ) وروحُ القُدُسِ جبريلُ، وهُوَ الرُّوحُ الأمينُ المذكورُ في قولِه: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ) **فجبريلُ عليه السَّلامُ سَمِعَه مِن اللَّهِ، والنَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ سَمِعَه مِن جبريلَ، ولم يَقُلْ أحدٌ مِن السَّلَفِ إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ سَمِعَه مِن اللَّهِ، وإنَّما قاله بعضُ المتأخِّرين.**

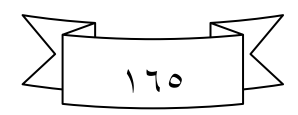
فالآيةُ صريحةٌ في الردِّ عليهم، وصريحةٌ في أنَّه المتكلِّمُ به، وأنَّه مِنه نزَلَ، ومنه بَدَأ، ومِن هنا قال السَّلَفُ:" مِن اللَّهِ بدأَ..."، فأخبرَ في الآياتِ المتقدِّمةِ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن اللَّهِ ولم يُخبِرْ عن شيءٍ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن اللَّهِ إلا كلامَه، بخلافِ نُزولِ الملائكةِ والمطرِ والحديدِ وغيرِ ذَلِكَ، وقد تَقَدَّمَ ذِكرُ أقسامِ الإنزالِ في الكلامِ على الآياتِ.

وفي قول المصنف رحمه الله:(غير مخلوقٍ) ردٌّ على الجهميَّةِ والمعتزِلةِ وغيرِهم القائلين: كلامُ اللَّهِ مخلوقٌ، **فالجهميَّة يقولون:** إنَّ اللَّهَ لا يتكلَّمُ، بل خَلَقَ كلاماً في غيرِه وجَعلَ غيرَه يُعبِّرُ عنه، وما جاء مِن الأدلَّة أنَّ اللَّهَ تكلَّم أو يُكلِّمُ أو نادى أو نحوَ ذَلِكَ، قالوا هَذَا مجازٌ وليس حقيقة.

وأمَّا المعتزِلةُ فيقولون: إنَّ اللَّهَ متكَلِّمٌ حقيقةً لكنْ معنى ذَلِكَ أنَّه خَلقَ الكلامَ في غيرِه وكلامه مخلوق لفظاً ومعنى، **فمذهبُهم ومَذهبُ الجهميَّةِ في المعنى سواءٌ، وحقيقةُ قولِ الطَّائفتَيْنِ أنَّه غيرُ متكلِّمٍ.**

ويرد عليهم في عدة نقاط:

١- أن هَذَا القول باطلٌ مخالفٌ لقولِ السَّلَفِ والأئمَّةِ ومخالفٌ للأدلَّةِ العقليَّةِ والسَّمعِيَّة، فإنَّه لا يُعْقَلُ متكلِّمٌ إلاَّ مَن قامَ به الكلامُ، ولا مُريدٌ إلاَّ مَن قامتْ به الإرادةُ، ولا محبٌّ ولا راضٍ إلاَّ مَن قام به ذَلِكَ.



٢- أنَّ كلامَ اللّهِ سُبْحَانَهُ مِن صفاتِه وصفاته غيرُ مخلوقةٍ، كما في الصَّحيحِ عن خَوْلَةَ بنتِ حكيمٍ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)) **فاستدلَّ العلماءُ بِذَلِكَ على أنَّ كلامَ اللّهِ غيرُ مخلوقٍ. قالوا لأنَّ الاستعاذةَ بالمخلوقِ شِركٌ،** وقال اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى: (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ...) ، **فهَذَا دليلٌ على أنَّ كلامَ اللّهِ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ كُلَّ مخلوقٍ يَنْفَدُ ويَبِيدُ، وكلماتُه لا تَنفَدُ ولا تَبيدُ، وهَذَا الوصفُ لا يكونُ لمخلوقٍ.**

فالقُرآنُ كلامُ اللّهِ ووحْيُه وتنزْيلُه، فهُوَ غيرُ مخلوقٍ، فمَن زَعَم أنَّ القرآنَ مخلوقٌ فهُوَ كافرٌ باللّهِ العظيمِ، كما رُوِيَ ذَلِكَ عن السَّلَفِ.

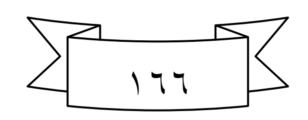
وذَكَرَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الملِكِ الكرخيُّ في كتابِه (الأُصولُ) قال: سمعتُ الإمامَ أبا منصورٍ مُحَمَّدَ بنَ أحمَدَ، يقولُ: سمعتُ أبا حامدٍ الإسْفرَايينيَّ، يقولُ:" ومذهبي ومذهبُ الشَّافعيِّ وفقهاءِ الأمصارِ: أنَّ القرآنَ كلامُ اللّهِ غيرُ مخلوقٍ، ومَن قال: مخلوقٌ فهُوَ كافرٌ، والقرآنُ حَمَلَهُ جبريلُ مسموعًا مِن اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ والنَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ سَمِعَه مِن جبريلَ، والصَّحابةُ سَمِعوه مِن رسولِ اللّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، وهُوَ الذي نَتلُوه بألْسِنَتِنا، وفيما بين الدَّفتَيْنِ، وما في صُدورِنا مسموعًا ومَكتوبًا ومحفوظًا، وكُلُّ حرفٍ منه كالباءِ والتَّاءِ كُلُّه كلامُ اللّهِ غيرُ مخلوقٍ، ومَن قال مخلوقٌ فهُوَ كافرٌ عليه لعائنُ اللّهِ والنَّاسِ أجمعينَ". **(نقله عنه ابن تيمية في الفتاوى (١٢/ ٣٠٦)**

وقال الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:"لم يَقُلْ أحدٌ من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا من بعدهم من الأئمة الأربعة ولا غيرهم: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ أو قديمٌ، بل الآثارُ متواترةٌ عنهم بأنَّهم يقولون: القرآنُ كلامُ اللّهِ، ولما ظَهَرَ مَن قال: إنَّه مخلوقٌ، قالوا رداً لكلامِه: إنَّه غيرُ مخلوقٍ....وأوَّلُ مَن عُرِفَ أنَّه قال: القرآنُ مخلوقٌ الجعدُ بنُ دِرْهمٍ، وصاحِبُه الجهمُ بنُ صفوانَ، وأوَّلُ مَن عُرِفَ أنَّه قال: إنَّه قديمٌ هُوَ عبدُ اللّهِ بنُ سعيدِ بنِ كِلابٍ".**(انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٠١)**

وأمَّا أفعالُ العِبادِ كأصواتِهم ومِدادِهم الذي يَكتُبون به القرآنَ، والوَرَقِ الذي يَكتُبون عليه، فإنَّ ذَلِكَ مِن جُملةِ المخلوقِ، ولذَلِكَ يقولونَ: (الكلامُ كلامُ البارِئِ والصَّوتُ صوتُ القَارِئِ)، وفي الحديثِ: ((زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)).

وقولُه رحمه الله: **(منه بَدَا)** أي: منه ظَهَر وخَرجَ أي: هُوَ المتكلِّمُ به سُبْحَانَهُ ، وهُوَ الذي أَنْزَلَه مِن لَدُنْه.

وروى أحمدُ وغيرُه عن جُبيرِ بنِ نُفيرٍ، قال: قال رسولُ اللّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((إِنَّكُمْ لَنْ تَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ)) وقال أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ:" كلامُ اللّهِ مِن اللّهِ ليس بِبايِنٍ منه"، وهَذَا معنى قولِ السَّلَفِ: ((القرآنُ كلامُ اللّهِ منه بَدا وإليه يعودُ)).



ومقصودُ السَّلَفِ من هذا الرَّدُّ على الجهميَّةِ، فإنَّهم زَعَموا أنَّ القرآنَ خَلقَهُ اللَّهُ في غيرِه من المخلوقات القائمة بنفسها، فيكونُ قد نزل وبدأ وخَرجَ مِن ذَلِكَ المحلِّ المخلوق الذي خُلِقَ فيه لا مِن اللَّهِ، فيقولونَ كَلامُه لِموسى خَرجَ مِن الشَّجرةِ، فبيَّنَ السَّلَفُ والأئمَّةُ أنَّ القرآنَ مِن اللَّهِ بدا وخَرجَ، وذكروا قولَه سُبْحَانَهُ: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ) وقوله: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) فأخبرَ أنَّ القولَ منه لا مِن غيرِه مِن المخلوقاتِ، و (مِن) لابتداءِ الغايةِ، فإنْ كان المجرورُ بها عَيْناً يقومُ بنَفْسِه لم يكنْ صفةَ اللَّهِ، كقولِه: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ).

وأمَّا إذا كان المجرورُ بها صفةً ولم يُذكَرْ لها محلٌّ كان صفةً لِلَّهِ، كقولِه: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي).فإخبارُ اللَّهِ أنَّه مَنَزَّلٌ مِن اللَّهِ يُناقِضُ أنْ يكونَ قد نَزَلَ مِن غيرِه.

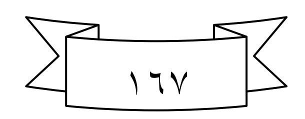
قولُه: **(وإليه يعودُ)** أي: يَرجِعُ، بأنْ يُسْرَى به في آخرِ الزَّمانِ، ويُرفَعُ فلا يَبْقى في الصُّدورِ مِنه ولا في المصاحِفِ منه آيةٌ، كما جاء ذَلِكَ في عِدَّةِ آثارٍ، وهُوَ أحدُ أشراطِ السَّاعةِ الكِبارِ، كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ وغيرِه أنَّه قال: "يُسْرَى على القرآنِ فلا يبقى في المصاحفِ منه آيةٌ ولا في الصُّدورِ آيةٌ". أخْرَجه الطَّبرانيُّ وأخْرَجه ابنُ ماجهْ عن حُذيفةَ وأخْرَجه الدَّيلميُّ عن مُعاذٍ.

وقد روى ضياءُ الدين المقدسيُّ في كتابه (اختصاص القران) عن عمرو بن دينار قال:" أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم سبعين سنةً يقولون:القرآنُ كَلامُ اللهِ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُود" ومن هؤلاء الصحابة ابنُ عمرَ وأبو هريرةَ وابنُ عباس رضي الله عنهم أجمعين . **(اختصاص القرآن (ص: ٢٩)**

وقولُه: **(وإنَّ اللَّهَ تكلَّمَ به حقيقةً)** يدل عليه قوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) والآياتُ والأحاديثُ في إثباتِ كلامِه سُبْحَانَهُ وأنَّه تكلَّمَ بالقرآنِ كثيرةٌ جِداًّ، وكُلُّها دالَّةٌ على أنَّه –سُبْحَانَهُ– تكلَّمَ حقيقةً لا مجازًا، **بل حقيقةُ الإرسالِ تَبليغُ كلامِ المُرسَلِ، وإذا انْتَفَتْ عنه حقيقةُ الكلامِ، انْتَفَتْ عنه حقيقةُ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ،والرَّبُّ يَخلُقُ بقولِه وكَلامِه، فإذا انتفَتْ عنه حقيقةُ الكلامِ انتفى عنه الخلقُ، وقد عابَ اللَّهُ آلهةَ المشركِين بأنَّها لا تتكلَّمُ ولا تُكلِّمُ عابدِيها، والجهميَّةُ وَصَفوا الرَّبَ بصفةِ هَذِهِ الآلهةِ**، وقد تكاثَرَت الأدلَّةُ على أنَّ اللَّهَ نادَى وناجَى وأمَرَ ونَهى، وكُلُّ هَذا دالٌّ أنَّه تكلَّمَ حقيقةً لا مجازًا.

وفي قولِه: (تكلم به حقيقة) رَدٌّ على مَن زعم أنَّ كلامَه سُبْحَانَهُ معنى واحدٌ قام بذاتِ الباري لم يُسمَعْ منه، وإنَّما هُوَ الكلامُ النَّفْسانِيُّ ولم يتكلَّمْ بِهِ حقيقةً حيث يلزم من ذلك لوازم باطلة منها:

- أنه لا يُقالَ لمن قامَ بِهِ الكلامُ النَّفْسانيُّ ولم يَتكلَّمْ بِهِ بأن هَذَ كلامٌ حقيقةً، **وإلاَّ يلْزَمُ** أنْ يكونَ الأخرسُ متكلِّما.



- **ولَزِمَ أنْ لا يكونَ الذي** في المصحَفِ عندَ الإطلاقِ هُوَ القرآنُ، ولا كلامُ اللَّهِ، ولكنَّه عبارةٌ عنه، ليست كلامَ اللَّهِ، كما لو أشار إلى شخصٍ بإشارةٍ مفهومةٍ فكَتَب ذَلِكَ الشَّخصُ عبارةً عن المعنى الذي أوحاهُ إليه ذَلِكَ الأخرسُ، فالمكتوبُ هُوَ عبارةُ ذَلِكَ الشَّخصِ عن ذَلِكَ المعنى، فهُوَ الذي أحْدَثَ نَظْمَ القرآنِ وتأليفَه، وقد تَقدَّمَ الكلامُ في الرَّدِّ على مَن زَعَم أنَّ كلامَ اللَّهِ المعنى النَّفْسيُّ، وأنَّ الشَّيخَ تقيَّ الدِّينِ ردَّ ذَلِكَ مِن تِسعين وجهًا، كُلُّ واحدٍ يَدلُّ على بطلانِ الزعم بأدلَّةٍ نَقْلِيَّةٍ وعقليَّةٍ.

والأدلَّةُ على إثباتِ صفةِ الكلامِ كثيرةٌ لا تَنحصِرُ، والوصفُ بالتكلُّمِ مِن أوصافِ الكمالِ، وضِدُّهُ مِن أوصافِ النَّقْصِ، قال تعالى: (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً) الآيةَ. **فعُلِمَ أنَّ عَدمَ التَّكلُّم نقصٌ يُستدلُّ بِهِ على عَدمِ ألوهيةِ العِجلِ.**

قال البخاريُّ في صحيحِه: ((بابُ كلامِ الرَّبِّ تبارَك وتعالى مع أهلِ الجَنَّةِ)) وساقَ فيه عدَّةَ أحاديثَ، فأفضلُ نعيمِ الجَنَّةِ رُؤيةُ وجْهِه سُبْحَانَهُ وتكليمُه، **وكم في الكِتابِ والسُّنَّةِ مِن دليلٍ على تكلُّمِ اللَّهِ لأهلِ الجَنَّةِ وغيرِهم**، قال تعالى: (سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) وعن جابرٍ رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((بَيْنَمَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ جَلَّ جَلاَلُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ)). وهُوَ قولُه سُبْحَانَهُ: (سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ...) .

....

وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْهُ؛ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلاَمَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لاَ إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا .وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلاَ الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ .

....

بعد ما بين المصنف رحمه الله أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق وأن الله تكلم به حقيقة **بين بعد ذلك بطلان قول من قال بأن القرآن (حكايةٌ عن كلامِ اللَّهِ) كما تقول الكلابية أو (عبارةٌ عنه) كما تقول الأشاعرة،**

فالكلابية قالوا:إن القرآنَ حكايةٌ عن كلام الله لأن كلامَ الله عندَهم هو المعنى القائم في نفسه اللازمٌ لذاته كلزوم الحياة والعلم لا يتعلقُ بمشيئته وإرادته وهذا المعنى القائم بالنفس غيرُ مخلوق لكن هذه الألفاظ المكونة من حروف وأصوات مخلوقةٌ وهي حكاية عن كلام الله وليست كلامَه بل حكاها جبريل عن الله ومحمد ﷺ عن جبريل.

وأما الأشاعرة فقالوا:إن القرآنَ عبارةٌ عن كلام الله أي أن جبريل أو محمد ﷺ عَبَّرَ عن كلام لأن كلامَ الله عندَهم معنىً قائمٌ في نفسه وهذا المعنى غيرُ مخلوق وأما هذه الألفاظُ المقرؤةُ فهي عبارة عن ذلك المعنى القائمِ بالنفس وهي مخلوقة .

وذهب بعضُ العلماءِ إلى القولُ: بأن الخلافُ بين الكلابية والأشاعرة خلاف لفظيٌّ لا طائلَ تحته، فكلهم يقول: القرآنُ نوعانِ:

١- ألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظُ الموجودةُ في المصحف.

٢- معاني قديمةٌ قائمةٌ بالنَّفْسِ، وَهِيَ معنى واحدٌ لا تبعُّضَ فيه ولا تَعدُّدَ، إنْ عُبِّرَ عنه بالعربيَّةِ كان قرآنا، وإنْ عُبِّرَ عنه بالعبرانيَّةِ كان توراةً، أو بالسُّرْيانيَّةِ كان إنجيلاً.

وهَذَا القولُ تصوُّرُهُ كافٍ بمعرفةِ بُطلانِه، وليس لهم دليلٌ ولا شبهةٌ إلا بيتٌ يُنسَبُ للأخطلِ النَّصرانيِّ وهُوَ قولُه:

إنَّ الكلامَ لَفِي الفُؤادِ وإنَّما   جُعِلَ اللِّسانُ على الفؤادِ دَليلا.

وهَذَا البيتُ إنْ ثَبَتَ فمعناه: إنَّ الكلامَ يَخرجُ مِن القلبِ ويُعَبِّرُ عنه اللِّسانُ، وأمَّا الكلامُ الذي في اللِّسانِ فقط فهُوَ يُشبِهُ كلامَ النائمِ والهاذي ونحوهما.

وأدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ تَرُدُّ هَذَا القولَ، والذي يَعقلُه العقلاءُ أنَّ الكلامَ صفةُ المتكلِّمِ المسموعِ منه، وأنَّ ما في النَّفْسِ لا يُسمَّى كلامًا بوجهٍ مِن الوجوهِ، كما في حديثِ: ((عُفِيَ لأُمَّتِي عَنِ الخَطَأِ، وَالنِّسْيَانِ، وَمَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لم تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَتَكَلَّمْ)) فهَذَا صريحٌ بأنَّ ما حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَها ليس بكلامٍ،إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على بطلانِه.

وأيضًا فإنَّ الحكايةَ تُماثِلُ المَحْكِيَّ، فمَن قال: إنَّ القرآنَ حكايةُ كلامِ اللَّهِ بهَذَا المعنى فقد ضَلَّ ضلالاً مُبِينًا، فإنَّ القرآنَ لا يَقدِرُ أحدٌ على أنْ يأتِيَ بمِثلِه، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يأتِيَ بما يَحاكِيه.**وأوَّلُ مَن قال إنَّه حكايةٌ عن كلامِ اللَّهِ عبدُ اللَّهِ بنُ سعيدِ بنِ كِلابٍ.**

وأمَّا القولُ: بأنَّه عبارةٌ عن كلامِ اللَّهِ كما هُوَ قولُ الأشاعرةِ فإنَّه يَلزَمُ عليه أنَّ كُلَّ تالٍ مُعبِّرا عمَّا في نَفْسِ اللَّهِ، والمعبِّرُ عن غيرِه هُوَ المُنْشِئ للعبارةِ، فيكونُ كُلُّ قارئٍ هُوَ المُنْشِئُ لعبارةِ القرآنِ، وهَذَا معلومُ الفسادِ بالضَّرورةِ.

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" وهَذَا المذهبُ مبنِيٌّ على مسألةِ إنكارِ قيامِ الأفعالِ والأمورِ الاختياريَّةِ بالربِ تعالى، ويُسمُّونَها مسألةَ حلولِ الحوادثِ، وحقيقتُها إنكارُ أفعالِه ورُبُوبِيَّتِه ومَشيئَتِه"سبحانه وتعالى. **(مختصر الصواعق (٤٩٨)**

وأوَّلُ مَن قال بالعبارةِ هُوَ الأشعريُّ، وهُوَ قولٌ باطلٌ مبتدع لم يقل به أحد من السلف كالقولِ بالحكايةِ، فإنَّ الأدلَّةَ دلَّتْ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ حقاً لفظا ومعنى.

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمه الله" المنقولُ عن السَّلَفِ اتِّفاقُهم على أنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ غيرُ مخلوقٍ، تَلقَّاهُ جبريلُ عن اللَّهِ وبلَّغهُ جبريلُ إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وبلَّغَه مُحَمَّدٌ إلى أُمَّتِه". **(فتح الباري (١٣/ ٤٦٣)**

قال اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ) **ولم يَقُلْ: حتى يسمع ما هُوَ عبارةٌ عن كلامِ اللَّهِ فالأصلُ الحقيقةُ.**

ولو كان ما في المصحفِ عبارةً عن كلامِ اللَّهِ، وليس هُوَ كلامَ اللَّهِ لِمَا حُرِّمَ على الجُنُبِ والمُحْدِثِ مَسُّهُ؟ بل القرآنُ كلامُ اللَّهِ محفوظٌ في الصُّدورِ، ومقروءٌ بالألسُنِ، مكتوبٌ في المصاحِفِ كما قال أبو حنيفةَ في (الفِقهِ الأكبرِ) **(الفقه الأكبر (ص: ٢٠)** وهو كلام الله تعالى حقيقة لا يخرج عن ذلك .

قال تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ)، وقال تعالى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ) وفي حديثِ ابنِ عمرَ قال:(نَهى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يُسافَرَ بالقرآنِ إلى أرضِ العدوِّ مخافةَ أنْ يُنالَ بِسُوءٍ)، وهَذَا الحديثُ رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ، إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ حقاً وهُوَ المعجزُ بلَفْظِه ومعناه.

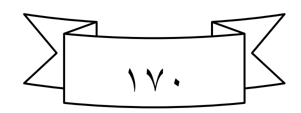
ومما يدل على أن القرآن كلام الله حقيقة هو أن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئا لا إلى من قاله مبلغا مؤديا قال تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ) أي: مِن مُبَلِّغِه.

وسماعُ كلامِ الرَّبِ وغيرِه يَنقسِمُ إلى قسمَيْنِ:

١- مُطلَقٌ وهو ما كان بغيرِ واسطةٍ، كما سَمِعَ موسى بنُ عِمرانَ كلامَ الرَّبِّ، وكما يَسمعُ جبريلُ وغيرُه كلامَه سُبْحَانَهُ وتكليمَه، ومنه قولُ الرَّسولِ: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ)).

٢- مَقيَّدٌ وهو ما كان السَّمعُ فيه بواسطةِ المبلِّغِ كسَماعِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم، وسماعِنا لكلامِ اللَّهِ حقيقةً بواسطةِ المبلِّغِ عنه، ومنه قولُه تعالى: (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ) وكما في الحديثِ المتقدِّمِ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((أَلاَ رَجُلٌ يَحْمِلُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي)) وكما قال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ لَمَّا خَرجَ على قريشٍ فقرأَ: (الم * غُلِبَتِ الرُّومُ) الآيةَ، فقالوا: هَذَا كلامُكَ أو كلامُ صاحبِكَ، فقال:" **ليس بكلامِي ولا بكلامِ صاحِبِي، وإنما هُوَ كلامُ اللَّهِ**" فبَيَّنَ أنَّ ما يُبلِّغه ويتلوهُ هُوَ كلامُ اللَّهِ، وإنْ كان يبلِّغُه بأفعالِه وصَوتِه.

فهُوَ كلامُ اللَّهِ لأنَّه هُوَ الذي ألَّفه وأنشأَهُ.



فإن قيل ما تقول في قولُه تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) حيث أضاف القول إلى الرسول ولم يضفه إلى الله تعالى ؟

ج: هذه من شبه الأشاعرة الذين يقولون: إن كلام الله هو الكلام النفسي، فإذا قيل لهم: فمن المعبر؟ قالوا: جبريل أو محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا قيل لهم: ما الدليل على ذلك؟

أتوا بهذه الآية: ((إِنَّه لَقَوْل رُسولَ كرِيم)) قالوا: فالقول قوله حكى به أو عبر به عن كلام الله الذي هو المعنى القائم بنفسه وهم بهذا كما **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قد شابهوا المشركين في بعض قولهم**

حين قالوا: (إن هذا إلا قول البشر) وقالوا:(إنما يعلمه بشر) فالمشركون يقولون: لفظه ومعناه من قول البشر ويقصدون بحيرا الراهب أو غيره.

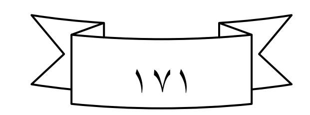
واللَّهَ جل وعلا قد كفَّرَ وتوعد مَن جعَل القرآن قولَ البَشَرِ، ومحمد بَشر، فمَن جعَلَه قولَ مُحَمَّدٍ بمعنى أنَّ مُحَمَّداً أو غيرَه أنشأَهُ فقد كفَرَ، وما ذَكَرَ اللَّهُ فِي القرآنِ عن موسى عليه السَّلامُ وغيرِه وعن فرعونَ وإبليسَ، فإنَّ ذَلِكَ الكلامَ كلامُ اللَّهِ إخباراً عنهم، وكلامُ موسى وغيرِه مِن المخلوقينَ مخلوقٌ، والقرآنُ كلامُ اللَّهِ لا كلامُهم.

وعلى هذا فالإضافة الواردة في الآية إضافةُ تبليغٍ لا إضافةُ إنشاءٍ وابتداءٍ، فإنَّه قال: قولُ رَسولٍ، ولم يَقُلْ: قَولُ مَلَكٍ ولا نَبِيٍّ، فإنَّ الرَّسولَ يُبلِّغُ كلامَ مُرسِلِه.

والرسول في سورة التكوير: ((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)) هذا وصف لجبريل عليه السلام المبلغ عن الله سبحانه وتعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فجبريل تلقاه من رب العالمين وبلَّغه، كما في آية الشعراء: ((نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)) وقولُه: أمينٌ دليلٌ على أنَّه لا يَزيدُ ولا يُنقِصُ، بل هُوَ أمينٌ على ما أُرسِلَ بِهِ ليبلِّغُه عن مُرسِلِه.

وأما في آية الحاقة في قوله:(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ)؛ فالرسول الكريم هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي بُلِّغَ هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى، ولهذا نفى عنه أن يفتري أو يزيد: ((وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)) إذاً هو مبلغ صلوات الله وسلامه عليه، وإن لم يفعل فليس بمبلغ: ((وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)) والله سبحانه وتعالى عصمه من هذا وهكذا كل نبي ورسول عليهم الصلاة والسلام.

وقولُ المصنف رحمه الله: **(وهُوَ كلامُ اللَّهِ حُروفُه ومعانيه)** بيان لمذهب أهل السنة والجماعة بأن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه **ولم يَقُلْ أحدٌ مِن السَّلَفِ إنَّ جبريلَ أَحْدَثَ ألفاظَه، ولا مُحَمَّدٌ، ولا أنَّ اللَّهَ خلَقَها في الهواءِ أو غيرِه مِن المخلوقاتِ، ولا أنَّ جبريلَ أخَذَها مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأقوالِ المبتدَعةِ، بل أهلُ السُّنَّةِ يقولون: إنَّ القرآنَ عينُ كلامِ اللَّهِ حقيقة، حُروفُه ومعانِيهِ،** ليس كلامُ اللَّهِ الحروفَ دُونَ المعاني، ولا المعاني



دُونَ الحروفِ، عَكْسُ ما عليه أهلُ البِدَعِ مِن المعتزِلةِ والأشاعرةِ والكلابِيَّةِ وغيرِهم؛ **لأنَّ كلامَ المتكلِّمِ هُوَ عبارةٌ عن ألفاظِه ومعانيه**، وعامَّةُ ما يُوجَدُ في الكِتابِ والسُّنَّةِ وكلامِ السَّلَفِ فإنَّه عندَ إطلاقِهِ يتناوَلُ اللَّفظَ والمعنى جميعًا لِشُمولِه لهما.

قالَ بنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:" والصَّوابُ الذي عليه السَّلَفُ والأئمَّةُ: أنَّ الكلامَ حقيقةٌ في اللَّفظِ والمعنى، **كما أنَّ الإنسانَ حقيقةٌ في البَدنِ والرُّوحِ، فالنِّزاعُ في النَّاطِقِ كالنِّزاعِ في مَنطِقِه**. (انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٥/ ١٢٥)

والدَّليلُ على أنَّه حروفٌ قول النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((اقْرَؤوا القرآنَ قَبلَ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَتَعَجَّلُونَ آخِرَهُ وَلاَ يَتَأَجَّلُونَهُ)) رواهُ أحمدُ، وأبو داودَ، والبيهقيُّ في "سُننِه" والضياءُ المقدسيُّ في "المختارةِ عن جابرٍ"

وقال أبو بكرٍ وعمرُ رضي اللَّهُ عنهما:"إعرابُ القرآنِ أحبُّ إلينا مِن حِفظِ بعضِ حُروفِه" وقال عليٌّ رضي اللَّهُ عنه: "مَن كفَرَ بحرفٍ منه فقد كفَرَ بِهِ كُلِّهِ"

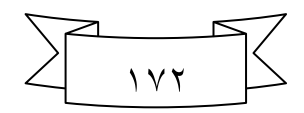
قال ابن قدامة رحمه الله:"واتفق المسلمون على عد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه،ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفا متفقا عليه أنه كافر، وفي هذا حجة قاطعة على أنه حروف ". **(لمعة الاعتقاد ٢١)**

وبعد ما بين المصنف رحمه الله أن القرآن عين كلام الله حقيقة حروفه ومعانية، **ذكر مقالة بعض المعتزلة وبعض من ضل من أهل اللغة القائلين:بأن كلام الله (الحروف دون المعاني) قالوا :لأن مسمى القول والكلام عند الإطلاق اسم للفظ فقط، والمعنى ليس جزء من مسماه بل هو مدلول مسماه ويقولونَ أيضاً: بأن كلامُ الله ليس معنىً قائماً بذات الله بل هو شيءٍ من مخلوقاته كالسماء والأرض والبيت والناقة وما أشبه ذلك لكنْ أضافه إليه من باب التشريف فكلامُ الله عندهم هو الحروف فقط .**

ثم ذكر رحمه الله ما يقابل هذا المذهب وهو مذهب الكلابية والأشاعرة حيث قالوا بأن كلام الله هو: (المعاني دون الحروف) أي أن كلامُ الله عندهم هو المعنى القائم في نفسه ثم خَلَقَ أصواتاً وحروفاً تدل على هذا المعنى .

وكِلا القولَيْنِ قول باطلٌ مخالفٌ للكتابِ والسُّنَّةِ وما عليه سَلَفُ الأُمَّةِ، فإنَّ الأدلَّةَ دَلَّتْ على أنَّ القرآنَ العزيزَ الذي هُوَ سُوَرٌ وآياتٌ وحروفٌ وكلماتٌ ومعاني هي عَينُ كلامِه سُبْحَانَهُ وأنه ليس بمخلوقٍ. ولا أن بعضِه قديمٌ وهُوَ (المعنى) أو أن بعضُه مخلوقٌ وهُوَ (الكلماتُ والحروفُ)، بل القرآنُ جميعُه حروفُه ومعانيه تكلَّمَ اللَّهُ بِهِ حقيقةً، والقرآنُ اسمٌ لهَذَا النَّظْمِ العربيِّ الذي بلَّغَه الرَّسولُ عن جبريلَ عن رَبِّ العالَمِين.

وهنا مسألتان:



المسألة الأولى: أيهما أشد إنحرافاً مقالة المعتزلة أم مقالة الأشاعرة ؟

ج: مقالة الأشاعرة في القرآن أقلّ انحرافاً من مقالة المعتزلة؛ فإن المعتزلة يزعمون أن القرآن مخلوق لفظاً ومعنىً، وأما الأشاعرة فيجعلون القرآن هو المعنى القائم بذات الله، وأما الحروف والأصوات، فهي مخلوقة دالة عليه. (انظر:فتاوى ابن تيمية: ٤٢٥/٨).

المسألة الثانية: ما حكم وصف القرآن بأنه كلام الله القديم؟

ج: وصف القرآن بالقدم ، أو وصف كلام الله تعالى بأنه قديم ، يراد به معنيان :

الأول : أنه غير مخلوق ؛ وأن جنس الكلام ، في حق الله تعالى ، قديم ، لم يزل متكلما ، متى شاء ، وكيف شاء ، ويكلم من عباده من شاء . وهذا حق ، وهذا هو مأخذ من أطلق " القِدَم " في حق القرآن ، أو في حق كلام الله تعالى عامة ، من أهل السنة والجماعة .

ومن هؤلاء : أبو القاسم اللالكائي في كتابه " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة "

وابن قدامة ـ رحمه الله ـ في (لمعة الاعتقاد) .

الثاني : أن القرآن معنى ، أو معنى وحروف ، تكلم الله بها في الأزل ، ثم لم يتكلم بعدها ، وهذا من بدع الأشاعرة ومن وافقهم من أهل الكلام ، التي أرادوا بها الخروج من بدعة المعتزلة والجهمية القائلين بخلق القرآن .

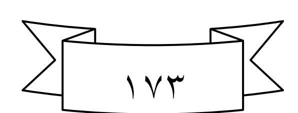
فمن قال في القرآن ، أو غيره من صفات الله تعالى وأفعاله الاختيارية : إنه قديم ، وأراد ذلك فمراده باطل ، ثم إن اللفظ الذي أطلقه مجمل غير مأثور .

وعليه فمن قال : القرآن قديم ، أو كلام الله قديم ، وأراد المعنى الأول : أن القرآن ، وسائر كلام الله تعالى ، منزل من عنده غير مخلوق ، ومع ذلك فهو متعلق بمشيئته واختياره، فمراده صحيح ، وإن كان الأولى والأسلم في ذلك أن يقتصر على الألفاظ الواردة عن السلف ، السالمة من الإجمال واحتمال المعاني الباطلة كقولهم: القرآن كلام الله ،منزل غير مخلوق .

وإن أراد المعنى الثاني ونفى أن يتعلق كلام الله تعالى بمشيئته واختياره ، فمراده باطل ، واللفظ الذي أطلقه مبتدع . (انظر: منهاج السنة النبوية (٤١٩/٥-٤٢١) .

والله أعلم .

....



فصل: وَقَد دَّخَلَ أيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ :الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ .يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى .

....

هذا الفصل أراد منه المصنف رحمه الله أنه يبين أن من الإيمانِ باللَّهِ وكتُبِه وملائكتِه ورُسلِه: **الإيمانُ بأنَّ المؤمنينَ يَرَوْنَه سُبْحَانَهُ يومَ القيامةِ، فمَن لم يُؤمِنْ بأنَّه سُبْحَانَهُ يُرى يومَ القيامةِ فقد ردَّ أدلَّةَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وخالَفَ ما عليه سَلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها، ولم يؤمِنْ باللَّهِ وملائكتِه وكتُبِه ورُسلِه.**

قال الإمام أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ : "مَن لم يَقُلْ بالرُّؤيةِ فهُوَ جهميٌّ"، وقال أبو داودَ:" سمعتُ الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ يقولُ: مَن زَعَم أنَّ اللَّهَ لا يُرى في الآخرةِ فقد كفَرَ باللَّهِ وكذَّبَ بالقرآنِ، وردَّ على اللَّهِ أمْرَه، يُستتابُ فإنْ تابَ وإلاَّ قُتِلَ"، وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى :" إني لأرجو أن يحجب الله عز وجل جهماً وأصحابه عن أفضل ثوابه الذي وعده الله أولياءه ، حين يقول : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعده الله تعالى أولياءه"

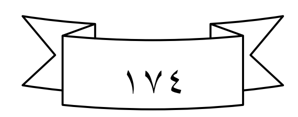
وقال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:"دلَّ القرآن والسُّنَّةُ المتواترةُ وإجماعُ الصَّحابةِ وأئمَّةِ أهلِ الإسلامِ والحديثِ على أنَّ اللَّهَ يُرى يومَ القيامةِ بالأبصارِ عِياناً كما يُرى القمرُ ليلةَ البدْرِ، وكما تُرى الشَّمسُ صَحْوًا....ولا يجتمعُ في قلبِ عبدٍ اطَّلعَ على هَذِهِ الأحاديثِ وفَهِمَ معناها إنكارُها والشَّهادةُ بأنَّ محمَّداً رسولُ اللَّهِ أبدًا" **(حادي الأرواح ٣٤٢)**.

فالأدلة متواترة بإثبات الرؤية، وهَذَا بخلافِ الكفارِ، فإنَّهم لا يَرَوْنَه سُبْحَانَهُ قال تعالى: (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" لما أنْ حُجِبَ هؤلاءِ في السَّخَطِ كان في هَذَا دَليلٌ على أنَّ أولياءَه يَرَوْنَه في حالِ الرِّضا "وهذا الجواب من الشافعي رحمه الله كان لأهل الصعيد عندما أرسلوا له سؤالا عن هذا الأمر في رقعة مكتوبة .

وقد تقدم ذكر الخلاف في رؤية الكفار والمنافقين لله يوم القيامة.

وقول المصنف رحمه الله: **(يرونه يومَ القيامةِ) إشارةٌ للرَّدِّ على مَن زَعَم أنَّه سُبْحَانَهُ يُرى في الدُّنْيَا، كما يقولُه بعضُ المتصوِّفةِ**، وهَذَا باطلٌ تَردُّه الأدِلَّةُ كما تقدم بيانه.

وقال الشَّيخُ تقيُّ الدِّين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:"أهلُ السُّنَّةِ متَّفِقونَ على أنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لا يَراهُ أحدٌ بعينِهِ في الدُّنيَا، لا نَبِيٌّ ولا غيرُ نَبِيٍّ.....وإنَّما روي ذَلِكَ بإسنادٍ موضوعٍ باتِّفاقِ أهلِ المعرفةِ ".**(منهاج السنة النبوية (٢/ ٦٣٦)**



وقولُه: (**عِيانًا بأبصارِهم كما يَرَوْنَ الشَّمَس صَحْوًا**) دل عليه ما في الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال:(إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته).

وقولُه: (عِياناً) بكَسْرِ العَينِ مِن قولِكَ: عايَنْتُ الشَّيءَ عِيانا أيْ: تَرَوْنَه رؤيةً محققَّةً لا خفاءَ فيها ولامجاز كما يظنه المعطلون. (انظر:زاد المعاد (٣/ ٥٩٥)

وقولُه: (**صَحْواً**) أي: ذاتُ صَحْوٍ لا غَيْمُ معها،وقولُه: (**كما تَرَوْن**)، هَذَا تَشبيهٌ للرُّؤْيَةِ بالرُّؤيةِ، فإنَّ الكافَ حرفُ تشبيهٍ دخَلَ على الرُّؤْيَةِ ولم يُشَبِّه المرْئِيَّ، فإنَّه سُبْحَانَهُ لا شَبِيهَ له ولا مَثِيلَ ولا نَظِيرَ.

وقولُه: (**لا تُضَارُّونَ في رُؤْيَتِه**) قال في النِّهايةِ: يُروى بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ، فالتَّشديدُ معناه لا يَنْضَمُّ بعضُكم إلى بعضٍ، وتتزاحَمُون وقتَ النَّظرِ إليه، ويجوزُ ضَمُّ التَّاءِ وفتْحُها، ومعنى التَّخفيفِ لا ينالُكمْ ضَيمٌ في رُؤْيَتِه، فيَراهُ بعضُكم دُونَ بعضٍ، والضَّيْمُ: الظُّلمُ،وعلى الرِّوايةِ الأخرى معناه لا يَنْضمُّ بعضُكم إلى بعضٍ، كما يَتضامُّ النَّاسُ عندَ رُؤيةِ الشَّيءِ الخفيِّ كالهلالِ.

وجاء في الصَّحيحَيْنِ مِن حديثِ أبي هريرةَ أنَّ أناسًا قالوا: يا رسولَ اللهِ، هل نَرى ربَّنا يومَ القيامةِ؟ فقال رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟)) قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، قال: ((هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟)) قالوا: لا، قال: ((فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ)).

إلى غيرِ هَذِهِ الأحاديثِ التي بَلَغَتْ حَدَّ التَّواتُرِ، والتي يَجزِمُ مَن أحاطَ بها عِلماً أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالها.

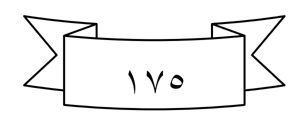
فهذه الأحاديثُ فيها إثباتُ الرُّؤْيةِ، وَالرَّدُّ على الأشاعرةِ وغيرهم القائلِينَ بأنَّه سُبْحَانَهُ يُرى مِن غيرِ مُواجَهةٍ ومعايَنةٍ، فهَذَا تفسيرٌ باطلٌ لم يَقُلْه أحدٌ مِن أئمَّةِ أهلِ العِلمِ، فإنَّ الحديثَ يدلُّ صراحةً على أنَّه سُبْحَانَهُ يَتجلَّى تجليًا ظاهرًا، فيَرَوْنه كما تُرى الشَّمسُ والقمرُ بلا ضَيمٍ يَلْحقُهم في رُؤيتِه على هَذِهِ الرِّوايةِ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:"وهَذَا قولٌ انفرَدوا بِهِ دُون سائرِ طوائفِ الأمَّةِ وجمهورِ العُقلاءِ على أنَّ فسادَ هَذَا معلومٌ بالضَّرورةِ".(مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٤)

ويرى المؤمنون ربهم جل شأنه في موضعين:

١- في عرصات يوم القيامة كما في الصَّحيحَيْنِ مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ، وأبي هريرةَ -رضي اللَّهُ عنهما-، وفي أفرادِ مسلمٍ عن جابرٍ في حديثِه: ((إنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ)) يعني في العَرَصاتِ.

والعرصات:جَمْعُ عَرَصة، وَهِيَ كُلُّ موضعٍ واسعٍ لا بناءَ فيه، وعَرَصاتُ القيامةِ مواقِفُ الحسابِ والعَرْضِ وغيرِ ذَلِكَ.



٢– بعد دُخولِ الجَنَّةِ،كما في حديثِ جابرٍ رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ:((بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ جَلَّ جَلاَلُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ)) وهُوَ قولُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: (سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) فلا يَلتفِتون إلى شيءٍ مِمَّا هُم فيه مِن النَّعيمِ ما دامُوا يَنظُرون إليه حتى يَحتجِبَ عنهم، وتَبْقى بركتُه ونُورُه))، رواه ابنُ ماجهْ وغيرُه.

والجنة في اللغة : البستان، **والمراد بها هنا** : الدار التي أعدها الله لأوليائه وهي دار النعيم المطلق الكامل.

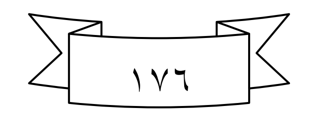
قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَه اللَّهُ عن حديث جابر رضي الله عنه المتقدم:"في هذا إثبات الرؤية، والتكليم، والعلو، والمعطلة تنكر هذه الأمور الثلاثة وتكفر القائل بها". (حادي الأرواح (ص: ٢٤٣).

وقد ضل المعطلة من الرافضة والمعتزله ونحوهم في هذا الباب فأنكروا رؤية الله تعالى على وجه الإطلاق واستدلوا على ذلك بأدلة من أبرزها:

١– **قولِه سُبْحَانَهُ وتعالى:**﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ قالوا: فهذا يدل على عدم الرؤية لعدم إدراك الأبصار لله.

والجوابُ عنه: أنَّ الآيةَ هي على جوازِ الرُّؤْيَةِ أَدَلُّ منها على امتناعِها، فإنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إنَّما ذَكَرَها في سياقِ التَّمدُّحِ، ومعلومٌ أنَّ المدحَ إنَّما يكونُ بالأوصافِ الثُّبوتيَّةِ، وأمَّا العدَمُ المَحْضُ فليس بكمالٍ ولا يُمدَحُ به....فلو كان المرادُ بكونِه: (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) أنَّه لا يُرى بحالٍ لم يَكُنْ في ذَلِكَ مدحٌ ولا كمالٌ لمُشاركةِ المعدومِ له في ذَلِكَ، فإنَّ العدَمَ الصِّرْفَ لا يُرى ولا تُدرِكُه الأبصارُ، والرَّبُّ سبحانَهُ وتعالَى جَلَّ جَلالُهُ يتعالى أنْ يُمدَحَ بما يُشارِكُه فيه العَدمُ المحضُ، فإذًا المعنى أنَّه يُرى لكن لا يُدْرَكُ ولا يُحاطُ.... فقولُه: (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) يَدلُّ على غايةِ عظمَتِه، وأنَّه أكبرُ مِن كُلِّ شيءٍ، وأنَّه لعظَمَتِه لا يُدْرَكُ بحَيْثُ يُحاطُ به، فإنَّ الإدْراكَ هُوَ الإحاطةُ بالشيءِ، وهُوَ قَدْرٌ زائدٌ على الرُّؤْيَةِ، كما قال تعالى: (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ) فلَمْ يَنْفِ موسى الرُّؤْيَةَ، ولم يُريدوا بقولِهم: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) إنَّا لمرئيُّونَ، فإنَّ موسى عليه السَّلامُ نَفَى إدراكَهُم إيَّاهُم بقولِه: كلاَّ، وأخبرَ سبحانه وتعالى أنَّه لا يخافُ دَرَكَهُم بقولِه:{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى} فالرُّؤْيَةُ والإدراكُ كُلٌّ منهما يُوجَدُ مع الآخَرِ وبدُونه، فالرَّبُّ يُرى ولا يُدرِكُ، كما يُعلمُ ولا يُحاطُ به، وهَذَا الذي فَهِمَه الصَّحابةُ والأئمَّةُ مِن الآيةِ. قال ابنُ عباسٍ:"(لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) لا تُحيطُ به"،وقال قتادةُ:"هُوَ أَعْظَمُ مِن أنْ تُدركَه الأبصارُ".(حادي الأرواح (ص: ٢٩٤)

وعلى هذا يكون النفي الذي في الآية نفي للإدراك فقط وليس فيها نفيُ للرؤية ثم إن الرؤيةُ لا تستلزم الإدراكَ لإمكانِ رُؤيةِ الشَّيءِ مِن غيرِ إحاطةٍ بحقيقَته وكنهه ولهذا نجد الرجلَ ينظر إلى الشمس لكنه لا يدركها .



٢- قولِه تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ قالوا:نفى الله الرؤيةَ بلن ولن تفيد النفي المؤبد، وهذا استدلالٌ فاسدٌ، والآيةُ حُجَّةٌ عليهم فإنَّها دالَّةٌ على الرُّؤْيَةِ مِن وجوه:

- أنَّه لا يُظَنُّ بموسى عليه السَّلامُ أنْ يسألَ ربَّه مَا لا يجوزُ عليه.
- أنَّه لم يُنكِرْ عليه سؤالَه، ولو كان مُحالاً لأنكره عليه.
- أنَّه أجابَه بقولِه: (لَن تَرَانِي) ولم يَقُلْ إِنِّي لا أُرى، أو لا تَجوزُ رُؤيتِي، فهَذَا يدلُّ على أنَّه يُرى ولكنَّ موسى لا تَحتمِلُ قُواه رُؤيتَه فِي هَذِهِ الدَّارِ لِضَعْفِ قوَّةِ البَشرِ فيها عن رُؤيتِه تعالى.
- أن (لن) ليست للنفي المؤبد على الصحيح كما قال ابن مالك في الكافية الشافية:

وَمَنْ رأى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا.

فيكون النفيُ في الآية المقصودُ به نفيُ الرؤية في الدنيا ويدل على ذلك أن موسى عليه السلام طلب الرؤيةَ في ذلك الوقت وهو في الدنيا ولم يطلبها في الآخرة لقوله:﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ .فلن هنا لتأكيد النفي لا لتأبيده، فهذه الآية حجةٌ عليهم من عشرةِ أوجهٍ كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابنُ تيمية وابن أبي العز شارحُ الطحاوية .

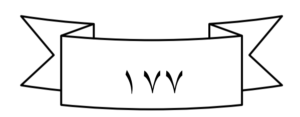
فإن قيل هل رؤية الله منتفية في الدنيا عقلا كما هي منتفية شرعا ؟

ج: **رؤية الله تعالى في الدنيا جائزة عقلاً، لكنها غير واقعة شرعاً**، لقول النبي صلى الله عليه وسلم محذراً من الدجال: " تعلمون أنه لن يرى أحدكم ربه حتى يموت، وإنه مكتوب بين عينه ك ف ر يقرؤه من كره عمله" رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

٣- قولهم : إن إثبات الرؤية يلزم منه إثبات أن الله في جهة، ولو كان في جهة لكان جسما والله منزه عن ذلك.
والجواب عن هذه الشبهة أن نقول : لفظ الجهة فيه إجمال . فإن أريد بالجهة أنه حال في شيء من مخلوقاته فهذا باطل والأدلة ترده وهذا لا يلزم من إثبات الرؤية، وإن أريد بالجهة أنه سبحانه فوق مخلوقاته فهذا ثابت لله سبحانه ونفيه باطل وهو لا يتنافى مع رؤيته سبحانه .

فهذه الرؤية الثابتة تكون كما يشاءُ اللَّهُ تعالى مِن غيرِ إحاطةٍ ولا تكييفٍ،ولا نَدخُلُ فِي ذَلِكَ متأوِّلِينَ بآرائِنا، ولا مُتَوَهِّمِينَ بأهوائِنا، كما قال الإمامُ الشَّافِعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:"آمنتُ باللَّهِ على ما جاءَ مِن عندِ اللَّهِ على مُرادِ اللَّهِ، وآمنتُ برسولِ اللَّهِ وبِما جاءَ عن رسولِ اللَّهِ على مُرادِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ".

....



فصل:وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ، فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ :مَن رَّبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّك؟ فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمؤْمِنُ :رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي .وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ :هَاه هَاه؛ لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ. ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ .

....

هذا الفصلُ عقده المصنف رحمه الله لبيان ما يدخل في وجوب الإيمان باليوم الآخر مما يكون بعد الموت

والإيمانُ بمثل هذه الأمور مما امتدح الله بها عباده المؤمنين لأنه من الإيمان بالغيب قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ .

واليوم الآخر كما تقدم هُو أحدُ أصولِ الإيمانِ السِّتَّةِ المذكورةِ في حديثِ عُمرَ وغيرِه، **والمرادُ بالإيمانِ بِهِ التَّصديقُ بما يَقعُ من الحسابِ، والميزانِ، والجنَّةِ، والنَّارِ، وغيرِ ذلكَ، وسُمِّيَ باليوم الآخر** لتأخُّرِه عن الدُّنْيَا ولأنه لا يومَ بعده .

والإيمانُ مما يكونُ بعدَ الموتِ يكون بكُلِّ ما أخبرَ بِهِ النَّبِيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مِن فِتنةِ القبرِ وعذابِه ونَعيمِه، وكونِه حُفرةً مِن حُفَرِ النَّارِ،أو رَوْضةً مِن رياضِ الجنَّةِ، وتوسِيعِه على بعضٍ وتَضييقِه على بعضٍ، وضَغْطِه، ونحوِ ذَلِكَ، وإعادةِ الرُّوحِ إلى الميِّتِ، **فيؤمنون بما يَقعُ في البَرْزَخِ** ممَّا وَرَدَتْ بِهِ الأدلَّةُ، والبَرزخُ لُغةً: الحاجزُ بين الشَّيْئَيْنِ، كما قال سُبْحَانَهُ وتعالى: (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ) أي حاجزٌ، وفي الشَّرعِ: البَرزخُ مِن وقتِ الموتِ إلى القيامةِ مَن ماتَ دَخَلَه، **وسُمِّيَ بَرزخًا** لكونِه يَحجِزُ بين الدُّنْيَا والآخرةِ.

واعلم أنه بعد موت العبد وقبل فتنتة في قبره فإن الأدلة كحديث البراء بن عازب وأبي هريرة رضي الله عنهم دلت على بيان حال الروح بعد الموت وقبل الدفن، **وهو أنها إذا كانت روح العبد المؤمن** فإن الملائكة يبشرونها قبل قبضها بمغفرة الله ورضوانه ، ثم يحنطونها ويطيبونها بعد موتها ثم يصعدون بها وهي سعيدة إلى ربها سبحانه ، فيقول الله عز وجل : (اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ) فتعاد الروح إلى جسدها الذي كانت فيه ثم يُسأل صاحبها في القبر فيثبته الله بالقول الثابت ، ويفسح له في قبره مد البصر.

أما إذا كانت روح الكافر فإن الملائكة يبشرونها بالنار وسخط الله ، ثم يصعدون بها ، مقبوحةً ذليلة خائفة ، فلا تفتح لها أبواب السماء ، ثم تطرح أرضا ثم تعاد إلى جسده ، فيفتن صاحبها في قبره ويضيق عليه ، ويأتيه من حر النار وسمومها .

فائدة: مَثَّلَ النبي ﷺ في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل خروجَ نفسِ المؤمنِ عندَ الموتِ كخروجِ القطرةِ من فِيِّ السقاءِ أي: أنه بسهولةٍ ويسرٍ لا عنفَ فيه ولا مشقةَ أما الكافرُ والمنافقُ قَدْ مَثَّلَهُ بخروجِ السفودِ عندما يوضعُ في الصوف والسفود هو الشوك.

والمراد بفتنة القبر: الإختبار والسؤال الذي يمتحن فيه الميت في قبره من سؤال الملكان كما سيأتي بيانه في عِدَّةِ أخبارٍ يَبلُغُ مجموعُها حَدَّ التَّواتُرِ.

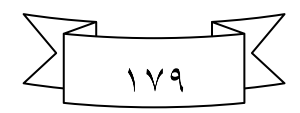
أما عذابِ القبرِ ونَعيمِه فقد تَواتَرَت الأخبارُ عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في ثُبوتِ عذابِ القبرِ لمن كان أهلاً لذَلِكَ،**ولا يتكلم في كَيفيَّتِه**، إذْ ليس للعقلِ وقوفٌ على كيفيَّتِه؛ لكونِه لا عَهْدَ له بِهِ في هَذِهِ الدَّارِ، ولم يأتي في النصوص ما يدل عليه وعلى هَذَا دَرَجَ السَّلَفُ الصَّالِحُ.

أما الأدلة الدالة على ثبوته فهي كثيرة متواترة منها ما في الصَّحيحَيْنِ عن عائشةَ رضي اللَّهُ عنها أنها قالت: سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عن عذابِ القبرِ قال: ((نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ)) وفي صحيحِ مسلمٍ عن ابنِ عباسٍ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه كان يُعلِّمُهم هَذَا الدُّعاءَ كما يُعلِّمُهم السُّوَرَ مِن القرآنِ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ،وَعَذَابِ الْقَبْرِ،وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ)).

وقال المَرُّوذِيُّ:قال أبو عبدِ اللَّهِ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه اللَّهُ :"عذابُ القبرِ حَقٌّ لا يُنكِرُه إلا ضالٌّ مُضِلٌّ". **وعذابُ القبرِ على الرُّوحِ والبَدَنِ قال تقيُّ الدِّين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:"العذابُ والنَّعيمُ على النَّفْسِ والبَدنِ جميعًا باتِّفاقِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ"**.(مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٢)

وقد ذهب إلى إنكار عذاب القبر المعتزلةُ وأكثر الخوارج وبعض المرجئة وقالوا:إننا لا ندركه ولا نرى تعذيبَ الميتِ ولا سؤَالَه والصحيحُ إثباتُ ذلك كما تقدم، **أما الجوابُ عليهم فيقال**:إنَّ عدمَ إدراكِنا ورؤيتِنا للشيءِ لا يدل على عدم وقوعه فكم من أشياءَ لا نراها وهي موجودةٌ ومن ذلك عذابُ القبر ونعيمُه،فهو من الأمور الغيبة التي حجبت عن الأعين ولا تستطيع العقول إدراكَها، وأمورُ الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا وبهذا يتبين من يؤمن بالغيب ممن لا يؤمن به.

أما فتنة القبر فإنَّ النَّاسَ ذكورا وإناثا يمتحنون في قُبورِهم وذلك بأنْ تُعادَ أرواحهم إلى أجسادهم، كما في حديثِ البراءِ وغيرِه،وهذه الإعادةُ غيرَ الإعادةِ المألوفةِ في الدُّنْيَا، لِيُسألَ ويُمتَحنَ في قبرِه.



وهَذَه الإعاد للروح إعادةٌ خاصَّةٌ تُوجِبُ حياةَ البَدنِ قبلَ يومِ القيامةِ، **فإنَّ الرُّوحَ لها مع البَدَنِ خمسةُ أنواعٍ مِن التَّعلُّقِ متغايرةُ الأحكامِ:**

أحدُها: تَعلُّقُها بِهِ في بَطنِ الأُمِّ جَنِينًا.**الثَّاني:** تعلقها بِهِ بعدَ خُروجِه إلى الأرضِ. **الثَّالثُ:** تَعلُّقُها بِهِ حالَ النَّومِ، فلها تَعلُّقٌ بِهِ مِن وجهٍ ومُفارَقةٌ مِن وجهٍ. **الرَّابعُ:** تعلُّقُها بِهِ في البَرزخِ، فإنَّها وإنْ فارقَتْه وتجرَّدَتْ عنه فإنَّها لم تُفارِقْه فِراقًا كُلِّيا. **الخامِسُ:** تعلُّقُها بِهِ يومَ بَعثِ الأجسادِ، وهَذَا أَكْملُ أنواعِ تعلُّقِها بالبَدنِ. (انظر:الروح ٤٣)

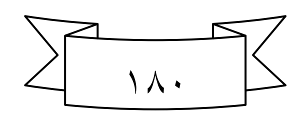
فإذا إعيدت الروح للبدن للسؤال والإختبار يُقال للرجل أو المرأة والقائل: الملَكانِ، واسمُهما (مُنكَرٌ ونكيرٌ) كما نَصَّ على ذَلِكَ أحمدُ، وفي حديثِ أبي هريرةَ: ((يَأْتِيهِ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَلِلآخَرِ النَّكِيرُ)) رواه ابنُ حِبَّانَ والتِّرمذِيُّ وقال:"حسن غريب" وحسنه أيضاً الألباني كما في السلسلة الصحيحة، وفي روايةِ ابنِ حِبَّانَ: ((يُقالُ لَهُمَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ)) إلا أن بعض أهل العلم قال: لم يثبت في تسميتهما حديث ،لكن مع هذا فقد أثبت التسمية عدد من الصحابة كأبي الدرداء وابن عباس رضي الله عنهم وأثبته أيضاً عدد كبير من أئمة السلف كالإمام أحمد وابن أبي عاصم وابن قدامة وابن تيمية والبربهاري والطحاوي وابن عساكر وغيرهم.

وسُمِّيا بهذا الإسم: لأنَّ الميِّتَ لم يَعرِفْهُما ولم يَرَ صورةً مِثلَ صورَتِهما، وذَكَر بعضُ العلماءِ أنَّ اللذَيْنِ يسألانِ المؤمِنَ اسمُهما البَشيرُ والمبَشِّرُ، لكن الأوَّلُ هُوَ الصَّحيحُ.

فيُقالُ للرَّجُلِ أو المرأة مَن رَبُّكَ ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ فيقول المؤمن ربي الله والإسلام ديني ومحمد نبي عليه الصلاة والسلام ويدل على ذلك ما أَخرجَه الشَّيخانِ مِن حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ رضي اللَّهُ عنه عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِه: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...)، قال: نَزَلَتْ في عذابِ القبرِ، زادَ مسلمٌ: ((فَيُقَالُ لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ)) فذَلِكَ: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ...).

وفي الصَّحيحَيْنِ مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟)) لمحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ((فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ وَقَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ: فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً - يعني الْمَقْعَدَيْنِ)).

قال قتادةُ:"ذُكِرَ لنا أنَّه يُفسَحُ له في قبرِه، وأمَّا المنافِقُ والكافرُ فَيُقالُ له: ما تقولُ في هَذَا الرَّجُلِ؟ فيقولُ: لا أدري، كنتُ أقولُ ما يقولُ النَّاسُ، فيقال: لا دَرَيْتَ، ولا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بِمِطْرَاقٍ مِن حديدٍ ضَربةً فَيَصِيحُ صيحةً يَسمَعُه مَن يَلِيه غيرُ الثَّقلَيْنِ".



فقولُه: (**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**) نَزَلَتْ هَذِهِ الآيةُ في سؤالِ المكلَّفِينَ في القبرِ، كما قالَه الجمهورُ، قال الطبريُّ رحمه الله:" يُثَبِّتُهم في الدُّنْيا على الإيمانِ حتى يَمُوتوا، وفي الآخرةِ عند المسألةِ".

والمراد (**بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**) هو ما ثَبَتَ عندَهم بالحُجَّةِ، **وهي كلمةُ التَّوحيدِ، وثُبوتُها تَمكُّنُها في القلبِ**، واعتقادُ حقيقَتِها، واطمئنانُ القلبِ بها وثباته عليها في الدنيا والأخرة، **وبالجُملةِ فالمرءُ على قَدْرِ ثَباتِه في الدُّنْيَا يكونُ ثباتُه في القبرِ وما بعدَه.**

قال ابن القيم رحمه الله في الزاد :"حال العبد في القبر كحال القلب في الصدر"

وأما (**المُرتابُ**)وهو الشَّاكُّ ويدخل فيه الكافر والمنافق (**فيقولُ:هاه هاه**) وهي كلمةُ توجُّعٍ، والهاءُ الأُولى مُبْدَلةٌ مِن همزةِ آه، وهُوَ الأليقُ بمعنى هَذَا الحديثِ **وقال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله:" وتأمل قوله :" هاه ! هاه ! " كأن شيئا غاب عنه ؛ يريد أن يتذكره ، وهذا أشد في التحسر ؛ أن يتخيل أنه يعرف هذا الجواب ، ولكن يحال بينه وبينه ، ويقول : هاه! هاه!** ، ثم يقول : (**سمعت الناس يقولون شيئا فقلته**) أي:تقليدا لهم . ولا يقول : ربي الله **!** ولا ديني الإسلام **!** ولا نبيي محمد **!** لأنه في الدنيا مرتاب شاك **!** لأنه لم يؤمن حقيقة بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . فيستعجم عليه الجواب، ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم كما قال تعالى:{ ويضل الله الظالمين }

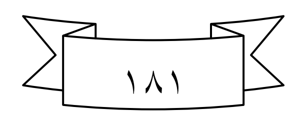
قال: (**فيُضرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِن حديدٍ**) قال في النِّهايةِ: المِرْزَبَةُ بالتَّخفيفِ: المِطْرَقةُ الكبيرةُ التي للحدَّادِ.

قال: (**يَسْمَعُها كُلُّ شيءٍ إلاَّ الإنسانَ**) وفي حديثِ أنس في الصحيحين:(فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ) أي: الجِنِّ والإِنْسِ **وسموا بالثقلين**:"لأَنَّهم كالثِّقَلِ على وجْهِ الأرضِ".(فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٤٠)

قال: (**ولو سمعها لَصُعِقَ**) الصعقُ هو أن يُغْشَى على الإنسان لصوتٍ شديدٍ يسمعه قد يموت بسببه وقد لا يموت كما ذكره ابن الأثير في (النهاية)

ومن حكمة الله أن ما يجري على الميت في قبره لا يشعر به الأحياء، لأنه من أمور الغيب، ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة وهي الإيمان بالغيب.

قال: (**ثم بعد هَذِهِ الفتنةِ إمَّا نعيمٌ وإمَّا عذابٌ**) في هذا بيان أن الناس **بعد سؤالهم واختبارهم ينقسمون إلى قسمين في قبورهم: إما منعم في قبره، وإما معذب، والنَّاسَ بالنِّسبةِ لدوامِ عذابِ القبرِ وعَدمِه يَنقسِمونَ إلى قِسمَيْنِ:**



القسم الأول: من عذابُه أبدي دائم لا يَنقطِعُ حتى تقوم الساعة وهو عذاب المشركين، كما قال سُبْحَانَهُ:(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِياًّ..) وكما في حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ في قصَّةِ الكافرِ: (ثم يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِيهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ). رواه أحمدُ في بعضِ طُرُقِه.

القسم الثَّاني: من عذابه أمدي ثم ينقطِعُ، وهُوَ عذابُ بعضِ العُصاةِ من الموحدين الذين خَفَّتْ جَرائِمُهم، فيُعذَّبُ بحسَبِ جُرْمِه، ثم يُخفَّفُ عنه، وقد يَنقطِعُ عنه العذابُ بدُعاءٍ أو صدقةٍ أو استغفارٍ أو ثوابِ حَجٍّ أو غيرِ ذَلِكَ مِن الأسبابِ.

قال: **(إلى أنْ تقومَ القيامةُ الكُبرى)** أي:أنهم يمكثون في قبورهم على النعيم أو العذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى وهي التي يقوم فيها الناس من قبورهم لرب العالمين،بعد ما ينفخ في الصور نفخة البعث، إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار لكن **وهم مع كونهم ماكثين في قبورهم إلى قيام الساعة فأين تكون أرواحهم ؟**

ج: أرواح المؤمنين مقرها الجنة، وأرواح الكافرين مقرها النار، مع بقاء تعلق واتصال لهذه الروح في القبر ،كما جاءت الأدلة في ذلك.

وسميت القيامة بالكبرى إشارةٌ إلى أنَّ هناك قيامةً صُغرى، وهُي الموتُ ومجيء المنية كما قيل:

خَرَجْتُ مِن الدُّنْيَا وقامتْ قِيامَتِي　　غَداةَ أَقَلَّ الحامِلون جِنازَتِي.

قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ:مَنْ أتته منيتُه فقد قامت قيامتُه .

فالقيامة تطلق على أمرين:

١. الموت

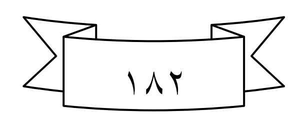
٢.القيامةِ الكبرى لقيام الناس من قبورهم لرب العالمين وهي اليوم الآخر .

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:"**القيامةُ قيامتانِ: صُغرى وكُبرى، فالصُّغرى: ما تقومُ على كُلِّ إنسانٍ في خاصَّتِه مِن خُروجِ رُوحِه وانقطاعِ سَعْيِه وحُصولِه على عِلمِه، وأمَّا الكُبرى: فهي التي تَعُمُّ النَّاسَ وتأخُذُهم أخْذةً واحدةً،** قيل: سُمِّيَ ذَلِكَ اليومُ يومَ القيامةِ؛ لكونِ النَّاسِ يَقُومون مِن قُبورِهم، قال تعالى: (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ) وقال: (يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا) وروى مسلمٌ في "صحيحِه" مرفوعا: (يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، قال: يقومُ أحدُهم من رَشْحِه إلى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ))، قال ابنُ عمرَ: يقومونَ مائةَ سَنةٍ".

وهنا مسائل متعلقة في كلام المصنف رحمه الله:

المسألة الأولى:هل السؤال في القبر يشمل كل أحد ؟

محل خلاف بين أهل العلم :



القول الأول:أن السُّؤالَ في القبرِ **عامٌّ للمؤمِنِ والفاسِقِ والكافرِ،وبه قال جمهورُ العلماءِ** ونقل هذا غير واحد من أهل العلم كالسفاريني وهو قول ابن تيمية ولهذا قال:(فإن الناس يفتنون في قبورهم) وأيضاً هو قول ابنُ القيّمِ في كتابه (الروح).

القول الثاني: أنه **لا يُسأَلُ إلا مؤمِنٌ أو منافق** بخلافِ الكافرِ فإنه لا يسأل لأنه جاحد للأسلام وبه قال ابن عبد البر في كتابه (التمهيد).

والراجح هو القول الأول لأنه هو الموافق لظاهر الكتاب والسنة، قال اللهُ تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) وفي البخاريِّ: ((وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لاَ أَدْرِي) بالواو، ورَجَّحَه أيضًا ابنُ حجَرٍ.

المسألة الثانية: هل سؤال القبر خاصٌّ لأمة محمد ﷺ أم هو عامٌّ لجميع الأمم ؟

فيه خلاف بين أهل العلم على أقوال:

القول الأول: أنه خاص بأمة محمد ﷺ وهذا قول الحكيم الترمذي كما في كتابه (النوادر) ومن أدلتِه:

١.قولُه ﷺ :(إِنَّ أُمَّتِي يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ) رواه مسلم .وقولُه ﷺ :(بِي تُفْتَنُونَ) رواه أحمد. وما جاء في الأحاديث نحو قوله:(مَنْ نَبِيُّكَ وَمَا دِينُكَ) قال:وكلها ظاهرها التخصيص لأمة محمد ﷺ .

القول الثاني: التوقفُ وبه قال: عبد البر كما في (التمهيد) .

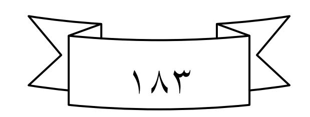
القول الثالث: أن سؤال القبر عامٌّ لأمة محمدٍ وغيرِهم من الأمم واختاره القرطبيُّ وابنُ القيم في (الروح) وعبدُ الحقِّ الأشبيليُّ وغيرُهم **وهو الراجح** لأن أدلة القول الأول تُنَزَّلُ على جميع الأمم مع نبيها وهنا يزول الإشكال .

لكن يُستثنَى ممَّا تقدَّمَ المرابِطُ في سبيلِ اللهِ، فقد صَحَّ أنَّه لا يُفْتَنُ في قبرِه، كما في صحيحِ مسلمٍ وغيرِه، **وكشهيدِ المعركةِ، والصَّابرِ في الطَّاعونِ، وغيرِ هؤلاء ممَّا جاءَ في الأحاديثِ استثناءه.**

المسألة الثالثة:ذهب جماهيرُ أهل العلم من أهل السنة والجماعة إلى أن كل من مات من الثقلين الإنس والجن فإن سينالُه نصيبُه مِن فتنةِ السُّؤالِ وضغطةِ القبرِ وأنه سيأتيه من العذاب أو النعيم على حسب ما قدر الله له سواء دفن في القبر أو مات محروقا أو مصلوباً أو كان هباءً منثوراً.

قال ابنُ القيّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:"ومِمَّا ينبغي أنْ يُعلَمَ أنَّ عذابَ القبرِ هُوَ عذابُ البَرزخِ، فكُلُّ مَن ماتَ، وهُوَ مستحِقٌّ للعذابِ نالَه نصيبُه مِن ذَلِكَ قُبِرَ أو لم يُقْبَرْ، فلو أَكَلَتْهُ السِّباعُ أو أُحرِقَ حتى صار رماداً أو نُسِفَ في الهواءِ أو غَرِقَ في البَحرِ، وصَلَ إلى رُوحِه وبَدَنِه مِن العذابِ ما يَصِلُ إلى المقبورِ". (الروح ٥٨)

المسألة الرابعة: هل الأطفال يفتنون في قبورهم أم أن هذا خاص بالمكلفين ؟



فيه خلاف بين أهل العلم على أقوال:

القول الأول: أنهم يسألون لأنهم سيختبرون في الآخرة وهُوَ منقولٌ عن الحَنَفِيَّةِ وقال به بعضِ المالكيةِ الحنابلة وجزم به القرطبي واختارَه أيضاً شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية كما نقلَه عنه في صاحب (الفروع).

قال ابنُ القيّمِ رحمه الله:" **وحجةُ من قالَ إنَّهم يُسأَلون** :أنَّه يُشرَعُ الصلاةُ عليهم ، والدعاءُ لهم ، وسؤالُ اللهِ أن يقيَهم عذابَ القبرِ وفتنةَ القبرِ .كما ورد ذلك عن أبي هريرة وعائشةَ رضي الله عنهم بأنهم دعو الله لهم بأن يقيهم عذاب القبر وضمته. قالوا :واللهُ سبحانه يُكمِّل لهم عقولَهم ليعرِفوا بذلك منزلَهم ، ويُلهمون الجوابَ عما يُسأَلون عنه.(الروح ٨٧)

القول الثاني: أنهم لا يُسْأَلون فالسؤال خاص بالمكلفين وهو قولُ الشافعيةِ ، وبعضِ المالكية والحنابلة **وظاهر كلام ابن القيم رحمه الله أنه يميل إلى هذا القول** لكنه قال بأنه قد يسري عليه من الألم والحسرات في قبره بسبب غيره ومنه قولُه صلى الله عليه وسلم : (إنَّ الميتَ ليعذبُ ببكاءِ أهلِه عليه) أي : يتألَّمُ بذلك ويتوجَّعُ منه، لا أنّه يعاقَبُ بذنبِ الحيِّ .

وحجة هذا القول: أن هؤلاء ليسوا بمكلفين في الأصل فكيف يسألون إذ لا فائدة من سؤال من لم يكلف.

وأما القياس على أمر الآخرة فقياس مع الفارقِ لأن أحوالَ الآخرة تختلف عن أحوال الدنيا ففي الآخرة توضعُ لهم العقول والقدرةُ بخلاف القبور فهم في الأصل غيرُ مكلفين ولا مأمورين لعدم تكليفهم. (**الروح ٨٨**)

المسألة الخامسة: أنَّ السُّؤالَ والجوابَ يكونُ باللُّغةِ العربيَّةِ، **خِلافا لما ذُكِرَ** عن البَلقينيِّ من أنَّه يُجِيبُ باللُّغةِ السُّريانيَّةِ؛ إذْ لا دليلَ عليه.

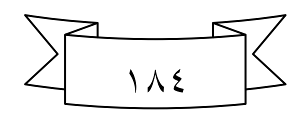
المسألة السادسة: هل العذابُ يقعُ على البدن والروح أم على الروح فقط ؟

ج: أما الروح فمتفق على وقوع العذاب عليها وأما البدن فقد أُخْتُلِفَ في وقوع العذاب عليه، فقيل: لايقع عليه، وقيل: يقع عليهما جميعاً وهو الراجح والأدلَّةُ صريحةٌ بِذَلِكَ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (الفتاوى)

المسألة السابعة: أنَّ الملائكةَ الذين يسألُونَ في القَبرِ اثنانِ، وزَعَم بعضُهم أنَّهم أربعةٌ، والصَّحيحُ الأوَّلُ للأدلَّةِ الصَّحيحةِ في ذَلِكَ

المسألة الثامنة: أنَّ السُّؤالَ في القبر مَرَّةٌ واحدةٌ لا يتكرر وأما ما نقله السيوطي وغيره عن بعض التابعين كطاووس ومجاهد من أنَّ المؤمِنَ يُفتَنُ في قبره سَبعًا والكافِرُ أربعين صباحًا، ومِن ذَلِكَ كانوا يَستحِبُّون أنْ يُطعَمَ عن المؤمنِ سبعةَ أيامٍ مِن يومِ دَفْنِه فهذا لا يثبت ولا يصح.

المسألة التاسعة: في قوله:(سمعت الناس يقولون شيئا فقلته) فيه ذَمُّ التَّقليدِ في الاعتقاداتِ لمِعاقَبةِ مَن قال ذلك.



والتقليد في الإعتقاد محل خلاف بين أهل العلم على قولين:

القول الأول:أنه لا يجوز التقليد في العقائد وعليه أكثر أهل العلم قالوا: لكي لا يقع العبد في التقليد المذموم ويقع في من قال الله عنهم:{ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}فيجب عليه أن يبحث ويستدل لكي يجزم في العقيدة.

القول الثاني: أنه يصح التقليد في الإعتقاد لمن يوثق به بشرط أن يجزم الإنسان بما يقلد به. وهو الراجح وعليه كثير من أهل العلم كالسفاريني وابن قدامة والشنقيطي وبعض فقهاء الحنابلة والشافعية لعموم قوله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}وقوله: {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}فأخبر الله تبارك وتعالى أن الذي يرجع إلى قومه للدعوة والإنذار من الرسل ويصدقونه ثقة به فليس عليهم من سبيل.

قال:(**فتُعادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون)**

بعد ما تقوم القيامة الكبرى التي أخبر الله عنها في كتابه وسنة رسوله وأجمع عليها المسلمون تعاد الأرواح إلى الأجساد التي في القبور.

والأرواحُ: جمعُ رُوحٍ وهُوَ ما يَحيا به الإنسانُ، وهُوَ مِن أمرِ اللَّهِ لا يعلم حقيقتها إلا هو، كما قال سُبْحَانَهُ: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي).

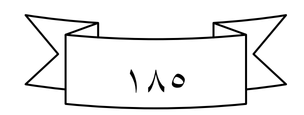
فتجمعُ أجزاءِ الإنسانِ بعد تَفرُّقِها ثم تحيى الأبدانِ بعد مَوْتِها، فيَبعثُ اللَّهُ جميعَ العِبادِ ويُعيدُهم بعد موتِهم، ويَسوقُهم إلى مَحْشَرِهم لفَصْلِ القضاءِ بينهم، وأدِلَّةُ ذَلِكَ ثابتة في الكِتاب والسُّنَّةِ والإجماعِ.

قال ابنُ القيِّمِ وغيرُه: "معادُ الأبدانِ متَّفقٌ عليه بين المسلِمِينَ واليهودِ والنَّصارى". (الروح ٥٢).

وقد روى ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: جاءَ العاصُ بنُ وائلٍ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بعَظمٍ حائلٍ ففَتَّه بيدِه، فقال يا مُحَمَّدُ: يُحْيِي اللَّهُ هَذَا بعدَ ما أَرِمَ ؟ قال: ((نَعَمْ يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا، ثُمَّ يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ))، فنزَلَت الآياتُ مِن آخرِ سورةِ يس: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ }.

فهَذَا نصٌّ صريحٌ في الحشْرِ الجُسمانيِّ، وقد وَردَ في عدة مواضعَ مِن القرآنِ التَّصريحُ بِهِ بحَيْث لا يَقبل التأويلَ، فيجب الإيمان به، واعتقاده، ويكفرُ منكره كما تَقدَّمَ.

وتكون هذه القيامة **حين يَنفُخُ إسرافيلُ في الصُّورِ نفخةَ البَعثِ والنُّشورِ**، قال تعالى:(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ).**وإذا أُطلِقَ النَّفخُ في الصُّورِ فالمرادُ بِهِ نفخةُ البَعثِ.**



ويجب الإيمان بالبعث والنشور، ويكفر الإنسان بإنكاره، قال اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

والبعثُ والنُّشورُ مترادفانِ،وهما بمعنى إعادةِ الأبدانِ وإدخالِ الأرواحِ فيها، يُقالُ: نَشَرَ الميِّتَ وأَنْشَرَهُ بمعنى أَحْيَاه، وأمَّا الحشر فهُوَ لغةً: الجمْع، تقولُ: حشرْتُ النَّاس إذا جمَعْتُهم.

وأمَّا النَّفخُ في الصُّورِ فيُنفخُ فيه ثلاثُ نفَخاتٍ:

١- **نفخةُ الفزَعِ** وَهِيَ التي يَتغَيَّرُ بها العالَمُ، قال اللَّهُ تعالى: (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ) وسميتْ نفخة الفزَعِ بذلك لِما يَقعُ مِن هولِ تِلْكَ النَّفْخَةِ.

٢- **النَّفخةُ الثَّانيةُ نفخةُ الصَّعقِ،** وفيها هلاكُ كُلِّ شيءٍ إلا ما استثني قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثم نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) وفُسِّرَ الصَّعقُ بالموتِ وهُوَ متناوِلٌ حتى الملائكةَ، **والاستثناءُ متناوِلٌ** لمن في الجَنَّةِ مِن الحُورِ العِينِ وغيرِهم ممن جاء النص فيه.

٣- **النفخة الثَّالثُ: نفخةُ البَعثِ والنُّشورِ بواسطة إسرافيل،** قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ) وقال: (ثم نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) وأَخرجَ ابنُ جريرٍ والبيهقيُّ وغيرُهما مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه الطويل قال: قلتُ يا رسولَ اللَّهِ: وما الصُّورُ؟ قال: ((عَظِيمٌ إِنَّ عِظَمَ دَارِهِ فِيهِ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَيُنْفَخُ فِيهِ ثَلاَثَ نَفَخَاتٍ: الأُولى: نَفْخَةُ الْفَزَعِ، والثَّانِيَةُ: نَفْخَةُ الصَّعْقِ، والثَّالِثَةُ: نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)) رواه الطبراني قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره:" قال ابن كثير: هذا حديث مشهور وهو غريب جداً ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع وقد اختلف فيه: فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي وعمرو بن علي الفلاس..."

....

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ وَيُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّة .

إذا أعيدت الأرواح للأجساد كما تقدم يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين قال سُبْحَانَهُ: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وروى مسلمٌ في "صحيحِه" عن ابنِ عُمرَ مرفوعًا: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) قال:" يقومُ النَّاسُ حتى يَغِيبَ أحدُهم في رَشْحِه – أي: في عرقه – إلى نِصفِ أُذُنِه"وهذا بحسب عمله، وفي الصحيحين وغيرِهما عن ابن عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يَخْطُبُ على المنبرِ يقولُ: ((إِنَّكُمْ مُلاَقُو رَبِّكُمْ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً) وزادَ في روايةٍ ((مُشَاةً)). وفي روايةٍ فيهما قال: قام رسولُ اللَّهِ فِينا بموعظةٍ، فقال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إلى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقولُه: (**حُفاة**) جمعُ حافٍ: وهُوَ الذي ليس عليه نَعلٌ ولا خُفٌّ،وقولُه: (**عُراةً**) جمعُ عارٍ: وهُوَ الذي ليس عليه لِباسٌ، وقولُه: (**غُرْلاً**) بِضَمِّ الغَيْنِ المعجمةِ، وإسكانِ الرَّاءِ جمعُ أَغْرَل: وهُوَ الأقلفُ.

وفي "الصَّحيحَيْنِ" مِن حديثِ عائشةَ –رضي اللَّهُ عنها– قالتْ: قلتُ: يارسولَ اللَّهِ، الرِّجالُ والنِّساءُ جميعا يَنْظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال: ((الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ)).وعن أمِّ سلمة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول:(يُحْشَرُ النَّاسُ يومَ الْقِيَامَةِ عُرَاةٍ حُفَاةً) فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ:فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ وَاسوأَتَاهُ يَنْظُرُ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ:(شَغَلَ النَّاسَ) قُلْتُ:مَا شَغَلَهُمْ؟ قَالَ:(نَشْرُ الصُّحُفِ فِيهَا مَثَاقِيلُ الذَّرِّ وَمَثَاقِيلُ الْخَرْدَلِ) رواه الطبراني في الأوسط وصححه المنذري وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:"رجالُه رجالُ الصحيح غيرَ محمدِ بنِ موسى بنِ أبي عياشٍ وهو ثقة" والحديث ضعفه الألباني رحمه الله الجميع.

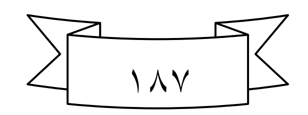
وهل يستمر عرائهم من ثيابهم ؟

ج: لا وإنما لفترة محدودة ثم يكسون وأول من يُكْسَى إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما ثبت ذلك في الصحيحين.

مسألة:ما الجمعُ بين ما جاء عن النبي ﷺ :(وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ) متفق عليه، وبين ما جاء عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله ﷺ :(أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يومَ الْقِيامَةِ وَأَنَا أَكْثَرُ النَّاسِ تَبَعاً وَإِنَّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لَنَبِيًّا مَا يُؤْمِنُ لَهُ يَومَ الْقِيَامَةِ إِلا رَجُلٌ وَاحِدٌ) رواه ابن منده في (الإيمان) .

قال الحليمي:**يجمع بأنه يكسى أولاً ثم يكسى نبينا ﷺ على ظاهر الخبر لكنَّ حُلَّةَ نبينا ﷺ أعلى وأكمل فتجبرُ نَفَاسَتُهَا ما فات من الأَوَّلِيَّةِ** والله أعلم . فتح الباري لابن حجر (١١/٣٨٥) .

ويقال:إن الحكمةَ في خصوصيةِ إبراهيم بذلك لكونه أُلْقِيَ في النار عريانا وقيل:لأنه أولُ من لَبِسَ السراويلَ ولا يلزم من خصوصيته عليه السلام بذلك تفضيلُه على نبينا محمد ﷺ لأن المفضولَ قد يمتازُ بشيءٍ يخصُّ



به ولا يلزمُ منه الفضيلةُ المطلقةُ ويمكن أن يقال:لا يدخل النبي ﷺ في ذلك على القول بأن المتكلمَ لا يدخل في عموم خطابِه وقد ثبت لإبراهيم عليه السلام أولياتٌ أخرى كثيرةٌ منها أولُ من ضافَ الضيفَ وقصَّ الشاربَ واختتَنَ ورأى الشيبَ وغيرُ ذلك . (انظر:فتح الباري لابن حجر (٦/٣٩٠) .

قال العلماءُ رَحِمَهُم اللَّهُ: مراتبُ المعادِ: البَعثُ والنُّشورُ، ثم المحْشَرُ، ثم القِيامُ لربِّ العالَمِينَ، ثم العَرْضُ، ثم تطايُرُ الصُّحُفِ، وأَخْذِها باليمينِ والشِّمالِ، ثم السُّؤالُ والحِسابُ ثم الميزانُ.

وقولُه:(**تَدْنُو مِنهم الشَّمسُ ويُلْجِمُهم العَرَقُ**) هنا أبتدا المصنف رحمه الله تعالى بالكلام على ما سيجري يوم القيامة مما ذكر في الكتاب والسنة . **فإن تفاصيل ما يجري في هذا اليوم مما لا يدرك بالعقل، وإنما يدرك بالنقول الصحيحة عن النبي . صلى الله عليه وسلم** .

فذكر رحمه الله أن الشمس تَقْرُبُ من رؤوسهم **حتى تكونَ قَدْرَ مِيلٍ أو ميلَيْنِ**، كما روى مسلمٌ عن المقدادِ –رضي اللَّهُ عنه– قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ –صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ– يقولُ: ((إذا كان يومُ القيامةِ أُدْنِيَتِ الشَّمْسُ مِنَ العِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قَدْرَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ))، قال: ((فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إلجامًا)) قال:وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

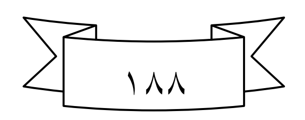
والعقبين هما: مؤخَّرُ القَدمِ، أما الحقو فهو: مَعْقِدُ الإزارِ.

وقولُه: ((**ويُلجِمُهم العرق**)) أي: يصل إلى أفواههم، **فيصير بمنزلة اللجام يمنعهم من الكلام** وذلك نتيجة لدنو الشمس منهم **وظاهرُه التَّعميمُ، لكنْ دَلَّتْ أحاديثُ على اختصاص البعض وهُم الأكثُرُ، ويُستثنى مِن ذَلِكَ الأنبياءُ والشُّهداءُ ومَنْ شاءَ اللَّهُ.**

وأَخرجَ الشَّيخانِ عن أبي هريرةَ مرفوعًا: ((يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ، فهذَا الْيَوْمُ الْعَظِيمُ، فِيهِ مِنَ الأَهْوَالِ الْعَظِيمَةِ وَالشَّدَائِدِ الجَسِيمَةِ مَا يُذِيبُ الأَكْبَادَ، وَيُذْهِلُ الْمَرَاضِعَ، وَيُشِيبُ الأَوْلادَ، قال اللَّهُ تعالى: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ).

وقولُه:(**وتُنْصَبُ الموازينُ، وتُوزنُ فيها أعمالُ العِبادِ، (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُولَئِكَ الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ في جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)**)

من أحداث يوم القيامة نصب الموازين ووزن الأعمال **والموازين:جمع ميزان، وهو الذي توزن به الحسنات والسيئات وقد تكاثَرتْ أدلَّةُ الكتابِ والسنة على إثباتِ الميزانِ، وأجْمعَ أهلُ الحقِ على ثُبوتِه** ووجوبِ الإيمانِ به، **وأنَّه ميزانٌ حقيقيٌ حِسِّيٌ له لِسانٌ وكَفَّانِ**، كما هُوَ صريحُ الأدلَّةِ ومنها حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو في حديثِ



البِطاقةِ، وفيه ((..فَيُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا لاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ ...)) رواه أحمد وغيره، إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأحاديثِ الكثيرةِ التي بلَغَتْ حَدَّ التَّواتُرِ.

وجَمعُ المصنِّفُ الموازينَ ظاهِرُه تَعدُّدُها وبه جزم السفارينيُّ كما في شرحه لمنظومته وجزم به أيضاً ابنُ عطيةَ كما في (المحرر الوجيز) **والراجح أنه ميزانٌ واحدٌ** وهو ما رجحه المصنف في كتبه الأخرى **وأما سبب جمعها في النصوص فلعدة احتمالات نص عليها أهل العلم:**

منهم من قال:لأنَّ **الميزانَ يَشتمِلُ على الكِفَّتَيْنِ والشَّاهِدَيْنِ واللِّسانِ، ولا يَتِمُّ الوزنُ إلا باجتماعِها،ومنهم من قال: بأنَّ الجَمعَ للتَّفخيمِ**، كما في قولِه: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) مع أنَّه لم يُرسَلْ إليهم إلاَّ واحدٌ، **ومنهم من قال: بأن هذا مما يسوغ في اللغة** فيجوزُ أنْ يكونَ اللفض جمعًا والمعنى واحد، كقولِه تعالى: (يا أَيُّهَا الرُّسُلُ) **ومنهم من قال: لأنه توزن فيه أعمالُ الخلق كلِّهم .**

وأمَّا الوزنُ فهُوَ للأعمالِ كما أشار إليه المصنِّفُ، واستدلَّ بالآيةِ المذكورةِ، وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي مالكٍ الأشعريِّ، قال: قال رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ ...)) الحديثَ.

وأَخرجَ أبو داودَ والتِّرمذيُّ وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ عن أبي الدَّرداءِ عنه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ))، وفي الصَّحيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ((كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سبحانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ)) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأحاديثِ الدَّالَّةِ على أنَّ الوزنَ للأعمالِ، **وإلى هَذَا ذَهَب أهلُ الحديثِ.**

وقيل: الوزنُ لصحائفِ الأعمالِ، كما في حديثِ صاحبِ البطاقةِ، وصوَّبَهُ مَرْعِيٌّ في بَهجَتِه، وذَهبَ إليه عدد مِن المفَسِّرينَ، وصحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ والقرطبيُّ وغيرُهما.

وقيل: الذي يُوزَنُ صاحِبُ العَمَلِ نفسه، كما في الحديثِ: ((يُؤْتَى يَوْمَ القِيامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ فَلاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، ثم قرأ قولَه -سُبْحَانَهُ-: (فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا...) .

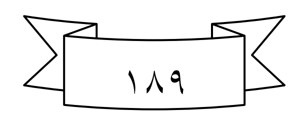
والناظر في الآثار يجد أنها ترجع إلى ثلاثة أمور:

١.أن الموزونَ هو عمل العبد .

٢.أن الموزونَ هو صحائفُ أعمال العبد .

٣.أن الموزونَ هو العبدُ نفسُه .

والجمعُ بينها أن يقال:بأن الكل يوزن كما هو ظاهر النصوص لكنَّ المُؤَثِّرَ بالخِفَّةِ والثِّقَلِ هو العملُ.



قال الغزاليُّ والقرطبيُّ: ولا يكونُ الميزانُ في حقِّ كُلِّ أحدٍ، فالسَّبْعون ألفًا الذين يَدْخلون الجَنَّةَ بغيرِ حسابٍ لا يُرفَعُ لهم ميزانٌ ولا يأخُذونَ صُحُفا... اهـ.

وأيهما أول وزن الأعمال أم المحاسبة ؟

ج: الحساب قبل وزن الأعمال لأنَّ المحاسَبَةَ لتقريرِ الأعمالِ، والوزنَ للجزاء وإظهارِ مَقاديرِ الأعمال؛ ليكونَ الجزاءُ بحسَبِها.

فإن قيل ما الحكمة من وزن الأعمال والله بكل شيء عليم ؟

ج: الحِكمةُ هي إظهارُ العَدْلِ للخلق، وبيانُ الفَضلِ للرب سبحانه وفي هذا الرَّدُّ على المعتزِلةِ الذين أَنْكَروا الميزان، وأولوه بالعدلِ وهَذَا تأويلٌ فاسدٌ مخالفٌ للكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ.

ومِن المقرَّرِ أنَّ أحوالَ البرزخِ وأحوالَ الآخرةِ لا تُقاسُ على ما في الدُّنْيَا، وإن اتَّفقَت الأسماءُ، فنؤمِن بها كما وَرَد مِن غيرِ بحثٍ عن كنهها وحقيقتِها، كما أخبَرَ الصَّادِقُ المصْدُوقُ مِن غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ.

وقولُه: **(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ)** أي: رَجَحَتْ حسَناتُه على سَيِّئاتِه ولو بواحدةٍ كما قال ابنُ عبَّاسٍ **فأُوْلئِكَ هُمُ** المفْلِحونَ الذين فازُوا فنَجَوْا مِن النَّارِ وأُدْخِلُوا الجَنَّةَ.

وقولُه: **(ومَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ)** أي: ثقُلَتْ سيِّئاتُه على حسَناتِه **(فأُولئكَ الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ في جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)** أي: مَاكِثُون فيها مكثا طويلا.

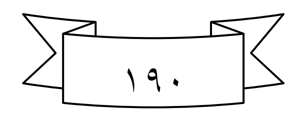
وقولُه:**(وتُنشَرُ الدَّواوينُ وهي صحائف الأعمال) الدواوين جمعُ دِيوانٍ:وهُوَ الدَّفْتَرُ الذي تُكتَبُ فيه أعمالُ العِبادِ**

والصَّحائفُ جمعُ صحيفةٍ: وَهِيَ الورقةُ التي يُكْتَبُ فيها ونشرُها فتحُها وبسطُها قال تعالى:﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴾

فالصحيفة هي: الكتاب أو الورقةُ التي كُتِبَ بها أعمال العباد التي عملوها في الدنيا وهي ما كتبها عليهم الملائكةُ الحفظةُ وذلك أن هذه الصحائفَ تُطْوَى عند الموت وتنشرُ عند الحساب فيقف كلُّ إنسان على صحيفته فإذا رأى ما فيها قال:﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾

وكلمة:صحائف الأعمال توضيحٌ لكلمة الدواوين كما تقدم وقد أخرج البزارُ عن أَنَس عَن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال:(يَخْرُجُ لابْنِ آدَمَ يَومَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ دَوَاوِينَ:دِيوَانٌ فِيهِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَدِيوَانٌ فِيهِ ذُنُوبُهُ وَدِيوَانٌ فِيهِ النِّعَمُ مِنَ اللهِ عَلَيهِ فَيَقُولُ اللهُ:لأَصْغَرُ نِعَمِهِ) أَحْسَبُهُ قَالَ:(فِي دِيوَانِ النِّعَمِ خُذِي ثَمَنَكِ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ، فَيَسْتَوعِبُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ ثُمَّ تَنَحَّيْ وَتَقُولُ:وَعِزَّتِكَ مَا اسْتَوفَيتُ وَتُبْقِي الذُّنُوبَ وَالنِّعَمَ وَقَدْ ذَهَبَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ كُلُّهُ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْحَمَ عَبْدًا قَالَ:يَا عَبْدِي قَدْ ضَاعَفْتُ لَكَ حَسَنَاتِكَ وَتَجَاوَزْتُ عَنْ سَيِّئَاتِكَ أَحْسَبُهُ قَالَ:وَوَهَبْتُ لَكَ نِعْمَتِي) .

وهذا الحديث فيه مقال لأن فيه صالحٌ المريُّ وهو ضعيف.



وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:(يُعْرَضُ النَّاسُ يومَ القيامةِ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ: فَعَرْضَتَانِ جِدَالٌ وَمَعَاذِيرٌ، وَعَرْضَةٌ تَطَايُرِ الصُّحُفِ،فآخذ كتابه بيمينه وآخذكتابه بشماله دخل النار))رواه أحمدُ والترمذيُّ.

وقَوْلُهُ:(**فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**) لقوله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ .

وقَوْلُهُ:(**وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ**) لقوله تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ .

وقَوْلُهُ:(**أَوْ مِنْ وَّرَاءِ ظَهْرِهِ**) لقوله:﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾.

وأَخْذُ العبد كتابَه يوم القيامة له صورتان:

١.أخذٌ باليمين .

٢.أخذٌ بالشمال **لكن اختلفوا في أخذ الكتاب من وراء الظهر على أقوال:**

الأول:أن يدَه الشمالَ تنزعُ وتوضعُ وراءَ ظهره فيأخذُ كتابه بشماله وهذا محكي عن مجاهد .

الثاني:أن يدَه الشمالَ تلوى خلفَ ظهره فيأخذُ كتابَه بها وهذا روي عن ابن المسيب .

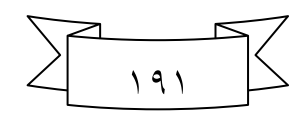
الثالث:أن يدَه الشمالَ تدخلُ في صدره وتخرجُ من وراء ظهره فيأخذ كتابَه بشماله وقيل غيرُ ذلك لكنَّ الاتفاقَ قائمٌ على أنه يأخذ كتابه بشماله فالمؤمنُ الطائعُ يأخذ كتابه بيمينه نسأل الله من فضله، أما الكافرُ والمنافقُ فيأخذونه بشمالهم من وراء ظهرهم نسأل الله العافية .

مسألة: المؤمنُ العاصي هل يأخذ كتابَه بيمينه أم بشماله ؟

ج: قيل: بشماله، وقيل: بيمينه وبه قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله كما في شرحه على السفارينية في الأسئلة، وقيل: بيمينه لكن بعد خروجه من النار .

وقولُه تعالى: (**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلزمناه طَائِرَهُ فِي عنقه...**) كل إنسان يوم القيامة ملزم **بما طار عنه مِن عَمِلِه خيرا كان أم شرا فهو لازم له لزوم القلادة في العنق وخَصَّ العُنُقَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ اللُّزومَ فيه أَشَدُّ**، ومَن أُلزِمَ شيئاً فيه فلا مَحِيدَ له عنه، قال سُبْحَانَهُ: (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

وقولُه: (**ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا**) أي : **نجمع له عمله مِن أوَّلِ عُمرِه إلى آخِرِه**، كما قال تعالى: (يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ). **وهذا الجمع يكون في كتاب يعطاه يوم القيامة**، إما بيمينه إن كان سعيدا، أو بشماله إن كان شقيا فيَلْقى الإنسانُ كتابَه **مَنشوراً أي: مَفتوحاً يَقرؤُه هُوَ وغيرُه** وهذا إما أن يكون تعجيلا له بالبشرى بالحسنة أو توبيخا له على السيئة.



وقولُه: (**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**) أي:يقالُ له اقرأْ كتابك الذي أودعت فيه أعمالك **كفى بك اليوم محاسِبا نفسك**،، ولا يَنْسى أحدٌ ما كان منه، وهذا أعظم العدل حيث جعله حسيب نفسه ليرى جميع عمله لا ينكر منه شيئا.

لكن هل كل أحدٍ يقرأُ كتابَه سواء كان كاتبا أم أُميّا ؟

ج: **نعم الجميع يقرأه** قال قتادة والحسن: كل سيقرأ كتابَه أمياً كان أم غيرَ أميٍ والدليل قوله:﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ ﴾

وقوله:(**وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ**)

الحسابُ لغةً :العددُ. **واصطلاحا:** هو تعريف الله عز وجل للخلائق بأعمالهم خيرا كانت أم شرا وقدر الجزاء عليها وتذكيره إياهم ما قد نسوه منها ويكون ذلك قبل الانصرافِ مِن المحْشَرِ .

وهل يستثنى أحد من الحساب ؟

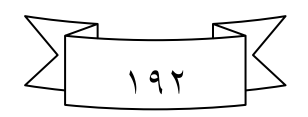
ج: نعم السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في صحيح مسلم.

وهُوَ ثابتٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ أهلِ الحقِّ ويجب الإيمان به قال تعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) ، وقال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله:﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ وهذه المحاسبة تشمل المؤمنَ والكافرَ والذكرَ والأنثى.

وفي "الصَّحيحيْنِ" من حديثِ عائشةَ رضي اللَّهُ عنها قالتْ: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ))، قالت: فقلتُ: أليس يقولُ اللَّهُ: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا...) ، فقال: ((إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ هَلَكَ))، والمعنى: أنَّه لو نَاقَشَ في حسابِهِ لعَبيدِهِ لعَذَّبَهم ولكنَّه يَعفو ويَصفَحُ.

ثم ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الحساب على نوعين :

النوع الأول: حساب المؤمنين هو ما عناه بقوله:(**ويخلو بعبدِه المؤمن فيقرّره بذنوبه كما وُصف ذلك بالكتاب والسنة**) أي: أن الله جل شأنه ينفرد بعبده المؤمن ويقرِّره بذُنوبِه، فيقول: أتعرف ذَنْبَ كذا؟ أتَعْرِفُ ذنبَ كذا؟، يقالُ: قرَّره بكذا أي جَعَلَه يَعترفُ بِهِ كما في الصَّحيحين مِن حديثِ ابنِ عمرَ، وفيه ((يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لِكَ الْيَوْمَ فيعطى كتاب حسناته)) ثم تطْوَى صَحِيفَةُ حِسَابِهِ.



وهذا النوع الأول من أنواع الحساب يسمى حسابَ العرض فهذا كما تقدم لا يناقش الحساب ولا يدقق عليه ولا يحقق معه ، ويأخذ كتابه بيمينه ، وينقلب إلى أهله في الجنة مسرورا ؛ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب قال تعالى:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ وجاء في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلاَّ هَلَكَ) قَالَتْ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا** ﴾ قَالَ:(ذَاكَ الْعَرْضُ يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ) رواه البخاري .كما قال تعالى:﴿ **يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ** ﴾ .قَالَ الْقُرْطُبِيّ رحمه الله :مَعْنَى قَوْله " (ذَلِك الْعَرْضُ): أَنَّ الْحِسَاب الْمَذْكُور فِي الْآيَة إِنَّمَا هُوَ أَنْ تُعْرَض أَعْمَالُ الْمُؤْمِن عَلَيْهِ حَتَّى يَعْرِفَ مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِ فِي سَتْرِهَا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي عَفْوِهِ عَنْهَا فِي الْآخِرَة "

وهل يناقش أحد من المؤمنين ؟

ج: الأصل أن النقاش للكفار ،لكن من شاء الله تعالى نقاشه من عصاة الموحدين ناقشه ، وقد يطول حسابهم ويعسر بحسب كثرة ذنوبهم . وهؤلاء العصاة من الموحدين يدخل الله منهم النار من شاء إلى أمد ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة إلى أبد .

النوع الثاني: حساب الكفار، وقد بينه بقوله:

....

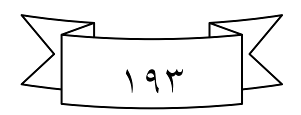
وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ حَسَنَاتَ لَهُمْ وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا وَيُجْزَوْنَ بِهَا .

....

الكفارُ والمنافِقون ينادَى بهم على رُءوسِ الخلائقِ يوم القيامة كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه المتقدم فيقال: (هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ).

وهذا النوعُ من أنواع الحساب وهو حساب الكفار هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله:(مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ) متفق عليه.

وهذا الحساب لهم ليس حساب من توزن حسناته وسيئاته فإن لا حسنات لهم في الآخرة ، فإنَّ أعمالَهم حابطةٌ باطلةٌ ؛لأنَّها فاقدةٌ لشرطي العبادة وهما الإخلاصُ والمتابعةُ قال تعالى:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾وقال:﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾



وأما المراد بحساب الكفار فهو عد أعمالهم عليهم وإخبارهم عنها وتقريرهم بها وجزائهم عليها قال تعالى: (يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) وقال:(فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ)وقال تعالى : (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وقال: (فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير } وقال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

لكنْ إن عَمِلَ الكافرٌ عملا حسنا في الدنيا كعِتقٍ أو صدقةٍ أو بناء خيري كمستشفى ونحوه فإنه يوُفِّي له في حياتِه الدُّنْيَا فقط بالإجماع كما قال النووي (شرح مسلم) عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسول اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((إنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مؤمنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا ويُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لم تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا)) رواه مسلم.

....

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، ماؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

....

هنا بين المصنف رحمه الله مكان حوض النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته

أما مكانه فهو في عرصات يوم القيامة و(العَرْصة) في اللغة: البُقعة الواسِعة التي لابناء فيها بين الدور.

والمراد بعَرَصَاتِ القيامةِ مواقفها من العرض والحِساب وغيرِ ذَلِكَ.

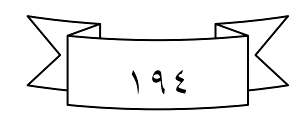
أما الحَوْضُ فهو في اللغة: مَجمَعُ الماءِ، وهُوَ حقٌّ ثابتٌ بإجماعِ أهلِ الحقِّ، وأَنْكَرَه الخوارِجُ وبعضُ المعتزِلةِ وحجتهم قائمة على أمرين:

١- أن العقل يحيله.

٢- انه خبر آحاد.

والرد عليهم أن يقال: إن خبر الآحاد يحتج به على مسائل الاعتقاد ولهذا أحتجَ بها صحابة النبي النبي عليه الصلاة والسلام وأخبار الحوض متواترة قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" قد رَوى أحاديثَ الحوضِ أربعون مِن الصَّحابةِ، وكثيرٌ منها أو أكثرُها في الصَّحيحِ".**(حاشية ابن القيم على سنن أبي داود ١٣/ ٥٦)**

أما العقل فهو من خلق الله وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أمره والله له الخلق والأمر والعقل الصحيح لا يكذب النقل الصريح.



ومن الأدلة الدالة على ثبوت الحوض الذي في أرض المحشر ما ورد عن أنسٍ أنَّ رسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: (إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي مَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ)) رواه البخاري.و(إيلة) اختلف في تحديدها فقيل: بلدة بين مصر ومكة في طريق الحاج وقيل: بين مصر والمدينة.

وهذا الحديث فيه الإشارة إلى مقدرار مسافته وقد جاء في رواية عند أحمد أيضا:(كما بين المدينة وصنعاء)

وعن جُندُبِ بنِ عبدِ اللهِ البَجليّ -رضي اللهُ عنه- قال: سمعتُ رسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- يقولُ: ((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ...)) رواه البخاري ومسلم.والفَرَطُ الذي سَبَقَ إلى الماءِ.

وفي "الصَّحيحَيْنِ" وغيرِهما مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ -رضي اللهُ عنهما- قال: قال رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لاَ يَظْمَأُ أَبَداً))، وفي رواية لهما: ((حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ)).

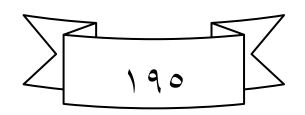
وهنا مسائل:

المسألة الأولى: ظاهرُ كلام المصنف رحمه الله أنَّ الحوْضَ قَبْلَ الصِّراطِ؛ لأنَّه يَختلِجُ ويُمنعُ منهُ أقوامٌ قد ارتَدُّوا على أعقابِهم، ومِثلُ هؤلاءِ لا يُجاوِزون الصِّراطَ فعن سهلِ بنِ سعدٍ الأنصاريِّ، قال: قال رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ)) رواه البخاري ومسلم.وفي لفظ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال " إِنَّهُمْ مِنِّي" فَيُقَالُ : إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ . فَأَقُولُ : "سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي ".

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :" وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَذُودَنَّ رِجَالا عَنْ حَوْضِي كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنْ الإِبِلِ عَنْ الْحَوْضِ "رواه البخاري ومسلم.

قال القرطبي رحمه الله : " قال علماؤنا رحمهم الله أجمعين : فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ، ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه ، وأشدهم طردا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها ، والروافض على تباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها [ومن نحا نحوهم أو سلك طريقهم] وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع .. " (التذكرة للقرطبي ٣٠٦)

المسألة الثانية:: اختُلِفَ أهل العلم في الميزانِ والحوضِ أيُّهما يكونُ قَبلَ الآخرِ، **فقيل**: الميزانُ يكون قبل، **وقيل**: الحوضُ يكون في الموقف قبل الميزان وهو الأرجح كما قال القرطبي وقال:"والمعنى يَقتضِيه، فإنَّ النَّاسَ يَخرجون عِطاشا مِن قُبورِهم فيُقدَّم قَبلَ الميزانِ والصِّراطِ". (التذكرة ٧٠٣)



المسألة الثالثة ظاهرُ كلام المصنف رحمه الله أنَّ الحوضَ خاصٌّ بِهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- دُونَ غيرِه مِن الأنبياءِ والمرسَلِينَ، ولكنْ جاءَ في عِدَّةِ أحاديثَ أنَّ لِكُلِّ نبيٍّ حوضًا تَرِدُ عليه أُمَّتُه، وإنَّما الحوضُ الأعظمُ مختصٌّ بِهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- لا يَشْرَكُه فيه غيرُه، فحوْضُه -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- هُوَ أعظمُ الحياضِ وأحْلاها وأكثرُها وارِداً، كما أَخْرجَ التِّرمذيُّ واستغربه مِن حديثِ الحسن عن سَمُرَةَ مرفوعا وصححه الألباني لشواهده: ((إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حَوضِهِ بِيَدِهِ عَصاً يَدْعُو مَنْ عَرَفَ مِنْ أُمَّتِهِ، إِلاَّ أَنَّهُمْ يَتَبَاهُوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ تَبَعاً، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَبَعاً)) لكنَّ الحديثَ فيه انقطاعٌ بين الحسنِ وسمرةَ وقد اختُلِف في وصله وإرساله، ومن ثَمَّ في صحته وضعفه، فمَن أثبته ودعم ذلك بالشواهد قال: إنه موصول وأن الحوض ليس خاصًّا بالنبي صلى الله عليه وسلم ومَن ضعَّفه وشواهده قال بالخصوصية.

وذهب بعض العلماء إلى أن النبيَّ ﷺ له حوضان ورجحه القرطبي:

١.حوضٌ في الجنة وهو نهر الكوثر، وهو حوضٌ خاصٌّ به لأنه لم ينقل نظيرُه لغيرِه وأشار إليه الحافظ ابن حجر .

٢.حوضٌ في عرصات القيامة وهذا لكل نبي .

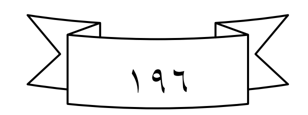
وقال القرطبيُّ : "هُما حوضانِ الأوَّلُ: قَبلَ الصِّراطِ وقَبلَ الميزانِ على الأصحِّ، فإنَّ النَّاسَ يَخرجون عِطاشاً مِن قُبورِهم، فيَرِدُونه قَبلَ الميزانِ، والثَّاني: في الجَنَّةِ، وكِلاهما يُسمَّى كَوْثرا، كما روى مسلمٌ في "صحيحهِ" عن أنسٍ قال: بَيْنَا رسولُ اللهِ بين أظْهُرِنا إذْ أغْفَى إغفاءةً ثم رَفعَ رأسَه مُبتسِما، فقلنا: ما أَضحككَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: ((أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ، فقرأ: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، ثم قال: ((أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ))؟ قلنا: اللَّهُ ورسولُه أعلمُ، قال: ((فإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَهُوَ حَوْضِي، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: أَمَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ)).

المسألة الرابعة : الفرْق بين الكَوْثر والحَوْض:

أ- أنَّ الكوثر في الجنة، والحوض في أرض المحشر.

ب- الكوثر نهرٌ عظيمٌ جارٍ، فهو أصل والحوض فرعٌ عن الكوثر؛ لأنه يصب في الحوض ميزابان؛ فقد جاء في "صحيح مسلم" من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال عن الكوثر: ((هو نهر وَعَدَنيه ربي - عز وجل - في الجنة عليه الحوض)).

قال ابن حجر رحمه الله :ظاهر الحديث أن الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها...، ثم بين رحمه الله:أن النهر الذي يصب في الحوض من الجنة هو الكوثر، وبمثل ذلك قال ابن أبي العز. (أنظر:فتح الباري ١١/ ٤٦٦)و(شرح الطحاوية ٢٠٠) وبناء عليه، فإن الكوثر غير الحوض الذي يرده المسلمون قبل الجنة، ولكن هذا الحوض يستمد من الكوثر الذي هو داخل الجنة، كما يفيده كلام ابن حجر وابن أبي العز.



المسألة الخامسة: صفة نهر الكوثر الذي في الجنة.

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "بينا أنا أسير في الجنة ، إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك قال : فضرب الملك بيده ، فإذا طينه أو طيبه مسك أزفر "رواه البخاري.

وفي المسند عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أعطيت الكوثر ، فإذا هو نهر يجري على ظهر الأرض ، حافتاه قباب اللؤلؤ ، ليس مسقوفاً فضربت بيدي إلى تربته ، فإذا تربته مسك أذفر ، وحصباؤه اللؤلؤ " وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥١٣)

المسألة الخامسة : هل الحوض موجود الآن؟

ج: الحوض مخلوقٌ موجود الآن، ويدل على ذلك ما رواه عقبة بن عامر: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج يومًا فصلَّى على أهل أُحُدٍ صلاته على الميت، ثم انصرف على المنبر فقال: ((إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن)) رواه البخاري.

قال ابن حجر: في قوله:"(والله، إنِّي لأنظر إلى حوضي الآن)، يحتمل أنه كُشِفَ له عنه لما خَطَب، وهذا هو الظاهر، ويحتمل أنه يريد رؤية القلب". (فتح الباري)

المسألة السادسة: متى يكون ورودُ الناس على الحوض ؟

اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

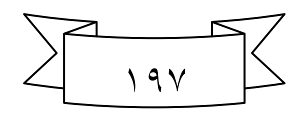
القول الاول: -وهو قول القاضي عياضٍ وظاهرُ تبويبِ البخاري كما قال الحافظ ابن حجر رحم الله الجميع أنه بعد عبورهم من الصراطَ .

القول الثاني: -وهو قول القرطبي في (التذكرة) وظاهرُ اختيار ابن كثير في (النهاية) أنه بعد خروجهم من القبور لأنهم يكونون عِطَاشاً.

وهناك من أمة النبي ﷺ من يمنعون مِنْ ورودِ حوضِه عليه الصلاة والسلام كما في حديث أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:(لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضَ حَتَّى عَرَفْتُهُمُ اخْتُلِجُوا دُونِي فَأَقُولُ:أَصْحَابِي فَيَقُولُ:لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ) . متفق عليه .

....

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ



الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلاَلِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم، فَمَنْ .

....

هذا الكلام جاء في حديث أبوسعيد الخدري رضي الله عنه **والصِّراطُ لغةً**: الطَّريقُ الواضِحُ المستقيمُ الذي لا اعوجاجَ فيه،**وفي الشَّرعِ**: الجِسْرُ المنصوبُ على مَتْنِ جَهَنَّمَ، وظاهرُ كلام المصنف رحمه الله أن الصراطَ يكون بين الجنة والنار لكن السنةَ دلت على أن الصراطَ يكون على ظهرانيَ جهنمَ كما جاء عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:قال رسول الله ﷺ :(ثُمَّ يُؤْتَى بِالجسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ) قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْجَسْرُ قَالَ:(مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا) رواه البخاري. ولفظ (الجسرُ) بفتحِ الجيمِ وكسرِها على لغتانِ.

وقوله:(مدحضة مزلة) أي: زلِقٌ تزلَقُ فيه الأقدامُ

وقوله:(حسكة): بفتحات وهي شوكة صلبة معروفة وقال صاحب التهذيب. الحسك نبات له ثمر خشن يتعلق بأصواف الغنم، وربما اتخذ مثله من حديد وهو من آلات الحرب.

وقوله:(مفلطحة) أي: عريضة.

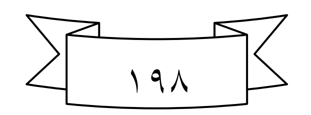
وقوله:(عقيفاء) أي: معوجة .

وقوله: (السعدان) جمع سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه قالوا: مرعى ولا كالسعدان.

قال الزين بن المنير: "تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها " (فتح الباري١١/٤٥٣).

والجسر يَرِدُه الأوَّلونَ والآخِرون وَذَلِكَ بعدَ مُفارَقةِ النَّاسِ للمَوْقِفِ وحَشرِهم وحسابِهم، فيَمُرُّون عليه على قَدْرِ أعمالِهم فمن عدا الصراط دخل الجنة ومن لا سقط في النار، كما ثَبَتَ ذَلِكَ في الأحاديثِ.

فبحسَبِ استقامةِ الإنسانِ وثباتِه على دِينِ الإسلامِ يكونُ ثباتُه واستقامَتُه على الصِّراطِ، فمَن ثَبَتَ على الصِّراطِ المعنويِّ الذي هُوَ دِينُ الإسلامِ ثبتَ على الصِّراطِ الحِسِّيِّ المنصوبِ على مَتْنِ جَهَنَّمَ، ومَن زَلَّ عن الصِّراطِ المعنويِّ زَلَّ عَن الصِّراطِ الحسِّيِّ جزاءً وِفاقا، وما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعَبيدِ، في الصَّحيحين أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((يُضْرَبُ الصِّراطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ وَيَمُرُّ الْمُؤْمِنونَ عَلَيْهِ فِرَقاً، فَمِنْهُمْ كَالْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَأَشَدِّ الرِّجَالِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ وَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفاً، وَفِي حَافَّتَيْهِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِأَخْذِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمُكَرْدَسٌ فِي النَّارِ حتى يمر آخرهم يُسحب سحبا...))، وجاء في حديثِ أبي سعيدٍ: قلنا وما



الجسرُ؟ قال ((مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ))، وجاء عند مسلمٍ قال:قال أبو سعيدٍ: "بلغني أنَّ الصِّراطَ أحدُّ مِن السَّيفِ، وأدقُّ مِن الشَّعرةِ"، إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأحاديثِ الثَّابتةِ في الصِّحاحِ والمسانيدِ والسُّنَنِ مما أَجمعَ السَّلَفُ على إثباتِها.

ومعنى قولُه رحمه الله: **(ومنهم من يَعْدُو عَدْوا)** أي: يَجري أو يَرْكُضُ.

وقولُه: **(ومنهم من يزحَفُ زَحْفا)** قال ابنُ دُرَيدٍ: الزَّحفُ: هُوَ المشيُ على الاسْتِ مع إشرافِه بصَدْرِه.وقولُه: **(فإنَّ الجِسْرَ عليه كُلاليبُ)** الكلاليب جمعُ كَلُّوبٍ بفتحِ الكافِ وضَمِّ اللامِ المشدَّدةِ، وَهِيَ حديدةٌ معطوفةُ الرَّأسِ يُعلَّقُ فيها اللَّحمُ ويُرسلُ إلى التَّنُّورِ، وورد في بعض الرويات تشبيهُه بالسعدان وهو نباتُ شوكٍ من جميع جوانبِه كما في حديث أبي سعيدَ الخدريِّ السابقِ فيكون اختطاف الكلاليب لهم على صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات لهم عن الصراط المستقيم .

وقولُه: **(تَخطَفُ)** هي بفتحِ الطَّاءِ ويجوزُ كَسرُها والخطْفُ: هُوَ استلابُ الشَّيءِ وأخْذُه بسرعةٍ.

مسألة:هل جميعُ البشر يمرون على الصراط أم المؤمنون فقط أم الكافرون أم المنافقون وأهل الكتاب ؟

اختلف أهل العلم في ذلك واختار ابن رجب رحمه الله إلى أنه خاص بالمؤمنين والمنافقين، أما المشركون فلا يمرون على الصراط لأنهم يساقون في عرصات القيامة إلى النار مباشرة. **(أنظر:رسالة التخويف من النار)**

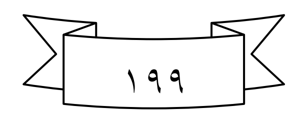
وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ فالراجح فيها :إن ورود الكفار دخولهم إياها، وورود المؤمنين مرورهم عليها .

فالصراط ينصب لأتباع الرسل من المؤمنين الكمل وأهل المعاصي وفيهم المنافقون فيجتمعون وتلقى عليهم الظلمة قبل الصراط، ثم يعطون من النور ما يناسب أحوالهم وبه يكون المرور على الصراط، فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: (هم في الظلمة دون الجسر)رواه مسلم.

قال ابن أبي العز: " وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم ".**(شرح الطحاوية ٤١٤)**

فأهل النفاق يطفأ نورهم قبل بدء المرور على الصراط ويحال بينهم وبين المؤمنين بسور ويدخلون النار، كما قال تعالى: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ).

ثم يمر أهل الإيمان بعد ذلك على قدر أعمالهم ونورهم كما تقدم بيانه.



فائدة: أنكر المعتزلة وبعضُ السلف كالعزِّ بنِ عبدِ السلامِ والقرافيِّ والقرطبيِّ في (التذكرة) أن الصراط موصوف بأنه "أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف" لكنَّ هذا ثابتٌ من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ السابقِ في صحيح مسلم وورد عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا أنه قال" الصراط كحد السيف دحض مزلة..."وعن سلمان رضي الله عنه موقوفا أنه قال:"...ويوضع الصراطُ مثل حد الموسَى" وكلهما صحيح صحيح الإسناد ومثلهما لايقال من قبيل الرأي فهما في حكم المرفوع.

....

فمن مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

....

من مر على الصراط وعبر عليه ضمن دخول الجنة والنجاة من النار قال تعالى:﴿ **فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ** ﴾ لكن قبل دخول الجنة يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار ففي الصَّحيحِ عن أبي سعيدٍ الخدريّ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال:((يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ بمسكنه فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا)). وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ بسندٍ صحيحٍ عن الحسَنِ قال: بلغني أنَّ رسولَ اللهِ –صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ– قال: ((يُحْبَسُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْدَ مَا يَجُوزُونَ الصِّرَاطَ حَتَّى يُؤْخَذَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ظُلَامَاتُ الدُّنْيَا وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَيْسَ فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ شَيْئًا)).

فإن قيل ما المراد بالقنطرة ؟

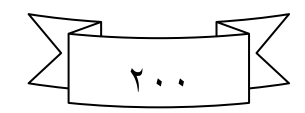
ج: القَنطرةُ هي: الجسرُ وما ارتفَعَ مِن البُنيانِ، كما قال صاحب (القاموس). وعلى هذا هي والجسرُ المنصوب على متن جهنم مترادفان عند أهل اللغة، لكن بعضهم فرَّقَ كصاحب (المصباح) وقال: الجسرُ أعمُّ من القنطرة فقد يكون مبنياً وقد لا يكون وأما القنطرةُ فلا تكون إلا مبنيةً .

واعلم أن أهل العلم اختلفوا في القنطرة هل هي من تتمة الصراط أم لا على أقوال:

القول الأول:أنها من تتمة الصراط وهي الطرفُ الذي يلي الجنة وبهذا جزم السيوطي في (البدور السافرة) .

القول الثاني:أنهما صراطان وبهذا جزم القرطبيُّ في (التذكرة) وذكر القولين الحافظُ في الفتح(فتح الباري ١١ /٣٩٩).

والأقربُ أنهما صراطان لحديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ المتقدم وهو أن رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:(إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا...) .



فجسر القنطرة هو الموضع الذي يُقتص فيه للناس بعضهم من بعض لأجل مظالم كانت بينهم في الدنيا فيُستوفَى لكُلِّ واحِدٍ ما لَهُ عندَ الآخَرِ.

وقولُه: (**فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخولِ الجنَّةِ**)

بعدَ اقتصاصِ بعضِهم مِن بعضٍ وخلاصِهم مِن التَّبِعاتِ التي بينهم فلا يَبْقَى في قلوبِ بعضِهم على بعضٍ شيءٌ، يأذن لهم بدخول الجنة فيدخلون الجنة وقد ذهب ما في قُلوبِ بعضِهم على بعضٍ مِن الغِلِّ والحِقدِ وغيرِ ذَلِكَ، قال تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ..) الآيةَ.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة؛ لأن هذا قصاص أخص لأجل أن يذهب الغل، والحقد، والبغضاء التي في قلوب الناس فيكون هذا بمنزلة التنقية، والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص، فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار لأجل تنقية ما في القلوب حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل" (شرح العقيدة الواسطية"٢ /١٦٣). كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِين ﴾.

....

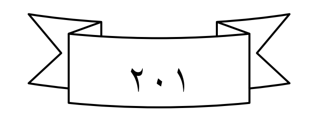
وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُه وله ﷺ فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ :أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَى؛ فَيَشفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ .وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّة .وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ .وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لاَّ يَدْخُلَهَا وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا .

....

قولُه: (**وأَوَّلُ مَن يَستفتِحُ بابَ الجنَّةِ مُحَمَّدٌ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ**) أَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ لما روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ) . رواه مسلم .

وعَنْه ﷺ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ:مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ:مُحَمَّدٌ . فَيَقُولُ:بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ) . رواه مسلم .

قَوْلُهُ:(وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُه) لِمَا روى أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :(نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَاخْتَلَفُوا فَهَدَانَا



اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ هَدَانَا اللَّهُ لَهُ) قَالَ:(يَوْمُ الْجُمُعَةِ فَالْيَوْمُ لَنَا وَغَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى) . رواه مسلم .

وروى الدَّارَقُطنيُّ واستغربه مِن حديثِ عمرَ -رضي اللَّهُ عنه- قال: قال رسولُ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((إنَّ الجَنَّةَ حُرِّمَتْ على الأنبياءِ كُلِّهِمْ حَتَّى أَدْخُلَهَا، وَحُرِّمَتْ عَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِي))

ولم تكن أوليتهم إلا لفضلهم على الأمم اللَّهُ تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) الآيةَ، وفي المسنَدِ عن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ)) وَأَمَّا قولُه -سُبْحَانَهُ- في بني إسرائيلَ: (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) فالمرادُ – واللَّهُ أَعلمُ – على عالَمي زمانِهم، كشَعْبِ بُخْتَنَصَّرَ وغيرِهم.

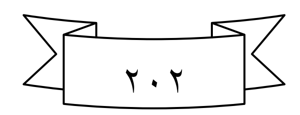
قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" فَهذِهِ الأُمَّةُ أَسْبَقُ الأُمَمِ خُروجًا مِن الأرضِ، وأَسْبَقُهم إلى أعلى مكانٍ في الموقِفِ، وأسبَقُهم إلى ظِلِّ العرشِ، وأسبَقُهم إلى الفَصْلِ والقضاءِ بينهم، وأسبَقُهم إلى الجوازِ على الصِّراطِ، وأسبَقُهم إلى دخولِ الجَنَّةِ، فالجَنَّةُ محرَّمةٌ على الأنبياءِ حتى يدخُلَها مُحَمَّدٌ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-، ومحرَّمةٌ على الأُممِ حتى تدخُلَها أُمَّتُه، **وأمَّا أَوَّلُ الأُمَّةِ دُخولاً فأبو بكرٍ الصِّدِّيقُ** كما رواه أبو داودَ في السُّننِ عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ – صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ" (حادي الأرواح ١١٢)

وذكر المصنف رحمه الله أن الله تبارك وتعالى أعطى النبي عليه الصلاة والسلام الشفاعة يوم القيامة لمن يستحقها.

والشَّفاعةُ مُشتقَّةٌ مِن الشَّفعِ، وهُوَ ضِدُّ الوَتْرِ، فكأنَّ الشَّافِعَ ضَمَّ سُؤالَه إلى سؤالِ المشفوعِ،وهي السُّؤالُ في التجاوُزِ عن الذُّنوبِ والجرائِمِ، وعَرَّفَها بعضُهم بقولِه: هي سؤالُ الخيرِ للغيرِ، **وفائدتُها:** إكرامُ الشافعِ ونفعُ المشفوعِ له .

والشَّفاعةُ ثابتةٌ تواتَرَت الأدِلَّة في إثباتِها، فمنها ما ورد عن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: قال رسولُ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي، لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا)) متَّفقٌ عليه.وفي الصَّحيحِ أنَّ رسولَ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((أَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأحاديثِ التي بلغَتْ حدَّ التَّواتُرِ، فيجبُ الإيمانُ بها واعتقادُ مَضمونِها.

والشَّفاعةُ المذكورةُ في القُرآنِ تَنقسِمُ إلى قِسمَيْنِ:



القسم الأول: الشفاعةُ المنفية وهي الشَّفاعةُ للكافرِ والمشرِكِ، كما قال تعالى: (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) وقولُه: (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ..إلى قولِه...عَمَّا يُشْرِكُونَ)، فنَفَى وقوعَ شفاعةِ هؤلاء وأخبرَ أنَّها شِركٌ بقولِه: (عَمَّا يُشْرِكُونَ).

فالشفاعة المنفية هي ما تضمنت أحد أمرين:

١- وجود الشرك ٢- ما انعدم فيها شرطا الشفاعة أو أحدهما.

القسم الثَّاني: الشَّفاعةِ المثبتَةِ وَهِيَ التي أَثْبَتَها القرآنُ، وَهِيَ خالِصةٌ لأهلِ الإخلاصِ، **وقيَّدَها بأمرَيْنِ**: إِذْنُ اللَّهِ للشَّافِعِ أنْ يَشفَعَ، ورِضاه عن المشفوعِ له، كما قال تعالى: (مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) وقولُه: (وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) الآيةَ، وهُوَ –سُبْحَانَهُ– لا يَرْضَى إلا التَّوحيدَ، كما في الصَّحيحِ مِن حديثِ أبي هريرةَ – رضي اللَّهُ عنه– أنَّه قال للنَّبيِّ –صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ–: مَن أَسْعدُ النَّاسِ بشَفاعَتِكَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: ((مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ))، اهـ.

وقد أنقسم الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:قسمٌ غلوا في الشفاعة حتى أثبتوا شفاعةَ الأصنام والأوثان وهم المشركون ومن وافقهم مِنْ مبتدعةِ الأمةِ وهؤلاء أثبتوا الشفاعةَ التي نفاها القرآن كما ذكر اللَّهُ عنهم في قولِه: ويقولُون: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى).

القسم الثاني: قسمٌ غلوا في نفي الشفاعةِ وهم الخوارجُ والمعتزلةُ فأنكروا شفاعةَ النبي ﷺ في أهل الكبائر مِنْ أُمَّتِه.

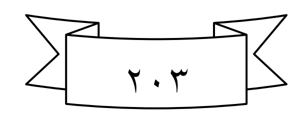
القسم الثالث: قسمٌ أثبتوا الشفاعةَ للنبيِّ ﷺ وغيرِه بقيودِها التي جاءت بها النصوصُ وهؤلاء هم أهلُ السنة .

وأمَّا ما احتجَّتْ بِهِ المعتزلةُ لمذهَبِهم الفاسدِ في نَفْيِ الشَّفاعةِ مِن قولِه –سُبْحَانَهُ–: (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ) وقولِه –سُبْحَانَهُ–: (لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) فاستدلالٌ فاسدٌ، فإنَّ الآياتِ المذكورةِ مخصوصةٌ بالكفارِ، ويُؤَيِّدُ هَذَا أنَّ مَسَاقَ الخِطابِ معهم.

وذكر المصنف رحمه الله أنواع الشفاعة وبين أن منها ما هو خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام ومنها ماهو عام له ولغيره من الأنبياء والصالحين.

أما الشفاعة الخاصة به عليه الصلاة والسلام فهي أنواع:

١- **الشفاعةُ العظمى في أهلِ الموقِفِ** مؤمنَهم وكافرَهم ، وحقيقة هذه الشفاعة هي أن يشفع لجميع الخلق حين يؤخر الله الحساب فيطول بهم الانتظار في أرض المحشر يوم القيامة فيبلغ بهم من الغم والكرب ما لا يطيقون ، فيقولون:من يشفع لنا إلى ربنا حتى يفصل بين العباد، يتمنون التحول من هذا المكان ، فيأتي الناس إلى الأنبياء



فيقول كل واحد منهم : لست لها، حتى إذا أتوا إلى نبينا صلى الله عليه وسلم فيقول: "أنا لها، أنا لها". فيشفع لهم في فصل القضاء وقد تكاثَرت الأحاديثُ في إثباتِها، فورَدَتْ مِن حديثِ أبي بكرٍ الصِّدِيقِ، وأنسٍ، وأبي هريرةَ، وابنِ عبَّاسٍ، وابنِ عُمرَ، وغيرِهم، وَهِيَ المرادةُ بقولِه -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ))، وهَذَا الحديثُ ذَكَرَ السيوطيُّ أنَّه مُتواتِرٌ، وَهَذِهِ الشَّفاعةُ خاصَّةٌ بِهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- وَهِيَ مُجمَعٌ عليها لم يُنْكِرْها أحدٌ،حتى المعتزلة أثبتوها لظهور الأدلة فيها، وهي المقامُ المحمودُ المذكورة في قوله تعالى: (وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) على قول أكثر أهل العلم واختاره ابن جرير والقرطبي وابن كثير ويدل عليه حديث ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًا كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ:يَا فُلَانُ اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ) . رواه البخاري .

٢- **شفاعته صلى الله عليه وسلم في دخول أهلِ الجَنَّةِ الجنة** وقد ذَكَرها أبو هريرةَ في حديثِه الطَّويلِ المتَّفَقِ عليه، وفي صحيحِ مسلمٍ عن أنسٍ -رضي اللَّهُ عنه- أنَّ رسولَ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الجَنَّةِ))، **وهذه الشَّفاعتان خاصَّتانِ بالنبي صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ هذا ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله هنا من أنواع الشفاعة الخاصة به عليه الصلاة والسلام.**

وهناك شفاعة ثالثة خاصة به أيضاً عليه الصلاة والسلام لم يذكرها المصنف رحمه الله هنا ألا وهي:

٣- **الشفاعة في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالبٍ** لحديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: (لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ) . متفق عليه.

فإن قيل: إن أبا طالب مات كافرًا وقد قال الله سبحانه وتعالى: (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) فأجاب بعض العلماء بقوله: إن شفاعة النبي صلَّى اللَّهُ عليه وسلم لأبي طالب شفاعة تخفيف لا شفاعة إخراج، والمقصود في الآيةِ أنها لا تَنفعُهم في الإخراجِ مِن النَّار.

أما الشفاعة العامة وهي التي تكون للرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من الملائكة والأنبياء والصالحين فقد دل عليها حديثِ عثمانَ رضي الله عنه وفيه: "يَشفَعُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: الأنبياءُ، ثم العلماءُ، ثم الشُّهداءُ"رواه ابن ماجة لكنه لا يثبت. وفي الصَّحيحِ عن أبي سعيدٍ عن النَّبيِّ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قوماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ)) الحديثَ **وهي على أقسام:**

١- الشفاعة فيمَنْ استحَقَّ النَّارَ من عصاة أهل التوحيد أنْ لا يدخلوها، ومن أدلتها قول الرسول صلى الله عليه وسلم:(ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه) رواه مسلم

والأحاديثُ بها متواتِرةٌ عن النَّبيِّ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وقد أَجْمَعَ عليها الصَّحابةُ وأهلُ السُّنَّةِ قَاطِبَةً، وبدَّعوا مَن أنْكَرها وصاحُوا بِهِ مِن كُلِّ جانبٍ وحكموا عليه بالضَّلالِ.

إلا أن ابن القيم رحمه الله قال عن هذا النوع من الشفاعة:"وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه" (تهذيب سنن أبي داود (١٣/ ٥٥)

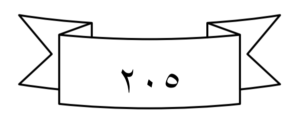
٢- الشفاعةُ في رفع درجات وثواب أقوام من أهل الجنة والدليل عليها حديث أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ النبي عليه الصلاة والسلام في دعاءه لأبي سلمة :(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِى سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِى الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِى عَقِبِهِ فِى الْغَابِرِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَافْسَحْ لَهُ فِى قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ) رواه مسلم .

وهذه الشفاعةُ لم يجزِمْ بها أيضاً ابنُ القيم رحمه الله لعدم صراحةِ الأدلةِ فيها لكنه قال قد يستدل لها بدعاءِ النبي عليه الصلاة والسلام لأبي سلمة المتقدم (تهذيب سنن أبي داود (١٣/ ٥٦) لكن أثبتها شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في (الفتاوى) وجمهور أهل السنة والجماعة وقد وافق المعتزلة أهل السنة والجماعة في إثبات هذه الشفاعة والشفاعة العظمى كما تقدم.

٣- الشفاعةُ فيمن دخل النار من أهل الكبائر من أهل التوحيد أَن يَخْرُجَ مِنْهَا، ويدل عليه ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا: " فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون. فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا... فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط" وعن جابر رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:(إن الله يخرج قوما من النار بالشفاعة) رواه مسلم.وهذه الشفاعة ينكرها المعتزلة والخوارج ومن ضل السبيل.

٤- الشفاعة في قومٍ استوت حَسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة وهم أهل الأعراف على قول وهذا النوع من الشفاعة خصصه بعض أهل العلم بالنبي عليه الصلاة والسلام وبعضهم أطلقه له ولغيره وبعضهم لم يثبته أصلاً لضعف ما ورد فيه عنده ومن أثبته كالحافظ ابن حجر في (الفتح ١٨/٤٠٣) استدل بم أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال :(السابق يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يرحمه اللّٰه والظالم لنفسه وأصحاب الْأَعراف يدْخلونها بشفاعة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم) .

ولكن هذا الأثر الذي ذكره الحافظ رحمه الله قال عنه الهيثمي: " فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو وضاع".
(مجمع الزوائد (١١/ ٣٢٠)



لكن لا يفهم من هذا عدم دخول أهل الأعراف الجنة وإنما المقصود هل تثبت الشفاعة لهم أم أن دخولهم يكون رحمة من رب العلمين.

٥- الشفاعةُ في دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب وهذا النوع من الشفاعة اختلف فيه أهل العلم فبعضهم خصصه بالنبي عليه الصلاة والسلام وبعضهم أطلقه له ولغيره ويستدل لها بما ورد في الصحيحين من حديث عكاشةَ بن محصن رضي الله عنه حين دعا له النبي عليه الصلاة والسلام بأن يكون من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

لكنَّ هذا الحديثَ ليس فيه ذكرُ الشفاعة لكن استدلوا بما أخرج الآجري في (الشريعة) عن أبي هريرة قال:قال رسول الله ﷺ :(سَأَلْتُ الشَّفَاعَةَ لأُمَّتِي، فَقَالَ:لَك سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ قُلْتُ: زِدْنِي قَالَ:لَك مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا قُلْت:زِدْنِي قَالَ:فَإِنَّ لَك هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:حَسْبُنَا فَقَالَ عُمَرُ:يَا أَبَا بَكْرٍ دَعْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:يَا عُمَرُ إِنَّمَا نَحْنُ حَفْنَةٌ مِنْ حَفَنَاتِ اللهِ).

لكن الحديث في سنده (إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة)، وقد قال البخاري: "تركوه". ونهى أحمد عن حديثه، وقال الجوزجاني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: "لا تحل الرواية عندي عن إسحاق بن أبي فروة". وقال أبوزرعة وغيره: "متروك" (انظر: الميزان). فالحديث بهذا السند ضعيف جدا.

وأستدلوا له أيضاً بحديث أبي هريرة الطويل في الشفاعة وفيه : (ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعْطَهْ واشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ) رواه البخاري ومسلم.

وهذه الشفاعةُ قال بها: القاضي عياضٌ والنوويُّ وابن حجر والسيوطي وغيرهم من أهل السنة والجماعة.

....

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

....

بعد ما بين المصنف رحمه الله أن من أنواع الشفاعة ما يخرج من النار بإذن الله بين هنا في قوله:(**ويخرجُ الله من النَّار أقواما بغير شفاعة)** أن هناك سبب آخر له الأثر في الخروج من النار غير الشفاعة، وهو فضل الله ورحمته وإحسانه جل شأنه، فيخرج من النار من عصاة الموحدين من في قلبه مثقال حبة من إيمان قال تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) وفي "الصَّحيحَيْنِ" من حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي اللهُ عنه في حديثِه الطَّويلِ قال: فيقولُ اللهُ: (شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قوماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ....).

وقولُه: (**بل بفَضلِه ورَحْمتِه**) يفيدُ كما تقدم أنَّ دخولَ الجَنَّةِ والنَّجاةَ مِن النَّارِ بفَضلِه سُبْحَانَهُ وَرحمتِه، لا بمجرَّدِ العملِ، كما قال -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: (لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ) وإنَّما العملُ سببٌ لدُخولِ الجَنَّةِ، كما قال تعالى: (جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) فالباءُ باءُ السَّببِيَّةِ، واللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ خالِقُ السَّببِ والمسبِّبِ، فرَجَعَ الكُلُّ إلى محضِ فَضلِه وإحسانِه ورَحمتِه.

وأمَّا قولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ((لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ)) الحديثَ، فالباءُ المَنْفِيَّةُ باءُ العِوَضِ، وهُوَ أنْ يكونَ العملُ كالثَّمنِ لدُخولِ الجَنَّةِ كما زَعَمَتِ المعتزِلةُ أَنَّ العامِلَ يَستحِقُّ دخولَ الجَنَّةِ على ربِّه بعَمِلِه، وقولُهم باطلٌ، وقد تَقدَّمَ الكلامُ على هَذَا البحثِ.

وقولُه: (**ويَبقَى في الجَنَّةِ فَضْلٌ عمن دخلها من أهل الدنيا**) أي يبقى في الجَنَّةِ متسع عمَّن دَخَلها مِن أهلِها، وَذَلِكَ لسِعَتِها العظيمةِ، فإنَّها كما وَصَفها في كتابِه: (عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ).

(**فيُنْشِئُ اللهُ لها أقواما فيدخلهم الجنة**) أي: يَخْلُقُ ويُحْدِثُ -سُبْحَانَهُ- أقواماً فيُدخِلُهم الجَنَّةَ بفَضلِه ورحمتِه، كما في "الصَّحيحَيْنِ" عن أنسِ بنِ مالكٍ -رضي اللهُ عنه- أَنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ عَلَيْهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلاَ يَزَالُ فِي الجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الجَنَّةِ)).

مسألة: قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأمَّا اللَّفظُ الذي في البخاريِّ مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه مرفوعا: (أنَّه يُنْشَأُ للنَّارِ مَن يشاءُ فيُلْقَون فيها، فتَقولُ هل مِن مَزيدٍ)، فغَلَطٌ مِن بعضِ الرُّواةِ انْقَلَب عليه لَفظُه، والرِّوَاياتُ الصَّحيحةُ، ونَصُّ القُرآنِ يَرُدُّه، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أنَّه يَملأُ النَّارَ مِن إبليسَ وأتباعِه، فإنَّه لا يُعذِّبُ إلا مَن قامتْ عليه حُجَّتُه وَكَذَّبَ رُسلَه، كما قال سُبْحَانَهُ: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ}ولا يظلم الله أحدا من خلقه" (**حادي الأرواح (ص: ٣٩٤)** .

....

وأصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ .

....

كل ما يتعلق بالدار الآخرة وتفاصيلها من الحساب والجزاء والثواب والعقاب والجنة والنار ونحو ذلك مما ذكره المصنف رحمه الله ومما لم يذكره هو موجود في الكتب المنزلة من السماء والآثار الثابتة الموروثة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ففيها مايشفي ويكفي من أرادها وابتغاها وجدها وأدركها،لأنها سهلت الألفاظ، قريبة المعاني، واضحت الأسلوب، قال اللَّهُ –سُبْحَانَهُ-: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)ولا طريق إليها إلا عن طريق الوحي لأنه مثل هذه الأمور من علم الغيب.

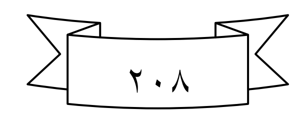
وهنا مسائل :

المسألة الأولى: أشار المصنف رحمه الله هنا إلى ذكر الجنة والنار وهما مما يَجِبُ الإيمانُ به واعتقادُ أنهما حَقٌّ موجودتانِ الآنَ لثبوتِ ذَلِكَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمَّةِ، قال اللَّهُ سُبْحَانَهُ- عن الجَنَّةِ: (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)، وعن النَّارِ: (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)، (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبا) وأمَّا الأحاديثُ فعن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((لِمَّا خَلَقَ اللَّهُ الجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ لَقَدِ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، فلمَّا خَلَقَ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، قال: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا)) رواه أبو داودَ والتِّرمذيُّ والنسائيُّ، وقال الترمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ.

وفي "الصَّحيحَيْنِ" واللَّفظُ للبخاريِّ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عبَّاسٍ قال: انْخسَفَت الشَّمسُ على عهدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فذَكَر الحديثَ، وفيه فقالوا: رَأَيناكَ تناولْتَ شيئاً في مَقامِكَ ثم رأيناكَ تكَعْكَعْتَ، فقال: ((إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، وَتَنَاوَلْتُ عُنْقُوداً لَوْ أَصَبْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ...)) الحديثَ.

وفي صحيحِ مسلمٍ مِن حديثِ أنسٍ –رضي اللَّهُ عنه-: ((وَايْمُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كثيرًا))، قالوا: وما رأيتَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: ((أَعَدَّ اللَّهُ الجَنَّةَ لأَوْلِيَائِهِ وَأَعَدَّ النَّارَ لأَعْدَائِهِ))،

ولم يَزلْ على ذَلِكَ أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ حتى نَبَغَتْ نابغةٌ مِن المعتزلةِ والقَدَريَّةِ، فأنكرتْ ذَلِكَ وزَعَمَتْ أَنَّ اللَّهَ يُنْشِئُهما يومَ القيامةِ، وأنَّ إيجادَهما الآنَ عَبَثٌ، **وحَمَلَهم على ذَلِكَ أَصْلُهم الفاسدُ الذي وَضَعوا بِهِ شريعةً لِما يَفعَلُه اللَّهُ، وأنَّه ينبغي أنْ يَفعَلَ كذا، ولا يَنبغِي له أنْ يَفعَلَ كذا، وقَاسُوه على خَلقِه في أفْعالِهم، فهُم مُشبِّهةٌ في الأفعالِ، معطِّلةٌ في الصِّفاتِ**، والأدلَّةُ على بطلانِ هَذا القولِ أكثرُ مِن أنْ تُحصى، كما تكاثرتْ أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ على دوامِ الجَنَّةِ والنَّارِ، **وأنَّهما لا تفنيانِ أبدًا ولا تَبيدانِ وبه قال جمهور أهل السنة والجماعة**، قال تعالى:



(أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) وقال: (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ) وقال: (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) وقال في النَّارِ: (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) وقال: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) إلى غير ذَلِكَ مِن الأدلَّةِ التي لا تُحصرُ.

المسألة الثانية: أن يومَ القيامةِ وما اشتَملَ عليه معروفٌ عندَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن آدمَ إلى نوحٍ إلى إبراهيمَ وموسى وعيسى وغيرِهم مِن حِينِ أُهبطَ آدمُ، قال تعالى: (اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وقال: (فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) وأمَّا نوحٌ فقال -سُبْحَانَهُ- حكايةً عنه: (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) وقال إبراهيمُ: (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) وقال: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) وقال عن موسى: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) ومؤمِنُ آلِ فرعونَ كان يَعلمُ المعادَ، وإنَّما آمَنَ بموسى وحذَّر قومَه مما يَقعُ يومَ القيامةِ، فقال تعالى حكايةً عنه: (وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) إلى قولِه: (إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) إلى غيرِ ذَلِكَ مما هُوَ مذكورٌ في الكُتبِ السَّابقةِ وعن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ.

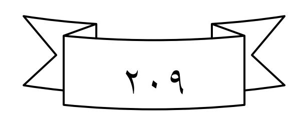
المسألة الثالثة: المراد ب(العلم المأثورِ) أي: المنقولُ المذكورُ، والأَثَرُ يُطْلَقُ في الإصطلاح الشرعي: على المرْويِّ مُطلَقًا سواءٌ كان عن رسولِ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- أو عن الصحابيِّ، وهُوَ قولُ الجمهورِ.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي اللَّهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((الْعِلْمُ ثَلاثَةٌ فَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلُ عِلْمٍ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ)) رواه أبو داود وابن ماجة وهو حديث ضعيف كماقال عدد من أهل العلم بالحديث كابن القطان والثوري وابن رجب وابن حجر والألباني وغيرهم، وعلى فرض صحته فالمراد منه بيان أن أصول علوم الدين ومسائل الشرع ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة ، وما سوى ذلك فهو فضل زائد لا ضرورة فيه.

والمراد با(لعلم الموروثُ عن النبي عليه الصلاة والسلام) هو: إرثُ العِلمِ والحِكمةِ، كما قال النَّبِيُّ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- في حديثِ أبي الدَّرداءِ: ((وَالْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً ولا دِرْهَماً، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))رواه أبوداود والترمذي وغيرهم وحسنه ابن حجر وصححه الألباني، وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنه: "إنَّما تَرَكَ ما بين الدَّفتَيْنِ" رواه البخاري، والمراد بالدفتين القرآنَ، والسُّنَّةُ مُفسِّرةٌ له ومبيِّنَةٌ وموضِّحةٌ، أي تابعةٌ له، والمقصودُ الأعظمُ كتابُ اللَّهِ.

والكِتابُ والسُّنَّةُ بهما غايةُ الشِّفاءِ والكفايةِ، فقد أَنزلَ اللَّهُ على نبِيِّهِ القرآنَ العظيمَ الذي شرَّفه اللَّهُ على كُلِّ كتابٍ أَنزلَه وجعلَه مُهيمِناً عليها، وناسِخاً لها.

ولم يَمُتْ رسولُ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- حتى أَكْملَ اللَّهُ له الدِّينَ، فلا خَيرَ إلا دَلَّ الأمَّةَ عليه، ولا شَرَّ إلاَّ حَذَّرَها عنه، وقد أُعطِيَ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- جوامِعَ الكَلِمِ وخواتِمَه، وقال -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((تَرَكْتُكُمْ



عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ)) وقال أبو ذرٍّ –رضي اللهُ عنه–: تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ – صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– وما طائِرٌ يُقلِّبُ جناحَيْهِ في السَّماءِ إلا وذَكَرَ لنا منه عِلماً.

قال ابن تيمية رحمه اللهُ: "العلمُ الممدوحُ هو الذي ورّثه الأنبياء ، وهَذَا العِلمُ أقسامٌ ثلاثةٌ:

الأوَّلُ: عِلمٌ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وما يَتْبَعُ ذَلِكَ، وفي مِثْلِهِ أَنزلَ اللهُ سورةَ الإخلاصِ وآيةَ الكرسيّ ونحوِهما.

الثَّاني: العِلمُ بما أخبرَ اللهُ بِهِ مما كان مِن الأمورِ الماضيةِ، ومما يكونُ مِن المستقبَلةِ، ومما هُوَ كائنٌ من الأمورِ الحاضرةِ، وفي مِثْلِهِ أَنزلَ اللهُ القَصصَ والوَعْدَ والوعيدَ وصِفةَ الجَنَّةِ والنَّارِ.

الثَّالثُ: العِلمُ بما أَمَرَ اللهُ بِهِ مِن الأمورِ المتعلّقةِ بالقلوبِ والجوارحِ مِن الإيمانِ باللهِ ومِن معارِفِ القلوبِ وأحوالِها وأحوالِ الجوارحِ وأعمالِها، وهَذَا يَندرِجُ فيه العِلمُ بأصولِ الدّينِ وقواعدِ الإسلامِ، والعِلمُ بالأقوالِ والأفعالِ الظاهرةِ مما هُوَ مذكورٌ في كُتبِ الفِقهِ". (المستدرك على الفتاوى ١/ ١١)

وإلى هذا أشار ابن القيم:

وَالْجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ
نَصٌّ مِنَ الْقُرْآنِ أَو مِنْ سُنَّةٍ وَطَبِيبِ ذَاكَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي
وَالْعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلاثٌ مَا لَهَا مِنْ رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تِبْيَانِ
عِلْمٌ بِأَوصَافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ وَكَذَلِكَ الأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ
وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ وَجَزَاؤُهُ يومَ الْمَعَادِ الثَّانِي
وَالْكُلُّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي جاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بْالْقُرْآنِ.

....

وتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ .والإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ .

....

في هذا النصّ تكلمَ المصنفُ رحمه الله عن ركنٍ وأصلٍ من أصولِ الإيمانِ الستة المذكورةِ في حديثِ جبريلَ وغيرِه، وأَجمعَ عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ ألا وهو الإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ، **ولم يخالِفْ في ذَلِكَ إلا مَجوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ القدَريَّةُ، وقد خرجوا في أواخِرِ عهدِ الصَّحابةِ**، وأنكَرَ عليهم الصَّحابةُ الموجودُونَ إذْ ذاك، وأوَّلُ مَن قال ذَلِكَ مَعبدٌ الجُهنيُّ بالبصرةِ، كما روى مسلمٌ في "صحيحِه" عن ابنِ عمرَ أنَّه قال: والذي نَفْسي بيدِه لو كان لأحَدِهم مِثلُ أُحُدٍ ذهبًا ما قَبِلَه اللهُ منه حتى يُؤْمِنَ بالقدَرِ خيرِه وشرّه، ثم اسْتدَلَّ بقولِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ((الإيمَانُ أنْ تُؤْمِنَ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ

وَكُتُبِهِ ورُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) **فجَعلَ الإيمانَ بالقدَرِ سادِسَ أصولِ الإيمانِ، فمَن أنْكرَه فليس بمؤمنٍ، بل ولا مسلمٍ** فلا يُقبلُ عملُه، **وقال ابنُ القيّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذِكرِ آثارٍ في الإيمانِ بالقدَرِ، قال:**" وَهَذِهِ الآثارُ كُلُّها تُحقِّقُ هَذَا المِقامَ، **وتُبيِّنُ أنَّ مَن لم يؤمنْ بالقدَرِ فقد انْسلَخَ مِن التَّوحيدِ وَلَبِسَ جِلبابَ الشِّركِ، بل لم يُؤمنْ باللَّهِ ولم يعرِفْه، وهَذَا في كُلِّ كتابٍ أنزلَه اللَّهُ على رُسلِه** " طريق الهجرتين (٨٣).

وقال طاوُسٌ رحمهُ اللَّهُ:" أدركتُ ثلاثَمائةٍ مِن أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولون كُلُّ شيءٍ بقدَرٍ" ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنه: وسمعتُ عبدَ اللَّهِ بنَ عمرَ يقولُ: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزَ وَالْكَيَسَ)).

و(القدر) هُوَ: **تعلُّقُ عِلمِ اللَّهِ وإرادَتِه أزلاً بالكائناتِ قَبلَ وجودِها، فلا حادِثَ ولا كائن إلاَّ وقد قدَّره اللَّهُ وشاءه وأراده أزلاً** أي: سَبَق بِهِ عِلمُه، وتعلَّقتْ بِهِ إرادَتُه فهُوَ الخالقُ لكُلِّ شيءٍ القدير عليه.

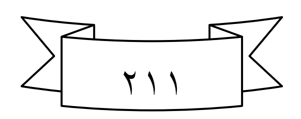
وعرف بعضهم القدر بأنه: **تقدير الله لما سيكون حسب ما سبق به علم الله واقتضته حكمته.**

والإيمان بالقدر من أوجب الواجبات ومن لم يؤمن به فهو على خطر عظيم، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ:أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ – وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ– وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ:فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي وَالَّذِى يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ...) رواه مسلم .

وقد اختلف أهلُ العلم هل القضاءُ و القدرُ بمعنى واحد أم أنهما مختلفانِ على قولين:

القول الأول: من ذهب للتفريق بينهما: فقال بأن القدر هو: تقدير الله الشيء في الأزل. والقضاء:حكم الله وقضاؤه بالشيء عند وقوعه. فإذا قدَّر اللهُ تعالى أن يكونَ الشيءُ المعيَّنُ في وقتِه؛ فهذا قَدَر. فإذا جاء الوقتُ الذي يكون فيه هذا الشيءُ فإنه يكون قضاء. وهذا كثيرٌ في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {وَقُضِيَ الْأَمْرُ} وقوله: {واللهُ يَقْضِي بالْحَقِّ} وهناك من أصحاب هذا القول من عكس هذا التفريق

القول الثاني: أنهما بمعنى واحد والأقرب وبه قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله أنهما إن قُرِنَا جميعًا فبينهما فَرْق كما سبق، وإن أُفْرِدَ أحدُهما عن الآخر فهما بمعنًى واحد.(**فتاوى الشيخ ابن عثيمين: المجلد الثاني، السؤال: ١٩١**).



وقد بَيَّنَ المصنف رحمه الله أَنَّ معتقدَ أهل السنة والجماعة هو الإيمانُ بالقضاء والقدر سواءٌ كان المقضي خيراً أو كان شراً.

أما الإيمانُ بالقضاء والقدر الخيريّ فهو معلومٌ **لكن كيف يكون الإيمانُ بالقضاء والقدر الذي فيه شرٌ فهل معنى ذلك إضافةُ الشر لقضاء الله وقدره ؟**

الجواب : لتعرفَ هذا الأمر لابد أن تعلمَ:

١.أنه إذا أُفْرِدُ الشرُّ ومُحِّضَ فلا يجوز أن يضافَ إلى الله مطلقاً لأن قضاءَه هو أمرُه، وأمرُه يتعلق به وهو صفةٌ له ولهذا لو أُضيف الشر على سبيل الانفراد وكان صفةً لله أو معنًى يقوم به لاشْتُقَّ منه اسمٌ لله وأسماءُ الله كلُّها حسنىَ مُنَزَّهَةٌ عن كل عيبٍ ونقصٍ .

٢. أن إضافةَ الشرِّ المذكورة في الشرع لا تكون **إلا على ثلاث أوجه:**

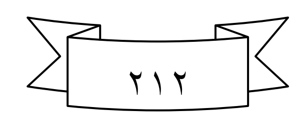
الأول:أن يدخلَ الشرُّ في عموم قضاءِ الله وقدرِه، إذ كلُّ شيءٍ من الموجودات لم يكنْ إلا بقضاء الله وقدره والله خالق كل شيءٍ لقوله:﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ فيدخلُ في هذا العموم ما كان خيراً وما كان ضدَّه .

الثاني:أن يضاف الشرُّ إلى السببِ الفاعل كقوله:﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ و(ما) هنا تحتمل أن تكون موصولةً بمعنى الذي خلق وهذا الأنسب، ويحتمل أن تكونَ مصدريةً ويكونَ التقديرُ: مِنْ شَرِّ خَلْقِهِ إلا أَنَّ الأفضلَ أن لا تطلق هذه الكلمةُ لأنها من الألفاظ الموهمة التي قد ترجع إلى فعلِ الخلق القائمِ به سبحانه وتعالى وقد ترجع على المخلوقِ المنفصلِ الذي هو من جنس المفعولات وهي المخلوقات .

الثالث:أن يأتيَ الشر وقد حذف فاعله كقول الجن :﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ فالفعل (أُرِيدَ) حذف فاعله وهو الله من باب التَّنْزِيهِ وتقديره:أراده اللهُ فجُعِلَ الفاعلُ مبنياً للمجهول من باب التَّنْزيه وهذه الجهاتُ الثلاثُ هي التي جاءت في خطاب الشرع. (انظر:فتاوى ابن تيمية ٨– ٩٤) .

مسألة: هل الشرُّ الواقع في مخلوقات الله من فعل الله أو هو من مفعولاته ؟

الشر الواقع في الخلق هو في مفعولات الله ومخلوقاته وليس من فعل الله لأن تقديرَ الله للشر خيرٌ وحكمةٌ ولهذا ورد عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ يقول في دعاءه قَالَ:(... وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ **وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ** أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ...) رواه مسلم .



إذاً إضافة الشر تكون في مفعولات الله لا أفعاله فالله لا يخلق شراً محضاً ، بل يخلق الشر لما يترتب عليه من المصلحة العظيمة والحكمة البالغة، فانظر مثلا لخلق الكفر وأهله فمن الحِكم في خلقه معرفة الإنسان نعمة الله عليه بالإيمان ، ولولا الكفر ما قام الجهاد ولولا الكفر لكان خلق النار عبثا.

وأما إذا ذكر الشر في القرآن فهو على الجهات الثلاث الواردة في خطاب الشرع وقد تقدم ذكرها .

قال ابنُ القيّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إثباتُ الشَّرِّ في القضاءِ إنَّما هُوَ بالإضافةِ إلى العبدِ والمفعولِ إذا كان يَقْدِرُ عليه بسببِ جَهلِه وظُلمِه وذُنوبِه لا إلى الخالِقِ وفعله، فَلَهُ في ذَلِكَ مِن الحِكَمِ ما تَقْصُرُ عنه أفهامُ البَشرِ، فهُوَ شَرٌّ بالإضافةِ إلى العبدِ، وأمَّا بالإضافةِ إلى الخالِقِ فكُلُّهُ خيرٌ وحِكمةٌ، فإنَّه صادِرٌ عن حِكمةٍ وعِلمٍ، وما كان كذَلِكَ فهُوَ خيرٌ محْضٌ بالنِّسبةِ إلى الرَّبِّ؛ إذْ هُوَ موجبُ أسمائِه وصفاتِه، ولا تعارُضَ بينه وبين قولِه: ((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)) لأنَّ معناه أنَّه يُمنعُ إضافةُ الشَّرِّ إليكَ بوَجهٍ مِن الوجوهِ، فلا يُضافُ الشَّرُّ إلى ذاتِه ولا إلى أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، فإنَّ ذاتَه مُنَزَّهَةٌ عن كُلِّ شرٍّ، وصفاتُه كذَلِكَ؛ إذْ كُلُّها صفاتُ كمالٍ ونُعوتُ جلالٍ لا نَقْصَ فيها بوجهٍ مِن الوجوهِ.(انظر: جلاء الأفهام ٣٠٤)و(طريق الهجرتين ٩٣)و(حادي الأرواح ٣٧٥)

وقال رحمه الله: "وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى وهذا باطل فالشر ليس إليه فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله فالشر ليس إليه لا يضاف إليه فعلا ولا وصفا وإنما يدخل في مفعولاته وفرق بين الفعل والمفعول فالشر قائم بمفعوله المباين له لا بفعله الذي هو فعله فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين وزلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"(بدائع الفوائد١/ ٢٨٨)

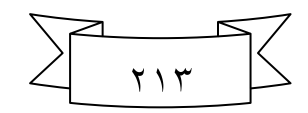
ثم بين المصنف رحمه الله أن الإيمانُ بالقدَرِ على دَرجَتَيْنِ كل درجة تتضمن شيئين فالعلمَ والكتابةَ جعلهما درجةً واحدةً والمشيئةَ والخلقَ الدرجةَ الثانيةَ كما سيأتي، **فمراتبَ القدر أربعة هي: العلمُ والكتابةُ والمشيئةُ والخلقُ** .

فما يسبق حصول المقدر فهو (العلم والكتابة) وما يكون حال وقوع المقدر فهو (الخلق والمشيئة).

قال الناظم: عِلْمٌ كِتَابَةُ مَولانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ.

....

فَالدَّرَجَةُ الأُولَى :الإيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ ما الْخَلْق عاملون، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْق فَأَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ :اكْتُبْ .قَالَ :مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ :اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلاَمُ، وَطُوِيَتِ



الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، وَقَالَ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً :فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ .وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ :اكْتُبْ :رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ .فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُوهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

....

قَوْلُهُ:(الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ ما الْخَلْق عاملون، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ)

بدأَ المصنف رحمه الله بالكلام على المرتبة الأولى من مراتب القدر وهي مرتبةِ العِلمِ، وقد تَقدَّمَ الكلامُ على **صِفةِ العِلمِ وأنها مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ**، وأنَّها متناوِلةٌ الموجودَ والمعدومَ والواجبَ والمُمْكِنَ والمُمْتنِعَ.

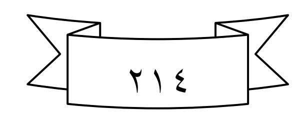
قال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رحمه الله:"إنَّ عِلمَ اللَّهِ السَّابقَ مُحيطٌ بالأشياءِ على ما هي عليه لا مَحْوٌ فيه ولا تَغييرٌ ولا زيادةٌ ولا نقصٌ" **(مختصر الفتاوى المصرية ١٨٨)**.

والأدِلَّةُ على إثبات مرتبة العلم مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ أكثرُ مِن أنْ تُحصرَ، واتَّفقَ عليها الصَّحابةُ والتَّابِعون ومَن تَبِعَهم، ولم يُخالِفْ فيها إلاَّ مَجوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ.

وأشار المصنف رحمه الله في كلامه إلى الرد على غُلاةِ المعتزلةِ والرَّافِضةِ الذين أنكروا أَنَّ اللَّهَ عالِمٌ بالأزلِ، فقالوا: إنَّ اللَّهَ لا يَعلَمُ أفعالَ العِبادِ حتى يَفعلُوها وأن الأمر أُنُف أي: مستأنف لم يسبق لله تعالى علم فيه تعالى اللَّهُ عن قولِهم عُلُواًّ كبيراً قال تعالى: **(أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) وقال: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، فهُوَ سُبْحَانَهُ عليم بكُلِّ شيءٍ أزلاً وأبداً،لم يتقدَّمْ عِلمَه جهالةٌ ولا نسيان،** (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياًّ)، فيَعلَمُ سُبْحَانَهُ ما كان وما يكونُ،ومالم يكنْ لو كان كَيْفَ يكونُ، كما قال تعالى: (وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ).

فإن قيل مالمراد بالأزل والأبد ؟

ج: **الأزلُ القِدمُ الذي لا نهايةَ له، والأبَدُ ما ليس له آخِرٌ " فالأزل كالأبد، فكما أن الأبد هو الدوام في المستقبل، فالأزل هو الدوام في الماضي،** فكما أن الأبد لا يختص بوقت دون وقت، فالأزل لا يختص بوقت دون وقت، فالأزلي هو: الذي لم يزل كائناً، والأبدي هو: الذي لا يزال كائناً، وكونه لم يزل ولا يزال معناه دوامه وبقاؤه، الذي ليس له مبتدأ ولا منتهى" **(درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٢٢٥)**.



والله سبحانه يعلم ما الخلق عاملون ويعلم عن أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ما علموا ومالم يعلموا، وكتب الرزق لكل مخلوق قال اللَّهُ تعالى: (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) فلا بدَّ لكُلِّ مخلوقٍ مِن استكمالِ رِزقِه، كما في حديثِ أبي أمامة مرفوعا:(إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها و تستوعب رزقها فاتقوا الله و أجملوا في الطلب و لا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته) رواه أبونعيم في الحلية وصححه الألباني في الجامع الصغير.

وفي المتَّفقِ عليه مِن حديثِ ابنِ مسعودٍ قال: ((يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ...))، **وقد قَسَمَ سُبْحَانَهُ معايِشَهم في الحياةِ الدُّنْيا** قال تعالى: (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وفي الحديثِ: ((إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاَقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ)) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدِلَّةِ.

فهو سُبْحَانَهُ قد عَلِمَ رِزقَ العبد وأَجَلَه قَبلَ خَلقِه وإيجادِه وفي صحيحِ مسلمٍ عن عبدِ اللَّهِ قال: قالتْ أُمُّ حبيبةَ زَوجُ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: اللَّهم أَمْتِعْني بِزَوْجِي رسولِ اللَّهِ، وبأبي أبي سفيانَ، وبأخي مُعاوِيَةَ)) قال فقال النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((لَقَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئاً قَبْلَ أَجَلِهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئاً عَنْ أَجَلِهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْراً أَوْ أَفْضَلَ)) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على أَنَّ **الميّتَ لا يموت إلا بعد استيفاءِ أَجَلِه واستكمالِ رِزقِه، سواءٌ ماتَ حتْفَ أنفِه أو ماتَ بالقتلِ، خلافًا للمعتزلةِ القائِلينَ بأَنَّ المقتولَ قُطِعَ عليه أَجَلُه**، وقولُهم باطِلٌ تَرُدُّه أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

وهنا مسألة: تتعلق بحكم وَصْفُ علمِ اللهِ بالقديم فهل يجوز هذا أو يمنع أو فيه تفصيل ؟

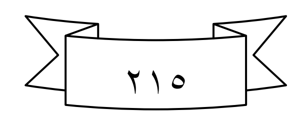
ج: الصحيح أن فيه تفصيل وهو كالتالي:

١.إذا قُصِدَ بالوصف عدمُ طروءِ الجهل أو عدم سبقُ علمِه بجهل أو نقص فهذا المعنى صحيح وهو ما أراده المصنف رحمه الله ولهذا قال: بأن علمه موصوف به أزلا وأبداً .

٢. ما قُصِدَ به ما له بدايةٌ ونهايةٌ وهذا المعنى فاسد لا يليق بالله جل وعلا .

واعلم أن أهلَ السنة يتوسعون في باب الإخبار عن صفات الله ما لا يتوسعون في غيره فبابُ الأسماء توقيفيٌّ أما باب الإخبار فقد يدخله من الأسماء ما هو توقيفيٌّ وما ليس بتوقيفي كالذات الإلهية والقديم وواجبِ الوجود **وإنكارُ المتأخرين** لتسمية الله بالقديم يقصدون به المعنى غيرَ اللائق .

المرتبةُ الثَّانيةُ مِن مراتبِ الإيمانِ بالقدَرِ مرتبةُ الكتابةِ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ مقادِيرَ الخلائقِ وما هُوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ فِي اللَّوحِ المحفوظِ، فأعمالُ العِبادِ تَجري على ما سَبَقَ في عِلمِه وكتابَتِه.



والأدلَّةُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ على إثباتِ هَذِهِ المرتبةِ كثيرةٌ جداً،وأجمعَ على إثباتِها الصَّحابةُ والتَّابعونَ وجميعُ أهلِ السُّنَّةِ والحديثِ،قال اللَّهُ تعالى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ...)،وقال تَعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ).

وفي سُنَنِ أبي داودَ عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: ((أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: ومَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)) وفي الصَّحيحِ مِن حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو، قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ:(كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكان عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ) رواه مسلم.

وقد اختلف العلماء أَيُّهُمَا خَلَقَ اللهُ أولاً القلمَ أو العرشَ ؟

على قولين:

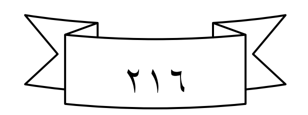
القول الأول: واختاره ابن تيمية وابن القيم أن أولَ ما خلق اللهُ العرشُ لحديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ المتقدم قالوا: فيه دلالةٌ على أن العرش كان قبل الكتابة، والكتابةُ لم تكن إلا بالقلم فكان العرش سابقاً عليه، فدلَّ على أَنَّ العرشَ مخلوقٌ قبلَ القَلمِ.

القول الثاني:أن أولَ ما خلقَ اللهُ القلمُ لحديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وفيه:(إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ فَقَالَ لَهُ:اكْتُبْ . قَالَ:رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ:اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) رواه أبو داود .وعلى رواية الرفع للقلم فتكون خبراً ل(إن) وتكون (ما) نكرة بمعنى (شيء) والتقدير:إن أولَ شيءٍ خلقَه اللهُ هو القلمُ .

والراجح هو القول الأول ويردُّ على الإستدلال بدليل القول الثاني أن الرواية الأصحَّ هي النصبُ للقلم على أنه مفعولُ خَلَقَ ويكون (أولَ) ظرفاً بمعنى: (حينَ) ويكون خبراً لإن واسمُها محذوفٌ وتكون (ما) مصدريةً ويكون تقدير الكلام:إنه حينَ خلق اللهُ القلمَ قال له:اكتب .

فما يُصيبُ الإنسانَ ممَّا يَضُرُّه ويَنفَعُه فكُلُّه مُقدَّرٌ عليه في الكتاب السابق،كما قال سُبْحَانَهُ: (قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللَّه عنهما أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال له: ((**وَاعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ...**))

فما أصابك من القدر مكتوب وما تعداك وأصاب غيرك ولم يصبك مكتوب (**جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيتِ الصُّحُفُ**) وهَذَا كنايةٌ عن تَقدُّمِ كتابةِ المقاديرِ كُلِّها، والفَراغِ منها مِن أمدٍ بعيدٍ،كما في حَديثِ ابنِ عبَّاسٍ المتقدِّمِ: ((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)) رواه التِّرمذيُّ وقال: حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ.



وفي "الصَّحيحَيْنِ" مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال له: ((جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لاقٍ)). وفي صحيحِ مسلمٍ عن جابرٍ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رَجُلاً قال: يا رسولَ اللَّهِ: فِيمَ العَمَلُ؟ أفيما جَفَّتْ بِهِ الأقلامُ وجَرتْ بِهِ المقاديرُ؟أَمْ فيما يُستقبَلُ؟ قال: ((فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأقلامُ وَجَرَتْ بِهِ المقاديرُ))، قال: فَفِيمَ العملُ؟ قال: ((اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ)).

قال ابنُ القيّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:"قد تَضَمَّنَ هَذَا الحديثُ الرَّدَّ على القدَريَّةِ والجبريَّةِ، وإثباتَ القدَرِ والشَّرعِ، وإثباتَ الكتابِ الأوَّلِ المتضمِّنِ لعِلمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الأشياءَ قَبلَ كونِها، وإثباتَ خَلقِ الفِعلِ الجَزائيِّ، وهُوَ يُبطِلُ أُصولَ القدَريَّةِ الذين يَنفونَ خَلقَ الفِعلِ مُطلقًا، ومَن أَقَرَّ مِنهم بِخَلقِ الفِعلِ الجَزائيِّ دُونَ الابتداءِ هَدَمَ أَصْلَه ونقَضَ قاعدتَه، والنَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أخبَرَ بِمِثلِ ما أخبَرَ بِهِ الرَّبُّ أَنَّ العبدَ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له لا مجبورٌ، فالجَبْرُ لفظٌ بِدْعيٌّ، والتَّيسِيرُ لفظُ القرآنِ والسُّنَّةِ". (التبيان في أقسام القرآن ٣٦)

وذِكرُ الأقلامِ في هَذِهِ الأحاديثِ وغيرِها مجموعةً، دليلٌ على أنَّ للمقاديرِ أقلاماً غيرَ القَلَمِ الأوَّلِ الذي تَقدَّمَ ذِكْرُه مع اللَّوحِ المحفوظِ، والذي دَلَّتْ عليه السُّنَّةُ أَنَّ الأقلامَ أربعةٌ:

الأوَّلُ: القَلَمُ العَامُّ الشَّامِلُ لجميعِ المخلوقاتِ، وهُوَ الذي كُتِبَ بِهِ مقاديرُ كُلِّ شيءٍ.

الثَّاني: القَلم العام الخاص ببني آدمَ.

الثَّالثُ: القلم الذي مع الملك حين يرسلُ إلى الجنينِ في بطنِ أُمِّهِ فينفُخُ فيه الرُّوحَ ويُؤمَرُ بأربعِ كلماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِه، وأجَلِه، وعَمَلِه، وشَقِيٌّ أو سعيدٌ.

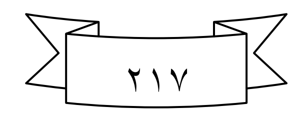
الرَّابعُ: القلم الذي بأيدِي الملائكة الكِرامِ الكاتِبينَ الذين يَكتبون ما يَفعلُه بنو آدمَ عند بلوغهم، كما وَرَدَ ذَلِكَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ. (شرح الطحاوية ٢٤٣)

واعلم أن الكتابة التي يكتبها القلم تتعلق فيما هو مقضي ومقدر من قِبَل الخالق وهذا في علم الله القديم فليس المقصود أن الله لم يكن يعرف الأشياءَ إلا بعد كتابتها لأن علمَه سبحانه بالأشياء ومقاديرها سابقٌ لكل شيء لكن كتابةَ ذلك في اللوح المحفوظ لم يكن إلا قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة عندما قال للقلم: اكتب..

وقولُه تعالى: **(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ)** أيْ: مِن قَحْطٍ وقِلَّةِ نباتٍ وقِلَّةِ ثِمارٍ.وقولُه: **(وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ)** أي:مِن أمراضٍ وفَقْدِ أولادٍ ونحوِ ذَلِكَ.وقولُه: **(إِلاَّ فِي كِتَابٍ)** وهُوَ اللَّوحُ المحفوظُ.وقولُه: **(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)** أي: مِن قَبلِ أنْ نَخْلُقَ الأرضَ والأنْفُسَ يقال: قد برأ الله هذا الشيء بمعنى : خلقه فهو بارئه ..

وقولُه: **(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)** أي: إنَّ عِلْمَه للأشياءَ قَبلَ كَوْنِها وكتابتَه لها طِبقَ ما يُوجَدُ في حِينِها سَهْلٌ على اللَّهِ، لأنَّه سُبْحَانَهُ يَعلَمُ ما كان وما يكونُ وما لم يكن لو كان كَيْفَ يكونُ.

والكتابة نوعان :



النوع الأول: نوع لا يتبدل ولا يتغير وهو ما في اللوح المحفوظ من مقادير كل شيء .

النوع الثاني: نوع يتغير ويتبدل وهو ما بأيدي الملائكة ، وما يستقر أمره أخيراً عندهم هو الذي قد كتب في اللوح المحفوظ ، وهو أحد معاني قوله تعالى : (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

ومن هذا يمكننا فهم ما جاء في السنة الصحيحة من كون صلة الرحم تزيد في الأجل أو تبسط في الرزق ، أو ما جاء في أن الدعاء يرد القضاء ، ففي علم الله تعالى أن عبده سيصل رحمه وأنه سيدعوه فلهذا كتب له في اللوح المحفوظ سعةً في الرزق وزيادةً في الأجل .

فإن قيل: ما كيفية وصفة اللوح المحفوظ والقلم والصحف المذكورة في الأدلة ؟

ج: هذه الأمور مما يجب الإيمان بها وأمَّا كيفيتها وصفتها فعِلمُها إلى اللَّه تعالى كما قال تعالى: (وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ). (شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٩٨)

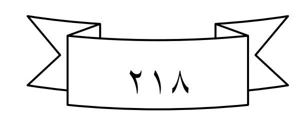
وقولُه رحمه الله: **(وهَذَا التَّقديرُ التابع لعلمه سبحانه....)** أي: وهذا التقدير المكتوب التابع لعلم الله سبحانه وتعالى بالأشياء قبل تكوينِها وإيجادِها تارة يكونُ جملةً كما في اللوح المحفوظ فإن فيه مقادير كل شيء وتارة يكون في مواضع مفصلا تفصيلا **وعلى هذا فالتقدير على نوعين:**

النوع الأول: التقدير العامٌّ الشامل لكل كائن وهو لجميع الخلق وهو المكتوب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ودليلها قوله صلى الله عليه وسلم: (أن الله لما خلق القلم قال له: اكتب. قال: رب ماذا اكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة) رواه أحمد وغيره. وهذا التقدير لا يتغير أبداً ويسمى بالتقدير الكوني.

النوع الثاني: التقديرُ الخاصٌّ وهو تفصيلٌ للقدر العام المكتوب في اللوح المحفوظ كما قال ابن القيم رحمه الله في (شفاء العليل ٢٤) وهو على ثلاث أنواع:

١- التقدير العمري وهي ما يُقدر ويؤمر الملك الموكل بالأرحام بكتابته على الجنين في بطن أمه إذا تم له أربعة أشهر، فيؤمر المِلَك بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، ودليله حديث ابن مسعود رضي الله عنه الثابت في الصحيحين.

٢- التقدير الحولي وهو ما يقدر ويكتب في ليلة القدر من وقائع العام لقوله تعالى:﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ولقول قتادةَ رضي الله عنه في قولِه تعالى: (تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فيها...). قال:" يُقضَى ما يكونُ في السَّنَةِ إلى مِثلِها" رواه عبدُ الرَّزَّاقِ وابنُ جريرٍ.



٣- التقدير اليومي وهو ما يقدر ويكتب من حوادث اليوم من حياة وموت وعز وذل ونحوه كما قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ .

واعلم أن التقديرَ الكونيَّ المكتوب في اللوح المحفوظ يكون فيه التعليق والأمر المعلق مثل أن يقدر الله على الإنسان مرضاً في التقدير الحولي أو العمري أو اليومي لكنه معلقٌ بالدعاء فإن دعى العبدُ حذف عنه هذا التقدير وإلا فإنه يحل به، وهذا التعليق موجودٌ في اللوح المحفوظ ثابتٌ لا يتغير فيكون مكتوباً فيه إن فعل كذا سيكون كذا وإن فعل كذا فسيكون كذا فمثلاً إذا وصل رحمه زِيدَ في عمره ووُسِّعَ له في رزقه ويبقى على ما هو عليه في التقادير الثلاثة ومعرفة هذا الأمر يجعل الإنسان يعملُ ولا يتوقفُ وهذه التقادير الثلاثة هي المقصودة في قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أما اللوح المحفوظ الثابت الذي لا يتغير فهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ .فما يكون فيه المحو والإثبات هو ما في الصحف التي بأيدي الملائكة مما يتعلق بالتقدير الحولي أو العمري، فإنها قابلة للتغيير وهذه تكون معلقة أما ما في اللوح المحفوظ فهو ثابت لا يتغير .

قال رحمه الله: **(فهَذَا القدَرُ قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ومنكروه اليوم قليل)**

العلم والكتابة هما أول ما أنكره غلاة القدرية في باب القدر ويريدون بذلك علمُه بالأشياءَ قَبلَ كونِها، وكتابَتُه لها طِبقَ ما يُوجَدُ في حِينِها، فهذا القدر قد كان يُنكِرُه غُلاةُ القدريَّةِ، فيُنكِرون عِلمَه المتقدِّمَ، وكِتابَتَه السَّابقةَ، ويَزعُمون أنَّه أمَرَ ونَهَى وهُوَ لا يَعلَمُ مَن يُطيعُه ممَّن يَعصِيهِ، بل الأمْرُ أُنُفٌ أي مُستأنَفٌ، **وهَذَا القولُ أوَّلُ ما حَدَثَ في الإسلامِ بعدَ انْقِراضِ عَصْرِ الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ، وكان أوَّلَ مَن أظهَرَ ذَلِكَ بالبصرةِ معبدٌ الجهنيُّ، وأخَذَ عنه هَذَا المذهبَ غَيلانُ الدِّمشقيُّ ومن أتباعهم عمرو بن عبيد وغيره،** فلمَّا ابتدعَ هؤلاءِ التَّكذيبَ بالقدَرِ رَدَّ عليهم مَن بَقِي مِن الصَّحابةِ، كعبدِ اللَّهِ بنِ عُمرَ، وعبدِ اللَّهِ بنِ عبَّاسٍ، وواثِلةَ بنِ الأسقعِ وغيرِهم.

والقدريَّةُ يَنقسمونَ إلى فِرْقتَيْنِ:

الفرقة الأولى: تُنكِرُ أَنَّ اللهَ سَبقَ عِلمُه بالأشياءِ قَبلَ وُجودِها، وتزعُم أَنَّ اللَّهَ لم يُقدِّر الأمورَ أزلاً ولم يتقدَّمْ عِلمُه بها، وإنَّما يَعلَمُها إذا وَقَعتْ، **قال العلماءُ: والمنكِرونَ لهَذَا انْقَرضُوا وبعضهم قال:إنهم ما زالوا موجودين لكنهم قليل ومثلهم بعض الفلاسفة الإسلامين الذين يقولون:إن الله يعلم الكلياتِ دون الجزئياتِ أي أن الله على زعمهم يعلم بالأشياء دون تفاصيلها وهذا ضلال مبين .**

وهذه الفرقة هي التي كفرها الأئمَّةُ مالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ، وهم الذين قال فيهم الشَّافعيُّ: "ناظِروا القدريَّةَ بالعِلمِ، فإنْ أقرُّوا بِهِ خُصِموا، وإنْ أنكَروه كَفُروا ".

الفِرقةُ الثَّانيةُ: المِقرون بعلم الله بالأشياء قبل وقوعها لكنهم خالَفوا السَّلَفَ في زَعْمِهم بأنَّ أفعالَ العِبادِ مَقدورةٌ لهم وواقِعةٌ منهم على جِهةِ الاستقلالِ أي: أنهم هم الخالقون لأفعالهم، وهُذا مع كَونِه مذهباً باطِلاً فهو أخَفُّ مِن المذهبِ الأوَّل: قال الشَّيخ ابن تيمية رحمهُ اللَّهُ: "وأمَّا هؤلاء – يعني الفِرقةَ الثَّانيةَ – فإنهم مُبتدِعون ضالُّون لكنَّهم ليسوا بمنزلةِ أولئكَ، قال: وفي هؤلاء خَلْقٌ كثيرٌ مِن العلماءِ والعُبَّادِ وكُتِبَ عنهم وأَخرجَ البخاريُّ ومُسلمٌ لجماعةٍ منهم، لكنْ مَن كان داعيةً لم يُخَرِّجوا له، وهَذَا مذهبُ فقهاءِ الحديثِ كأحمدَ وغيرِه، ومَن كان داعيةً إلى بِدْعةٍ فإنَّه يَسْتَحقُّ العقوبةَ لدَفعِ ضررِه عن النَّاسِ وإنْ كان في الباطنِ مجتهداً، فأقَلُّ عُقوبتِه أنْ يُهجَرَ فلا يكونُ له رتبةٌ في الدِّينِ، فلا يُستقضَى ولا تُقبلُ شهادَته ونحوُ ذَلِكَ لا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ولا تقبل شهادته ونحو ذلك". (الفتاوى ٧/ ٣٨٥) وهذه الفرقة هي من يقابل الجبرية في اعتقادهم.

....

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُو الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ؛ إلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لاَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لاَ يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ والمَعْدُومَاتِ، مَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ إلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ.

....

هنا بدء المصنف رحمه الله تعالى بالكلام على الدرجة الثانية من درجات الإيمان بالقدر وهي الشاملة لمرتبة المشيئة والخلق وبدأ بمرتبة المشيئة وهي المرتبة الثاثة لمن يجعل القدر على أربع مراتب، فالمرتبة الثالثة هي: إثباتُ مشيئةِ اللَّهِ النَّافذةِ، أي: الماضيةِ التي لا رَادَّ لها، مِن نَفَذَ السَّهمُ نُفوذًا إذا خَرَقَ الرَّميَّةَ، ونَفَذَ الأمرُ مَضى، ،ففيها إثباتُ نُفوذِ قُدرتِه ومشيئتِه الشاملة،**وقد دَلَّ عليها الكِتابُ والسُّنَّةُ وأجمعَ عليها سَلَفُ الأمَّة، قال اللَّهُ تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ) وقال: (وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)** إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على نُفوذِ مَشيئَتِه فلا خُروجَ لكائنٍ عن مشيئَتِه كما لا خُروجَ له عَن عِلمِه.

وفسَّرَ المصنّفُ رحمه الله معنى الإيمانِ بالمشيئة: بأن ما شاء الله كان ومالم يشألم يكن، **وأشار بِهَذَا إلى الرَّدِّ على القَدَرِيَّةِ والمعتزِلةِ الذين يُثبتون للعبدِ مشيئةً تخالِفُ مشيئةَ اللَّهِ**، وتقدَّمَ ذِكرُ الأدلَّةِ على بطلانِ قولِهم، وهل أضَلُّ ممَّن يَزعُمُ أَنَّ اللَّهَ شاءَ الإيمانَ مِن الكافرِ والكافرُ شاءَ الكفرَ، فغلبَتْ مشيئةُ الكافرِ مشيئةَ اللَّهِ؟! تعالى اللَّه عَن قولِهم علوا كبيرا،**أما أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ فتمسَّكوا بالكِتابِ والسُّنَّةِ في هَذَا البابِ وغيرِه،واعتقَدوا أنَّ مشيئةَ العبدِ تابعةٌ لمشيئةِ اللَّهِ في كُلِّ شيءٍ** مما يوافِقُ ما شَرَعَه وما يخالِفُه مِن أفعالِ العبدِ وأقوالِه، فالكُلُّ بمشيئةِ اللَّهِ، فما وافَقَ ما

شَرَعَه رَضِيَه وأَحَبَّه، وما خالَفه كَرِهَه ورده، كما قال سُبْحَانَهُ وتعالى: (إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ...).وقد تقدَّمَ ذِكرُ أقسامِ الإرادةِ والمشيئةِ، والفَرْقُ بينهما وبين المحبَّةِ والرِّضا.

ما شاء الله كان (أي:وجد وحصل) **وما لم يشأ لم يكن وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون في ملكه ما لا يريد.**

وهو سُبْحَانَهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ من الموجودات والمعدومات قال تعالى: (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

ومثال الموجوداتِ كأفعالِ خَلْقِه مِن الملائكةِ والنَّبِيِّينَ وسائرِ حركاتِ العِبادِ فلا يَخرُجُ عن خَلقِه ومُلكِه شيءٌ.

أما المعدوماتِ فكما قال سُبْحَانَهُ: (إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) وقال: (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) أي: شيئاً في الخارجِ، وإن كان شيئاً في عِلمِه سُبْحَانَهُ " وأما المحالُ لِذاتِه مِثلُ كونِ الشَّيءِ الواحدِ موجودًا معدومًا فهذا لا حقيقةَ له ولا يُتصوَّرُ وُجودُه، ولا يُسمَّى شيئاً باتِّفاقِ العقلاءِ، ، ومِن هَذَا البابِ: خَلقَ مِثلَ نَفْسِه وأمثال ذلك". (منهاج السنة ٢٩٣/٢)

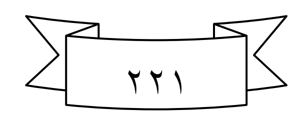
وفي قوله: (**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) دليلٌ على شمولِ قُدرتِه جل شأنه، فكُلُّ ممكنٍ فهُوَ مُندَرِجٌ فيها.

وفيها الرَّدُّ على القدَريَّةِ فإنَّ مذهبَهم أنَّه سُبْحَانَهُ ليس على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ العِبادَ يَقْدِرونَ على ما لا يَقدِرُ عليه، وأنَّه سُبْحَانَهُ لا يَقدِرُ أنْ يَهْدِي ضالاًّ ولا يُضِلُّ مُهْتدِيا، **وهَذَا المذهبُ باطلٌ تَرُدُّه أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وهُوَ كما قال بعضُ العلماءِ شِركٌ في الرُّبوبيَّةِ مختصَرٌ**، ولذَلِكَ ورَدَ أنَّ ((القدَريَّةَ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ)) لمشابَهةِ قولِهم لقولِ المجوسِ.

وأما أهلُ السُّنَّةِ فيُثبتون أَنَّ العبدَ فاعِلٌ حقيقةً، ولكنَّه مخلوقٌ لِلَّهِ ومَفعولٌ، ولا يقولون هُوَ نَفْسُ فِعلِ اللَّهِ، ويُفرِّقون بين الخَلقِ والمخلوقِ والفِعلِ والمفعولِ.

ثم أشار المصنف رحمه الله تعالى إلى المرتبة الرابعة وهي: مرتبة الخلق والإيجاد فقال: **(فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه)** فكل ما سوى الله مخلوق وكل الأفعال صغيرها وكبيرها خيرها وشرها صادرة عن خلقه جل في علاه وإحداثه لها قال تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) وقال: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ).

وفي هَذِهِ الآياتِ الرَّدُّ على القدَريَّةِ الذين يَزعُمونَ أَنَّ العبدَ يَخلُقُ فِعلَ نَفْسِه استقلالا بِدُونِ مشيئةِ اللَّهِ وإرادَتِه، ولا شكَّ في بُطلانِ هَذَا المذهبِ وفسادِه ومصادمَتِه لأدلَّةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، فإنَّ قولَه سُبْحَانَهُ: (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) شاملٌ لأفعالِ العِبادِ، لدُخولِها في عُمومِ كُلٍّ، ولا يَدخلُ في ذَلِكَ أسماءُ اللَّهِ وصفاتُه، كما أنَّه سُبْحَانَهُ لم يَدخُلْ في عُمومِ كُلٍّ، فكذَلِكَ أسماؤه وصفاتُه.



قال ابنُ القيِّمِ رحمه الله:"وفيه دليل على أنه سبحانه خالق أفعال العباد وأخلاقهم، كما هو خالق ذواتهم وصفاتهم، فالعبد كله مخلوق ذاته وصفاته وأفعاله، **ومن أخرج أفعاله عن خلق الله، فقد جعل فيه خالقا مع الله،** ولهذا شبه السلف القدرية النفاة بالمجوس،وقالوا: هم مجوس هذه الأمة، صح ذلك عن ابن عباس".(**زاد المعاد ٣/ ٥٣٢**)

فمراتبُ الإيمانِ بالقضاءِ والقَدَرِ أربعٌ كما سَبَقَتْ إشارةُ المصنِّفِ إليها.

الأولى: عِلْمُه السَّابقُ بما هم عامِلون قبلَ إيجادِهم.

الثَّانيةُ: كتابَتُه لذَلِكَ في الذِّكْرِ عندَه قَبلَ خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ.

الثَّالثةُ: مَشيئَتُه المتناوِلَةُ لكُلِّ مَوجودٍ، فلا خُروجَ لكائنٍ عن مشيئَتِه، كما لا خُروجَ له عَن عِلمِه.

الرَّابعةُ: خَلْقُه له وإيجادُه وتَكوينُه، فإنَّه لا خَالِقَ غيرُه.

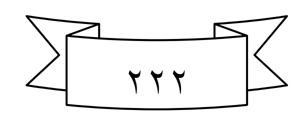
مسألة: ماحكم الإحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الواجبات ؟

ج: هذا لا يجوز بالإتفاق قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين ، وسائر أهل الملل ، وسائر العقلاء ؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس وأخذ الأموال ، وسائر أنواع الفساد في الأرض ، ويحتج بالقدر. ونفس المحتج بالقدر إذا اعتدي عليه ، واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه ، بل يتناقض ، وتناقض القول يدل على فساده ، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بدائه العقول " (**الفتاوى ١٧٩/٨**)

وقد دل على فساد الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الطاعات ؛ الشرع والعقل ، فمن الأدلة الشرعية :

١. قول الله– تعالى – : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا ءَابَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ) الأنعام/٣٩ ، فهؤلاء المشركون احتجوا بالقدر على شركهم ، ولو كان احتجاجهم مقبولاً صحيحاً ما أذاقهم الله بأسه . فمن احتج بالقدر على الذنوب والمعائب فيلزمه أن يصحح مذهب الكفار ، وينسب إلى الله الظلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

٢. أن القدر سر مكتوم ، لا يعلمه أحد من الخلق إلا بعد وقوعه ، وإرادة العبد لما يفعله سابقة لفعله ، فتكون إرادته للفعل غير مبنية على علم بقدر الله ، فادعاؤه أن الله قدر عليه كذا وكذا ادعاء باطل ؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله ، فحجته إذاً داحضة ؛ إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه



٣- لو كان القدر حجة لأهل المعاصي لاحتج به أهل النار ، إذا عاينوها ، وظنوا أنهم مواقعوها ، كذلك إذا دخلوها ، وبدأ توبيخهم وتقريعهم ، لكن الواقع أنهم لم يحتجوا به ، بل إنهم يقولون كما قال الله عز وجل عنهم : (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل). ويقولون : (ربنا غلبت علينا شقوتنا) وقالوا : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ). و (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) المدثر/٤٤ ، إلى غير ذلك مما يقولون .

ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغاً لاحتجوا به ؛ فهم في أمس الحاجة إلى ما ينقذهم من نار جهنم .

٤- لو كان الاحتجاج بالقدر صحيحا لكان حجة لإبليس الذي قال : (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) الأعراف/١٦ ، ولتساوى فرعون عدو الله ، مع موسى كليم الله عليه السلام .

٥- ومما يرد هذا القول ، ويبين فساده : أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه ، ولا تجد شخصا يترك ما يصلح أمور دنياه ويعمل بما يضره فيها بحجة القدر فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر ؟!

وإليك مثالاً يوضح ذلك : لو أن إنساناً أراد السفر إلى بلد ، وهذا البلد له طريقان ، أحدهما آمن مطمئن ، والآخر كله فوضى واضطراب ، وقتل ، وسلب ، فأيهما سيسلك ؟

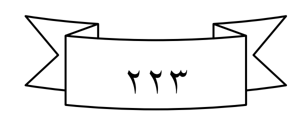
لاشك أنه سيسلك الطريق الأول ، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار ؟

٦. ومما يمكن أن يُرد به على هذا المحتج . بناء على مذهبه . أن يقال له : لا تتزوج ، فإن كان الله قد قضى لك بولد فسيأتيك ، وإلا فلن يأتيك . ولا تأكل ولا تشرب ، فإن قدر الله لك شبعاً ورياً فسيكون ، وإلا فلن يكون . وإذا هاجمك سبع ضار فلا تفر منه ، فإن قدر الله لك النجاة فستنجو ، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار . وإذا مرضت فلا تتداو ، فإن قدر الله لك شفاءً شفيت ، وإلا فلن ينفعك الدواء .

فهل سيوافقنا على هذا القول أم لا ؟ فإن وافقنا علمنا فساد عقله ، وإن خالفنا علمنا فساد قوله ، وبطلان حجته .

٧- لو قبلنا هذا الاحتجاج الباطل لما كان هناك حاجة للاستغفار ، والتوبة ، والدعاء ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٨- لو كان القدر حجة على المعائب والذنوب لتعطلت مصالح الناس ، ولعمت الفوضى ، ولما كان هناك داع للحدود ، والتعزيرات ، والجزاءات ، لأن المسيء سيحتج بالقدر ، ولما احتجنا لوضع عقوبات للظلمة ، وقطاع الطريق ، ولا إلى فتح المحاكم ، ونصب القضاء ، بحجة أن كل ما وقع إنما وقع بقدر الله ، وهذا لا يقول به عاقل .



٩- أن هذا المحتج بالقدر الذي يقول : لا نؤاخذ ، لأن الله كتب ذلك علينا ، فكيف نؤاخذ بما كتب علينا؟

فيقال له : إننا لا نؤاخذ على الكتابة السابقة ، إنما نؤاخذ بما فعلناه ، وكسبناه ، فلسنا مأمورين بما قدره الله لنا ، أو كتبه علينا ، وإنما نحن مأمورين بالقيام بما يأمرنا به ، فهناك فرق بين ما أريد بنا ، وما أريد منا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أمرنا بالقيام به .

ومما تجدر الإشارة إليه أن احتجاج كثير من هؤلاء ليس ناتجاً عن قناعة وإيمان ، وإنما هو ناتج عن نوع هوى ومعاندة ، ولهذا قال بعض العلماء فيمن هذا شأنه : " أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري ، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به " (مجموع الفتاوى ١٠٧/٨) يعني أنه إذا فعل الطاعة نسب ذلك نفسه ، وأنكر أن يكون الله قدر ذلك له ، وإذا فعل المعصية احتج بالقدر .

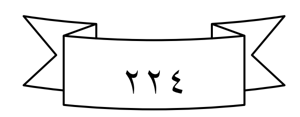
قال شيخ الإسلام ابن تيمية . رحمه الله . عن المحتجين بالقدر : " هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى " (مجموع الفتاوى ٨ / ٢٦٢)

وعليه فلا يسوغ للعبد أن يحتج على معايبه ومعاصيه بالقدر ،وإنما يسوغ الاحتجاج بالقدر :عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر ، والمرض ، وفقد القريب ، وتلف الزرع ، وخسارة المال ، وقتل الخطأ ، ونحو ذلك ؛ فهذا من تمام الرضا بالله رباً ، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب ، لا المعائب ، " فالسعيد يستغفر من المعائب ، ويصبر على المصائب ، كما قال تعالى : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) والشقي يجزع عند المصائب ، ويحتج بالقدر على المعائب "

ويوضح ذلك المثال الآتي : لو أن رجلاً أسرع بسيارته وفرَّط في أسباب القيادة السليمة فتسبب في وقوع حادث ، فوبّخ على ذلك ، وحوسب عليه فاحتج بالقدر ، لم يكن الاحتجاج منه مقبولاً ، بينما لو أن شخصا صُدِمت سيارته وهي في مكانها لم يتحرك بها ، فلامه شخص فاحتج بالقدر لكان احتجاجه مقبولا ، إلا أن يكون قد أخطأ في طريقة إيقافها .

فالمقصود أن ما كان من فعل العبد واختياره فإنه لا يصح له أن يحتج بالقدر ، وما كان خارجا عن اختياره وإرادته فيصح له أن يحتج عليه بالقدر .

ولهذا حَجَّ آدم موسى عليهما السلام كما في قوله صلى الله عليه وسلم في محاجتهما : " احتج آدم وموسى فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة ؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، ثم تلومني على أمر قد قدّر علي قبل أن أخلق ؟ فحج آدمُ موسى" (أي : غلبه في الحجة) رواه مسلم .



فآدم عليه السلام لم يحتج بالقدر على الذنب كما يظن ذلك من لم يتأمل في الحديث ، وموسى عليه السلام لم يلم آدم على الذنب ؛ لأنه يعلم أن آدم استغفر ربه وتاب ، فاجتباه ربه ، وتاب عليه ، وهداه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

ولو أن موسى لام آدم على الذنب لأجابه : إنني أذنبت فتبت ، فتاب الله علي ، ولقال له : أنت يا موسى أيضاً قتلت نفساً ، وألقيت الألواح إلى غير ذلك ، إنما احتج موسى بالمصيبة فحجه آدم بالقدر . (انظر: الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ١٨ – ٢٢)

" فما قُدِّر من المصائب يجب الاستسلام له ؛ فإنه من تمام الرضا بالله رباً ، أما الذنوب فليس لأحد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب ، فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب " شرح الطحاوية (١٤٧) .

وقد ذكر بعض العلماء أن ممن يسوغ له الاحتجاج بالقدر التائبُ من الذنب ، فلو لامه أحد على ذنب تاب منه لساغ له أن يحتج بالقدر ، لأن الذنب في حقه صار مصيبة وهو لم يحتج على تفريطه بالقدر بل يحتج على المصيبة التي ألمت به وهي معصية الله ولا شك أن المعصية من المصائب ، كما أن الاحتجاج هنا بعد أن وقع الفعل وانتهى ، واعترف فاعله بعهدته وأقر بذنبه ، فلا يسوغ لأحد أن يلوم التائب من الذنب ، فالعبرة بكمال النهاية ، لا بنقص البداية . (انظر: الإيمان بالقضاء والقدر للحمد)

....

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَاد ..

....

أي:**مع كونه سبحانه يعلِم الأشياء ويقدرها ويكتبها ويريدها ويوجدها فلا تعارض في ذلك مع كونه أمر العباد بطاعته ونهاهم عن معصيته، ولا بين تقديره وقوع المعصية وبغضه لها فلا تعارض في ذلك بين شرعه وقدره كما يظنه بعض الضلال الذين يعارضون بين الشرع والقدر .**

ففي كلامه رحمه الله إشارةٌ للرَّدِّ على مَن عارَضَ شَرْعَه وأمْرَه بقضائِه وقدَرِه، وجَعلَ مشيئتَه العامَّةَ دَافِعةً للأمْرِ كفِعلِ الزَّنادِقَةِ إذا أُمِروا أو نُهوا احتجُّوا بالقدَرِ، ولهذا وقف عمر رضي الله على من احتج بذلك موقفا حازما فقد احتجَّ سارقٌ عليه بالقَدرِ فقال: وأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بقَضاءِ اللَّهِ وقدَرِه.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى:"ومن ادعى أن العارف إذا شهد القدر سقط عنه الأمر كان هذا الكلام من الكفر الذي لا يرضاه لا اليهود ولا النصارى بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع" (الفتاوى ٨/ ١٠٦)

وأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

الأولى:القدرية المشركية الذين أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي، قال تعالى : {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ } فمن احتج على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء، وهذا قد كثر فيمن يدعى الحقيقة من المتصوفة فهؤلاء أمنوا بالقدر وأنكروا الشرع .

الثانية:القدرية المجوسيةُ، الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه، فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته،وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم فهؤلاء أمنوا بالشرع وأنكروا القدر.

الثالثة:القدرية الإبليسيةُ الذين أقروا وآمنوا بالشرعِ والقدرِ لكنهم جعلوا هذا تناقضاً من الرب سبحانه وتعالى وطعنوا في حكمته وعدله كما نقل الشهرستاني ذلك عن إبليسَ من أنه اعترض على الرب باعتراضات باطلة منها: طعنُه في الحكمة من خلق الله له مع علم الله بما سيحدث منه . (أنظر: التدمرية ٢/ ١٢٠)و(الملل والنحل)

لكن كَذَّبَ هذه الاعتراضاتِ ابنُ تيمية رحمه الله وقال بأنها:قد تكون من وضع بعض الزنادقة من المسلمين أو قد تكون من وضع أهل الكتاب . (أنظر: الفتاوى ٨/ ١١٥)

لكن قد يستدل لذلك بامتناع إبليسَ عن السجود لآدمَ حيث أنه مقرٌّ بخلق الله وقدرته ومقرٌّ بشرعه لكن طعن في الحكم والعدل حيث أمره الله بالسجود لمن هو دونه بزعمه ويكثر في هذا القسم بعض سفهاء الشعراء ونحوهم من الزنادقة. ومن ذلك قولُ القائل منهم:لِمَ خلق الله الجَمَالَ وحرم النظرَ إليه .

وقولُه رحمه الله:**(وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَاد)**

تقدمت أدلة ذلك لكنه يريد بذلك الرد عَلَى مَن زَعَم أَنَّ المشيئةَ والمحبَّةَ سواء أو مُتَلازمتانِ، كما يقولُه الجبريَّةُ والقدَريَّةُ، وقد دلَّ على الفَرْقِ بينهما الكِتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ والفِطرةُ وقد تقدم بيان ذلك أيضاً.

فالمشيئةُ والمحبَّةُ ليس مدلولُهما واحدًا، ولا هُما متلازِمان،بل قد يشاءُ اللهُ ما لا يُحبُّه ويُحِبُّ ما لا يشاؤه كونا

فالأول: كمشيئَتِه لوجودِ إبليسَ وجنودِه، ومشيئتِه العامَّةِ لجميعِ ما في الكونِ مع بُغضِه لبَعْضِه.

الثَّاني: كمحبَّتِه لإيمانِ الكفارِ والفجارِ، ولو شاءَ ذَلِكَ لوُجِدَ كُلُّه، فإنَّ ما شاءَ اللهُ كان وما لم يشأْ لم يكن، فأهلُ الكِتابِ والسُّنَّةِ يقولون بالتفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية وقد سبق بيان ذلك بالتفصيل.

....

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَلَقَ أفْعَالَهُم وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ وَالْمُصَلِّي وَالصَّائِمُ وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن

يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

....

العبد وفعله كلاهما مخلوقان لله قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) فالعبد يفعل حقيقة وهو وفعله مخلوقان لله

وفي هذا الرَّدِّ على الجَبْرِيَّةِ الذين يقولون: إنَّ العبدَ لا فِعلَ له أصلاً وأن إسناد الأفعال إليه من قبيل المجاز فهُوَ مجبورٌ على أفعالِه وهي واقِعةٌ بغيرِ اختيارِه،والمحرِّكُ له غيرُه، فهُوَ آلةٌ محضْةٌ، وحركاتُه بمنزلةِ هُبوبِ الرِّياحِ وحركاتِ المرتَعِشِ، وقد يَغْلُون في ذَلِكَ حتى يَرَوْا أفعالَهم كُلَّها طاعاتٌ خيرُها وشرُّها، لموافقتِها للمشيئةِ والقَدَرِ، وهؤلاء شرٌّ مِن القدَرِيَّةِ النُّفاةِ، وأشدُّ عداوةً لِلَّهِ ومناقضةً لكِتابِه ورُسلِه ودِينِه.

وفي ذلك أيضاً الرَّدُّ على القدَرِيَّةِ الذين يقولون: إنَّ العبدَ يَخْلُقُ فِعلَ نَفْسِه استقلالا، وأنَّها واقِعةٌ بمشيئَتِهم وقُدْرَتِهم دُونَ مشيئةِ اللهِ، وأَنَّ اللهَ لم يُقَدِّرْ ذَلِكَ عليهم ولم يَكْتُبْه ولا شاءه، وأَنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ أنْ يَهدِيَ ضالاً ولا يُضِلَّ مهتديًا، فشابَهوا المجوسَ في كونِهم أثْبَتوا خالِقاً مع اللهِ، ولِذا سُمُّوا مجوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ، والأدلَّةُ على فسادِ قَولِهم وبطلانِه كثيرةٌ جِداً، منها حديثِ حذيفة مرفوعاً: ((إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنْعَتِهِ))رواه البخاري في (خلق أفعال العباد) وابن حبان والبيهقي والحاكم وصححه ابن حجر في (الفتح) والألباني في (السلسلة الصحيحة).

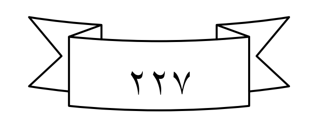
فاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الإنسانَ بجميعِ أغراضِه وحركاتِه، وقد أطبقَ الصَّحابةُ والتَّابِعونُ على ذَمِّهم وتبدِيعِهم وتضليلِهم، وبَيَّنَ أئمَّةُ الإسلامِ أنَّهم أشباهُ المجوسِ، وأنَّهم قد خالَفوا أدِلَّةَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، بل وخالفوا العقلَ والفطرةَ..

وقَوْلُهُ:(وَالْعَبْدُ هُو الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ وَالْمُصَلِّي وَالصَّائِمُ وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ)

فيه نسبة أفعال العبد إليه فالعبدُ هو المؤمن والصائم والمصلي والله يعاقبهم ويثيبهم على أفعالهم التي فعلوها حقيقةً كما قال تعالى: **(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)**.

فالعبد هو الفاعل حقيقة والله خلقه وفعلَه قال تعالى: (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) وقال: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا)، وقال: (وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ)، وقال: (فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على نسبةِ أفعالِ العبدِ إليه .

فالعبدُ حقيقةً هُوَ المصلِّي والصَّائِمُ، وهل يَليقُ باللهِ سُبْحَانَهُ أنْ يعاقِبَهم على نَفْسِ فِعلِه، بل إنَّما يُعاقِبُهم على أفعالِهم التي فَعَلُوها حقيقةً، كما قال تعالى: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ) فالعبدُ هُوَ الذي صامَ وصلَّى وأسْلَمَ، وهُوَ الفاعِلُ حقيقةً، بجَعلِ اللهِ له فاعِلاً، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا



صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) وقال: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ إِلَى النَّارِ) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ على أَنَّ العبدَ فاعِلٌ حقيقةً .

وقولُه: ((**وللعِبادِ قُدرةٌ على أعمالِهم ولهم إرادةٌ**)) إشارةٌ للرَّدِّ على الجبريَّةِ.

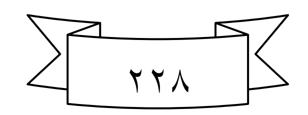
وقولُه: (**واللَّهُ خَالِقُهم وقُدرتِهم وإرادَتَهم؛ كَما قالَ تعالى: (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقيمَ. ومَا تَشاؤونَ إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمينَ)، (وهذه الدَّرَجَةُ مِنَ القدَرِ يُكَذِّبُ بها عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذين سَمَّاهُم النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَجُوسَ هذه الأمَّةِ**) وهذا فيه إشارةٌ للرَّدِّ على القدريَّةِ.

فالجَبْرِيَّةُ والقدَرِيَّةُ في طَرَفَيْ نَقيضٍ، فالجَبْرِيَّةُ غَلَوْا في الإثباتِ، والقدَرِيَّةُ غَلَوْا في النَّفْيِ، وهدى اللَّهُ أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ للقولِ الوسطِ، فأَثبَتُوا أَنَّ العِبادَ فاعلون ولهم قُدرةٌ على أعمالِهم ولهم إرادةٌ ومشيئةٌ، وأَنَّ اللَّهَ سبحانَهُ وتعالَى خَالِقُهم وخالِقُ قُدْرَتِهم ومَشيئَتِهم، قال اللَّهُ تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فَأَثْبَتَ مَشيئةً للعبدِ، وأخبَرَ أَنَّها لا تكونُ إلا بمشيئةِ اللَّهِ فهي تابعة لها.

وقولُه: (**وَهَذِهِ الدَّرجَةُ مِن القَدَرِ**) وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ خَلقَه وخَلقَ فِعلَه وأن العباد فاعلون حقيقة (**يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي عليه الصلاة والسلام مجوس هذه الأمة**) أو أكثرُهم، فيَزعُمون أَنَّ العبدَ يَخْلُقَ فِعلَ نَفْسِه استقلالاً بدُونِ مشيئةِ اللَّهِ وإرادتِه، وسُمُّوا قَدريَّةً لإنكارِهم القَدَرَ، وَكَذَلِكَ تسمَّى الجَبْرِيَّةُ المحتجُّون بالقَدَرِ قدريَّةً لخوضِهم في القَدَرِ، والتَّسميةُ على الطَّائفةِ الأُولى أغلَبُ، قال ابنُ تيميَةَ في تائيَّتِه:

ويُدْعَى خُصومُ اللَّهِ يَومَ مَعادِهم إلى النَّارِ طُراً فِرقةَ القَدريَّةِ
سواءٌ نَفُوه أو سَعَوْا ليُخاصِمُوا بِهِ اللَّهَ أو مَارَوْا بِهِ الشَّريعَةِ

وسموا (**مجوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ**) لمِضاهاةِ قولِهم لقولِ المجوسِ، فإنَّ المجوسَ يُثبِتون خالِقَيْنِ خالق الخير وهو النور وخالق الشر وهو الظلمة، وَكَذَلِكَ القدريَّةُ أَثْبَتُوا أَنَّ اللَّهَ خَلقَهم وأنَّهم خَلقوا أفْعالَهُم استقلالاً، كما روى أبو داودَ في سُننِه وابن أبي عاصم وصححه الألباني بمجموع طرقه عن ابنِ عمرَ رضي اللَّهُ عنهما عن النَّبيِّ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- أنَّهُ قال: ((الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِنْ مَرِضُوا فلا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ)) وروى أبو داودَ أيضًا عن حذيفةَ -رضي اللَّهُ عنه- قال: قال رسولُ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ وَمَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الذين يَقُولُونَ لاَ قَدَرَ، مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَلاَ تَشْهَدُوا جِنَازَتَهُ، وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُمْ فَلاَ تَعُودُوهُ، وَهُمْ شِيعَةُ الدَّجَّالِ، وَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُلْحِقَهُمْ بِالدَّجَّالِ)) وأحاديثُ القدَرِيَّةِ المرفوعةُ ذهب كثير من أهل العلم إلى ضعفها، وإنَّما يَصِحُّ منها الموقوفُ، وقد اختَلَفَ العلماءُ في تكفيرِ هؤلاء، وأمَّا مَن أَنْكَرَ العِلمَ القَديمَ فنَصَّ الشَّافِعِيُّ وأحمدُ وغيرُهما مِن أئمَّةِ الإسلامِ على تكفيرِه، وقد تَقدَّمت الإشارةُ إلى ذَلِكَ.



مسألة: ما الجمعُ بين قولنا:إن الله هو الذي يشاءُ جميعَ الأشياء وأنها لا تكون إلا بقدره ومنها خلقُ أفعال العباد، وبين نسبة الأفعال لأصحابها وكونِ الإنسان له مشيئةٌ وقدرةٌ يختار بها ؟

الجواب: أن جميعَ الأشياء الناتجةِ من أفعال الخلق لا تكون إلا بأمرين:

١.الإرادة الجازمة ٢.القدرة التامة .

فإذا اجتمعتا كان المفعولُ وحصل الشيءُ ولذلك إذا كان الإنسانُ لا يستطيع الحركة ويبعُد عنه مَطْلَبُهُ من شراب أو غذاء فإنه لا يستطيع أن يصلَ لما يبعُد عنه لأنه فقد القدرةَ مع وجود الإرادة وقد يكون الغذاء قريباً منه قادراً عليه لكنه لا يريده ولا يشاءه فحينئذ لا يأخذه لعدم إرادته، والقدرةُ والإرادةُ مخلوقتان فإذا كانتا مخلوقتين صار ما ينتج عنهما مخلوقاً فعلى هذا فاللهُ خالقُ فعلِ العبد لأنه خلق له القدرةَ والإرادةَ وفعل العبد لا يكون إلا بهذين الأمرين.

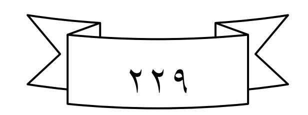
وقَوْلُه رحمه الله :(**وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ**) أي: يغلو في مرتبة الخلق والمشية قوم من أهل الإثبات وهم الجبرية حيث غَلَوْا في نَفْيِ أفعالِ العِبادِ حتى سَلَبوا العِبادَ قُدْرتَهم واختيارَهم، وزعموا أنَّهم لا يَفعلون شيئًا ألبتَّةَ، وإنَّما اللهُ هُوَ فاعِلُ تِلْكَ الأفعالِ حقيقةً، فَهِيَ نَفْسُ فِعلِه لا أفعالِهم، والعبيدُ ليس لهم قُدرةٌ ولا إرادةٌ ولا فعلٌ ألبتَّةَ، وأنَّ أفعالَهم بمنزلةِ حركةِ الجماداتِ لا قدرةَ له عليها، وإمامُ هؤلاء الجهمُ بنُ صفوانَ التِّرمذيُّ، **وقولُهم باطِلٌ؛ لأنَّنا نُفرِّقُ بالضَّرورةِ بين حَرَكَةِ البَطْشِ وحَرَكَةِ المرتَعِشِ، ونعلمُ بأَنَّ الأَوَّلَ باختيارِه دُونَ الثَّاني، ولأنَّه لو لم يكنْ للعَبْدِ فِعلٌ أصلاً لما صَحَّ تَكْلِيفُه، ولا ترَتَّبَ استحقاقُ الثَّوابِ والعقابِ على أفعالِه، ولا إسنادُ الأفعالِ التي تقتضي سابقةَ قَصْدٍ إليه على سبيلِ الحقيقةِ**، مِثلُ **صلَّى وصامَ وكَتَبَ، بخلافِ مِثلِ طالَ واسودَّ لونُه**، والنُّصوصُ القَطْعيَّةُ تَنْفى ذَلِكَ، قال اللَّهُ تعالى: (جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) وقال: (مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) إلى غيرِ ذَلِكَ.

قال ابنُ القَيِّمِ:" وهؤلاءِ خُصماءُ اللَّهِ الذين جاء فيهم الحديثُ: ((يُقَالُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَيْنَ خُصَمَاءُ اللَّهِ فيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ))... " (طريق الهجرتين (ص: ٨٦) أخرجه ابن ابي عاصم وفيه مقال

والذي عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ هُوَ ما تَقَدَّمَ من الإيمانُ بِأَنَّ أفعالَ العِبادِ مخلوقةٌ لِلَّهِ، صادرةٌ عَن مشيئَتِه وإرادَتِه، وَهِيَ أفعالٌ لهم، وكَسْبٌ لهم باختيارِهم، فلذا تَرَتَّبَ عليها الثَّوابُ والعِقابُ، كما تكاثَرَتْ بِذَلِكَ الأدِلَّةُ.

وقولُه: (**ويُخرِجونَ عن أفعالِ اللَّه وأحكامه حكمها ومصالحها**)

أي أنَّ هؤلاء الجهميَّةَ الجبرية يَزعُمون أَنَّ الله تعالى لا يَفعلُ لعِلَّةٍ ولا حِكمةٍ، وإنَّما هُوَ مَحْضُ مشيئةٍ وصَرْفُ إرادةٍ مجرَّدَةٍ عن الحكمةِ والرَّحمةِ، وكان شيخُهم الجهمُ بنُ صفوانَ يَقِفُ على الجذماءِ فيقولُ: أَرْحمُ الرَّاحِمين يفعلُ مِثلَ هَذَا؟ إنكارا للرَّحْمةِ والحكمةِ، وأدِلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ تُبطِلُ هَذَا المذهبَ. قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولهذا



الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة، وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى " مفتاح دار السعادة ومطلب أهل العلم والإرادة "وبينا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجها، وهو كتاب بديع في معناه، وذكرناه أيضا في كتابنا المسمى " سفر الهجرتين وطريق السعادتين ". (مدارج السالكين (١/ ١١٢)

والذي عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ هُوَ إثباتُ العِلَّةِ والحكمةِ في أفعالِه سُبْحَانَهُ وشَرعِه وقدَرِه، فما خَلقَ شيئًا ولا قضاهُ ولا شَرَعَهُ إلا لحكمةٍ بالغةٍ، وإنْ تقاصَرَتْ عنها عقولُ البَشرِ، والأدِلَّةُ في إثباتِ ذَلِكَ كثيرةٌ جِداًّ، فإنَّه سُبْحَانَهُ حكيمٌ شَرَعَ الأحكامَ لِحكمةٍ ومصلحةٍ، فما خَلقَ شيئًا عَبَثًا ولا خَلقَه سُدًى كما قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)، وقال: (أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)، وقال: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ) وقال: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وقال: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدِلَّةِ على إثباتِ هَذَا الأصلِ.

....

فصل: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ.

....

هذا الفصل أتى به المصنف رحمه الله ليبن المراد بالإيمان وحقيقته والخلاف الحاصل فيه بين الطوائف وذكر رحمه الله تعالى هنا أن من الأصول الأساسية عند أهل السنة والجماعة الإعتقاد بأن الدين والإيمان **قول وعمل**، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.

والدين لغة: الذُّلُّ، يُقالُ دِنْتُه فَدانَ، أي أَذْلَلْتُه فَذَلَّ، وشَرْعا: هُوَ ما أَمَرَ اللَّهُ بهِ على أَلْسِنةِ رُسلِه، أما الإيمانُ فهو لغةً: التَّصدِيقُ كما قال تعالى: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا) أي بمُصدِّقٍ، وشَرْعا: هو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح كما ذكر المصنف رحمه الله و(**قولُ القلبِ**) هُوَ اعتقادُه وتصديقه الجازم بالشيء، كاعتقادِ ما أخبرَ اللَّهُ بِهِ عَن نَفْسِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وملائكتِه وكتُبه ورُسلِه.

أما (**قولُ اللِّسانِ**) فهُوَ النطق بالشَّهادَتَيْنِ، والقيامُ بذِكْرِه سُبْحَانَهُ وتبليغِ أوامرِه والدَّعوةِ إليهِ والذَّبِّ عن دِينِه ونحوِ ذَلِكَ. وأما (**عملُ القلبِ**) فهو انقياده وما يأتي عليه من أعمال لا تقوم إلا به من النية

والإخلاص والتَّوكُّلُ والإنابَةُ والمحبَّةُ والانقيادُ والخوفُ منه سُبْحَانَهُ والرَّجاءُ وإخلاصُ الدِّينِ له والصَّبْرُ ونحوُ ذَلِكَ مِن أعمالِ القلوبِ.

وأما (**عَمَلُ اللِّسان**) فهو ما لا يقوم إلا به كالذكر وقراءة القرآن ونحوِ ذلك فهذه كلها من أعمال اللسان

أما عمل (**الجوارِح**) فهو سكونُها وحركاتُها كقيام وقعود ونحوِ ذلك فالسجود والركوع كلُّها من أعمال الجوارح والصَّلاةِ والحجّ والجهادِ ونحوِ ذَلِكَ منها أيضاً، وقد أبان حقيقةَ القول والعمل المتعلقينِ بالقلب واللسان كثيرٌ من الأئمة منهم ابنُ القيم في (المدارج).

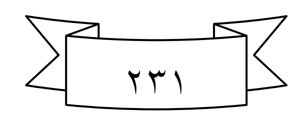
فالإيمانُ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ هُوَ ما تَقدَّمَ من أنَّه قولٌ واعتقادٌ وعمل، وحكى الشَّافِعيُّ على ذَلِكَ إجماعَ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ ومَن بَعْدَهم ممَّن أدْرَكَهم، **وأنْكَرَ السَّلَفُ على مَن أخرجَ الأعمالَ مِن الإيمانِ إنكاراً شديداً.**

والسلفُ رحمهم الله لهم عدةُ تعبيرات عن حقيقة الإيمان فمنهم من يقول هو: قول وعمل، ومنهم من يقول هو: قول اللسان وإقرار الجنان وعمل الجوارح والأركان، ومنهم من يقول: كما قال البخاري :طفت الأمصارَ وأدركت نحوَ ألفٍ من علماء المسلمين كلُّهم يقولون: " الإيمان قول وعمل يزيد وينقص" رواه اللالكائي. ولهذا يقال:بأن البخاري لم يُخَرّجْ في صحيحه إلا لمن قال:إن الإيمانَ قولٌ وعملٌ.

وبعضهم قال كالإمام أحمد: "الإيمان قول وعمل ونية"، ثلاثةٌ كلها ترجع إلى الإثنينِ الأولينِ وكلها تعاريفُ صحيحةٌ ترجع لمعنى واحد إما على جهة اللزوم وإما على جهة الحقيقة والمطابقة.

قال ابن تيمية:" القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: {ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب} . وقال أبو هريرة: القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده" (الفتاوى (٧/ ١٨٧).

وقد روى اللاَّلَكائِيُّ بإسنادٍ صحيحٍ عن البخاريّ قال: لقيتُ أكثرَ مِن ألْفِ رجُلٍ مِن العلماءِ بالأمصارِ، فما رأيتُ أحدًا منهم يختلِفُ في أَنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ ويَزِيدُ ويَنْقُصُ، وقال الأوْزاعِيُّ: كان مَن مَضَى مِن السَّلَفِ لا يُفَرِّقُون بين العَمَلِ والإيمانِ، وفي "الصَّحيحَيْنِ" عن ابن عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنه–



عن النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قال لوفْدِ عبدِ القَيْسِ: ((آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ: الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ...)).

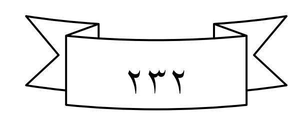
قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" فيه أَنَّ الإيمانَ باللَّهِ هُوَ مجموعُ هَذهِ الخِصالِ مِن القولِ والعملِ، كما عَلِمَ ذَلِكَ أصحابُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ والتَّابِعون وتابِعُوهم كلهم، ذكره الشافعي في (المبسوط) وعلى ذَلِكَ ما يُقارِبُ مِن مائةِ دليلٍ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ ". (زاد المعاد (٣/ ٥٣١)

وقَوْلُهُ:(وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ)

من إعتقاد أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص قال سُبْحَانَهُ: (لِيَزْدَادُواْ إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ)، وقال تعالى: (وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وتسليمًا) وقولُه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ أَخْلاقًا))، وفي "الصَّحيحَيْنِ" مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ مِنَ الإِيمانِ)) وَلَفْظُهُ لِمُسْلِمٍ إلى غيرِ ذَلِكَ من الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على أَنَّ الإيمانَ يَزِيدُ ويَنْقُصُ، **وعلى أَنَّ المؤمنينَ يَتفاضَلون في الإيمانِ، فبعضُهم أكْملُ إيمانًا مِن بعضٍ**، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"والذي مضى عليه سلف الأمة وأئمتها: أن نفس الإيمان الذي في القلوب يتفاضل كماقال النبي صلى الله عليه وسلم {أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان} وأما زيادة العمل الصالح الذي على الجوارح ونقصانه فمتفق عليه وإن كان في دخوله في مطلق الإيمان نزاع وبعضه لفظي " (الفتاوى (٦/ ٤٧٩)

ودل قوله تعالى: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذنِ اللَّهِ) على أَنَّ المؤمنينَ يَنْقسمون إلى ثلاثةِ أقسامٍ: سابِقون، ومُقتَصِدُونَ، وظالِمون لأنْفُسِهم، **فالسَّابِقُ إلى الخيراتِ**: هُوَ الذي عَمِلَ الواجباتِ والمسْتَحبَّاتِ، واجْتَنَبَ المحرَّماتِ والمكروهاتِ، **والمقتصِدُ**: هُوَ مَن اقتصَرَ على فِعلِ الواجباتِ واجتنابِ المحرَّماتِ، **والظَّالِمُ لنَفْسِه**: هُوَ مَن أخلَّ ببعضِ الواجباتِ وانْتَهكَ بعضَ المحرَّماتِ، فكُلُّ واحدٍ مِن هَذهِ الأقسامِ يُطلَقُ عليه أنَّه مؤمِنٌ.

أمَّا أصولُ الإيمانِ فستَّةٌ كما في حديثِ جبريلَ وهي: ((أَنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))، وفي الحديثِ المذكورِ جعلَ مراتِبَ الدِّينِ ثلاثةً: الإيمانُ، والإسلامُ،



والإحسانُ، فأَعْلاها الإحسانُ، ثم الإيمانُ، ثم الإسلامُ، فكُلُّ مُحْسنٍ مؤمنٍ مُسلِمٌ ولا ينعَكِسُ، وكُلُّ مؤمنٍ مُسلِمٌ لا العكس، **فالمرتبةُ الأولى** الإسلامُ، وَهِيَ التي يَدخُلُ فيها الكافِرُ أوَّلَ ما يَتكلَّمُ با الإسلامِ، **وأعلى منها** مرتبةُ الإيمانُ، لأَنَّ اللَّهَ نفى عمَّن ادَّعى الإيمانَ مِن أوَّلِ وهْلةٍ الإيمانَ، وأثْبَتَ لهم الإسلامَ، كما قال تعالى: (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا).

المرتبةُ الثَّالثةُ: الإحسانُ، وَهِيَ أعْلَى مِن المرتبتَيْنِ الأُولَيَيْنِ، فقد يُنفى عن الرَّجُلِ الإحسانُ ويُثبَتُ له الإيمانُ، ويُنفى عنه الإيمانُ ويُثبَتُ له الإسلامُ، كما في حديثِ: ((لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ)) ولا يُخرِجُه عن مرتبةِ الإسلامِ إلاَّ الكفرُ باللَّهِ والشِّرْكُ المخْرِجُ عن المِلَّةِ.

وأمَّا المعاصي والكبائرِ كالزِّنا وشُربِ الخمرِ ونحوِ ذَلِكَ فلا يُخرِجُه عن دائرةِ الإسلامِ، **والإسلام والإيمانِ إذَا ذُكِرَا جميعًا**، فإنَّ الإسلامَ يُفَسَّرُ بالانقيادِ للأعمالِ الظَّاهرةِ، والإيمانُ يُفَسَّرُ بالأعمالِ الباطنةِ، كما فُرِّقَ بينهما في حديثِ جبريلَ فقال: ((الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وتُؤتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَالإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)).

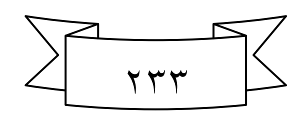
وروى الإمامُ أحمدُ مِن حديثِ أنسٍ رضي اللَّهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((الإِسْلاَمُ عَلاَنِيَةً، وَالإِيمَانُ بِالْقَلْبِ)) وهَذَا إِذَا ذُكِرَا معًا، **أَمَّا إِذَا أُفْرِدَ أحدُهما عن الآخَرِ** كقولِه تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ) فإنَّه يَدْخُلُ فيه الآخَرُ، فإِذَا أُفْرِدَ الإيمَانُ دَخَلَ فيه الإسلامُ وبالعكس، ففيهما دلالةُ الاقترانِ والانفرادِ، كالفقيرِ والمسكينِ ونحوِ ذَلِكَ.

وقد خالف أهلَ السنة والجماعة في مسألة الإيمان وزيادته ونقصانه طائفتان:

١. **المرجئةُ** حيث يقولون:إن الإيمان هو الإقرارُ بالقلب فقط فلا يزيد ولا ينقص فلا يضر عندهم مع الإيمان ذنبٌ كما لا ينفع مع الكفر طاعةٌ ويقال:إن أول من قال بالإرجاء رجلٌ يقال له غيلانُ الدمشقيُّ القدريُّ وقد ذم السلفُ القولَ بالإرجاء حتى قال إبراهيم النخعي:"لفتنتهم يعني المرجئةَ أخوفُ على هذه الأمة من فتنة الأزارقة" يعني: الخوارجَ . مرجئة الفقهاء

والمرجئة أنواع :

أ- مرجئة الفقهاء: ويرون أن الإيمان هو اعتقاد القلب والنطق باللسان فقط.ومن أبرز أهل هذا التوجه: أبوحنيفة،وابرٰهيم التيمي، وشيخ أباحنيفة حماد بن سليمان.



ب- الجهمية: ويرون أن الإيمان هو معرفة القلب فقط وإن لم يقر بلسانه والكفر عندهم محصور بزوال التصديق. عن القلب واعلم أن الجهمية جبرية. ومن أبرز أهل هذا التوجه: الجهم بن صفوان وتنسب إليه، وبشر المريسي والجعد بن درهم،

ج- الكرامية:ويرون أن الإيمان هو قول اللسان فقط ولا يلزم تصديق أو معرفة في القلب. ومن أبرز أهل هذا التوجه: محمد بن كرام السجستاني وتنسب إليه الكرامية.

د- الكلابية: وقد وافقوا فيه مرجئة الفقهاء ومن أبرز أهل هذا التوجه:عبد الله بن سعيد بن كلاب وتنسب إليه الكلابية.

هـ- الأشاعرة :ورد عنهم في الإيمان ثلاث أقوال:

١- أنه مجرد تصديق القلب فقط وهذا أشهر القول عندهم وهو قول الماتريدية وهم بهذا وافقوا الجهمية. ومن أبرز أهل هذا التوجه: أبو الحسن الشعري وقد رجع عنه لكن أتباعه ينكرون هذا،أبوبكر الباقلاني،أبو المعالي الجويني.

٢- أنه تصديق القلب وقول اللسان وبهذا وافقوا المرجئة.

٣-أنه قول وعمل وهذا آخر قولي أبو الحسن الأشعري وبهذ يكون قد وافق السلف الصالح. مع العلم أن الشاعرة ينكرون هذا.

٢.الخوارجُ والمعتزلةُ: ويرون أن الإيمان قول وعمل واعتقاد لكنهم قالوا:إن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان وشرطٌ في بقائه فمن فعل معصية خرج عن مسمى الإيمان وهذا هو الفرق بينهم وبين أهل السنة والجماعة وقد سبق بيان قول أهل السنة مع أدلتهم الدالة على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية مما يدل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان .

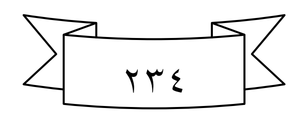
مسألة: لو قيل ماسبب نزاع الفرق في الإيمان ؟

ج: السبب هو انهم جعلوا الإيمان شيئا واحدا إذا زال بعضه زال كله وعلى هذا قالوا لايجتمع في الرجل الواحد طاعة ومعصية لن الطاعة جزء من الإيمان والمعصية جزء من الكفر فلا يجتمع في كفر وإيمان في وقت واحد.

لكن يرد عليهم من عدة أوجه:

١- أنه لا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها سواء كانت مقيسة على أسماء مركبة أو مؤلفة أو نحو ذلك.

٢- أن شعب الإيمان قد تتلازم عند قوة الإيمان في القلب وقد لا تتلازم عند ضعف الإيمان في القلب ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعا واحدا ففيهم المنافق المحض وفيهم من فيه نفاق وإيمان وفيهم من إيمانه غالب



وعلى هذا فالإيمان ليس له حقيقة واحدة كما قال الغمام أحمد من أنه :(بدأ ناقصاً حتى اكتمل) وعلى هذا فقد يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق بدليل قوله عليه الصلاة والسلام:(من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر غير أن في حديث سفيان وإن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق).(انظر الإيمان الأوسط)

وَقَوْلُهُ: (وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ)

أي: مع أن اعتقاد أهل السنة والجماعة بأن الإيمان اعتقاد وقول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فهم مع ذلك لا يُكفِّرون أهلَ القِبلةِ وهم مَن إدعى الإسلامَ واستقبلَ الكعبةَ، حتى ولو كان عليهم ذُنوبٌ ومعاصٍ عَدَا الشِّرْكَ والكفر باللَّهِ المخرجَ من المِلَّةِ الإسلاميَّةِ، بدليل قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} وقوله صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ من حديث أنس: ((من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته)) رواه البخاري.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ لا يكفِّرون أهلَ القبلةِ بمطلَقِ المعاصي والكبائرِ، كما يَفعَلُه الخوارجُ والمعتزِلةُ، **فإنَّ الخوارجَ يقولون:** مَن فَعلَ كبيرةً فَهُوَ في الدُّنْيا كافرٌ وفي الآخرةِ مُخَلَّدٌ في النَّارِ لا يَخرُجُ منها لا بشفاعةٍ ولا بغيرِ شفاعةٍ، **والمعتزِلةُ يقولون:** مَن فَعلَ كبيرةً فهُوَ في الدُّنْيا لا مُؤمِنٌ ولا كافرٌ، بل في منزلةٍ بين المنزلَتَيْنِ، وفي الآخرةِ خالِدٌ مخلَّدٌ في النَّارِ، كقول الخوارجِ، **وقابَلَتْهم المُرْجِئةُ** فقالوا: إنَّه لا يَضُرُّ مع الإيمانِ ذَنْبٌ كما لا يَنْفَعُ مع الكفرِ طاعةٌ، **وقالوا:** إيمانُ أَفْسَقِ النَّاسِ كإيمانِ أبي بكرٍ وعمرَ، **فالخوارِجُ والمعتزِلةُ غَلَوْا، والمُرْجِئةُ جَفَوْا، أولئكَ تعلَّقُوا بأحاديثِ الوعيدِ، وهؤلاء تعلَّقوا بأحاديثِ الوعدِ فقط، وهَدَى اللَّهُ أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ للقولِ الوسَطِ** الذي تَدُلُّ عليه أدِلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ، **فقالوا: إنَّ الفاسِقَ لا يَخْرُجُ مِن الإيمانِ بمجرَّدِ فِسقِه، ولا يخلَّدُ في النَّارِ في الآخرةِ، بل هُوَ تحت مشيئةِ اللَّهِ إنْ عَفى عنه دخَلَ الجَنَّةَ مِن أوَّلِ وهْلةٍ، وإنْ لم يَعْفُ عنه عُذِّبِ بقدْرِ ذُنوبِه، ثم دخَلَ الجَنَّةَ، فلا بدَّ له مِن دخولِ الجَنَّةِ،** فالعاصي مُعرَّضٌ لعقوبةِ اللَّهِ وعذابِه، قال اللَّهُ تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) فَهذِهِ الآيةُ صريحةٌ في أنَّ مَن مَاتَ غيرَ مُشرِكٍ فهُوَ تحت مشيئةِ اللَّهِ، **ففيها الرَّدُّ على الخوارجِ** المكفِّرينَ بالذُّنوبِ، **وعلى**

الْمُرْجِئَةِ القائِلِينَ بِأَنَّ الذُّنوبَ لا تَضُرُّ، وأَنَّ النَّاسَ في الإيمانِ سواءٌ لا تفاضُلَ بينهم ففي الصَّحيحِين من حديث أنس: ((يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ)).

وفِي هذا دَلِيلٌ على زيادةِ الإيمانِ ونُقْصانِه، وعَلَى دُخولِ طائِفةٍ مِن الموحِّدينَ النَّارَ، وأنَّ الكبائرَ لا يُكفَّرُ فاعِلُها، ولا يخلَّدُ في النَّارِ.

قال البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "بابُ خوفِ المؤمنِ أنْ يَحبَطَ عَملُه وهُوَ لا يَشعُرُ"، وقال إبراهيمُ التَّيميُّ: "ما عَرَضْتُ قَوْلِي على عَمَلِي إلاَّ خَشِيتُ أنْ أكونَ مُكذِّبا"، وقال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: "أَدْرَكْتُ ثلاثين مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفاقَ على نَفْسِه، ما منهم أَحدٌ يقول: إنَّه على إيمانِ جبريلَ وميكائيلَ"، ويُذكَرُ عن الحسَنِ أنه قال: "ما خَافَه إلاَّ مؤمِنٌ ولا أَمِنَه إلاَّ منافِقٌ".

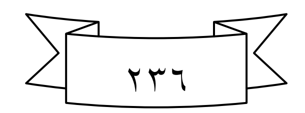
فإن قيل ما المراد بالْكَبَائِرِ ؟

ج: الكبائر هي: الأفعال القبيحةُ من الذنوب العظيمةِ وهي: كلُّ معصية ورد فيها حدٌّ في الدنيا أو وعيدٌ في الآخرة وزاد ابن تيمية:أو ورد فيها نفيُ إيمان أو لعنٌ أو غضبٌ وقد خالف أهلَ السنة في الكبيرة المعتزلةُ والخوارجُ في الحكم عليه في الدنيا والآخرة كما تقدم .

وقد عد بعضهم الكبائر فأوصلها إلى سبعين، وفي كتاب (الزواجر عن الكبائر) ما يزيد على أربع مائة وستين كبيرة، وقيل لابنِ عبَّاسٍ: الكبائرُ سبعٌ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: "هي إلى السَّبْعِمِائةِ أَقربُ منها إلى السَّبْعِ، غير أنَّه لا كبيرةَ مع استغفارٍ ولا صغيرةَ مع إصرارٍ"

وقد نبه ابن أبي العز إلى تنبيه في غاية الأهمية فقال: ولكن ثم أمر ينبغي التفطن له، وهو: أنه قد يَقْتَرِنُ بالصَّغِيرةِ مِن قلَّةِ الحياءِ وعَدمِ المبالاةِ وتَركِ الخوفِ ما يُلحِقُها بالكبائرِ، وقد يَقترِنُ بالكبيرةِ مِن الحياءِ والخوفِ والوَجَلِ ما يُلحِقُها بالصَّغائرِ، وهَذَا أمْرٌ مَرْجِعُه إلى ما يقومُ بالقَلْبِ وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره، وقد يُعْفَى لصاحِبِ الإحسانِ العظيمِ ما لا يُعْفَى لغيرِه، فإنَّ فاعِلَ السَّيِّئاتِ تَسقطُ عنه عُقوبةُ جَهنَّمَ بنحوِ عشَرةِ أسبابٍ، عُرِفَتْ بالاستقراءِ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ:

الأوَّل: التَّوبةُ، **الثَّاني**: الاستغفارُ، **الثَّالثُ**: الحسناتُ الماحيةُ، **الرَّابعُ**: المصائِبُ الدُّنْيويَّةُ، **الخامِسُ**: عذابُ القبرِ، **السَّادِسُ**: دُعاءُ المؤمنينَ واستغفارُهم، **السَّابعُ**: ما يُهْدَى إليه بعد الموتِ مِن ثوابِ صدقَةٍ أو قراءةٍ أوحَجٍّ ونحوِ ذَلِكَ، **الثَّامنُ**: أهوالُ يومِ القِيامَةِ وشدائِدُه، **التَّاسعُ**: ما ثَبَتَ أَنَّ المؤمنين إذا عَبَروا الصِّراطَ وُقِفوا على قَنطَرةٍ بينَ الجَنَّةِ والنَّارِ لِيُقْتَصَّ لبعضِهم مِن بعضٍ، **العاشِرُ**: شفاعةُ الشَّافِعِينَ، الحادي عَشَرَ: عَفْو أرحمِ الراحمينَ مِن غيرِ شفاعةٍ كما تَقَدَّمَ.(أنظر:شرح الطحاوية (ص: ٣٠٨)



إذا عُرِفَ ما تقدَّمَ فينبغي أنْ يكونَ المؤمنُ خائفًا راجياً، ويكونُ خَوفُه ورجاؤه سَواءً، فإنَّه إذا رَجَحَ الخوفُ حَمَلَهُ على القُنوطِ مِن رحمةِ اللَّهِ، وإذا رَجَحَ الرَّجاءُ حَمَلَه على الأَمْنِ مِن مَكْرِ اللَّهِ، وكِلاهما مِن كبائرِ الذُّنوبِ.

....

وقوله رحمه الله :(بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ الْقِصَاصِ:﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ وَقَالَ:﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾)

....

هذا من أدلة أهل السنة والجماعة على أَنَّ العاصِيَ لا يَخْرُجُ مِن الإيمانِ بمجرَّدِ الذُّنوبِ والمعاصي فقوله تعالى في آيةِ القِصاصِ: **(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيْهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ)**

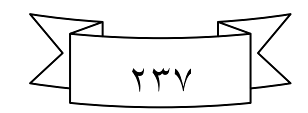
فيه دليل على بقاء الأخوة والتسمية بها مع وجود معصية القتل فالعاصِيَ لا يَخْرُجُ مِن الإيمانِ بمجرَّدِ الذُّنوبِ والمعاصي.

وَكَذَلِكَ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أَطلَقَ عليه الإيمانَ، كما ثَبَتَ في الصَّحيحِ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَنْ كَانَتْ لَهُ عِنْدَ أَخِيهِ مَظْلِمَةٌ فَلْيَتَحَلَّلْ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ...))

وقولُه: (**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فأصلحوا بينهما**...) الطَّائفةُ: القِطعةُ مِن الشَّيءِ، ويُطلَقُ على الواحدِ فما فَوْقَه عندَ الجمهورِ. **وتلاحظ في الآية أنه جل وعلا** سَمَّاهُمْ مُؤمِنينَ مع الاقتتالِ، وسماهم إخوة كما قال: (إِنَّمَا المؤمِنونَ إِخْوَةٌ...)

وبِهَذَا استدلَّ البخاريُّ وغيرُه على أنَّه لا يَخرُجُ مِن الإيمانِ بالمعصيةِ، لا كما يقولُ الخوارجُ والمعتزلةُ ومَن تابَعَهُم.

وفي صحيحِ البخاريِّ مِن حديثِ الحسَنِ عن أبي بكرةَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)) فكان كما قال صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أَصْلَحَ اللَّهُ به بين أهلِ الشَّامِ والعراقِ بعد الحروبِ الطَّويلةِ. **وأيضاً قد ثبت في الكتاب والسنة وإجماع السلف** أن الزانيَ غيرَ المحصن يجلد ولا يقتل والشاربَ يجلد والقاذفَ يجلد والسارقَ



يقطع ولو كانوا كفاراً بفعل هذه الكبائر لما اكتفي بالجلد وإنما قتلوا قتلَ الردة إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على إطلاقِ الإيمانِ على من وقع في الفسق.

وقولُه: **(وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)**

في الآيات من الفوائد :

١. إثباتُ صفة المحبَّةِ لِلَّهِ كما يَليقُ بجَلالِه وعظَمَتِه.
٢. فضلُ الإصلاحِ بين النَّاسِ.
٣. فيها مَدْحُ العَدْلِ والإنصافِ وقد تقدم كما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو أن من هذه صفته فهو على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن.
٤. فيها أنَّه لم يَخرُجوا بالبَغي مِن الإيمانِ بل الأخوة الإيمانية ثابتة.
٥. فيها أنَّه أوجَبَ قتالَ الفئة الباغية مع إسقاط التَّبِعةَ فيما أَتْلَفوه في القتال.
٦. فيها إجازةُ قِتالِ كُلِّ مَن مَنَع حقاً عليه، والأحاديثُ بِذَلِكَ مشهورةٌ.

....

وَلاَ يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلاَ يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُ المعزلة.

....

أهل السنة والجماعة لا ينفون عن الفاسق إسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تحكم عليه المعتزلة والخوارج.

والفِسقُ في اللغة هو: الخروجُ عن الاستقامةِ والجَوْرُ، وبِهِ سُمِّيَ الفاسِقُ فاسِقاً.

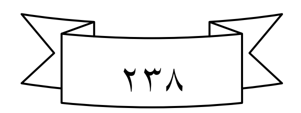
وفي الشَرْع هو: مَن فَعَلَ كبيرةً أوْ أَصرَّ على صغيرةٍ.

ويَنْقَسِمُ الفسق إلى قسمَيْنِ:

الأوَّلُ: فِسقُ اعتقادٍ وهو كفسق أهل البدع من المعتزلة والروافض والجهمية غيرِ الغلاة أما الغلاةُ من الجهمية والروافض فليس للطائفتين نصيبٌ في الإسلام ولهذا أخرجهم جماعةٌ من السلف من الثنتين وسبعين فرقة .

الثَّاني: فِسقُ عملٍ كالزِّنا واللُّواطِ وشُربِ الخمرِ ونحوِ ذَلِكَ.

والمراد بالمِلِّيِّ أي: الذي على مِلَّةِ الإسلامِ ولم يرتكِبْ مِن الذُّنوبِ ما يُوجِبُ كُفرَه.



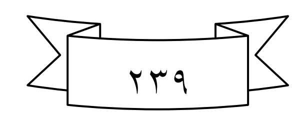
قال ابنُ القيِّمِ رحمه الله عن الفسق: " وهو قسمان فُسقٌ مِن جهةِ العملِ وفِسقٌ مِن جهةِ الاعتقادِ – إلى أنْ قال – وفسق الاعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرا مما أثبت الله ورسوله، جهلا وتأويلا، وتقليدا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.،وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم.

وأما غالية الجهمية فكغلاة الرافضة، ليس للطائفتين في الإسلام نصيب. ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة. وليس مقصودنا الكلام في أحكام هؤلاء، وإنما المقصود تحقيق التوبة من هذه الأجناس العشرة.،فالتوبة من هذا الفسوق: بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله، من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، وتلقي النفي والإثبات من مشكاة الوحي، لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة.،فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض اتباع السنة، ولا يكتفى منهم بذلك أيضا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة، إذ التوبة من ذنب هي بفعل ضده ".(**مدارج السالكين (١/ ٣٦٩)**

فأهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ متَّفِقون كُلُّهم على أنَّ مرتكِبَ الكبيرةِ لا يُكفَّرُ كُفراً يَنْقُلُ عن المِلَّةِ بالكُلِّيَّةِ، ومتَّفِقون على أنَّه لا يستحِقُّ الخلودَ في النار مع الكفار، وأنَّ مَن ماتَ على التَّوحيدِ فلا بدَّ له مِن دخولِ الجَنَّةِ، **خِلافًا للخَوارِجِ والمعتزِلةِ**، فإنَّ الخوارجَ أَخرجوهم مِن الإيمانِ وحَكموا عليهم بالخلودِ في النَّارِ، **والمعتزِلةُ وافَقوا الخوارجَ في الحُكمِ عليهم في الآخرةِ دُونَ الدُّنْيا**، فلم يَستَحِلُّوا منهم ما استحَلَّته الخوارجُ، **وأمَّا في الأسماءِ** فالمعتزلة أَحدَثوا المنزلةَ بين المنزلتَيْنِ، **وَهَذِهِ خاصيَّةُ المعتزِلةِ التي انْفَرَدوا بها، وباقي أقوالِهم قد شارَكهم فيها غيرُهم.**

والحكم على الفاسق الملي هو أول خلاف حَدَثَ في المِلَّةِ كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (الإيمان الأوسط) وكذلك تلميذه ابن عبد الهادي في مناقب شيخه رحم الله الجميع.

وقد تقدم قريبا ذكر الأدِلَّةُ على بطلانِ مذهبِ الخوارجِ والمعتزِلةِ وذكرُ انقسامِ المؤمنينَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ سابِقِينَ ومقتَصِدِينَ وظالِمينَ لأنْفُسِهم.



وقد تواتَرَ في الأحاديثِ قوله صلى الله عليه وسلم : ((أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ))، وحديثِ ((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً فَأَعْلاهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)). مما يدل على أَنَّ الإيمانَ يَقبلُ التَّبعِيضَ والتَّجزِئةَ، وأنَّ قليلَه يَخرُجُ بِهِ صاحبُه مِن النَّارِ إنْ دَخَلَها.

....

بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَان كَمَا فِي قَوْلِهِ:﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ وَقَدْ لاَ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ وَقَوْلِهُ ﷺ :(لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وَيَقُولُونَ:هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَى الاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلاَ يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ .

....

الفاسِقُ لا يُسلَبُ عنه اسمُ الإيمانِ على الإطلاقِ ولا يُثبَتُ له على الإطلاقِ، بل يقالُ مؤمنٌ ناقِصُ الإيمانِ، أو مؤمنٌ بإيمانِه فاسِقٌ بكبيرتِه، وحقيقةُ الأمرِ أنَّ مَن لم يكُنْ مِن المؤمنِينَ حقاً يقالُ فيه إنَّه مسلمٌ ومعه إيمانٌ يَمنَعُه مِن الخلودِ في النَّارِ

بدليل قوله تعالى:﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ حيث إشترط الله في إعتاق الرقبة أن تكون مؤمنة وهذا الشرط مطلق غير مقيد بكمال الإيمان أو نقصانه فدل ذلك على أن الإيمان مُطلقٌ من القيد، فالآية تشملُ الرقبةَ ناقصةَ الإيمان وهذا الدليلُ فيه إثبات بقاء أصل الإيمان مع الفاسق فلا يجوز أن يسلبَ منه لكن لا يعطى اسمَ الإيمان المطلقِ كما في قوله:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ فالمؤمنون الذين في الآية هم الذين كَمُلَ إيمانُهم.

فمن أعتق رقبة فيها وصف الإيمان سواء كان الإيمان كاملا أو ناقصا أجزأه ذلك العتق باتفاق العلماء لأن ذلك يدخل في عموم الآية وإن لم يكن المعتق من أهل الإيمان الكامل .

فالفاسِقُ يَدخُلُ في جملةِ أهلِ الإيمانِ على سَبيلِ إطلاقِ أهلِ الإيمانِ، وقد لا يَدخُلُ في اسمِ الإيمانِ المطلَقِ، كما في قولِه: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...**) ، وقولُه: (**إِنَّمَا**) أداةُ حصرٍ تُثْبِتُ المذكورَ وتَنْفي ما عَداهُ،وقولُه: (**الْمُؤْمِنُونَ**) أي: الإيمانَ الكاملَ المأمورَ به.وقولُه: (**وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**) أي: خافَتْ. وقولُه: (**زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**) فيها دليلٌ على أَنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنْقُصُ.وقولُه: (**يَتَوَكَّلُون**) أي: يُفوِّضون أمْرَهم إلى اللَّهِ.

وفي الآية من الفوائد:

١- فَضْلُ التَّوكُّلِ وأنَّه مِن أجلِّ أعمالِ القلوبِ.

٢- فيها دليلٌ على أَنَّ الأعمالَ الظَّاهِرةَ والباطنةَ داخلةٌ في مسمَّى الإيمانِ شَرْعا، فكُلُّ ما نَقَصَ مِن الأعمالِ التي لا يُخرِجُ نَقْصُها مِن الإسلامِ فهُوَ نَقْصٌ في كمالِ الإيمانِ الواجِبِ، كما في حديثِ أبي هريرةَ المتَّفَقِ عليه: ((**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ...**)) ، فالمنفيُّ في هَذَا الحديثِ كمالُ الإيمانِ الواجبِ، فلا يُطلَقُ الإيمانُ على مِثلِ أهلِ هَذِهِ الأعمالِ إلاَّ مقيَّدًا بالمعصيةِ أو الفسوقِ، فيقالُ مؤمنٌ بإيمانِه فاسِقٌ بكبيرتِه، فيكونُ معه مِن الإيمانِ بقَدْرِ ما معه مِن الأعمالِ الباطنةِ والظَّاهرةِ، فيَدخُلُ في أهلِ الإيمانِ على سبيلِ إطلاقِ أهلِ الإيمانِ، كما تقدَّمَ في قولِه: (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ).

وأمَّا المؤمنُ الإيمانَ المطلَقَ الذي لا يَتقَيَّدُ بمعصيةٍ ولا فسوقٍ ونحوِ ذَلِكَ فهُوَ الذي أَتَى بما يَستطِيعُه مِن الواجباتِ مَع تَرْكِه لجميعِ المحرَّماتِ، فهُوَ الذي يُطْلَقُ عليه اسْمُ الإيمانِ مِن غيرِ تَقْييدٍ، فهَذَا هُوَ الفَرْقُ بين مُطلَقِ الإيمانِ والإيمانِ المطلَقِ.

فالثَّاني: هُوَ الذي لا يُصِرُّ صاحبُه على ذَنْبٍ، **والأوَّل:** هُوَ المصِرُّ على بعضِ الذُّنوبِ، فمُطلَقُ الإيمانِ هُوَ وَصْفُ المسلمِ الذي معه أصلُ الإيمانِ الذي لا يَتِمُّ الإسلامُ إلاَّ بِهِ فلا يَصِحُّ إلاَّ به.

والمرتبةُ الثَّانيةُ: "مرتبةُ أهلِ الإيمانِ المطلَقِ الذين كَمُلَ إسلامُهم وإيمانُهم بإتيانِهم بما وَجَبَ عليهم، وتَرْكِهم ما حرَّمَ اللَّهُ عليهم، وعَدَمِ إصرارِهم على الذُّنوبِ، فهذِهِ المرتبةُ الثَّانيةُ الذي وعدَ اللَّهُ أهلَها بدخولِ الجنَّةِ والنَّجاةِ مِن النَّارِ" .(الدرر السنية ٣٣٣/١)

وفي قولِه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ...)) دليلٌ على دخولِ الأعمالِ في مسمَّى الإيمانِ، فلولا أنَّ تَرْكَ هَذِهِ الكبائرِ مِن مسمَّى الإيمانِ لَمَا انْتَفى اسمُ الإيمانِ عن مرتكِبِ شيءٍ منها؛ لأَنَّ الاسمَ لا يَنْتَفِي إلا بانتفاءِ بعضِ أركانِ المسمَّى أو واجباتِه، **والمرادُ بنَفْيِ الإيمانِ نَفْيُ بلوغِ حقيقتِه ونهايتِه، وفي هَذَا الحديثِ الرَّدُّ على المُرْجِئةِ والجهميَّةِ ومَن اتَّبَعَهم الذين يقولون إنَّ مرتكِبَ الكبيرةِ مؤمنٌ كاملُ الإيمانِ، ويَزْعُمون أَنَّ الإيمانَ لا يَتفاضَلُ، وهُوَ إمَّا أنْ يَزُولَ بالكُلِّيَّةِ أو يَبْقَى كامِلا، وقولُهم ظاهرُ البطلانِ،** فقد دلَّ الحديثُ على أَنَّ الزَّانِيَ وشارِبَ الخمرِ ونحوَهم حين فِعلِهم المعصيةَ قد انْتَفَى الإيمانُ عنهم، وقد دلَّت النُّصوصُ

الكثيرةُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ على أنَّهُمْ غيرُ مُرْتَدِّين بِذَلِكَ، **فعُلِمَ أَنَّ الإيمانَ المَنْفِيَّ في هَذَا الحديثِ وغيرِه إنَّما هُوَ كمالُ الإيمانِ الواجِبِ، فإنَّ اللَّهَ ورسولَه لا يَنْفِي اسْمَ مُسمًّى شَرْعِيٍّ إلاَّ بانتفاءِ بعضِ أركانِه أو واجباتِه.**

والمراد **بالنُهبة** الواردة في الحديث هي: ما يُنْهَبُ، والمرادُ: المأخوذُ جَهْراً قَهْرا.وقولُه: (**ذاتَ شَرَفٍ**) أي: ذاتَ قدْرٍ عظيمٍ.وقولُه: (**يَرفَعُ النَّاسُ إليها أبصارَهم**) أي: يَنْظُرون إليها لعِظَمِ قدْرِها.

فأهل السنة والجماعة يقولون عن فاعل الكبيرة بأنه مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَى الاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلاَ يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ .

خِلافاً للمُرجِئَةِ والجهميَّةِ ومَن اتَّبعَهم، فإنَّ الإيمانَ عندهم لا يَقْبَلُ الزِّيادةَ والنُّقصانَ، بل هُوَ شيءٌ واحدٌ يَستوي فيه جميعُ الناس، وقد سَبَقَ ذِكْرُ مَذهبِهم والرَّدُّ عليه.

والمراد بقول شيخ الإسلام رحمه الله عن صاحب الكبيرة بأنه (**لا يُعْطَى الاسمَ المطلَقَ**) أي: أنه لا يُعْطَى اسمَ الإيمانِ المطلَقِ، أي الكامِلِ فلا يقال بأن عنده الإيمان الكامل الذي صاحِبُه يَستحِقُّ عليه دخولَ الجَنَّة والنَّجاةَ مِن النَّارِ، فلا يُطلَقُ على الفاسِقِ الإيمانُ إلاَّ مُقيَّدا، فيقالُ: مؤمنٌ بإيمانِه فاسقٌ بكبيرتِه، أو يقالُ: مؤمنٌ ناقِصُ الإيمانِ، فلا يُسمَّى مؤمِنا إلا بِقَيْدٍ، وهَذَا الذي يُسمِّيهِ العلماءُ مُطلَقَ الإيمانِ.

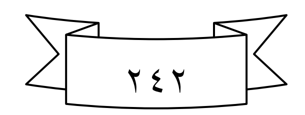
ومعنى قوله عنه: (**ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسمِ**) أي لا يقال إنه لا إيمان لدية او أنه معدوم الإيمان على وجه الإطلاق بسبب الكبيرة التي فعلها وإنما يُوصف بالإيمانُ لكن مُقيَّداً كما تقدَّمَ، فيُقالُ: مؤمنٌ بإيمانِه فاسقٌ بكبيرتِه، أو مؤمنٌ ناقِصُ الإيمانِ، وعلى هَذَا يَدُلُّ الكِتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ سَلَفِ الأمَّةِ خِلافا للخَوارجِ والمعتزِلةِ. أمَّا ما جاءَ في بعضِ الأحاديثِ مِن نَفْيِ الإيمانِ عن بعضِ العُصاةِ فالمرادُ بِهِ نَفْيُ الإيمانِ المطْلَقِ لاَ مُطلَقَ الإيمانِ كما تقدَّمَ.

وعلى هذا فالإيمانُ المطلَقُ يَمنَعُ دخولَ النَّارِ، ومُطلَقُ الإيمانِ يَمنعُ الخلودَ فيها لمن شاء الله له دخولها من أهل الكبائر.

والخلاصة في الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، هو أن المراد بالإيمان المطلق الإيمان الكامل وأما مطلق الإيمان فهو مجرد وجودِ أصل الإيمان سواءٌ كان ناقصاً أو كاملاً فمطلق الإيمان أعمُّ من الإيمان المطلق من جهة أن كل من عنده إيمانٌ مطلقٌ عنده مطلقُ الإيمان وليس كل من عنده مطلقُ الإيمان يكون عنده الإيمانُ المطلقُ كما هو الحال مع الإسلام والإيمان.

فأهل السنة وسط في مرتكب الكبيرة بين غلو الخوارج في تكفيره وبين تساهل المرجئة في كمال إيمانه .

واعلم أن من منهج أهل السنة والجماعة التفريق بين التكفير والتفسيق والتبديع الوصفي المتعلق بالأفعال والأقوال وبين التكفير العيني المتعلقِ بالأشخاص والذوات، أما الوصفي فيطلق على القول والفعل وأما العيني فيطلق على ذات الشخص لكنْ بقيام الشروط وانتفاء الموانع.



والشروط هي :

١.القصد.　　٢.قيام الحجة.　　٣.أن يكون الشخص مكلفاً .

أما الموانعُ فهي:

١.الإكراه.　٢.العجز.　٣.الخطأ.　٤.الجهل.

وكلٌّ مما تقدم له أدلةٌ ثابتةٌ من الكتاب والسنة لكن ذكرنا ذلك من باب الجملة والإشارة .

ومن باب الفائدة الكثير من الإخوة يقع عنده اللبس في مسألة العذرَ بالجهل فإما يغرق فيها وإما أن لا يقدر قدرها وكلاهما خطأ والذي يظهر أنها لا تنفى على الإطلاق ولا تُثْبَتُ على الإطلاق وإنما يفصل فيها وينظر فيها إلى ثلاثة أمور:

١. في المسألة فمن المسائل ما هو خفيٌّ ومنها ما ليس كذلك، ومنها ما هو معلوم من الدين بالضرورة ومنها ما ليس كذلك.

٢ .في الشخص نفسه فمن الأشخاص من هو حديث عهد بإسلام ومنهم من ليس كذلك .

٣.في المكان الذي فيه الشخص فمن الأمكنة ما هو بعيد عن العلم فيعم فيه الجهل ومنها ما ليس كذلك والله تعالى أعلم.

....

فصل: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ:(لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَه) .

....

هذا الفصل عقده المصنف رحمه الله لبيان الأصول الإعتقادية عند أهل السنة والجماعة تجاه الصحابة رضي الله عنهم.

وأصول الشيء: قواعده والأصل في اللغة: ما يُبْنَى عليه غيرُه، واصطِلاحا: ما له فرعٌ، **ويُطلَقُ الأصلُ على أربعةِ أشياءَ:**

الأول: على الدَّليلِ غالبا، كقولِهم: أصلُ هَذِهِ المسألَةِ الكِتابُ والسُّنَّةُ، أي دَليلُه.

الثَّاني: على الرَّاجِحِ مِن الأمرَيْنِ كقولِهم: الأصلُ في الكلامِ الحقيقةُ دُونَ المجازِ.

الثَّالِثُ: على القاعِدةُ المستمِرَّةُ كقولِهم: أَكْلُ المَيْتَةِ على خلافِ الأصلِ.

الرَّابِعُ: على المَقِيسُ عليه، وهُوَ ما يُقابِلُ الفَرْعَ في بابِ القياسِ. (انظر:الكوكب المنير (١/ ١٤)

ومن أصول أهل السنة والجماعة **سَلامَةُ قُلوبِهم** مِن الغِلِّ والحِقدِ والبُغضِ والعَداوةِ لأصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ **وسلامةُ ألسنَتِهم** مِن الطَّعنِ، واللَّعنِ، والوقيعةِ فيهم، كما يَفعَلُه الرَّافِضةُ والخوارِجُ، **وَكَذَلِكَ يَجِبُ اعتقادُ فَضْلِهم رِضوانُ اللهِ عليهم**، ومعرِفةُ سابِقَتِهم وذِكرُ محاسِنِهم والتَّرَحُّمُ عليهم، والاستغفارُ لهم، والكَفُّ عمَّا شَجَرَ بينهم، فإنَّهم خَيرُ القُرونِ، ولا مَقامَ بعد مَقامِ النُّبوَّةِ أَعْظمُ مِن مقامِ قومٍ ارتضاهُم اللَّهُ لصُحبةِ نبيِّه ونُصرةِ دِينِه، فهم أَسْعدُ الأمَّةِ بإصابةِ الصَّوابِ، وأجْدَرُ بفِقهِ السُّنَّةِ والكتابِ لفَوزِهم بصُحبةِ نَبِيِّه، فلا يُبارَوْن في فَهمِهم، ولا يُجارَوْن في عِلمِهم، فكُلُّ عِلمٍ وخيرٍ وصلَ فبِسَبَبِهم، قال اللَّهُ تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...) ، وفِي هَذِهِ الآيةِ أَعْظَمُ رَدٍّ على الرَّافِضَةِ والخوارِجِ.

والصَّحابِيُّ هُوَ مَنِ اجتمعَ بالنَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مُؤْمِناً بِهِ وماتَ على ذَلِكَ ولو تخلل ذلك رِدَّةٌ على الراجح.

وكُل الصحابة عُدولٌ ثِقاتٌ لا يُفَتَّشُ عن عدالةِ أحدٍ منهم بالإجماعِ كما قال ابنُ الصَّلاحِ وابنُ عبدِ البَرِّ، قال الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ: الذي عليه جمهورُ سَلَفِ الأمَّةِ وجمهورُ الخلَفِ أَنَّ الصَّحابةَ كُلُّهم عُدولٌ بتعديلِ اللهِ لهم فيما أَنْزَلَه على رسولِه بقولِه: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ). (انظر: الصارم المسلول ١٧٤)

كما وَصَفَهم اللَّهُ في قولِه: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...) ، أي: كما وَصَفَ أتباعَهم بإحسانٍ بقولِه: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) وهم التَّابِعُونَ الذين يَجيئون بعد المهاجِرينَ والأنصارِ إلى يومِ القِيامةِ.، (يَقُولونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا) أي: يَسألُونَ اللَّهَ المغفِرةَ لهم ولإخْوانِهم في الدِّينِ الذين سَبَقُوهم بالإيمانِ، وهم أصحابُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ.

وقولُه: (**وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا**) أيْ: ولا تجعَلْ في قلوبِنا بُغْضاً وحَسَداً وغِشًّا للذين آمَنوا، وفِي حديثِ ابنِ مسعودٍ الذي رواه الترمذيُّ: ((ثَلاَثٌ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاصُ العَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مَنْ وَرَاءَهُمْ))، أي: أنَّ هَذِهِ الثَّلاثَ تَنْفِي الغِلَّ عن القلبِ، فلا يَبْقَى فيه معها غِلٌّ ولا غِشٌّ، **وهَذَا بخلافِ أهلِ البِدَعِ مِن الرَّافضةِ والخوارجِ والمعتزلةِ وغيرِهم**، فإنَّ قُلوبَهم ممتلئةٌ غِلاًّ وغِشاًّ، للأئِمَّةِ والأُمَّةِ، **وفِي هَذِهِ الآيةِ الحثُّ على مَحبَّةِ جميعِ المؤمنينَ** ومَوَدَّتِهم والدُّعاءِ لهم والاستغفارِ، وأنَّ مِن صفاتِ المؤمنينَ سلامةَ قلوبِهم مِن الغِلِّ والحِقدِ والبُغضِ لإخوانِهم المؤمنينَ، كما في "الصَّحيحَيْنِ" من حديثِ

النُّعمانِ بنِ بشيرٍ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الأَعْضَاءِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ)).

وقولُه: (**رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**) أي: ذو رَأْفةٍ وَهِيَ أشدُّ الرَّحمةِ، وأبلَغُ مِن الرَّحيمِ.

وتَضمَّنَتْ هَذِهِ الآيةُ الثَّناءَ على المهاجِرينَ والأنصارِ، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنه أنَّه قال:" أَمَرَ اللَّهُ بالاستغفارِ لأصحابِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وهُوَ يَعلَمُ أنَّهم يَقْتَتِلون".

وعن عائشةَ رضي اللَّهُ عنهاأنها قالت:" أُمِرْتُمْ بالاستغفارِ لأصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ" فسَبَبْتُموهُم، سَمِعْتُ نبيَّكُم يقولُ: ((لاَ تَذْهَبُ هَذِهِ الأُمَّةُ حَتَّى يَلْعَنَ آخِرُهَا أَوَّلَهَا)) رواهُ البَغَوِيُّ.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: " **فيا وَيْلَ مَن سَبَّهم أو أبْغَضَهم أو أبْغَضَ أو سَبَّ بَعْضَهم**، ولا سِيَّما سيِّدُ الصَّحابةِ بعدَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وخَيْرُهم وأَفْضَلُهم – أعني الصِّدِّيقَ الأكبرَ والخليفةَ الأعظمَ أبا بكرِ بنَ قُحافةَ رضي اللَّهُ عنه، فإنَّ الطَّائفةَ المخذولةَ مِن الرَّافِضةِ يعادُونَ أفضلَ الصَّحابةِ ويُبغِضونهم ويَسُبُّونهم – عِياذا باللَّهِ مِن ذَلِكَ –، وهَذَا يَدُلُّ على أنَّ عُقولَهم مَعكوسةٌ وقُلوبَهم مَنكُوسةٌ، فأَيْنَ هؤلاءِ مِن الإيمانِ بالقرآنِ؛ إذْ يَسبُّون مَن رضي اللَّهُ عنهم، وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ فإنَّهم يَترَضَّوْن عمَّن رضي اللَّهُ عنه، ويَسبُّون مَن سبَّهُ اللَّهُ ورسولُه، ويُوالُون مَن يُوالِي اللَّهَ، ويُعادُونَ مَن يُعادِي اللَّهَ، وهم متَّبِعون لا مُبتَدِعون، ومُقْتَدُونَ لا مُبتَدُونَ، ولِهَذَا هُم حِزبُ اللَّهِ المفلِحونَ وعِبادُه المؤمنون" (تفسير ابن كثير ٤/٢٠٣).

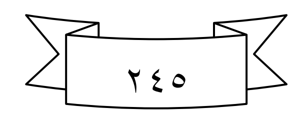
وقد ذَكَرَ بعضُ العلماءِ: أَنَّ الرَّافِضةَ ليسوا مِن فِرَقِ الأُمَّةِ المحمَّدِيَّةِ، **وباستقراءِ ما هم عليه الآنَ** مِن الغُلُوِّ في أهلِ البَيْتِ، والبناءِ على قُبورِهم، وإظهارِ اللَّعْنِ والسَّبِّ لأصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وسَفاهاتٍ أخرى يَمُجُّها العقلُ والدِّينُ، **يَعلَمُ أنَّ هَذِهِ الطَّائفةَ ليستْ مِن الإسلامِ في شيءٍ**، ولذَلِكَ صَرَّحَ بعضُ العُلماءِ بتَكفيرِهم لسَبِّهم الصَّحابةَ، **وإمامُ هَذِهِ الطَّائفةِ الخبيثةِ** منافِقٌ معروفٌ يَهودِيُّ الأصلِ، وهُوَ عبدُ اللَّهِ بنُ سبأٍ ادَّعى الإسلامَ حِيلةً وسَعَى جَهدَه لتفريقِ وتشتيتِ الكلمةِ، وأَدْرَكَ بعضَ قَصدِه بقَتْلِ عثمانَ رضي اللَّهُ عنه، ثم أظْهَرَ الغُلُوَّ في عليِّ بنِ أبي طالِبٍ، وقِصَّتُه مشهورةٌ.

والخلاصة هي أن اعتقاد أهل السنة والجماعة في الصحابة يدور حول ثلاثة أمور:

١. الإيمانُ بكونهم عدولاً خياراً وأنهم خيرُ أمة محمد ﷺ كما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:(خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ) رواه البخاري.

٢. وجوبُ سلامة الألسن والقلوب نحوهم .

٣. الإيمانُ بدرجاتهم وفضائلهم الثابتةِ لهم جماعاتٍ كأهل بدر وفرادى كأبي بكر وعمرَ ونحوِهم .



فهم جمعوا عدةَ خصال منها:

١.أنهم تَرَبَّوا على يد النبي ﷺ.

٢.أنهم عاصروا الوقائع .

٣.أنهم عايشوا الوحي.

٤.أن الوحي زكاهم وأثنى عليهم .

٥. أنهم نصروا الدين ونقلوه لنا غضا طرياً.

وجاء الشرع أيضاً بوصف الصحابة رضي الله عنهم بالإنقياد والطاعة فِي قَوْلِهِ ﷺ:(لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَه) .

وهذا الحديث في الصحيحين رواه أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه قال: كان بين خالدِ بنِ الوليدِ وعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ شيءٌ فسَبَّهُ خالدٌ. فقال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ)) "وقد انفردَ مسلمٌ بذِكرِ سَبِّ خالدٍ لعبدِ الرحمنِ دُونَ البخاريِّ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لخالد ونحوه : لا تسبوا أصحابي ، يعني: عبد الرحمن وأمثاله ، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون ، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا ، وهم أهل بيعة الرضوان ، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان ، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية ، وبعد مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة ، ومنهم خالد بن الوليد ، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة ، وسموا الطلقاء ، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية .

والمقصود أنه نهى من له صحبة آخراً أن يسب من له صحبة أولاً ، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه ، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه .

فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية ، وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة ؟ رضي الله عنهم أجمعين " (شرح الطحاوية ٢/٦٩٢).

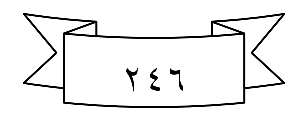
وقولُه: ((**لا تَسُبُّوا**)) أي: لا تَشْتُموا.

قولُه: ((**أُحُدٍ**)) هو جَبلٌ معروفٌ في المدينةِ سُمِّيَ بذلك لتَوحُّدِه مِن الجبالِ كما ذَكَره السُّهيليُّ.

قولُه: ((**مُدَّ**)) المدُّ مِكيالٌ معروفٌ، ،والنَّصيفُ هو: النِّصْفُ من الشيء، والمدُّ الوارد في الحديث له ضبطان:

١.بضم الميم وتشديد الدال وهو الذي عليه أكثر الروايات وهو المحفوظ ومعناه المكيال .

٢.بفتح الميم وتشديد الدال وهو القَدْرُ فيكون المعنى ما بلغ قدرَ أحدهم .



والمراد بالحديث أنَّ غيرَ الصَّحابةِ لو أَنْفقَ في سَبيلِ اللَّهِ مثل جَبلَ أُحدٍ ذَهَباً ما بَلَغَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه في الثَّوابِ، **وفي هذا دليلٌ على تحريمِ سبِّ أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولعنهم وأنَّه مِن كبائرِ الذُنوبِ، فإنَّ الحديثَ صريحٌ في تحريمِ السَّبِّ، واللَّعنُ أعظمُ مِن السَّبِّ**،إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأحاديثِ الدَّالَّةِ على وجوبِ احترامِهم وحِفظِ كرامَتِهم، وتحريمِ سَبِّهم والطَّعنِ فيهم ولَعْنِهم.

قال بعضُ السَّلَفِ: لَمَّا سُئِلَ عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ومعاويةَ أيُّهما أَفْضَلُ؟ قال:" غُبارٌ في أَنْفِ معاويةَ مع رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أَفْضلُ مِن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ"

وسَببُ تفضيلِ نفقَتِهم أنَّها كانتْ في وقتِ الضَّنْكِ، والضِّيقِ بخلافِ غيرِهم، ولأنَّها كانت في نُصرَتِه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وحمايَتِه، وَذَلِكَ معدومٌ بعدَه، كما قال تعالى: (لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى).

....

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ وَكَانُوا ثَلاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ:(اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ).

....

أهل السنة والجماعة يأخذون فضائلَ الصحابة من الكتاب والسنة والإجماع ولا يتعدونها إلى غيرها وهَذَا فيه ردٌّ على الرَّوافِضِ الذين عادو الصحابة وكفروهم ورد على النَّواصِبِ الذين عادو آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، فقد أَثنى اللَّهُ سُبْحَانَهُ على أصحابِ رسولِ اللَّهِ رضي اللَّهُ عنهم ووَعَدَهُم بالجَنَّةِ كما قال سُبْحَانَهُ: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...)، وقال: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...).... والأحاديثُ في فضلِ الصَّحابةِ كثيرةٌ جِداً، منها ما في "الصَّحيحَيْنِ" مِن حديثِ عِمرانَ وغيرِه: ((خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي...)) .

وروى ابنُ بطَّةَ بإسنادٍ صحيحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنهما أنَّه قال: ((لا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فَلَمُقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً يعني مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً)) وفي روايةِ وكيعٍ: ((خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ)) والأدِلَّةُ في فَضْلِ الصَّحابةِ كثيرةٌ لا يَرتابُ فيها إلا زائغٌ، فلا شَكَّ أنَّهم حَازُوا قَصباتِ السَّبقِ واسْتَولوا على الأَمدِ وبَلَغوا في الفَضلِ والمعروفِ والعِلمِ وجميعِ خصالِ الخيرِ ما لم يَبلُغه أحدٌ، فالسَّعيدُ مَن اتَّبعَ

صِراطَهم واقْتَفى آثارَهم، تاللهِ لقد نَصَروا الدِّين، ووطَّدُوا قواعِدَ المِلَّةِ، وفَتَحوا القلوبَ والأوطانَ، وجاهَدوا في اللهِ حقَّ جهادِه، فرَضِيَ الله عنهم وأَرْضاهم.

وفي كلام المصنف رحمه الله دلالة على جوازُ المفاضَلةِ بين الصَّحابةِ، وهُوَ الذي تَدُلُّ عليه الأدِلَّةُ، وبِهِ قال الجمهورُ، فعندَ أهلِ السُّنَّةِ أَفْضلُ الصَّحابةِ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، ثم عُمرُ الفاروقُ، ثم عثمانُ ذو النُّورَيْنِ، ثم عَلِيٌّ المرْتَضَى، ثم بقيَّةُ العشَرةِ المشهودِ لهم بالجنَّةِ، ثم أهلُ بدرٍ، ثم بيعةُ الرِّضوانِ، ثم أُحدٌ، ثم بقيَّةُ الصَّحابةِ، ثم باقي الأمَّةِ أفضلُ مِن سائرِ الأممِ، كما قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) الآيةَ، وفي السُّننِ مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه: ((أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ)).

وقولُه رحمه الله: **(ويفضلون مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ)** أهلَ السنة يفضلون من أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا على غيرهم وهؤلاء هم السَّابِقون مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، والمذكورونَ في قولِه تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ..)، فالسَّابِقونَ: هم الذين أنْفقُوا مِن قَبلِ الفتحِ وقاتَلُوا، وأهلُ بيعةِ الرِّضوانِ كُلُّهم منهم، قال تعالى: (لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى). أي: لا يَستوي في الأجرِ والثَّوابِ مَن أنْفقَ مالَه في سبيلِ اللهِ ونُصرةِ رسولِه قَبلَ الفتحِ ومَن أنْفقَ بعدَه، **وذَلِكَ أَنَّ الإنْفاقَ قَبلَ الفتحِ كان في حالِ شِدَّةٍ وضَعفٍ**، فلم يَكُنْ يُؤمِنُ حينئذٍ إلا الصِّدِّيقونَ، **أمَّا بعد الفتح** فإنَّه ظَهَرَ الإسلامُ ظُهوراً عظيماً ودخَلَ النَّاسُ في دينِ اللهِ أفْواجًا، **والمرادُ هنا بالفتحِ** هو: صلحُ الحديبيةِ كما أشارَ إليه المصنِّفُ.

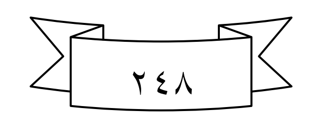
والحديبية:موضع قُرْبَ مكةَ وهي قريةٌ صغيرةٌ بعضٌ منها في الحرم وبعضٌ منها خارجَه وسميت بذلك؛ قيل: نسبةً لرجل صَبَّاغٍ كان يسكن بجوار بئر وقيل: بسبب بئرٍ ماءٍ كانت موجودةً فيها وهذا هو الأشهر .

وفي صحيحِ البخاريِّ عن أنسٍ في قولِه تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) هُوَ صُلْحُ الحديبيةِ. وعن البراءِ: ((أنتم تَعُدُّونَ الفتحَ فتحَ مكةَ، وقد كان فتحُ مكةَ فتحًا، ونحن نَعُدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوانِ يومَ الحديبيةِ)) ذَكَرَه البخاريُّ، وسُئِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن صُلحِ الحديبيةِ أفتحٌ هو؟ قال: ((نَعَمْ)).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأهلُ العِلمِ على أنَّه أُنزِلَ فيه – أي: صُلحِ الحديبيةِ– (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)..... ...ولِهَذَا ذَهَبَ جمهورُ العلماءِ إلى أَنَّ السَّابِقِين في قولِه: (والسَّابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار...) هم الذين أنْفقُوا مِن قبلِ الفتحِ وقاتَلوا وأهلُ بيعةِ الرِّضوان كُلُّهم منهم...وذَهَبَ بعضُهم إلى أَنَّ السَّابِقِينَ مَن صلَّى إلى القِبلتَيْنِ وهَذَا ضعيفٌ...)وأطالَ الكلامَ في رَدِّ هَذَا القولِ في كتابه (منهاج السنة٢ / ١١).

فالفتح الوارد في الآية محل خلاف على أقوال:

الأول:أنه فتح مكة. الثاني:أنه فتح خيبر. الثالث:أنه صلح الحديبية .



والأقربُ أن هذه الإطلاقاتِ كلَّها صحيحةٌ من جهة العموم لكنَّ المقصودَ بالآيات المتعلقة بتفضيل بعض الصحابة الذين أنفقوا وقاتلوا من قبلَ الفتح على من كانوا بعدهم هم من ما كانوا في صلح الحديبية وهذا اختيارُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وإن كان الجمهورُ على أن المراد به فتح مكة .

وكانتْ بيعةُ الرِّضوانِ عامَ الحديبيةِ سَنةَ سِتٍّ مِن الهجرةِ، وبِذَلِكَ الصُّلْحِ حَصَلَ مِن الفتحِ والخيرِ ما لا يَعلَمُه إلاَّ اللَّهُ، مع أنَّه كَرِهَه خَلْقٌ كثيرٌ مِن المسلِمِين، ولم يَعلَموا ما فيه مِن حُسنِ العاقبةِ، وكان عددُ الصَّحابةِ الذين بايعوا النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ تحت الشَّجرةِ أكثرَ مِن ألْفٍ وأربعِمائةٍ، وهم الذين فتَحوا خَيْبَرَ، **وسورةُ الفتحِ أَنْزَلها اللَّهُ قبلَ فتحِ مكةَ**، وإنَّما سمِّي صلحُ الحديبيةِ فتحًا؛ لِمَا حَصلَ فيه مِن الخيرِ الكثيرِ الذي لا يَعلَمُه إلاَّ اللَّهُ. ولذا قال كثير من أهل العلم: الذين أسلموا بعد الحديبية مثلُ الذين أسلموا قبلَها وأكثر.

وفي قوله تعالى: (**لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**)

عدة فوائد منها:

١- أَنَّ الصَّدقةَ وَكَذَلِكَ سائرُ الأعمالِ تَتفاضَلُ بحسَبِ الزَّمانِ والمكانِ.

٢- فَضْلِ النَّفقةِ في سبيلِ اللَّهِ.

٣- فَضلِ الجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ.

٤- تفاضُلِ الصَّحابةِ رِضوانُ اللَّهِ عليهم كما تقدم.

٥- استُدِلَّ ابن حزم بهذه الآيةِ وقطع بذلك على أَنَّ الصَّحابةَ مِن أهلِ الجَنَّةِ.

وقولُه: (**ويقدِّمون المهاجِرِين على الأنصارِ**) من منهج أهل السنة والجماعة في الموازنة بين الصحابة رضي الله عنهم تقديم المهاجرين على الانصار وَذَلِكَ لِمَا فَضَّلُهم اللَّهُ بِهِ مِن المَنْزِلةِ والشَّرَفِ، والتَّقديمِ في الذِّكْرِ والرُّتبةِ كما قال سُبْحَانَهُ: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ)، وقال: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ...) .**فالمهاجرون مقدمون على الأنصار لما تقدم ذكره ولأنهم تعلق بهم وصفان:**

١.الهجرة. ٢.النصرة .

أما الأنصار فلم يتعلقْ بهم سوى النصرةُ ولهذا قال أبوبكر في خطبته في سقيفة بني ساعدة:(إننا نحن المهاجرينَ تركنا أموالنا وديارَنا وهاجرنا إلى الله ورسوله وقدَّمَنَا القرآنُ عليكم) . رواه أحمد .

والمهاجِرين هم: الذين هاجَروا مِن مكةَ إلى المدينةِ.، وقال في الفتحِ: والمرادُ بالمهاجرينَ مَن عَدا الأنصارِ، ومَن أَسلمَ يَومَ الفتحِ وهلمَّ جرًّا. اهـ.

والهجرةُ هنا لغةً: التَّرْكُ، وشَرْعا: هُوَ الانتقالُ مِن بلدِ الشِّركِ أو بلدٍ تَغْلُبُ فيه أحكامُ البِدَعِ المضِلَّةِ إلى بلدِ الإسلامِ أو السُّنَّةِ.

والأنصارُ هم: أنصارُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، والمرادُ بهم الأوسُ والخزرجُ، وكانوا يُعرفون قبل ذَلِكَ ببني قيلةَ، وَهِيَ الأُمُّ التي تجمعُ القَبيلتَيْنِ، فسمَّاهم الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ الأنصارَ، فصار ذَلِكَ عَلَماً عليهم، وخُصُّوا بهذه المنْقَبةِ العُظمى دُونَ غيرِهم مِن القبائلِ، لِما فَازُوا بِهِ مِن إيواءِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ومَن معه، والقيامِ بأَمْرِهم ومُواساتِهم بأنْفُسِهم وأموالِهم، والأحاديثُ في فضلِ الأنصارِ كثيرةٌ، كحديثِ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ)).

وقولُه: **(وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ وَكَانُوا ثَلاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ:(اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)**. يدل عليه ما رواه أحمد وأبو داود والحاكِمُ عن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِنَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)).

وفي صحيحِ مسلمٍ عن جابرٍ رضي اللَّهُ عنه أنَّ غلامًا لحاطِبٍ، قال: ليَدخُلَنَّ حاطِبٌ النَّارَ، فقال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((كَذَبْتَ إِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَةَ)).

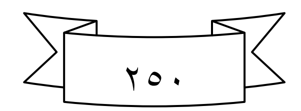
وفي هَذِهِ الأحاديثِ دليلٌ على فضيلةِ أهلِ بدْرٍ، وبِشارةٌ عظيمةٍ لهم، **وقد حصل في هذه الأحاديث ونحوها إشكالٌ على بعض الناس فقال:كيفَ يُغْفَرُ لمن كان على قيد الحياة وتكاليفُ الإسلام مازالت واجبةً عليه وهو مطالبٌ بها ؟**

وهذا له عدةُ أجوبةٍ ذكرها أهل العلم منها:

١- أن جملةَ: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُم) جملةٌ تشريفيةٌ تكريميةٌ لا يقصد حقيقتُها ومعناها:أن الله غَفَرَ لكم ما سبق من الأعمال في مشاركتهم في بدر.

٢- وهو أقربُها وهو ما أشار إليه النووي رحمه الله في (شرح صحيح مسلم) من أنهم غُفِرَتْ ذنوبُهم في الآخرة لعلم الله أنهم لا ينحرفون لكنهم مطالبون بالأوامر والنواهي في الدنيا فإنْ تَوَجَّهَ على أَحَدٍ منهم حَدٌّ أو غيرُه أُقِيمَ عليه في الدُّنْيَا ولذلك أقامَ عمرُ بنُ الخطابِ الحَدَّ على أحد أولئك الذين شاركوا في بدر لما شَرِبَ الْخَمْرِ وضَرَبَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مِسْطحاً وكان بَدْرياً، ونَقَلَ القاضي عياضٌ الإجماعَ على إقامةِ الحَدِّ. وهو ماذهب إليه شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ كما في (المنهاج) وتلميذه ابنُ القيم رحم الله الجميع .

وكان عدد الصحابة رضي الله عنهم في غزوة بدر، كما روى البخاريُّ عن البراءِ بنِ عازبٍ رضي اللَّهُ عنه قال: (كُنَّا أصحابَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ نتحدَّثُ أنَّ عِدَّةَ أصحابِ بدرٍ على عِدَّةِ أصحابِ طَالوتَ الذين عَبَروا معه النَّهَرَ، ولم يجاوِزْه معه إلاَّ مؤمنٌ بِضعةَ عشَرَ وثلاثُمائةٍ).



وبدرٌ قريةٌ مشهورةٌ على نحو أربعِ مراحِلَ مِن المدينةِ المنوَّرةِ، وسمِّيت الوقعةُ باسمِ مَوْضِعِها الذي وَقَعت فيه، ووقعةُ بدرٍ من أشهرِ الوقائعِ التي أعَزَّ اللَّهُ بها الإسلامَ وقمَعَ بها عَبَدَةَ الأصنامِ.

وكانت وقعةُ بدرٍ نَهارَ الجمعةِ لِسبعَ عشْرَةَ خلَتْ مِن رمضانَ مِن السَّنةِ الثَّانيةِ مِن الهجرةِ، واستُشْهِدَ فيها مِن المسلِمِينَ أربعةَ عَشَرَ نَفْسا سِتَّةٌ مِن المهاجِرينَ وثمانيةٌ مِن الأنصارِ، وقُتِلَ مِن الكفَّارِ سَبْعونَ.

....

وَبِأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ.

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَالْعَشَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِّنَ الصَّحَابَةِ.

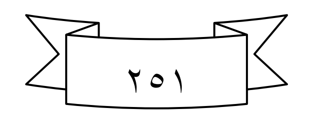
....

قال تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...) وفي صحيحِ مسلمٍ مِن حديثِ جابرٍ رضي اللَّهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ))، وفي "الصَّحيحَيْنِ" وغيرِهما مِن حديثِ جابرٍ رضي اللَّهُ عنه قال: كنَّا في الحديبيةِ أَلْفًا وأربعَمائةٍ، فقال لنا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ)) **أفادَ هَذَا الحديثُ** أنَّ عَدَدَ مَن بايعَ تحتَ الشَّجرةِ أَلْفٌ وأربعُمائةٍ، وفي روايةٍ مِن حديثِ جابرٍ أنَّهم أَلْفٌ وخمسُمائةٍ، وفي حديثِ البراءِ أنَّهم أَلْفٌ وأربعُمائةٍ أو أكثرُ، **وجُمِعَ بين هَذِهِ الرِّواياتِ بأنَّ مَن قال أَلْفٌ وخمسُمائةٍ جبَرَ الكَسْرَ، ومَن قال أَلْفٌ وأربعُمائةٍ أَلْغاه**، وكان سببُ هَذِهِ البَيعةِ أنَّهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قَصَدَ مكَّةَ لِيَعتَمِرَ فصدَّهُ المشركونَ، وكان قد بَعثَ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عنه إلى مكةَ فشاع أنَّ عثمانَ قُتِلَ، فطَلَبَ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ البيعةَ فبايَعوه تحت الشَّجرةِ، ثم صالَحَ المشركين صُلحَ الحديبيةِ المعروفِ، وَذَلِكَ في سَنةِ سِتٍّ مِن الهجرةِ في ذي القَعدةِ.

والشجرة التي تمت المبايعة تحتها هي شجرةٌ خضراءُ مِن سِدرٍ وقيل من سمر، وهذا الخلافُ لا طائلَ تحته ولا فائدةَ كبيرةَ منه ويقالُ لها شَجرةُ البيعة والرضوانِ،وهذ الشجرة كانت البيعةُ تحتها، ولما كان في خِلافةِ عُمرَ كما في (طبقات ابن سعد)، أنه رأى أناسًا يَذْهَبون إليها فيُصلُّون تحتها، فقطَعَها رضي اللَّهُ عنه مخافةَ الفِتنةِ بها، واختَفى مكانُها.

ويَشهَدُ أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ بالجَنَّةِ لِمَن شَهِدَ له الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كالعشَرةِ المبشرين بالجنة كما عند الترمذي وغيره من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وتبشيرُ النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ للعشَرةَ بالجَنَّةِ لا يُنافي مَجِيءَ تبشيرِ غيرِهم في أخبارٍ أخرى؛ لأنَّ العَدَدَ لا ينفي الزَّائِدَ.

وقد نظمهم كثيرون ومن أحسن من نظمهم محمد بن الوزير حيث قال:



لِلْمُصْطَفَى خَيرُ صَحْبٍ نَصَّ أَنَّهُمُ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ نَصًّا زَادَهُمْ شَرَفَا.

هُمْ طَلْحَةُ وَابْنُ عَوفٍ وَالزُّبَيرُ مَعْ أَبِي عُبَيدَةَ وَ السَّعْدَانِ وَ الْخُلَفَا.

ويقصد بالسعدين سعدَ بنَ أبي وقاص وسعيدَ بنَ زيد رضي الله عنهما، وبالخلفاء الأربعةَ الراشدين والبقية معروفين .

وقد اتَّفقَ أهلُ السُّنَّةِ على تعظيمِ هؤلاءِ العشَرةِ وتقديمِهم، لِمَا اشتُهِرَ مِن فضائِلهم ومناقِبهم، خِلافًا للرَّافِضَةِ الذين يُبْغِضُونَهم ويَسُبُّونَهم، بل يَكرهون لفظَ العَشَرةِ أو فِعلَ شيءٍ يكونُ فيه عشَرةٌ، ويتشاءمون بِهِ لموافَقَتِه لاسمِ العشَرةِ المبشَّرةِ بالجَنَّةِ، لكنَّهم يَسْتَثْنُون عَلياً رضي اللهُ عنه، ولَدَيهم مِن الجهالاتِ والعوائدِ الذَّميمةِ وسَفاهَةِ العُقولِ ما يَقْضِي بعَزلِهم عن زُمرةِ العقلاءِ، وإلا فما ذَنْبُ هَذَا النَّوعِ من العدَدِ؟! لكنَّه البُغضُ المتأصِّلُ والعداوةُ البالِغةُ لخيارِ المؤمنينَ وساداتِهم، وأفضَلُ قُرونِهم رِضوانُ اللهِ عليهم أجمعين.

ومِمن شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة ثابتُ بنُ قَيْسٍ وهُوَ خَطيبُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كما رواه البخاريُّ في "صحيحِه" عن أنسٍ رضي اللهُ عنه أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ افْتقدَ ثابتَ بنَ قيسٍ، فأرسل إليه فوَجَدَوه في بَيتِه منَكِّسا رأسَه، فقيل له: ما شأنُكَ؟ قال: شرٌّ، كان يَرفَعُ صوْتَه فوقَ صوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقد حَبِطَ عَملُه فهُوَ مِن أهلِ النَّارِ، فقال: ((اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَلِكنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ))، فلمَّا كان يومَ اليَمامَةِ كان في بَعْضِنا بَعضُ الانكِشافِ، فأَقبلَ قد تَكفَّنَ وتحنَّطَ، فقاتَلَ حتى قُتِلَ رضي اللهُ عنه.

وأيضاً هناك آخرين من الصحابة شهد لهم النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة غير ما تقدم ذكرهم كَعَبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ والحسَنِ، فقد شَهِدَ النَّبيُّ للمذكورَيْنِ، كما روى البخاريُّ في "صحيحِه" عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، قال: ما سمعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ لأحدٍ يَمْشِي إنَّه مِن أهلِ الجَنَّةِ إلا لعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ، وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ أَنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ))،

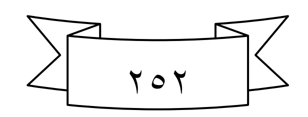
وعُكَّاشَةَ بنِ مِحصنٍ: في حديث السَّبعِينَ أَلْفًا الذين يَدخُلونَ الجَنَّةَ مِن غيرِ حسابٍ ولا عذابٍ.

ولا يُشْهَدُ لغيرِ مَن شَهِدَ لهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بجنَّةٍ ولا نارٍ؛ لأنَّه لا يُعلَمُ ماذا يُختَمُ له به، وأَلْحَقَ بعضُ العلماءِ بِمَنْ تَقدَّمَ مَن اتَّفَقَتِ الأُمَّةُ على الثَّناءِ عليه، كعُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ والحسَنِ البصريِّ وغيرِهما،

وهي مسألة خلافية على ثلاثة أقوال:

١.أنه لا يشهد لأحد بالجنة يقيناً إلا للأنبياءِ واختاره محمدُ بنُ الحنفيةِ والأوزاعيُّ .

٢.أنه يُشْهَدُ بالجنة لمن أتى النصُّ بالشهادة له بالجنة فقط كالعشرة وعكاشةَ والحسنِ والحسينِ وعبدِ الله بنِ سلامٍ ونحوِه وهذا مذهبُ أكثرِ العلماء كما ذكره ابن تيمية في (المنهاج) .



٣.أنه يُشْهَدُ بالجنة لمن أتى النصُّ بالشهادة له بالجنة ومن انتشر بين الناس والأمة أنه من أهل التقى والصلاح والخير كعُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ والحسَنِ البصريِّ وغيرِهما وبه قال أبو ثور وهو قول شيخ الاسلام ابن تيمية (انظر:الفتاوى الكبرى٣٥٩/٥) ولذلك قال أبو ثور: أشهد أن أحمدَ بنَ حنبلٍ من أهل الجنة واستدلوا بما ورد عن عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ:مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :(وَجَبَتْ) ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا فَقَالَ:(وَجَبَتْ) فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ:مَا وَجَبَتْ ؟ قَالَ:(هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ) متفق عليه .

وبما ورد عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فقَالَ:(يُوشِكُ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) قَالُوا:بِمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:(بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّءِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ) رواه ابن ماجه وأحمد وحسنه الألبانيُّ وقال ابنُ حجر:إسنادُه حسنٌ غريبٌ .

مسألة:هل الفضلُ الواردُ للصحابة على وجه الإجمال أم يلحق بهم غيرُهم في الفضل من أفراد الأمة ؟

فيه قولان:

الأول: أنهم يَلْحَقُ بهم من أفراد الأمة في الفضل ممن بعدهم .

الثاني: أنهم لا يَلْحَقُ بهم أحد في الفضل ممن بعدهم، وهو قول أكثر أهل السنة، وأن الفضلَ لهم جماعاتٍ وفرادى لأن الأعمالَ في الحقيقة تتفاضل بأعمال القلوب لا بأعمال الجوارح حكاه القاضي عياضٌ وأثبته شيخ االاسلام ابنُ تيميةَ في (المنهاج) .

....

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ،وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانُ فِي الْبَيْعَة مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ . أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ:وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ .وَإِنْ كَانَتْ هَذِه الْمسألة مسألةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّة .لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا :مسألة الْخِلافَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ .

....

يقر ويعتقد أهل السنة والجماعة بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على وغيره من الصحابة رضي الله عنهم من أن خير هذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهم **وفي كلام المصنف رحمه الله** الإشارةُ للرَّدِّ على الرَّافِضةِ الذين يُفضِّلونَ عَلياً على أبي بكرٍ وعُمرَ، ويَطعَنونَ في خِلافَتِهما، ويَزْعُمونَ أنَّ عَلياً أَفْضَلُ منهما، وأَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أَوْصَى إليه، وقد سُئِلَ عليٌّ عن ذَلِكَ فأنْكَرَ ذَلِكَ، كما روى الإمامُ أحمدُ والبخاريُّ عن عليِّ بنِ أبي طالب رضيَ اللَّهُ عنه أنَّه قال:" خيرُ هَذِهِ الأمَّةِ بعدَ نبيِّها أبو بكرٍ وعُمرُ".

قال الحافِظُ الذَّهبيُّ: "هَذَا متواتِرٌ، والرَّوافِضُ تكذِّبُ هَذِهِ الأخبارَ – لَعَنَهُم اللَّهُ – ما أَجْهلَهم وأضَلَّهُم".

وقال الشيخ تَقِيِّ الدِّين بنِ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد رُوِيَ عن عَلِيٍّ مِن نحوٍ مِن ثمانين وَجْها أو أكثرَ أنَّه قال على مِنْبرِ الكوفةِ: خيرُ هَذِهِ الأمَّةِ بعد نَبِيِّها أبو بكرٍ وعُمرُ" (الفتاوى٤ / ٤٠٧)

وقال رحمه الله:" وروي عنه أَنَّهُ سَمِعَ ذَلِكَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، ولا رَيْبَ أنَّ عَلياً لا يَقْطَعُ بِذَلِكَ إلاَّ عَنْ عِلْمٍ" (منهاج السنة ٧ / ٢٧٣)

وروى عن علي رضي الله عنه أنَّه قال: "لا أُوتَى بمَن يُفضِّلُني على أبي بكرٍ وعُمرَ إلاَّ جَلدْتُه جَلْدَ المفْتَرِي" رواه ابن أبي عاصم في السنة.

وروى أبو الدَّرداءِ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قال: ((مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلاَ غَرَبَتْ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ على أَفْضَلَ مِن أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ))، وذكر الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّينِ بنُ تيميةَ في غيرِ موضعٍ مِن كتُبِه اتِّفاقَ العلماءِ على أنَّ أَعْلَمَ الصَّحابةِ أبو بكرٍ ثم عُمرُ.

ونقل شيخ الأسلام ابن تيمية قول الإمامُ السَّمعانيُّ وهو أَحدُ أئمة السنة في كتابِه (تقويمِ الأدِلَّةِ على الإمامِ)" أجْمَاعَ علماءُ السُّنَّةِ على أنَّ أبا بكرٍ أَعلَمُ مِن عَلِيٍّ" ثم قال ابنُ تيميةَ: "وما علمتُ أحدًا مِن الأئمَّةِ المشهورِينَ يُنازِعُ في ذَلِكَ" (الفتاوى ٤/٣٩٨– ٣٩٩)

ويأتي في الفضيلة والخيرية بعد عمر عثمانَ ثم علي رضي الله عنهم ، فالخلفاءُ الأربعةُ على هَذَا التَّرتيبِ في الفَضْلِ والخلافةِ، كما روى الشَّيخانِ عن ابنِ عُمرَ رضي اللَّهُ عنه قال:" كنَّا نُفاضِلُ على عهدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أبو بكرٍ ثم عُمرُ ثم عثمانُ"، وفي لفظٍ:" يَبْلُغَ ذَلِكَ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ وَلا يُنْكِرُهُ".

وقال أبو أيوبَ السِّخْتِيانيُّ وأحمدُ بنُ حنبلٍ والدَّارَقُطنيُّ وغيرُهم:"مَن قدَّمَ علياً على عثمانَ فقدْ أَزْرَى بالمهاجرِينَ والأنصارِ"، فهؤلاءِ الأربعةُ هم الخلفاءُ الرَّاشِدُونَ والأئمَّةُ المهْدِيُّون، كما في حديثِ العِرباضِ بنِ ساريةَ – رضي اللَّهُ عنه–: ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِن بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ...)) .

وقد أَجمعَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم على تقديمِ عثمانَ في البيعةِ على علي رضي الله عنهم كما في حديثِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ" أنَّه قام ثلاثًا لم يَغْتَمِضْ فيها بِنَوْمٍ يُشاوِرُ الأوَّلِينَ والتَّابِعينَ لهم بإحسانٍ، وشَاوَرُوا أمراءَ الأنصارِ، فأشارَ عليه المسلمونَ بولايةِ عثمانَ رضي اللَّهُ عنه"، وهَذَا مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على أنَّ عثمانَ أَفْضلُ؛ لأنَّهم قَدَّموه باختيارِهم، وأجمعوا عليه، كما تَقدَّمَ مِن قولِ أبي أيوبَ وأحمدَ والدَّارقطنيّ وغيرِهم مِن الأئمَّةِ: مَن قدَّمَ علياً على عثمانَ فقد أَزْرَى بالمهاجرينَ والأنصارِ، وروى أَبُو يَعْلَى عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ:قُلْتُ لأَبِي:"أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ:ثُمَّ مَنْ قَالَ:ثُمَّ عُمَرُ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ قُلْتُ:ثُمَّ أَنْتَ ؟ قَالَ:مَا أَنَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" رواه البخاري .

فأفضلُ الأمَّةِ أبو بكرٍ بإجماعِ أهلِ السُّنَّةِ، ولا يُنازِعُ في ذَلِكَ إلا زائغٌ، وهُوَ أَوَّلُ النَّاسِ إيماناً وتَصدِيقا للنَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عَلَى المشهورِ عندَ أهلِ السُّنَّةِ، وقيل: أَوَّلُ النَّاسِ إسلاماً عليٌّ وقيل غيرُ ذَلِكَ.

ورُوِيَ عن الإمامِ أبي حنيفةَ أنَّه قال:" الأَوْرَعُ أنْ يقالَ أَوَّلُ مَن أَسْلَمَ مِن الرِّجالِ الأحرارِ أبو بكرٍ الصِّديقُ، ومِن الصِّبيانِ عليٌّ، ومِن النِّساءِ خديجةُ، ومِن الموالي زَيدُ بنُ حارثةَ، ومِن العبيدِ بلالٌ، وهكذا رُوِيَ عن إسحاقَ بنِ رَاهُوَيْهِ، وهَذَا مِن أحسَنِ ما قيل لجَمْعِهِ الأقوالَ، وأبو بكرٍ أَوَّلُ مَن سُمِّيَ خليفةً.

قال الإمامُ الشَّافعيُّ:" خلافةُ أبي بكرٍ قَضاهَا اللَّهُ في سمائِه، وَجَمعَ عليها قَلْبَ نَبِيِّه"

وكلام المصنف رحمه الله هنا يدور حول مسألتين مهمتين:

الأولى:مسألة الخلافة وهذه بالإجماع كما تقدم أن أول الخلفاء أبو بكر ثم عمرُ ثم عثمانُ ثم عليٌّ رضي الله عنهم.

الثانية: مسألةُ التفضيلِ بين الخلفاء الأربعة بعضِهم على بعضٍ وقد أجمعَ أهل السنة على أن أبا بكر رضي الله عنه أفضلُ هذه الأمة بعد نبيها ثم عمرُ رضي الله عنه **لكن اختلف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في التفضيل بين عثمانَ وعليٍّ رضي الله عنهما على ثلاثة مذاهب:**

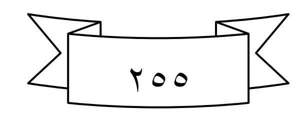
الأول:تقديمُ عثمانَ .

الثاني:تقديمُ علي وهو قول أبي حنيفةَ لكنَّ ظاهرَ مذهبه تقديمُ عثمان وممن قدم علياً أيضاً سفيانُ الثوريُّ لكن يقال:إنه رجع إلى تقديم عثمانَ بعد أن اجتمع بأيوبَ السَّخْتَيَانِي .

الثالث:التوقفُ عن تفضيل أحدهما على الآخر.

واختار شيخُ الإسلام الرأيَ الأولَ وأشار إلى أنه هو الذي استقر عليه إجماعُ أهل السنة بعد انقراض العَصْرِ الأولِ والدليل على أفضلية عثمانَ على عليّ عدةُ أدلة منها:

١.ما ورد عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:كُنَّا نَقُولُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام:" لاَ نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا ثُمَّ عُمَرَ ثُمَّ عُثْمَانَ ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام لاَ تَفَاضُلَ بَيْنَهُمْ " متفق عليه .



٢.إجماعُ الصحابة على تقديم عثمانَ في البيعة على عليٍّ رضي الله عنهما دليلٌ على أنه أفضل من علي رضي الله عنه.

٣.قولُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عوفٍ:" إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ" رواه البخاري . أي: بعدَ ما دار بين المهاجرين والأنصار ليُرى تفضيلُهم بين علي وعثمان رضي الله عنهما. ولذلك قال أحمدُ بنُ حنبلٍ وعليُّ بنُ المدينيِّ وغيرُهم:"من فَضَّلَ علياً على عثمانَ فقد شَكَّكَ في عقول أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ومودتِهم"، وقال الإمامُ أحمدُ:"ما اجتمعوا على بيعةٍ ما اجتمعوا على بيعةِ عثمانَ " .

٤.قال أيوبُ السختيانيُّ:"من لم يقدمْ عثمانَ على عليٍّ فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار" أي: نسبهم لشيءٍ يُزري بهم وهو أن يكون بين يديهم الفاضلُ فيقدمون المفضولَ فهذا دليل على أفضلية عثمانَ، لأنهم قدموه باختيارهم بعد تشاورِهم، وكان عليٌّ من جملة من بايعه بل إنه كان يقيم الحدود بين يديه .

٥.أن عثمان قدمه أهلُ الشورى .

وهنا ننبه إلى أنه من المهم أن تعرف أن الخلاف في مسألةَ التفضيل المتقدم هي من المسائل التي لا يثرب على المخالفِ فيها لأنها كانت من مسائلِ الاجتهاد التي يسوغُ فيها الخلاف أما التي يضلل فيها المخالف هي مسألةُ الخلافة ولهذا قال الإمام أحمدُ:"من لم يقل بذلك فهو أضلُّ من حمار أهله لأنه خالف النصوصَ الشرعيةَ والإجماعَ.

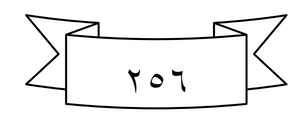
والخلاصة فيما تقدم أن الأحوال ثلاثة وهي كالتالي :

١.من قدم علياً في الخلافة على عثمانَ فهو ضالٌّ بالاتفاق قال الإمامُ أحمدُ:" مَن لم يُرَبِّعْ بعليٍّ في الخلافةِ فهُوَ أضَلُّ مِن حمارِ أهلِه"، واحتجَّ الإمامُ أحمدُ بحديثِ سَفِينةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((تَكُونُ خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا)) رواه أصحابُ السُّنَنِ وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ وغيرُه، ، وآخِرُ الثَّلاثينَ خلافةُ عليٍّ رضي اللَّهُ عنه مع أيَّامِ ابنِه الحسَنِ، وكانتْ سِتَّةَ أشْهُرٍ وشيئًا فترتيبُ الخلفاءِ في التَّفضيلِ والخلافةِ كما ذَكَرَه المصنِّفُ .

٢.من قدم علياً في الفضيلة على أبي بكر وعمر فهو ضالٌّ قال الإمام أحمدُ:" مَن فضَّلَ علياًّ على أبي بكرٍ وعمرَ وقدمه عليهما بالفضيلة والإمامةِ لا بالنسب فهو رافضيٌّ مبتدعٌ فاسقٌ" ذكره القاضي أبو يعلى .

٣.من قدمه على عثمانَ في الفضيلة فلا يضلل مع أن الراجح أن عثمانَ أفضلُ .

ومَنْ طَعَن في خلافةِ واحدٍ منهم من الخلفاء الراشدين فهو أضل من حمار أهله كما قال المصنف رحمه الله لمخالَفَتِه النُّصوصَ الصَّرِيحةَ والإجماعَ، خلافًا للرَّافضةِ مِن الشِّيعةِ وغيرِهم الذين يَزعُمون أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قد نَصَّ على خلافةِ عليٍّ، وهَذَا مِن أَعْظَمِ الكذِبِ والافتراءِ، والأدِلَّةُ على بُطلانِ هَذِهِ الدَّعْوى لا تُحصى، بل قد



سُئِلَ عليٌّ رضي اللَّهُ عنه عن ذَلِكَ فأنْكَرَه، قال النَّوويُّ:" وأمَّا ما تدَّعِيه الشِّيعةُ مِن النَّصِّ على عليٍّ والوصيةِ إليه فباطِلٌ لا أصلَ له باتِّفاقِ المسلِمِينَ، وأوَّل مَن كذَّبَهم عليٌّ رضي اللَّهُ عنه"، ثم ذَكَرَ ما روى البخاريُّ عن أبي جُحيفةَ، قال: قلتُ لعليٍّ رضي اللَّهُ عنه:" هل عندكم مِن الوَحْيِ شيءٌ غيرُ القرآنِ؟ قال: لا والذي فَلَق الحبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمةَ إلا فَهْماً يُعطِيهِ اللَّهُ رجُلاً في القرآنِ، وما في هَذِهِ الصَّحيفةِ، قلتُ: وما في هَذِهِ الصَّحيفةِ؟ قال: العَقلُ وفكاكُ الأسيرِ، وأنْ لا يُقْتَلَ مُسلِمٌ بكافرٍ"، وروى مسلمٌ عن الأسودِ بنِ يزيدَ، قال:" ذَكروا عند عائشةَ أنَّ علياً كان وصياًّ، فقالت: مَتى أُوصِيَ إليه ؟ "إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على بطلانِ ما تَزعُمُه الشِّيعةُ مِن أنَّه أَوصَى إليه، أو أنَّ لدى أهلِ البيتِ شيءٌ من العِلمِ، لا سيَّما عليٌّ لم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ غيرُه، وقد أطالَ شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في (المنهاجِ) في ردِّ هَذَا وإبطالِه بأدِلَّةٍ واضحةٍ صريحة.

....

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمّ:(أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي)، وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ فَقَالَ(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي)، وَقَالَ:(إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِم).

....

أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ يُحِبُّونَ أهلَ بيتِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ويَتَولَّوْنَهُم ويَحتَرِمُونَهم ويُكْرِمونَهم لِقَرابَتِهم مِن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، **وهذا مِن توقيرِه واحترامِه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، وامتِثالاً لما جاءَ بِهِ الكِتابُ والسُّنَّةُ مِن الحثِّ على ذَلِكَ**، قال تعالى: (قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) وقد تكاثَرَت الأحاديثُ بالأمرِ بِذَلِكَ والحثِّ عليه.

وسَبَبُ هذه المحبة لهم عدة أمور من أبرزها أمرين:

١.أن النبي ﷺ أمر بمحبتهم. ٢.أنهم قرابةُ النبي ﷺ .

وقد اختلف أهل العلم في تحديد آل بيت ﷺ على أربعة أقوال أصحُّها كما قرَّرَ ذَلِكَ شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم أنهم من حُرِّمَتْ عليهم الصَّدَقةُ،وهو ما فسره به زيد بن الأرقم رضي الله عنه كما في صحيح مسلم وقال: "هم آلُ عليٍّ، وآلُ جعفرٍ، وآلُ عَقيلٍ، وآلُ العبَّاسِ"، وَأدخل العلماء معهم: بني الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ وزوجاتِ النبي ﷺ لأنهم أهلُه كما دَلَّ عليه سياقُ آيةِ سورة الأحزابِ، وأَفْضلُ أهلِ بَيتِه كما قال شيخ

الاسلام ابن تيمية رحمه الله: عليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ الذي أَدارَ عليهم الكِساءَ وخَصَّهم بالدُّعاءِ **وما ذكرنا هو معنى الآل بالخصوص أما بالعموم** فهم من تبع النبي عليه الصلاة والسلام في دينه.

مسألة: هل يفهم من هذا عدم جواز إعطاء آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام من الزكاة المفروضة ؟

ج: نعم هذا هو المراد لأنه لهم جزءاً من الفيء لكن اختلف العلماء فيما لو منعوا منه أو لم يكن هناك فيء واحتاج أحد منهم للزكاة فهل يعطون كغيرهم ؟

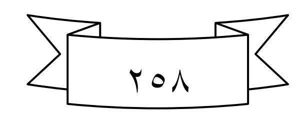
ج: على أقوال والذي عليه أكثر العلماء واختاره شيخ الاسلام ابن تيمية أنهم يعطون منها.

وقولُه: (**ويَحفَظون فيهم وصيَّةَ رسولِ اللَّهِ حَيْثُ قال يومَ غَديرِ خُمٍّ:(أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**)).

و(**خُمّ**) بِضمِّ الخاءِ وتشديدِ الميمِ وهو اسم لمكانٍ فيه ماءٌ بين مكة والمدينة قريب من الجحفة ونُسِبَ الغديرُ لرجل يقال له خُمٌّ وقيل: لشجرة كبيرة تسمى بِخُمٍّ وهذا اليوم هو اليومُ الثامنُ عشرَ من ذي الحجةِ، عندما عاد النبي ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة وقف في هذا المكان وخطب في الصحابة رضي الله عنهم كما في الحديث ، والحديثُ رواه مسلمٌ في "صحيحِه" عن زيدِ بنِ أرقمَ، قال:(قام فينا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ خَطِيباً بماءٍ يُدْعى خُمّاً بين مكةَ والمدينةِ، فحَمِدَ اللَّهَ وأثنى عليه، ووَعَظ وذكَّر، ثم قال: ((أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ) فحَثَّ على كتابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ورغَّبَ فيه ثم قال: ((**وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**))،

فقال حُصينٌ: ومَن أهلُ بيتِه يا زيدُ أليس نِساؤُه مِن أهلِ بَيْتِه؟ قال: نساؤه مِن أهلِ بيتِه، ولكن أَهْلُ بَيْتِه مَن حُرِمَ الصَّدقةَ بعدَه، قال مَنْ هم؟ قال: هم آلُ عليٍّ، وآلُ عَقيلٍ، وآلُ جعفرٍ، وآلُ عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنهم، قال: كُلُّ هؤلاء حُرِمَ الصَّدَقةَ؟ قال: نعم). فهَذَا الحديثُ فيه الوَصِيَّةُ بأهلِ البيتِ والحثُّ على احترامِهم وإكرامِهم والقيامِ بحقِّهم والمبالغةُ في الحثِّ على ذَلِكَ ، بدليل تكراره ذلك للتَّأكيد.

قال الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الاقتضاء): "وهَذَا اليومُ الذي خطبَ النَّبيّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في هَذَا الغديرِ المشهورِ هُوَ ثامِنَ عَشَرَ ذي الحجَّةِ، مَرجِعَه مِن حجَّةِ الوداعِ، وقد زاد أهلُ الأهواءِ في ذَلِكَ وزَعَموا أنَّه عَهِدَ إلى عليٍّ رضي اللَّهُ عنه بالخلافةِ، وذَكَرُوا كلاماً طويلاً باطِلاً، وزَعَموا أَنَّ الصَّحابةَ تَمالَئُوا على كِتمانِ هَذَا النَّصِّ وغَصَبُوا الوَصِيَّ حقَّه، وفَسَقُوا وكَفُروا إلاَّ نَفَراً قليلاً، وقد جَعلَ أهلُ البِدَعِ هَذَا اليومَ عِيدًا، وهَذَا ابْتِداعٌ في الدِّينِ؛ إذ الأعيادُ شَريعةٌ مِن الشَّرائعِ، فيَجِبُ فيها الاتِّباعُ لا الابتِداعُ، ولم يكُنْ في السَّلَفِ، لا مِن أهلِ البيتِ ولا مِن غيرِهم مَن اتَّخَذَ ذَلِكَ عِيدًا ".



ثم نقل المصنف رحمه الله شكوى العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم قال: قلتُ يا رسولَ اللَّهِ إنَّ قُريشاً إذا لَقِيَ بعضُهم بعضاً لَقُوهُم بِبِشْرٍ حَسَنٍ، وإذا لَقُونا لَقُونا بوُجوهٍ لا نَعرِفُها، فغَضِبَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ غضباً شديداً وقال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الإِيمَانَ حتَّى يُحِبَّكُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِه)) رواه أحمدُ وفي لفظٍ ثم قال: ((يَا أَيُّها النَّاسُ مَنْ آذى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي، فَإِنَّمَا عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ)). رواه الترمذيُّ وقال حسنٌ صحيحٌ.

والشكوى هي :الاخبار عن مَكروهٍ أصابَكَ.

وقولُه: (**والذي نَفْسِي بِيَدِه لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي**) وهذا لفظ آخر للحديث المتقدم

وفي ذلك فوائد:

١- فيه جواز الحَلِفُ على الفُتْيا.

٢- فيه دليلٌ على دخولِ الأعمالِ في مسمَّى الإيمانِ، وهَذَا قولُ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ.

٣- في قولُه: (لا يؤمنون...) هَذَا نَفْيٌ لكمالِ الإيمانِ الواجِبِ.

٤- فيه دليلٌ على عظم حقِّ آل البيت، ووُجوبِ احترامِهم، والتحذيرِ مِن بُغْضِهم، والتَّرغيبِ في حبِّهِم حتى نَفَى الإيمانَ عمَّن لا يحبُّهم.

٥- فيه أنَّ محبَّةَ أهلِ البيتِ وقرابةِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مِن محبَّتِه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ واحترامِه وإكرامِه، ٦- فيه دليلٌ على فَضْلِ قَرابةِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ.

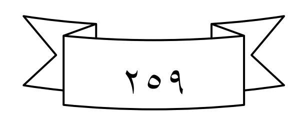
٧- قرابةُ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مَن يُنْسَبُ إلى جَدِّه الأقربِ، وهُوَ عبدُ المطَّلِبِ ممَّن صَحِبَ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أو رآه مِن ذَكَرٍ أو أُنْثى كما أشار إلى ذلك ابن حجر في (فتحُ الباري).

وفي الصَّحيحِ أنَّ الصِّدِّيقَ قال لعليٍّ رضي اللَّهُ عنه: " واللَّهِ لَقَرابةُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أحبُّ إليَّ أنْ أَصِلَ مِن قَرابَتِي"، وقال عمرُ بنُ الخطَّابِ للعبَّاسِ: "واللَّهِ لَاَسْلامُكَ يومَ أَسْلَمْتَ كان أحبَّ إليَّ مِن إسلامِ الخطَّابِ لو أَسْلَم؛ لأنَّ إسلامَكَ كان أحبَّ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مِن إسلامِ الخطَّابِ" رواه الطبراني.

وقولُه: (إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى بني إسماعيل واصطفى...)

هَذَا الحديثُ رواه أحمدُ ومسلمٌ عن واثلةَ بنِ الأسقعِ بلفظِ: ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)) ورواه أيضًا الترمذيُّ بلفظِ ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ)) الحديثَ، قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ.

والاصطفاء هو: الاختيار، وصَّفوةُ الشيءِ خياره.



وفي هَذَا الحديثِ دليلٌ على شَرَفِ نَسَبِه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، وفضله، **وأنَّه أَفْضَلُ الخَلْقِ على الإطلاقِ**، وروى مسلمٌ في "صحيحِه" أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ)).

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنه: ((إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَ مُحَمَّداً عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ وَعَلَى الأَنْبِيَاءِ)) رواه البيهقيُّ.

وفي هَذَا الحديثِ إشارةٌ إلى فَضْلِ إسماعيلَ على سائِرِ إخوتِه، وأنَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مِن ذُرِّيَّةِ إسماعيلَ.

وفيه دليلٌ على فضلِ العربِ وأنَّهم أفضلُ مِن غيرهم قال الشَّيخ تَقِيُّ الدِّينِ أيضًا:" الذي عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ اعتقادُ أنَّ جِنْسَ العَرَبِ أفضلُ مِن جِنسِ العَجمِ، عِبرانِيِّهم وسُريانِيِّهم، رُومِهم وفُرْسِهم وغيرِهم، وأنَّ قريشاً أفضلُ العربِ، وأنَّ بني هاشِمٍ أفضلُ قريشٍ، وأنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أفضلُ بني هاشمٍ، فَهُوَ أفضلُ الخَلْقِ نَفْساً وأَفْضَلُهم". (اقتضاءِ الصِّراطِ المستقيمِ)

مسألة: ورد قوله ﷺ:(لا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونَسَ وَمَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونَسَ فَقَدْ كَذَبَ) متفق عليه، وقولُه:(أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ) فما الجمع بين الحديثين ؟

ج: قال العلماء:الحديثُ الأول من باب التواضع وحفظِ قدر الأنبياء، وأما الحديث الثاني فهو من باب التحدثِ بالنعمة .

....

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بَأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ :خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلاَدِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِه، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ .وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ (فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَام)

.

....

أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ يتولَّون جميعَ أزواجِ رسولِ اللَّهِ الطَّاهِراتِ المبَرَّءاتِ مِن كُلِّ سوءٍ، ويَتَرضَّوْن عنهن، ويُعظِّمون قَدْرَهُنَّ، ويعرِفون فَضلَهُنَّ، ويَتبرَّءونَ ممَّن آذاهُنَّ أو سَبَّهُنَّ.

ويعتقدون أنهن أُمَّهاتِ للمؤمنين في الاحترامِ والتَّعظيمِ والتقدير، وأنه يحرم نكاحِهِنَّ على التَّأبيدِ، وأنه لا يحل النَّظرِ والخَلوةِ بهنَّ، فإنَّه يَحرُمُ في حقِّهِنَّ ذلك كالأجانبِ، قال اللَّهُ سُبْحانَهُ وتعالى: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) أي: في الاحترامِ والتَّعظيمِ، فيَجِبُ احترامُهُنَّ وتعظيمُهنَّ، ويَحرُمُ الطَّعنُ فيهنَّ وقذْفُهنَّ لا سِيَّما عائشةُ أمُّ المؤمنين، فمَنْ قَذَفَها بما برَّأَها اللَّهُ منه فهُوَ كافرٌ، وأمَّا مَن قَذَفَ غيرَها مِن نِساءِ النَّبِيِّ ففيه قولان: قال ابنُ كثيرٍ: والأصحُ أنَّهنَّ كعائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عنهن أجمعينَ، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك بإذن الله.

ويؤمنون أهل السنة والجماعة بأنَّهنَّ أزواجُه في الآخِرةِ لِمَا في صحيحِ البُخاريِّ وغيرِه:" لما بَعثَ عليٌّ عمَّارا والحسَنَ إلى الكوفةِ ليَستَنْفِرَهم خطَبَ عمَّارٌ فقال: إِنِّي لأَعلَمُ أَنَّها زَوجَتُه – أي: عائشةُ– في الدُّنْيَا والآخرةِ، ولكنَّ اللّهَ ابْتَلاكُم لتَتَّبِعُوه أو إيَّاها"، وعندَ ابنِ حِبَّانَ مِن طريقِ سعيدِ بنِ كثيرٍ عن أبيه حدَّثَتْنا عائشةُ رضي اللّهُ عنها أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ قال لها: ((تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي زَوْجَتِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)) وفي حديثِ سَودةَ لما أرادَ النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ فِراقَها أنها قالت:"يا رسولَ اللّهِ، واللّهِ مَا لِي بِالرِّجالِ مِن حاجةٍ، ولكن أُحِبُّ أنْ أُبعثَ مع نسائِكَ يومَ القِيامة..."،، وقوله ﷺ لعائشة:(لا عَلَيَّ بَعْدَ الْيَومِ مَا دُمْتِ أَنَّكِ زَوجَتِي فِي الْجَنَّةِ) . رواه البخاري .

وأوَّلُ زوجاتِه صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ صاحبة المنزلة العالية خَديجةُ بنتُ خويلدِ بنِ أسدٍ، تَزوَّجَها رسولُ اللّهِ بمكةَ، وهُوَ ابنُ خمسٍ وعشرينَ سنةً، وبَقِيَتْ معه إلى أنْ أكرمَه اللّهُ برسالَتِه، فآمَنَتْ بهِ ونَصرَتْهُ.

ومِن خصائِصها رضي اللّهُ عنها أنَّه صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ لم يَتزوَّجْ عليها غيرَها، وأولادُه كُلُّهم منها إلا إبراهيمُ فإنَّهُ مِن سَرِيَّتِه ماريةَ، **والمتَّفقُ عليه مِن أولادِه** صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ منها: القاسمُ، وبهِ كان يُكنى، ماتَ صغيرًا ، وبناتُه الأربعُ: زينبُ، ثم رُقَيَّةُ، ثم أُمُّ كُلثومٍ، ثم فاطِمةُ، وعبدُ اللّهِ وُلِدَ بَعدَ المبْعَثِ، وماتَ الذُّكورُ صِغارًا باتِّفاقٍ (انظر:فتح الباري).

ومنها: أنها خيرُ نساءِ الأُمَّةِ، **ومنها:** أنَّ اللّهَ بَعثَ إليها السَّلامَ مع جبريلَ فبَلَّغَها النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ ذَلِكَ، **ومنها:** أنَّها لم تَسُؤْه قطُّ، ولم تُغاضِبْه، ولم يَنَلْها منه إيلاءٌ ولا عُتبٌ قطُّ ولا هَجْرٌ، **ومنها:** أنَّها أوَّلُ امرأةٍ من النساء آمَنَتْ باللّهِ ورَسولِه مِن هَذِهِ الأمَّةِ، فلمَّا توفَّاها اللّهُ تزوَّجَ بعدها سودةَ بنتَ زمعةٍ، **ومنها:** أنها عاضدته ونصرته واحتَمَلَتْ مِن الأذى مالم يَحْتَمِلْه غيرُها، وكانت نُصْرَتُها للرَّسولِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ في أعظمِ أوقاتِ الحاجَةِ، وكانَ النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ يُحِبُّها كثيرًا ويَذْكُرُها، كما رَوى أحمدُ مِن حديثِ مسروقٍ عن عائشةَ رضي اللّهُ عنها أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللّهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ)).

وفي صحيحِ البخاريِّ عن عائشةَ رضي اللّهُ عنها قالت: "ما غِرتُ على امرأةٍ للنَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ ما غِرْتُ على خديجةَ لِمَا كنتُ أسْمَعُه يَذْكُرُها"، وأَمَرَهُ اللّهُ أنْ يُبشِّرَها بقصرٍ من قصَبٍ.

وتزوَّجَ الصِّدِّيقةَ بنتَ الصِّدِّيقِ عائشةَ بنتَ أبي بكرٍ رضي اللّهُ عنها ومِن خصائِصها أنَّها أحبُّ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ إليه وقد صَحَّ مِن غيرِ وجهٍ عن الصَّادِقِ المصدوقِ أنَّه قال: ((فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)) .والثَّريدُ هُوَ: الخبزُ إذا أُدِمَ بلحْمٍ وهُوَ أفضلُ الأطعمةِ؛ لأنَّه خبزٌ ولحمٌ، والبُرُّ أفضلُ الأقواتِ، واللَّحمُ أفضلُ الإدامِ، فإذا كان اللَّحمُ سيِّدَ الإدامِ والبُرُّ سَيِّدَ الأقواتِ ومجموعُها الثَّريدُ؛ كان الثَّريدُ

أفضلَ الطَّعامِ.،وفي الصَّحيحِ عن عمرِو بنِ العاصِ رضي اللَّهُ عنه قال: قلتُ:" يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ النِّساءِ أحبُّ إليكَ؟ قال: ((عائشةُ))، قلت: ومِن الرِّجالِ؟ قَالَ: ((أَبُوهَا))، قلتُ: ثم مَنْ؟ قال: ((عُمرُ))، وَسَمَّى رِجالاً".

ومن خصائصها أيضاً: أنَّه لم يَتزوَّجْ بكرًا غيرَها، وأنَّه كان يَنْزِلُ عليه الوحيُ في لِحافِها، وأنزلَ اللهُ براءتَها من فوقِ سبعِ سماواتٍ، وأَنَّ اللهَ لما أَنْزَلَ آيةَ التَّخييرِ بَدَأَ بِها فخيَّرَها، وأَنَّ اللَّهَ برَّأَها مما رَماها بهِ أهلُ الإفكِ، وأنَّ أكابِرَ الصَّحابةِ كان إذا أَشْكَلَ عليهم الأمرُ استَفْتَوْها فيَجِدُونَ عِلمَه عندها، وأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تُوفِّيَ في بيتِها وفي يومِها وبين سَحْرِها ونَحْرِها، ودُفِنَ في بَيْتِها، وأَنَّ المَلَكَ أَرَى صُورتَها للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبل أنْ يَتزوَّجَها في سَرَقةٍ-قطعة- حريرٍ كما في صحيح مسلم، وأَنَّ النَّاسَ كانوا يَتحرَّوْن بهداياهُم يومَها مِن رسولِ اللهِ تَقرُّباً إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وما يُروى بأنَّ عائشةَ أَتَتْ بسِقْطٍ فلا يَصِحُّ،**وتزوَّجَ رسولُ اللهِ حفصةَ** بنتَ عمرَ بنِ الخطَّابِ، **وأُمَّ حبيبةَ** بنتَ أبي سفيانَ، **واسْمُها رَملَةُ**، وتزوَّجَ **أُمَّ سَلَمةَ** واسْمُها هندُ بنتُ أبي أُميَّةَ، وتزوَّجَ **زَيْنبَ** بنتَ جحْشٍ، وتزوَّجَ **زينبَ** بنتَ خزيمةَ الهِلاليَّةَ، ، وكانتْ تُسمَّى أُمَّ المساكِينِ، وتزوَّج **جويريةَ** ابنةَ الحارثِ مِن بني المصْطَلِقِ، وتزوَّجَ **صفيةَ** بنتَ حُيَيٍّ مِن وَلَدِ هارونَ بنِ عمرانَ أخي موسى وتزوَّج **ميمونةَ** بنتَ الحارثِ الهلاليَّةَ، فهؤلاءِ جُملةُ مَن دَخلَ بهنَّ مِن النِّساءِ، وهُنَّ إحدى عَشْرَةَ.

قال الحافظُ المقدسيّ:" وعَقَدَ على سَبعٍ ولم يَدْخُلْ بهنَّ".وذكرَ ابنُ القيم رحمه الله في (الزاد): أن النبي ﷺ قبض عن تسعٍ من النساء وأنه كان يقسمُ بين ثمان أي: دون سودةَ لأنها لما كَبِرَتْ أراد طلاقَها فوهبت يومَها لعائشةَ وهؤلاء التسعةُ هن:

١.عائشة بنت أبي بكر ٢.ميمونة بنت الحارث . ٣.صفية بنت عبد المطلب .

٤.حفصة بنت عمر . ٥.هند بنت أبي أمية . ٦.زينب بنت جحش .

٧.جويرية بنت الحارث . ٨.رملة بنت أبي سفيان . ٩.سودة بنت زمعة .

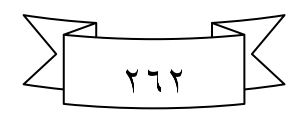
ومجموع زوجات النبي ﷺ إحدى عشرة زوجة التسعة اللاتي ذكرن آنفا ومعهن:

١٠.خديجة بنت خويلد . ١١.زينب بنت خزيمة .

وكونُهُنَّ أمهاتٍ للمؤمنين فهذا له معنيان:

١.أنهن أمهات لهم بالمكانة والشرف والإكرام .

٢.أنهن كالأمهاتِ في المحرمية فلا يجوز لأحد الزواجُ بهن، والناسُ أيضاً ليسوا محارمَ لزوجاتِ رسول الله بل هن أجنبياتٌ عنهم إلا ما ثبت بنسب أو برضاعة، ولذلك هن مأموراتٌ بالحجاب وعدم الكشف للمؤمنين أما كونهن محارمَ للمسلمين كما زعمَهُ بعضُ المفسرين فليس بصحيح لأن الآياتِ دلت على لزوم الحجاب لهن .



وقد خص المصنف رحمه الله تعالى زوجتين من زوجاتِ النبي ﷺ بَعْدَ أن عَمَّمَ وهما خديجة وعائشة لما لهن من الخصائص ماليس لغيرهن من أزواج النبي عليه الصلاة والسلام.

وهذا التخصيصُ يدل على التفضيل ولهذا ذكر ابنُ تيمية وابن القيم وابنُ رجب وغيرُهم أن جمهورَ العلماء يفضلون هاتين الزوجتينِ على الزوجات الأخريات مع بقاء منزلة الأخريات، **وقد اختلف العلماءُ في أيُّهما أفضلُ خديجة أم عائشة على قولين:**

القول الأول : أن خديجةَ أفضلُ واختاره ابن حجر. وابن قدامة للخصائص المتقدم ذكرها . (انظر:فتح الباري ١٣٤/٧) وقوله صلى الله عليه وسلم: (لقد فضلت خديجة على نساء أمتي)، وقال صلى الله عليه وسلم: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية)، قال ابن حجر: "وهذا نص صريح لا يحتمل التأويل"، وقال صلى الله عليه وسلم: (حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون)

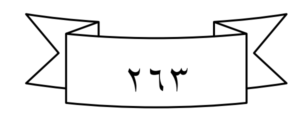
وأيضاً قالوا: بأن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأمره أن يقرئ خديجة السلام من ربها وفي ذلك قال السهيلي: استدل بهذه القصة أبو بكر بن داود على أن خديجة أفضل من عائشة؛ لأن عائشة سلم عليها جبريل من قبل نفسه، وخديجة أبلغها السلام من ربها. (انظر:فتح الباري (١٣٩/٧). وقد قال ابن العربي في خديجة رضي الله عنها: "وهي أفضل نساء الأمة من غير خلاف" (عارضة الأحوذي ١٣/٢٥٣)

القول الثاني: أن عائشةَ أفضلُ لحديث:(فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ) ولما تقدم من خصائصها.

القول الثالث: التوقف وبه قال ابن كثير كما في كتابه (البداية والنهاية).

أما المصنف رحمه الله فلم يرجح شيئا هنا لكن قال تلميذه ابن القيم رحمه الله : "واختُلِف في تفضيلها على عائشة رضي الله عنها على ثلاثة أقوال ثالثها الوقف **وسألت شيخنا ابن تيمية رحمه الله فقال:** اختص كل واحدة منها بخاصة فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام وكانت تسلي رسول الله وتثبته وتسكنه وتبذل دونه مالها فأدركت عزة الإسلام واحتملت الأذى في الله وفي رسوله وكانت نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها وعائشة رضي الله عنها تأثيرها في آخر الإسلام فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة وانتفاع نبيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها هذا معنى كلامه".(جلاء الأفهام ٢٣٤)

ومن باب الفائدة: فقد ألف عدد من العلماء في فضل عائشة رضي الله عنها وسعة علمها واستدراكها على الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام ومن هؤلاء الشيخ الفقيه الزركشي فقد ألف كتاباً سماه (الإصابةَ فيما استدركته عائشةُ على الصحابة).



الخلاصة أن شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحم الله الجميع يرون: إن أحدهما أفضل من وجه ، والأخرى أفضل من وجه. (انظر: الفتاوى ٤/٣٩٣، وبدائع الفوائد ٣/١١٠٤).

مسألة: اختلف العلماء في أفضلية عائشةَ على فاطمةَ على قولين :

وسبب الخلاف هو أن ظاهر الأحاديث التعارضُ حيث ورد أن فاطمةَ سيدةُ نساء الجنة، وأنها سيدةُ نساء العالمين كما عند الترمذي، وتقدم ما ورد في فضل عائشة رضي الله عنها.

فقيل: فاطمةُ أفضلُ للأدلة المتقدمة المذكورة . **وقيل:** عائشةُ أفضلُ للأدلة المتقدمة.

....

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ .وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ

....

أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ وسَطٌ في باب أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، يَترَضَّوْنَ عنهم جميعًا، ويُحِبُّونَهم ويتبرَّءُونَ مِن طريقةِ الرَّافِضةِ الذين يَسبُّونَ الصَّحابةَ ويَطْعَنونَ فيهم، ويَزْعُمونَ أنَّهم عَصَوُا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وارْتَدُّوا بعدَه إلا بضعةَ عَشَرَ منهم، ويُغلُونَ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ وأهلِ البيتِ.

وقَولُهُ:(وَيَسُبُّونَهُم..) السب:الشتم وقد ضبط ابنُ تيمية رحمه الله في (الصارم المسلول) ذلك بالعرف فما عده أهلُ العرف سبًّا أو انتقاصاً أو عيباً أو طعناً فهو سب .

والرَّافِضةُ يَنقسِمون إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسم الأول: غُلاةٌ غُلُواً في عليِّ بن أبي طالِبٍ رضي اللَّهُ عنه حتى زَعَموا أنَّه إلهٌ، أوْ أَنَّ اللهَ حَلَّ فيه، أو أنَّه الرَّسولُ، ولكنَّ جبريلَ أَخْطأَ في إعطاءِ الرِّسالةِ إلى مُحَمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ إلى غيرِ ذَلِكَ من أنواعِ الغُلُوِّ.

القِسم الثاني: السبَّابة وهم الذين يسبُّون أبا بكرٍ وعمرَ وغيرَهما مِن الصَّحابةِ، ويَزْعُمون أنَّ علياً هُوَ الوَصِيُّ، وأَنَّ الصَّحابةَ غَصَبُوه حقَّهُ وظَلَموه بتقديمِ أبي بكرٍ وعُمرَ عليه.

القِسمُ الثَّالثُ: المفضِّلة، وهم الذين يُفضِّلونَ علياً على أبي بكرٍ وعمرَ وغيرِهما مِن الصَّحابةِ.

قال الشَّيخُ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فعاقَبَ أميرُ المؤمِنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي اللَّهُ عنه الطَّوائِفَ الثَّلاثَ، فأَمَرَ بإحراقِ أولئكَ الذين ادَّعَوْا فيه الإِلَهِيَّةَ، فإنَّه خَرجَ ذاتَ يومٍ فسَجدُوا له، فقال لهم ما هَذَا؟ فقالوا: أنتَ هُوَ، قال: مَنْ أَنَا؟ قالوا: أنتَ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلا هُوَ، فقال: وَيْحَكُمْ هَذَا كفرٌ ارْجِعوا عنه وإلاَّ ضَرَبْتُ أعناقَكُم، فصَنَعُوا بِهِ في اليومِ الثَّاني والثَّالِثِ، وأخَّرَهُم ثلاثةَ أيامٍ؛ لأَنَّ المرتَدَّ يُستتابُ ثلاثةَ أيامٍ، فلمَّا لم يَرجِعوا أَمَرَ بأخادِيدَ مِن نارٍ فحَدَثَ أنَّه قال: لما رأيتُ الأمرَ أمراً مُنْكراً أجَّجْتُ ناري ودَعَوْتُ قنبرا.

وفي صحيح البخاري أن علياً أتى بزنادقتهم فحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: أما أنا فلو كنت لم أحرقهم «لنهي النبي صلى الله عليه وسلم أن يعذب بعذاب الله» ، ولضربت أعناقهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم : «من بدل دينه فاقتلوه» .

وقَتلُ هؤلاءِ واجبٌ بالاتِّفاقِ، لكن في جَوازِ تَحرِيقِهم نِزاعٌ، وأمَّا السَّبَّابةُ الذين يَسبُّون أبا بكرٍ وعمرَ، فإنَّ علياً رضي اللهُ عنه لما بَلَغَه ذَلِكَ طَلَب ابنَ السَّوداءِ الذي بَلَغَه ذَلِكَ عنه، وقيل: إنَّه أَرادَ قَتلَه فهَربَ منه إلى قرقيسا.

وأمَّا المفضِّلةُ الذين يُفضِّلونَه على أبي بكرٍ وعمرَ فرُوِي عنه أنَّه قال:" لا أُوتَى بأحدٍ يُفضِّلُني على أبي بكرٍ وعُمرَ إلاَّ ضَرَبْتُه حدَّ المفترِي"، وقد تَواتَرَ عنه أنَّه كان يقولُ على مِنبرِ الكوفةِ:" خيرُ هَذِهِ الأمَّةِ بعد نبيِّها أبو بكرٍ ثم عمرُ"، ورُوِيَ عنه هَذَا مِن أكثرَ مِن ثمانين وجْها، ورواهُ البخاريُّ وغيرُه. **(انظر:الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١/ ٧١)**

قال رحمه الله: **(وطريقةُ النَّواصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ)**

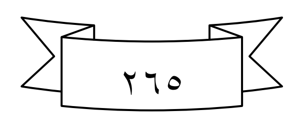
أهل السنة يتبرءون أيضاً من طريقة النواصب الذين يَنْصبُونَ العداوةَ لعليّ بنِ أبي طالبٍ وأهلِ البيتِ ويَتبرَّءون منهم ولا يُحبّونَهم، بل يكفِّرونَهم أو يُفسّقونَهم كالخوارجِ، قال ابن تيمية رحمه الله: والرَّوافِضُ شرٌّ مِن النَّواصِبِ، وأهل السنة يتولَّون السَّابِقينَ الأوَّلين كُلَّهم، ويعرِفون قدْرَ الصَّحابةِ وفضْلَهم ومناقِبَهم، ويَرْعَوْن حقوقَ أهلِ البيتِ التي شَرعها اللهُ لهم، ولا يَرضونَ بما فعلَه المختارُ ونحوه مِن الكذَّابِينَ، ولا ما فَعَلَه الحجَّاجُ ونحُوه مِن الظَّالِمينَ...ومِن كَذِبِ الرَّافِضةِ وضَلالِهم تسميتُهم أهلَ السُّنَّةِ ناصبةً حَيْثُ لم يُوافِقوهم على بِدْعتِهم وظُلمِهم، فإنَّ الرَّافِضةَ يزعمون أنَّ مَن تولَّى الصَّحابةَ لم يتولَّ القَرابةَ، ويقولون: لا ولاءَ إلا ببراءٍ، فمَن لم يتبرَّأْ مِن الصَّحابةِ لم يتولَّ القرابةَ، ويُقابِلُهم الخوارجُ وأشباهُهم مِن النَّواصبِ الذين يزعمون أنَّ الرَّفضَ هُوَ محبَّةُ أهلِ البيتِ، ويذُمُّون الرَّفضَ بهَذَا المعنى، وهَذَا كُلُّه كَذِبٌ وضَلالٌ، فلا دليلَ على ذمِّ النَّصْبِ بالتَّفسيرِ الذي زَعَمه الرَّافِضةُ، كما لا دليلَ على ذمِّ الرَّفضِ بمعنى موالاةِ أهلِ البيتِ، ولكنَّ المبتَدِعةَ يُلقِّبونَ أهلَ السُّنَّةِ بألقابٍ يَتنقَّصونهم بها، فيُسمُّونهم رافضةً وناصِبةً، فهم كما قيل: ((رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتِ)) وقد تقدَّمَ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ رضوانُ اللهِ عليهم يُوالُون جميعَ الصَّحابةِ والقَرابةِ، ويَترضَّوْن عنهم، ويُنْزِلُونهم منازِلَهم التي يستحِقُّونَها، فلا يَغْمطُونَهُم حَقَّهم، ولا يُغلونَ فيهم، وقد قال الإمامُ الشَّافِعيُّ رَحِمَهُ اللهُ على النَّاصِبةِ:

يا راكِباً قِفْ بالمحصَّبِ مِن مِنًى ... واهْتِفْ بقاعدِ خَيْفِها والنَّاهِضِ

إنْ كان رَفْضا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فليَشْهدِ الثَّقلانِ أنِّيَ رافِضي.

وقال غيره:

إنْ كان نَصْبا حُبُّ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... فليشْهَد الثَّقلانِ أنِّيَ ناصِبي.



وقال غيره:

إنْ كان نَصْبٌ وَلاءَ الصِّحابِ فإنِّي كما زَعَموا ناصِبِي
وإنْ كان رَفْضا وَلاءُ الجميعِ فلا بَرَحَ الرَّفضُ مِن جانِبِي.

وقد ذكر أهل العلم أن سبَّ الصحابة على أنواع:

النوع الأول:سبٌّ مع استحلالٍ له وهذا كفرٌ بالاتفاق لأنه إنكارٌ لعدالتهم الثابتةِ بالنص والإجماع فهو إنكار لما عُلِمَ تحريمه من الدين بالضرورة ولأن مضمونه أن نقلة الكتاب والسنة كفارا لو كفرهم بسببه أو فساقا لو فسقهم بسببه، وهذا هو الذي ذهب إليه ابن تيمية في (الصارم المسلول)، وحكى الإجماعَ عليه عليٌّ القارئُ وغيرُه .

النوع الثاني:سبٌّ من غير استحلالٍ له **وهذا على نوعين**:

١. أن يتعلقَ السبُّ بدينهم وعدالتِهم **وهذا على ثلاثة أقسام**:

أ.أن يكونَ السب لجميع الصحابة فهذا كفر بالاتفاق لأن ذلك من جنس إنكارِ ما عُلِمَ من الدين بالضرورة، ولأن مضمونه أن نقلة الكتاب والسنة كفارا لو كفرهم بسببه أو فساقاً لو فسقهم بسببه، ذكره ابنُ تيمية في (الصارم المسلول) .

ب.أن يكون السب لصحابي تواترت الأخبارُ بفضله وهذا كفرٌ لأن في ذلك تكذيباً للنصوص المتواترة وهذا من إنكارِ ما عُلِمَ من الدين بالضرورة وبهذا جاءت الرواية عن أحمدَ كما في (السنة) للخلال وبه جزم ابنُ تيمية والسبكيُّ .

ج.أن يكون السب لصحابي لم تتواترِ الأخبارُ في فضله فهذا محلُّ خلاف، وسبب الخلاف أنه لم ينكرْ ما هو معلومٌ من الدين بالضرورة لكن الاتفاقَ حاصل على أنه يعتبر فاسقاً كما قال السبكي، ويستحق التعزيرَ والتأديبَ كما قال ابنُ تيمية في (الصارم) .

٢. أن يكون السب لا عِلاقَةَ له بالدينِ والعدالة ونحوِها مثلَ وصفِ الصحابي بالبخل والجبن فهذا لا يَكْفُرُ قائله حتى ولو كان هذا السب لصحابي تواترَ النقل بفضله لكنَّ فاعلَه يستحق التأديبَ والتعزيرَ كما قال ابن تيمية في (الصارم) .

النوع الثالث:قذفُ أمهات المؤمنين أوقذفُ إحداهن فأما قذفُ عائشة رضي الله عنها فهو كفرٌ لأنه تكذيبٌ للقرآن وأما قذفُ غيرها ففيه خلافٌ والصحيحُ وهو رأي ابن كثير أنه كفر لأنه قدح في النبي ﷺ .

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمَنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ فيما جرى بين الصحابة رضي الله من النزاع والاختلاف، مِثلُ ما وقع بين عليٍّ ومعاويةَ، وما وقع بين طلحةَ والزُّبيرِ وعليٍّ وغيرِ ذَلِكَ هو الكَفُّ والاعراض عن ذلك ، لما في الخَوْضِ في ذَلِكَ مِن توليدِ الإحَنِ والحزازاتِ والحِقدِ على أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، وَذَلِكَ مِن أعظمِ الذُّنوبِ، فإنَّهم خيرُ القُرونِ وخير السَّابقونَ الأوَّلونَ، فتجِبُ محبَّتُهم جميعاً والتَّرضِّي عنهم، والكَفُّ عمَّا جرى بينهم ممَّا لَعلَّه لم يَصِحَّ، وما صَحَّ فله تأويلاتٌ سائغةٌ، ثم هُوَ قليلٌ مغمورٌ في جانبِ فضائِلِهم.

وأمَّا الحروبُ التي كانت بينهم فكانتْ لكُلِّ طائفةٍ شُبهةٌ اعتقدَتْ تَصويبَ أنْفُسِها بِسَببِها، وكُلُّهم عدولٌ ومتأوِّلُون في حُروبِهم وغيرِها، وأنَّ ما وقعَ منهم هم فيه مَعذُورون ومأْجُورون، **ومن ذلك الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنهم وقد انقسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام:**

١.من رأى أن الحق مع علي فرأى الواجبَ اتباعَه والقتالَ معه .

٢. من رأى أن الحق مع معاوية فتبعه وقاتل معه .

٣. من توقف فلم يظهر له شيءٌ فاعتزل مثل سعد بن أبي وقاص وغيره.

وكلهم معذورون مأجورون، فمعاويةُ رضي اللَّهُ عنه مِن العُدولِ الفُضلاءِ، وعليٌّ هُوَ الخليفةُ في وَقْتِه بالإجماعِ لا خِلافةَ لغيرِه إلا أن معاوية اجتهد وأخطأ، وعليٌّ اجتهد وأصاب وكان الحق معه.

لكن هل يفهم من التقسيم السابق مشاركة جميع الصحابة أو أكثرهم في هذه الفتنة ؟

ج: قال ابن تيمية رحمه الله في (المنهاجِ): "وأمَّا الصَّحابةُ فجُمهورُهم وجمهورُ أفاضِلِهم لم يَدْخُلوا في فتنةٍ، ثم ساقَ عن ابنِ سيرينَ قال: "هَاجَت الفِتنةُ وأصحابُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عَشْرةُ آلافٍ، فما حَضَرَها منهم مائةٌ، بل لم يَبْلُغوا ثلاثين، وهَذَا أصحُّ إسنادٍ على وجهِ الأرضِ، وساق كَلاماً طويلاً يَدُلُّ على أنَّ أكثرَ الصَّحابةِ اعْتَزَلَ الفَريقَيْنِ، إذا عرَفْتَ ما تقدَّمَ عَلمْتَ أنَّ طريقَ السَّلامةِ هُوَ الكفُّ عمَّا شَجرَ بينهم، والتَّرضِّي عن الجميعِ، ونقولُ كما قال اللَّهُ تعالى عن التَّابعينَ بإحسانٍ: إنهم يقولون: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) وما شَجَرَ بينهم وتَنازَعوا فيه فأمْرُه إلى اللَّهِ لا تَسأَلُ عن ذَلِكَ، قال تعالى: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وما أحسَنَ

ما روى عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضي اللَّهُ عنه أنَّه قال: لما سُئِلَ عمَّا وقع بين الصَّحابةِ: تِلْكَ دماءٌ طَهَّرَ اللَّهُ مِنها يَدِي فلا أُحِبُّ أنْ أُخَضِّبَ بها لِساني".

وما يروى في حقهم من الآثار المروية في مساوئهم فهي على نوعين:

الأول:آثارٌ مكذوبةٌ أو محرفةٌ قد دخل فيها من الزيادةِ والنقصان ما يُخْرِجُها من الصدق إلى الكذب والذم والطعن وأكثرُ المنقول من المطاعن الصريحة هو من هذا الباب حيث يرويها الكاذبون مثلَ لوطِ بنِ يحيى أبي مِخْنَفٍ، ومثلَ هشامٍ الكلبي وغيرِهم وهذا لا يجوز نشرُه ولا اعتقادُه .

الثاني:آثارٌ صحيحةٌ وهذه على قسمين:

١.ما لهم فيه معاذيرُ تخرجها من أن تكون ذنوباً وتجعلها من موارد الاجتهاد فمن أصاب منهم فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد وخطؤه مغفور كما جاء في "الصَّحيحَيْنِ" مِن حديثِ أبي هريرةَ وعمرِو بنِ العاصِ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنِ اجْتَهَدَ وَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ)) وعامة المنقول الثابت عن الخلفاء الراشدين من هذا الباب .

٢.ما حصل من بعضهم من الذنوب والأخطاء التي ليست من أمور الاجتهاد فلا يقدح فيهم فيما عُلِمَ من فضلهم ومناقبهم لأن الذنبَ المخففَ يرتفع عقابُه في الآخرة بأسبابٍ متعددة وهي عشرةٌ معلومةٌ دلت عليها النصوص:

ثلاثة من العبد:

١.الحسنات الماحية، ٢.التوبة الصادقة، ٣.الاستغفار .

وثلاثة من المؤمنين:

١.الْقُرَبُ التي يهديها المؤمنون للمؤمنين الأموات، ٣.الدعاء للمؤمنين، ٤.الاستغفار لهم .

وأربعةٌ من الله جل وعلا:

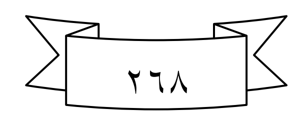
١.المصائب التي تحصل للعبد في الدنيا فإنها كفاراتٌ كما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة .

٢.ما يعذب به العبد في القبر، ٣.ما يحصل للعبد من مصائبَ في عرصات القيامة .

٤.مغفرة الله للعبد بدون سبب لكن منةً منه وكرماً.

فما مِن سببٍ يَسَقُطُ بِهِ الذَّمُّ والعقابُ عن أحدٍ مِن الأمَّةِ إلاَّ والصَّحابةُ أحقُّ بِذَلِكَ، فهم أحقُّ بكُلِّ مدْحٍ، ونَفْيِّ كُلِّ ذَمٍّ ممَّن بعدهم مِن الأمَّة. والمقصود أن الصحابة لهم من تلك الأسباب الرافعة للذنب أوفرُ نصيب.

ولِهَذَا اتَّفقَ أهلُ الحقِّ ممَّن يُعتَدُّ بِهِ فِي الإجماعِ على قَبولِ شهادَتِهم وروايَتِهم وثبوتِ عدالَتِهم، وأنَّه يَجِبُ تَزكِيةُ جَمِيعِهم، ويَحْرُمُ الطَّعنُ فيهم، ويَجِبُ اعتقادُ أنَّهم أَفْضَلُ جميعِ الأمَّةِ بعدَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال أبوزُرعَةَ:



"إذا رأيتَ الرَّجُلَ يَنتقِصُ أحداً مِن أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فاعلم أنَّه زِنديقٌ"، وَذَلِكَ أَنَّ القرآنَ حقٌّ والرسولُ حقٌّ، وما جاء بِهِ حقٌّ، وما أدى ذَلِكَ النَّبأَ كُلَّه إلاَّ الصَّحابةُ، فمَن جرحَهم فإنَّما أراد إبطالَ الكِتابِ والسُّنَّةِ.(المنهاج)

مسألة:قد يقول قائل:لماذا أهل السنة يذكرون الأشياءَ التي وقعت بين الصحابة في كتبهم ؟

ج:ذكروا ذلك من باب المصلحة كالرد على المبتدعة وإظهار حقٍ اختلف فيه ونحوِ ذلك .

....

وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لاَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ . وَلَهُم مِّنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُم مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لاَ يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِّنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ .

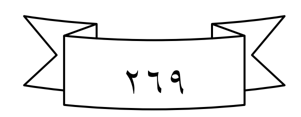
....

أهلَ السُّنَّةِ يعرِفون قَدْرَ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وقَرابَتِه، فيُنزِلُونَهم مَنازِلَهم، كما وَردَ في الحديثِ: ((أنزلوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ)) فلا يَغلُون فيهم بحَيْثُ يَرْفَعُونَهم عن مَنْزِلَتِهم التي أَنْزَلَهُم اللَّهُ بها، فلا يَعتقدُونَ أنَّهم مَعصومُون عَن الذُّنوبِ والخطايا، بل يَجُوزُ – أي: يمكن – عليهم ما يَجوزُ على غيرِهم مِن الذُّنوبِ والخطايا، وفي الحديثِ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ) وفي حديثِ أبي ذرٍّ: ((إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ)) .

قالَ الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّينِ: "ولم يَقُلْ أحدٌ يُعتدُّ بِهِ: إنَّ الصَّحابةَ رضي اللَّهُ عنهم أو غيرُهم مِن الأولياءِ أو القَرابةِ مَعصومٌ مِن كبائرِ الذُّنوبِ أو مِن الصَّغائرِ، بل يجوزُ عليه وُقوعُ الذَّنْبِ، واللَّهُ يَغْفِرُ لهم، وقِصَّةُ حاطِبٍ في الصَّحيحِ، فقد غَفَرَ له الذَّنْبَ العظيمَ بِشُهودِه بَدْرا".

فأهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ لا يَرَوْنَ عصمةَ أحدٍ لا مِن الصَّحابةِ ولا مِن القرابةِ، ولا يُؤَثِّمُونَهم باجتهادِهم، بخلافِ أهلِ البِدَعِ الذين غَلَوْا مِن الجانِبَيْنِ: طائفةٌ عَصَّمَتْهم وطائفةٌ أَثَّمَتْهُم.

فما يَقعُ من الصحابة رضي اللَّهُ عنهم من الزلل والخطأ يُغْتَفَرُ في جانِبِ ما لهم مِن الحسناتِ العظيمةِ، كما في قِصَّةِ حاطبٍ: فقد غُفِرَ له الذَّنْبُ العظيمُ بِشُهودِه بدراً (وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى).



وفي جامعِ الترمذيّ أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال لَمَّا جاءَهُ عثمانُ لِتَجْهيزِ جَيشِ العُسْرَةِ: ((مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ)) مَرَّتَيْنِ، رواه الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ، وروى أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ عن جابرٍ أَنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ))،

وهذه المغفرة الواردة في حق الصحابة رضي الله عنهم لم تأتي من فراغ وإنما لما لهم مِن الفَضائِلِ والسَّوابقِ والوَعْدِ بالمغفرةِ، قال تعالى: (وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) فلأصحابِ رسولِ اللَّهِ من الحسناتِ والأسبابِ التي تَمْحُو السَّيِّئاتِ أعظمُ نَصيبٍ، قال تعالى: (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذي عَمِلُواْ) والحبيبُ يُسامَحُ بما لا يُسامَحُ بِهِ غيرُه؛ لأَنَّ المحبَّةَ أكبرُ شُفعائِه كما قِيلَ:

وإذا الحَبِيبُ أَتى بِذَنْبٍ واحدٍ جاءتْ محاسِنُه بألْفِ شَفيعِ.

فلِمَقامَاِتهم العظيمةِ وجهادِهم في اللَّهِ حقَّ الجهادِ يُحتمَلُ لهم ما لا يُحتَمَلُ لغيرِهم.،وذَكَر ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في (المدارجِ) ما خلاصته: بأنَّه يُعفَى للمحِبِّ ولِصاحِبِ الإحسانِ العظيمِ ما لا يُعْفَى لغيرِه، ويُسامَحُ بما لا يُسامَحُ بِهِ غيرُه، قال: وقد استدلَّ الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّين رَحِمَهُ اللَّهُ على ذَلِكَ بقصَّةِ سليمانَ حين أَلْهَتْهُ الخيلُ عن صلاةِ العصرِ، فأَتْلَفَها فعوَّضَه اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالَى بالرِّيحِ، وَكَذَلِكَ لَطَم مُوسى عَيْنَ مَلَكِ الموتِ فَفَقأَها ولم يَعْتَبْ عليه رَبُّه، وفي ليلةِ الإسراءِ عاتَبَ رَبَّه في النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه رُفِعَ فوقَه، ولم يُعاتِبْهُ اللَّهُ على ذَلِكَ، لِما له مِن المقاماتِ العظيمةِ. وكان شديدَ الغضبِ لِرَبِّه، فاحتَمَلَ له مالم يَحتَمِلْه لغيرِه، وذو النُّونِ لما لم يكُنْ له هَذَا المقامَ سَجَنَهُ في بطنِ الحوتِ مِن أجلِ غَضَبِه (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا).

وقد ثَبتَ بقولِ الرَّسول صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ:(أن خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) هذا الأثر أَخرجَه مسلمٌ مِن حديثِ أبي هريرةَ، ، وأَخرجَه البُخاريُّ ومسلمٌ مِن حديثِ عمرانَ بنِ حُصَينٍ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)) قال عِمرانُ بنُ حصينٍ: ((فلا أَدْرِي أَذَكَر بعدَ قَرْنِه مَرَّتين أو ثلاثًا، وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي اللَّهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ)).

والقَرْنُ هم :أهلُ الزمانِ الواحدِ المتقاربِ الذين اشتركُوا في أمرٍ مِن الأمورِ المقصودةِ، ويُطلَقُ القَرْنُ على مُدَّةٍ من الزَّمانِ اختلفوا في تَحديدِها، ووقع في حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ بُسرٍ عندَ مُسلِمٍ ما يَدلُّ على أَنَّ القرنَ مائةُ عامٍ، وهُوَ المشهورُ (انظر:فتح الباري) والمرادُ بقَرْنِه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: الصَّحابةُ، واتَّفقَ العلماءُ على أَنَّ خيرَ القُرونِ قَرْنُه.

وقولُه: ((ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)) يعني التَّابِعينَ ((ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)) يعني أَتْباعَ التَّابِعينَ.

واقْتضَى هَذَا الحديثُ أنْ يكونَ الصَّحابةُ أَفْضلَ مِن التَّابِعِينَ، والتَّابِعِينَ أَفْضلَ مِن أَتباعِ التَّابِعِين، واستُدِلَّ بِهَذَا على تعديلِ القرونِ الثَّلاثة وإنْ تَفاوتَتْ منازِلُهم في الفَضْلِ، واستُدِلَّ على جوازِ المفاضَلَةِ بين الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم.

وقولُه: (**وإنَّ المُدَّ مِن أحدِهم إذا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً مِمَّنْ بَعْدَهُمْ**)).هذا الأثر ثبت في الصَّحيحَيْنِ من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ))، وقد تقدَّم الكلامُ عن هَذَا الحديثِ.

إذاً الصحابة رضي الله عنهم ليس بمعصومين وما صدر منهم من ذنب فهو مغفور بأحد أمور:

إما بتوبة قد تابها والتَّوبةُ تَجُبُّ ما قَبلَها، كما في الحديثِ: ((التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ)) والتَّوبةُ مَقبولةٌ مِن جميعِ الذُّنوبِ

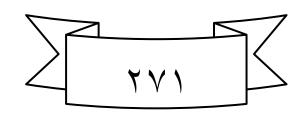
وإما أنه أَتَى بحسناتٍ تَمْحُوه قال اللهُ تعالى: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ((وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)) وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرَّجُلِ الذي قال أصبتُ حداً فَأَقِمْه عليَّ، فقال: ((هَلْ صَلَّيْتَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلاةَ؟)) قال: نَعَمْ، قال: ((اذْهَبْ فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ)) الحديثَ، والحسناتُ تَتفاضَلُ بحسَبِ ما في القُلوبِ مِن الإيمانِ والتَّقوى، وحينئذٍ يُعرَفُ أنَّ مَن هُوَ دُونَ الصَّحابةِ قد تكونُ له حسناتٌ تَمْحُو ما يُذَمُّ مِن أحدِهم، فكَيْفَ بالصَّحابَةِ رضي اللهُ عنهم.

وإما لفَضلِ سابقَتِه كما تقدَّمَ مِن الأدِلَّةِ على ذَلِكَ، ومنها قولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ((لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ))، وكما في قِصَّةِ حاطِب بنِ أبي بَلْتَعَةَ فقد غفَرَ له ذَلِكَ الذَّنْبَ العظيمَ بشُهودِه بَدْرا، وقد بَرِئَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مما صَنَعَ خَالِدٌ ببني جذيمةَ وقال: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ)) ولم يُؤاخِذْه له لِحُسْنِ بلائِه ونَصْرِهِ للإسلامِ، إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدِلَّةِ الكثيرةِ.

وإما بشفاعةِ النبي عليه الصلاة والسلام فإن الصحابة رضي الله عنهم أَخَصُّ النَّاسِ بِدُعائِه وشَفاعَتِه.

وإما بمصيبة وبلاء ابتلي فيه في الدُّنْيَا كان سببا في تكفير ذنبه، كما في الصَّحيحِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ غَمٍّ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)) متَّفقٌ عليه

والمصنِّفُ رحمه الله هنا ذكر بعضَ الأسبابِ المسقِطةِ للعقوبةِ، وقد استَوْفاها في (المنهاجِ) وشَرَحَها شَرْحاً وافِياً، ثم قال: فَهذِهِ الأسبابُ لا تفوتُ كُلُّها من المؤمنين إلاَّ القليلَ، فكَيْفَ بالصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم الذين هم خيرُ قُرونِ هَذِهِ الأمَّةِ، فإذا كان الذَّنْبُ المحقَّقُ تَسقُطُ عقوبَتُه بِعِدَّةِ أسبابٍ في حقِّ آحادِ النَّاسِ فكَيْفَ في أصحابِ



رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فما مِن ذنبٍ يَسقطُ بِهِ الذَّمُّ والعقابُ عن أحدٍ مِن الأمَّةِ إلاَّ والصَّحابةُ أحقُّ بِذَلِكَ، فَهُم أحقُّ بكُلِّ مدحٍ ونَفْيِ كُلِّ ذَمٍّ مِمَّن بعدَهم مِن الأمَّة.

مسألة: هل الأنبياء معصومون وهل تقع منهم الذنوب والمعاصي ؟

ج: اتَّفَقَ العلماءُ على أن الأنبياء مَعصومُون في تبليغِ الرِّسالةِ، لا يَجوزُ أنْ يَستقِرَّ في ذَلِكَ شيءٌ مِن الخطأِ، وَكَذَلِكَ هم معصومونَ مِن الكبائرِ، أمَّا الصَّغائرُ فقد تَقَعُ منهم ولكنْ لا يُقِرُّونَ عليها.

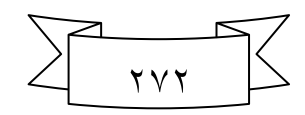
....

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ إنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخطَؤُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفُور ثُمَّ إِنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَن نَّظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خِيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لاَ كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تعالى.

....

يقول شيخ الاسلام رحمه الله مؤيداً ماتقدم بأنه إذا كانت الذنوب المحققة تَسقُطُ عقوبَتُها عن آحادِ الأمَّةِ بأسبابٍ عديدةٍ فكَيْفَ بأصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وخاصته فهم أحَقُّ بِذَلِكَ لِما لهم مِن الفَضائِلِ والسَّوابِقِ والوَعْدِ بالمغفرةِ، إلي غيرِ ذَلِكَ مِمَّا لا يُمْكِنُ أنْ يَلْحَقَهُم فيه مَن بَعْدَهم، وَكَيْفَ أيضاً بالأمورُ التي كانوا فيها مُجْتَهِدِين إنْ أصابوا فلَهُم أَجْرَانِ وإنْ أَخْطَئُوا فَلَهُم أجرٌ واحدٌ، والخطأُ مَغفورٌ، فَهُم مأجورونَ على كِلا الحالَيْن كما تقدم بيانه ودليله، **ثم إن القَدْرُ المستنكر من فعل بعضهم** يعتبر نزر يسير وتافه مغمورٌ مُغطًّى في جانب ما أَتَوْا بِهِ مِن الحسناتِ وما لَهُم مِن الفضائلِ والسَّوابِقِ غَمَرَ ما وقع منهم وغطَّاه وجَعَلَه كَلا شَيْءٍ يذكر، أو كقَطْرةِ نجاسةٍ وقَعَتْ في بحرٍ، هَذَا على فَرضِ ثبوتِ ذَلِكَ عنهم ووقُوعِه منهم، وإلاَّ فغالِبُ ما يُنقَلُ عنهم مِن المساوئِ إمَّا كَذِبٌ مَحْضٌ، وإمَّا محرَّفٌ كما تقدَّمَ وما ثبت صدُورُه عنهم فهُوَ صادِرٌ عن اجتهادٍ سائغٍ هُم مأجورونَ فيه على كِلا الحالَيْن.

ومَن نَظَرَ في سيرةِ القوم بعلم وبصيرة وتدبر حالهم وعادتهم، وما كانوا عليه مِن الأحوالِ الفاضِلةِ والسِّيرةِ العادِلةِ وما هم عليه مِن الدَّعوةِ إلى اللهِ والجهادِ في سبيلِه وبَذْلِ النَّفْسِ والنَّفيسِ في سبيلِ إعلاءِ كلمتِه مع ما هم عليه مِن الصِّدقِ مع اللهِ والمسارَعةِ إلى الخيرِ مع العِلمِ النَّافِعِ إلى غيرِ ذَلِكَ مِن صفاتهم الفاضِلة،عَلِم يَقِيناً عِلماً لازماً لا يَدخُلُه شَكٌّ ولا شبهةٌ، أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لاكان ولا يكون مثلهم فهم الصَّفْوةُ الخيارُ مِن قرونِ



هَذِهِ الأمَّةِ وأَكْرَمِها على اللهِ سُبْحَانَهُ،وهم أَكْملُ هَذِهِ الأمَّةِ عقلاً وعِلماً ودِيناً، كما قال فيهم عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه:" مَن كان منكم مُسْتَناً فَلْيَسْتَنَّ بمَن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تؤمَنُ عليه الفتنةُ، أولئكَ أصحابُ مُحَمَّدٍ كانوا خيرَ هَذِهِ الأمَّةِ، وأَبَرَّها قُلُوبًا وأعْمَقَها عِلماً وأقَلَّها تَكلُّفا، قومٌ اختارَهم اللَّهُ لنَبِيِّه وإقامةِ دِينِه، فاعْرِفوا لهم فَضْلَهم واتَّبِعُوهم في آثارِهم، وتَمسَّكُوا بما استطعْتُم مِن أخلاقِهم ودينِهم، فإنَّهم كانوا على الهُدى المستقيم" رواه غيرُ واحدٍ من أهل العلم منهم ابنُ بطَّةَ عن قتادةَ، وروى هُوَ وغيرُه بالأسانيدِ إلى زِرِّ بنِ حُبيشٍ قال: قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي اللَّهُ عنه: " إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ نظَرَ في قلوبِ العِبادِ بعد قلبِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فوجَدَ قلوبَ أصحابِه خيرَ قلوبِ العِبادِ، فجَعلهَم وراءَ نبِيِّه يقاتِلون على دِينِه، فما رآه المسلمونَ حَسَناً فهُوَ عندَ اللهِ حسَنٌ، وما رآه المسلمونَ سيِّئاً فهُوَ عندَ اللهِ سيِّئٌ" رواه أحمدُ وأبو داودَ الطَّيالسيُّ وقال الأرنؤوط:إسناده حسن .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:فكل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات ودخول الجنة والنجاة من النار وانتصارهم على الكفار وعلوّ كلمة الله فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلغوا الدينَ وجاهدوا في سبيل الله وكلُّ مؤمن آمن بالله فللصحابة عليه فضل إلى يوم القيامة

(انظر:منهاج السنة النبوية ٦ / ٢٥٣) .

....

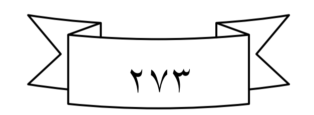
وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتَ الأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِم مِّنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، كالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قرون الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

....

مِن أصولِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ التَّصديقُ بكراماتِ أوليائِه، كما دلَّ على ذَلِكَ القرآنُ والأحاديثُ الصَّحيحةُ والإجماع والآثارُ المتَواترةُ عن الصَّحابةِ والتَّابعينَ وغيرِهم، **وإنَّما أنكرَها أهلُ البِدَعِ من الجهميَّةِ والمعتزلةِ** ومَن تابَعُهم، **والكرامةُ في اللغة** مأخوذةٌ من التكريم وهو التشريفُ،**واصطلاحا: ما يُجري اللَّهُ على أيدي أوليائِه مِن المؤمنين مِن خوارقِ العاداتِ**، كما جَرى لأُسيدِ بنِ حُضيرٍ في نُزولِ الظُّلَّةِ عليه باللَّيلِ فيها مِثلُ السَّرْجِ، فأخبَرَ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بِذَلِكَ فقال: ((تِلْكَ الْمَلائِكَةُ نَزَلَتْ لِسَمَاعِ قِرَاءَتِكَ)) ومثلُ ما جرى لسَعدِ بن أبي وقَّاصٍ في القادسيَّةِ، ومُرورِهم على الماءِ بجُنودِهم، وقد جرى قبل ذَلِكَ نَحوُه للعلاءِ بنِ الحَضْرَمِيّ.

فالكرامة هي التي خَرَقَت العادَةَ وخالَفَتْ مُقتضاها، وجاءتْ على خِلافِ مألوفِ الآدَمِيّينَ، كإحياءِ ميِّتٍ، وانفجارِ الماءِ مِن بين الأصابعِ.

وتنقسم الكرامةَ إلى قسمين:



القسم الأول: ما يكون بالكَشْفِ والعِلمِ، فتارةً يَسمعُ ما لا يَسمَعُه غيرُه، أو يَرى ما لا يَراهُ غيرُه يقظةً أو مَناماً أو نحوَ ذَلِكَ، ويُسمَّى ذَلِكَ كُلُّه كَشْفًا ومكاشَفةً، أي: كَشَفَ له عنه وأَطْلَعَه على ما لم يُطْلِعْ عليه غيرَه، فحَصَلَ لقَلْبِه مِن انكشافِ الحقائقِ التي لا تَخْطُرُ ببالِ غيرِه ما خصَّهُ اللهُ به، **فمِن بابِ الكَشْفِ والعِلمِ للأنبياءِ عليهم السَّلامُ** إخبارُ نَبِيِّنا عن أخبارِ الأنبياءِ المتقدِّمِين وأُمَمِهم، وَكَذَلِكَ عن الأمورِ المستقبَلَةِ كمَمْلَكةِ أُمَّتِه وزوالِ مملكةِ فارسَ والرُّومِ، وقتالِ التُّرْكِ ونحوِ ذَلِكَ ممَّا لا يُحْصَى، وأمَّا الخوارِقُ لغيرِ الأنبياءِ، فمِثلُ قولِ عُمرَ في قصَّةِ ساريةَ، ومِثلِ إخبارِ عُمرَ بمَن يَخْرُجُ مِن وَلَدِه فيكونُ عادلاً فخرج عمرُ بنُ عبد العزيز ، وقِصَّةُ صاحِبِ مُوسى في عِلمِه بحالِ الغُلامِ.

القسم الثاني: ما يكونُ في القُدرةِ والتَّأثِيرِ،كانشِقاقِ القَمرِ، وَرَدِّ الشَّمسِ ليُوشعَ بنِ نونٍ، وإسرائِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من المسجِدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، ونَبْعِ الماءِ بين أصابِعِه غيرَ مرَّةٍ، إلى غيرِ ذَلِكَ ممَّا لا يُحصى، وأما ما كان لغير الأنبياء فمِثلُ قصَّةِ الذي عنده عِلمٌ مِن الكتابِ، وقصةِ أهلِ الكهفِ، وقال تعالى لمريمَ:﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ **ومن التأثيريُّ** فمثلُ ما يجري لبعض الوعاظ كما ذكر عن ابن الجوزى أنه في مجلس واحد أسلم و تاب على يديه أكثرُ من ألف شخص .

وشرْطُ كونِ الخارقِ كرامةً أنْ يكونَ مَن جَرَى على يديْهِ صالحاً مُتَّبِعا للسُّنَّةِ، فمَن ادَّعى محبَّةَ اللهِ وولايَتِه ولم يَتَّبِعْ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فليس مِن أوليائِه، بل مِن أعدائِه وأولياءِ الشَّيطانِ، كما قال تعالى: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ).قال الحَسَنُ:" ادَّعى قومٌ محبَّةَ اللهِ فامتَحَنَهُم اللهُ بهذه الآيةِ.

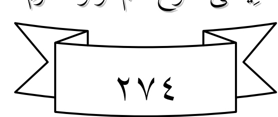
ولِهَذَا اتَّفقَ أئمَّةُ الدِّينِ على أَنَّ الرَّجُلَ لو طارَ في الهواءِ ومَشى على الماءِ لم يَثْبُتْ له ولايةٌ، بل ولا إسلامٌ حتى يُنْظَرَ وُقُوفُه عندَ الأمرِ والنَّهْيِ الذي بَعثَ اللهُ بِهِ رَسُولَه، فولِيُّ اللهِ هُوَ المؤمِنُ المتَّقِي كما قال تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) **وسُمِّي وَلِياً لموالاتِه لِطاعةِ اللهِ،** والوليُّ خلافُ العدوِّ، وهُوَ مُشتَقٌّ مِن الولاءِ، وهُوَ الدُّنُوُّ والقُربُ، فَوَلِيُّ اللهِ مَن والَى اللهَ بموافَقَتِه في محبوباتِه والتَّقرُّبِ إليه بمرضاتِه.

والأولياءُ على قِسمَيْنِ:

القسم الأول: مقتَصِدُونَ وهم كل مؤدٍّ للفرائض مجتنبٍ للمحارم وهم أصحابُ اليمين.

القسم الثاني: مُقَرَّبونَ وهم السَّابِقُون الذين يَتقرَّبونَ إلى اللهِ بالنَّوافِلِ بعدَ الفرائضِ، وأفضلُ أولياءِ اللهِ هم أنبياؤه، وأَفضلُ أنبيائِه هُم المرسَلونُ منهم، وأَفضلُ المرسَلينَ هم أُولو العزْمِ، وهم: إبراهيمُ، ونوحٌ، وموسى، وعيسى، ومحمَّدٌ، قيل: وأَفْضَلُهم مُحَمَّدٌ، ثم إبراهيمُ، ثم موسى، ثم عيسى، ثم نوحٌ، ونَظَمَهُم بعضُهم على هَذَا التَّرتيبِ فقال:

مُحَمَّدٌ إبراهيمُ موسى كَلِيمُه فعِيسى فنُوحٌ هم أُولو العَزْمِ فَاعْلَمِ



ولا يُشترَطُ في الوليّ أنْ يكونَ معصومًا، بل مَن ادَّعى العِصمةَ لأحدٍ مِن الأولياءِ فقد كَذَبَ، ولا يُمكِنُ أنْ يَصِلَ الوليُّ مهما عَلَتْ رُتْبَتُه وبَلَغَ في الجِدِّ والاجتهادِ **ما بَلَغَ إلى مراتِبِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وليس للوَليِّ زيٌّ خاصٌّ** ولا لِباسٌ خاصٌّ، وأمَّا ما يُجْري اللَّهُ على أيدي الأنبياءِ والرُّسُلِ مِن خوارقِ العاداتِ فيُقالُ له معجزةٌ، أمَّا إذا كانتْ حالُ مَن ظَهرَت الخارِقةُ على يَدَيه غيرَ مُرْضِيَةٍ فليست بكرامَةٍ، بل هُوَ استدراجٌ وخيالٌ شيطانيٌّ، ليس مِن حالِ أولياءِ اللَّهِ وكرامَتِهم، **فمَن زعَمَ أنَّه يَصِلُ إلى حدٍّ تسقُطُ عنه التَّكاليفُ الشَّرْعيَّةُ أو زَعَمَ أنَّه يَسَعُه الخروجُ مِن شريعةِ محمَّدٍ**، كما وَسِعَ الخَضِرَ الخروجُ عن شريعةِ موسى، **أو زَعَم أنَّه محتاجٌ للنَّبيّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في عِلمِ الظَّاهرِ دُونَ عِلمِ الباطنِ، أو في عِلمِ الشَّريعةِ دُونَ عِلمِ الحقيقةِ**، فهُوَ كافرٌ باللَّهِ العظيمِ مِن أولياءِ الشَّيطانِ ليسَ مِن أولياءِ الرَّحمنِ، كما ذَكَرَ ذَلِكَ الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّينِ وغيرُه، إذ قد أَجمعَ العلماءُ على أنَّ شَرْطَ الكرامَةِ كونُها على يَدِ متَّبِعٍ للشَّرعِ المطهَّرِ، **وبهَذَا التَّفصيلِ يَظهَرُ الفَرْقُ بينَ المعجزةِ والكرامةِ والأحوالِ الشَّيطانيَّةِ، فالثَّلاثُ تَجتمِعُ في كونِها خارقةً للعادةِ، وتمتازُ المعجزةُ في كونِها على يَدِ مُدَّعِي الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ، فيُؤيِّدُ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بأنواعِ المعجزاتِ والأخلاقِ والأعمالِ التي تَدُلُّ على صدقِهم، وقد يكونُ منها ما لا يَستطِيعُ المخلوقُ مِثلَه، كإنزالِ القرآنِ، ونُبوعِ الماءِ مِن بين أصابِعِه، وإبراءِ الأكمهِ والأبرصِ، وإحياءِ الموتى في حقّ عيسى، وكعَصا موسى ويدِه، أمَّا الكرامةُ فهي الخارِقةُ الحاصِلةُ على يدِ المؤمنِ التَّقيّ التَّابعِ لشَرعِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ودِينِه، إمَّا لتقويةِ إيمانِه أو لحاجةٍ أو لإقامةِ حُجَّةٍ على خَصْمِه المعارِضِ له في الحقّ، كما جَرى لسعيدِ بنِ زيدٍ وسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ لمَّا دَعَوَا على مَن رَماهُما بخلافِ الحقّ، فأجابَ اللَّهُ دَعْوَتَهما، والكرامةُ في الحقيقةِ مِن معجزاتِ ذَلِكَ النَّبيّ الذي اتَّبعَهُ ذَلِكَ المؤمنُ الذي وقعتْ له تِلكَ الكرامةُ، كما قال بعضُ العلماءِ: كُلُّ كرامةٍ لوليّ فهي معجزةٌ لنَبِيّه؛ لأنها لم تَقَعْ له إلاَّ بسببِ اتّباعِه له،** أمَّا إذا وَقَعت الخارِقةُ على يدٍ مُعرِضٍ عن الشَّرعِ صادٍّ عن الحقّ مُتلَبّسٍ بالمعاصي فما وقَعَ مِن الأحوالِ الشَّيطانيَّةِ التي تَصُدُّ بها الشَّياطِينُ النَّاسَ عن اتّباعِ الحقّ، **فإنَّ الشَّياطِينَ تَعملُ كُلَّ حيلةٍ لإضلالِ النَّاسِ وصَدّهم عن الحقّ، وتَدخُلُ الأصنامَ وتُكَلّمُ عُبَّادَها وتَحكُم بينهم، وقد تَقْضِي لأوليائِها بعضَ الحاجاتِ، وقد تَرفَعُ بعضَهم في الهواءِ ثم تُعيدُه، ولا سيّما في الرَّقْصِ واللَّعِبِ، وقد تَنْقُلُ بعضَ عُبَّادِها إلى بلدةٍ بعيدةٍ ثم تُرْجِعُه، أو إلى عرفاتٍ وقتَ الحجّ ثم تُعيدُه، كما ذَكَرَ ذَلِكَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ في كتابِ (الفُرقانِ بين أولياءِ الرَّحمنِ وأولياءِ الشَّيطانِ).**

ومن الكرامات المأثورة عن سالِفِ الأُمَمِ ما ذَكَرَ اللَّهُ تعالى في كتابِه عن حَمْلِ مَريمَ بلا زوجٍ، ووجودِ فاكهةِ الشّتاءِ عندَها في الصَّيفِ وبالعكس، وإحضارِ آصفِ بنِ برخيا عَرشَ بَلقِيسَ في لحظةٍ مِن مسيرةِ شهرٍ، وكما ذَكَرَ سُبْحَانَهُ في سورةِ الكهفِ عن أصحابِ الكهفِ أنَّهم بَقُوا ثلاثمائةِ سَنةٍ، فإنَّ بقاءَهُم ثلاثمائةِ سَنةٍ بلا آفةٍ مِن أعظمِ الخوارقِ، **وكالمأثورِ عن صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ**، أي: أوَّلِها، وصَدْرُ كُلّ شيءٍ أوَّلُه،وهم الصَّحابةُ رضي الله عنهم، كما في

قصةِ العلاءِ بنِ الحضرميّ وأصحابِه حين مَشَوْا على الماءِ، وكرُؤيةِ عُمرَ لجيشِ سارية وهُوَ على المنبرِ في المدينةِ وندائِه لأميرِ الجيشِ وهُوَ بنَهاوندَ وقد كادوا أن يهزموا: يا ساريةَ الجبلَ، تحذيراً له مِن العدوِّ مع بُعدِ المسافةِ، فسمعوا صوته وهو بالمدينة وهم بالمشرق وأخذوا بتوجيهه فنصرهم الله وكشُربِ خالدِ بنِ الوليدِ السُّمَّ مِن غيرِ أنْ يَحصُلَ له منه تَضرُّرٌ به، وكجَريانِ النِّيلِ بكتابِ أميرِ المؤمنينَ عُمرَ، إلى غيرِ ذَلِكَ مِن كراماتِ الصَّحابةِ التي لا تُحصى.

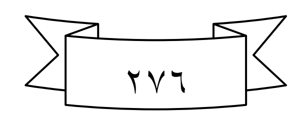
واعلم أن كَراماتِ الأولياءِ لم تنقطع بل لا تَزالُ موجودةً إلى يومِ القيامةِ في جَميعِ أصنافِ أمَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كأهلِ القرآنِ وأهلِ العِلمِ، وفي أهلِ الجِهادِ، وفي التُّجَّارِ والصُّنَّاعِ والزُّرَّاعِ وغيرِهم ممَّن كان صالحِا مُتَّبِعاً لسُنَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ.

ومن ذلك ما رُوِي أَنَّ الحسَنَ تَغَيَّبَ عن الحجَّاجِ فدَخَلُوا عليه سِتَّ مَرَّاتٍ فدعا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فلم يَرَوْه، ودعا على بعضِ الخوارجِ كان يُؤذِيه فخَرَّ ميِّتا، **وصِلةُ بنُ أشيمَ** مات فَرَسُه وهُوَ في الغَزْوِ، فقال: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لمخلوقٍ عليَّ مِنَّةً، ودعا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فأَحْيا له فَرَسَهُ، فلمَّا وَصلَ إلى بَيْتِه قال: يا بُنَيَّ خُذِ سَرْجَ الفَرسِ فإنَّه عاريةٌ، فَأَخَذَ سَرْجَه فماتَ الفَرسُ، وجاءَ مرَّةً بالأحوازِ فدعا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ واستطعَمَه فوقَعَتْ خَلفَه دُوْخلةُ رُطبٍ في ثوبِ حريرٍ فأكَلَ التَّمَرَ وبَقِيَ الثَّوبُ عند زَوجتِه زمانًا، وجاءَه الأسدُ وهُوَ يُصلِّي في غَيضةٍ باللَّيلِ، فلمَّا سَلَّمَ قال له اطُلبِ الرِّزْقَ مِن غيرَ هَذَا الموضِعِ، فولَّى الأسدَ وله زئيرٌ، **وكان سعيدُ بنُ المسيِّبِ** في أيامِ الحرَّةِ يسمعُ الأذانَ مِن قبرِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في أوقاتِ الصَّلواتِ، وكان المسجدُ قد خَلَى فلم يَبْقَ غيرُه، **ولما ماتَ أُويسٌ القرنيّ** وجدوا في ثيابِه أكفانًا لم تكُنْ معه قبلُ، ووَجَدوا له قَبرًا محفورًا فيه لحْدٌ في صخرةٍ فدَفَنوهُ فيه وكَفَّنُوه في تلكَ الأثوابِ، **وكان مُطرِّفُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الشِّخِّيرِ** إذا دخَلَ بيتَهُ سبَّحتْ معه آنيتُه، وكان هُوَ وصاحبٌ له يسيرانِ في ظُلمةٍ فأضاء لهما طَرَفُ السَّوْطِ، **وكذلك صلاةُ أبي مسلمٍ الخولانيّ** ركعتينِ لَمَّا ألقاه الأسودُ العَنْسيُّ في النار، فصارت عليه بَرْدًا وسلامًا، إلى غيرِ ذَلِكَ مِن كراماتِ أولياءِ اللَّهِ التي لا تحصى، ذكر ذَلِكَ الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّين في كتابِه (الفرقانُ) وكتاب (جامع المسائل ١/١٠١) وقال في (الفرقان):" وأمَّا ما نَعْرِفُه نحن عَيانًا ونَعرِفُه في هَذَا الزَّمانِ فكثيرٌ".

مسألة:اختلف الناس في كرامات الأولياء على أربعة أقوال:

١.من غلا في إثبات الكرامة كالصوفية والقبوريين الذين يأتون بخوارق شيطانية كدخول النار أو إدخال السكاكين في البطون ونحوِ ذلك مما يدعيه هؤلاء من التصرفات التي يسمونها كراماتٍ .

والرد عليهم:أن هذا كذبٌ ودجل أو فتنةٌ لهم ولغيرِهم واستدراجٌ فهؤلاء ليسوا أولياءَ الرحمن بل أولياءُ الشيطان لأن الميزانَ في الكرامة حالُ العبد نفسِه .



٢.من نفى الكرامة مثلَ المعتزلة والجهمية ومن ذهب مذهبهم كابن حزم قالوا:إن الخوارقَ لو جاز ظهورها على أيدي الأولياء لالتبس النبيُّ بغيره .

والرد عليهم:أن هناك فرقاً بين النبي والولي وذلك أن الوليَّ لا يدعي النبوةَ ولو ادعاها لخرج من الولاية وصار كاذباً ومن سنة الله أن يفضحَ الكاذبَ كما حصل لمسيلمة الكذابِ .

٣.من ساوى بين معجزة النبي وكرامة الولي وهذا مذهب الأشاعرة .

والرد عليهم:أن آياتِ ومعجزاتِ الأنبياء خارقةٌ لعادة الجن والأنس جميعاً أما كراماتُ الأولياءِ فهي خارقة لعادة الناس في زمنٍ معينٍ .

٤.من وقف على النصوصِ فأثبت الكراماتِ على مقتضى النصوص وهذا مذهب أهل السنة والجماعة .

فائدة:قال أهلُ العلم:إن كثرة الكرامات بعد القرون المفضلة راجعٌ لضعف الإيمان عند الناس فيحتاجون إلى ما يقوي إيمانهم، أو نحوِ ذلك فليست دليلاً على أنهم أفضلُ من القرون المفضلة .

فائدة:أهل البدع ليسوا بأهل كرامات وإنما عندهم أحوالٌ شيطانيةٌ لكن ذكر أهل العلم أنه قد تحصل لهم كراماتٌ في حالة واحدة وهي حالةُ قتال الكفار والمشركين فهنا قد يُكرمون بكرامات لكن هذه الكراماتِ التي يكرمون بها ليست لأشخاصهم لكن لما حملوا من أصلِ الدين وهو الإسلامُ فيكون إعطاؤُهم ذلك لأجل إظهار أن اللهَ أيدَ من هو على الإسلام ولو كان مبتدعاً على من هو على الكفر . (انظر النبوات لابن تيمية) .

مسألة: ذكر أهل العلم أن الخضرَ علمه الله مالم يكن يعلم وقصته معروفة لكن اختلف العلماء في نبوته على قولين:

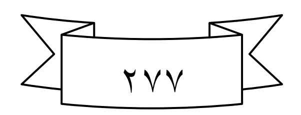
القول الأول:أنه نبيٌّ لقوله تعالى:(وما فعلته عن أمري) ذكره ابن عطية والقرطبي والحافظ في (الإصابة) والعيني في (عمدة القارئ) ونسبه للجمهور واختارته اللجنة الدائمة برئاسة الشيخ ابن باز رحم الله الجميع .

القول الثاني:أنه وليٌّ وليس بنبي وبه قال البغويُّ وقال:إنه قولُ أكثر أهل العلم وهو ظاهر اختيارِ ابنِ القيم في (أحكام أهل الذمة) وجزم به السعديُّ في تفسيره واختاره ابنُ عثيمينَ كما في تفسيره لسورة الكهف وهو الراجحُ .

....

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيثُ قَالَ:(عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)

....



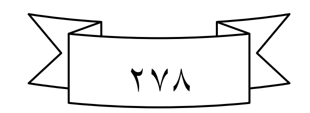
طريقة أهل السنة والجماعة في تلقي الأحكام ترجع إلى ثلاثة مصادرَ أصليةٍ:

١.الكتابِ. ٢.السنةِ وهي ثلاثةُ أقسام قوليةٌ وفعليةٌ وتقريريةٌ. ٣.الإجماعِ . ٤. القياس على الراجح وهو آخرها رتبةً.

ومن من منهج أهل السنة والجماعة اتباع آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ظاهرا في الجوارح والألفاظ وباطنا في ما يتعلق بأعمال االقلوب كالإخلاص في العمل ونحوِ ذلك وهذا فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا بدَّ مِن الإخلاصِ في القول والعَملِ، وأنَّ ما لا يُرادُ بهِ وجْهُ اللَّهِ فليس لعامِلِه فيه ثوابٌ، كما أنَّ كُلَّ عَملٍ لا يكونُ عليهِ أمرُ اللَّهِ ورسولِه فهو مردودٌ على عامِلِه .

والمراد بآثار النبي عليه الصلاة والسلام المتبعة عندهم هي:ما أُثِرَ عنه ورُوِي عنه مِن قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، **وليس المرادُ آثارُه الحسِّيَّةُ** كمواضعِ نومِهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وجُلوسِه وقيامِه ونحوِ ذَلِكَ، فلا ينبغي تَتَبُّعُ ذَلِكَ؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى الفِتنةِ بتِلكَ المواضعِ، وربما آلَ إلى جَعلِها مَعَابِدَ، ولذَلِكَ قَطعَ عمرُ بنُ الخطابِ الشَّجرَةَ التي بايعَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ تحتها الصَّحابةَ لما بَلَغَه أنَّ أُناسًا يَذْهَبون إلى شجرةٍ فيُصلُّون تحتَها، ونَهَى عن اتِّباعِ آثارِهِ الحسِّيَّةِ، وقال: إنَّما هَلَكَ مَن كان قَبلَكُم باتِّباعِ آثَارِ أنبيائِهم، **وأمَّا ما كان يَفعلُه ابنُ عمرَ مِن تَتبُّعِ آثارِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ** حتى إنَّه بَالَ في الموضعِ الذي بالَ فيه رسولُ اللَّهِ، **فقد خَالَفُه أبوه وجمهورُ الصَّحابةِ**، والصَّوابُ معهم حَسْما لموادِّ الشِّرْكِ، وسَداً للذَّرائعِ التي تُوصِلُ إليه، **والإسلامُ مَبْنِيٌّ على أصْلَيْنِ**: أنْ لا نَعبُدَ إلاَّ اللَّهَ، وأنْ نعبدَه بما شَرَعَ لا نَعبدُه بالبِدَعِ، وقد تقدَّمَ ذِكرُ ذَلِكَ.

والأمر بالإتباع دل عليه الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة قال اللَّهُ تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسول فَخُذُوهُ) وقال: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) وقال: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) وعن أنسٍ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَ جِئْتُ بِهِ))، إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدلة التي فيها الأمرُ باتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ والوعيدِ الشَّديدِ في الإعراضِ عن هَدْيِهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، وكُلُّ قولٍ أو عَملٍ يُخالِفُ ما عليه النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُه فهُوَ باطلٌ مردودٌ على فاعلِه كائناً مَن كان، كما في الصَّحيحِ مِن حديثِ عائشةَ رضي اللَّهُ عنها أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) فاتِّباعُ الرَّسولِ شَرطٌ لصحَّةِ العملِ، كما قال تعالى: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) قال الفُضيلُ بنُ عياضٍ: أي: أَخْلصَهُ وأَصْوَبُه، قيل: يا أبا عليٍّ ما أَخْلَصُه وأصوبُه؟ قال: إنَّ العَملَ إذا كان خَالِصاً ولم يكُنْ صَواباً لم يُقبلْ، وإذا كان صَواباً ولم يكُنْ خالِصاً لم يُقْبلْ، حتى يكونَ خالِصاً صواباً، والخالِصُ أنْ يكونَ لِلَّهِ، والصَّوابُ أنْ يكونَ على سُنَّةِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، وقد اتَّفقَ المسلمونَ على أنَّ حُبَّ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لا يتحقَّقُ إلاَّ باتِّباعِ آثارِه، والتَّسليمِ لما جاء به، والعملِ



على سُنَّتِه وتَرْكِ ما خَالَفَ قوْلَه، كما قال تعالى: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ) ، ومَنْ زعم أنّه يَأخُذُ عن اللّهِ بدُونِ واسطةِ رُسلِه وأنبيائِه فهُوَ كافرٌ، أو زعم أنَّه يَصِلُ إلى حدٍّ تَسقُطُ عنه التَّكاليفُ الشَّرعِيَّةُ، أو أنَّه يَسَعُه الخروجُ عن شريعةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ كما وَسِعَ الخَضِرَ الخروجُ عن شريعةِ موسى، أو أنَّه مُحتاجٌ إلى مُحَمَّدٍ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ في عِلمِ الظَّاهرِ دُونَ عِلمِ الباطنِ، أو في عِلمِ الشَّريعةِ دُونَ عِلمِ الحقيقةِ، أو أنَّ هَدْيَ غيرِ مُحَمَّدٍ أحْسنُ مَن هَدْيِهِ فهُوَ كافرٌ باللّهِ العظيمِ.

وقد اتَّفقَ مَن يُعتدُّ بِهِ مِن أهلِ العِلمِ على أَنَّ السُّنَّةَ المطَهَّرَةَ مُستقِلَّةٌ بتشريعِ الأحكامِ، وأنَّها كالقرآنِ في التَّحليلِ والتَّحريمِ وغيرِ ذَلِكَ، وقد ثَبَتَ عنه صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قال: ((أَلاَ وَإِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ))، وما رُوِي مِن الأمرِ بعَرْضِ الأحاديثِ على القرآنِ، فقال يحيى بنُ مَعينٍ:" إنَّه موضوعٌ وَضَعَتْهُ الزَّنادِقةُ"، وهُوَ مخالِفٌ لقولِه تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ...).

ومن أصولِ أهلِ السُّنَّةِ اتِّباعُ سبيلِ السَّابِقينَ من المهاجرين والأنصار ومن نحى نحوهم والسَّيْرُ على منهاجِهم، لما خَصَّهُم اللّهُ بِهِ مِن العِلمِ والفَضلِ والفِقهِ عن اللّهِ ورسولِه، فقد شَاهدوا التَّنزيلَ وسَمِعوا التَّأويلَ وتَلَقَّوْا عن الرَّسولِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ بلا واسطةِ أحدٍ، فهم أحقُّ بإصابةِ الصَّوابِ وأَجْدَرُ باتِّباعِ السُّنَّةِ والكتابِ.

قال عبدُ اللّهِ بنُ مسعود رضي الله عنه: "مَن كان منكم مُسْتناً فَلْيَسْتَنَّ بمَن قد ماتَ فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنةُ، أولئكَ أصحابُ مُحَمَّدٍ أَبَرُّ هَذهِ الأمَّةِ قُلوباً وأَعْمقُها عِلْماً وأَقَلُّها تَكلُّفا، قومٌ اختارَهُم اللّهُ لصُحبةِ نبِّيه وإقامةِ دِينِه، فاعْرِفُوا لهم حقَّهم وتَمسَّكُوا بِهَدْيِهم، فإنَّهم كانوا على الهُدى المستقيم".

فخيرُ قلوبِ العِبادِ أحقُّ الخَلقِ بإصابةِ الصَّوابِ، فكُلُّ خيرٍ وإصابةٍ إنَّما عُرِفَ ووَصَل إلينا عن طريقهم رضي اللّهُ عنهم.

وأكثرُ العلماءِ على أنَّ أقوالَ الصَّحابةِ حُجَّةٌ يَجِبُ اتِّباعُها، ويَحرُمُ الخُروجُ عليها حَيْثُ لا نَصَّ نَبويٌّ،

ويدل على ذلك وصية النبي عليه الصلاة والسلام في حديث العِرباضِ بنِ ساريةَ رضي اللّهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ- قال: ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) رواهُ الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والتِّرمذيُّ، وابنُ ماجهْ، وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ.

وفي هَذَا الحديثِ: **الحثُّ على التَّمسُّكِ** بسُنَّةِ رسولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلّم **وقَرْنُ سُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ بسُنَّتِه،** ووجوبُ اتِّباعِها مع عَدمِ وجودِ سُنَّتِه، **وفيه أنَّ للخلفاءِ سُنَّةً، وأَنَّ الأَخْذَ بها واتِّباعَها رشادٌ وهُدًى، وفيه أنَّ ما سَنَّهُ الخلفاءُ الرَّاشِدُونَ أوْ أحَدُهُم حُجَّةٌ لا يجوزُ العُدولُ عنها، بخلافِ غيرِهم مِن ولاةِ الأمورِ،** ولحديثِ: ((اقْتَدُوا بِاللَّذِينِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ)) **ولو لم تَقُم الحُجَّةُ بقولِهم لَمَا أُمِرْنَا باتِّباعِهم، وهَذَا القولُ هُوَ الحقُّ.**

والخلفاءِ الرَّاشدِينَ هم: أبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ، كما في حديثِ سَفينةَ: ((الخِلاَفَةُ بَعْدِي ثَلاَثُونَ سَنَةً ثُمَّ تكُونُ مُلْكاً عضوضاً)) رواه أحمدُ وصحَّحهُ ورواه غيرُه، **وإنَّما وُصِفَ الخلفاءُ بالرَّاشدِينَ؛ لأنَّهم عرَفوا الحقَّ وقضَوْا به.**

والمراد (**بالمَهْدِيِّينَ**) الذين هداهم الله إلى الحق ولم يضلوا، **فالأقسامُ ثلاثةٌ كما قال ابن رجب رحمه الله: راشِدٌ وغاوٍ وضالٌّ، فالرَّاشِدُ** عَرَف الحقَّ واتَّبعَه، **والغاوي** عَرَفه ولم يَتَّبِعْه، **والضَّالُّ** لم يَعْرِفْه بالكُلِّيَّةِ.

وقولُه: (**تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**) هَذَا كنايةٌ عن شِدَّةِ التَّمَسُّكِ بها، والنَّواجِذُ: آخِرُ الأضراسِ.

وقولُه: (**وإياكم مُحْدَثَاتِ الأمور**...) المحدثات:بضمِّ الميمِ وسكونِ الحاءِ جمعُ مُحْدَثةٍ، والمرادُ بها البِدعُ، **والبِدعةُ لغةً:** كُلُّ شيءٍ عُمِلَ على غيرِ مِثالٍ سابِقٍ، **وأمَّا البِدعةُ الشَّرعِيَّةُ فهي** مالم يَدُلَّ عليه دليلٌ شرعيٌّ، وقال الشاطبي في (الاعتصام):طريقة مخترعة في الدين تضاهي الشرعيةَ يقصد بها المبالغةُ في التعبد لله، **فلفظُ البدعةِ في اللُّغةِ أعمُّ مِن لفظِ البدعةِ في الشَّريعةِ.**

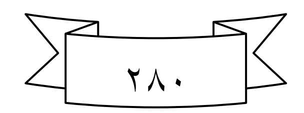
وهَذَا الحديثُ دلَّ على التَّحذيرِ مِن البدعِ، والرَّدِ على مَن زَعَم تقسيمَ البدعةِ إلى حسنةٍ وقبيحةٍ، وأما قولُ عُمرَ (نِعْمَتْ البِدْعَةُ) فهو يقصد البدعةَ اللغويةَ إذ هذه الصلاة عملٌ على غير مثال سابق في عهده وليست بدعةً شرعيةً لأن النبي ﷺ صلى بهم لياليَ من رمضانَ، فأَصْلُ صلاةِ التَّراويحِ مشروعةٌ حيث صَلاَّهَا الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بأصحابِه ثم تَرَكَها لما خَشِيَ أنْ تُفْرَضَ عليهم، **وتَنقسِمُ البدعةُ إلى قسمَيْنِ:**

الأولى:بدعةُ اعتقادٍ، وهُوَ اعتقادُ خلافِ ما أخبرَ بِهِ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كقولُه: ((سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثِلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةٌ)) قالوا: مَن هي يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: ((مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)).

الثَّانيةُ: بدعة عمل، وهُي التَّعبُّدُ بغيرِ ما شَرعَ اللَّهُ ورسولُه، فمَن تَعبَّدَ بغيرِ الشَّرعِ أو حَرَّمَ ما لم يُحرِّمْه الشَّارعُ فهُوَ مبتدِعٌ، والبِدعتانِ غالباً متلازِمتانِ، قلَّ أنْ تَنفكَّ إحداهما عن الأُخرى.

قال ابنُ دقيقِ العِيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" اعلمْ أَنَّ المحْدَثَ على قسمين: مُحْدَثٌ ليس له أصلٌ مِن الشَّريعةِ فهَذَا باطلٌ مذمومٌ، ومُحْدَثٌ يَحْملُ النَّظِيرَ على النَّظِيرِ فهَذَا ليس بمذمومٍ؛ لأنَّ البِدعةَ ولفظَ المحْدَثِ لا يُذَّمانِ لمجرَّدِ الاسمِ، بل لمعنى مخالَفةِ السُّنَّةِ، والدَّاعي إلى الضَّلالةِ، ولا يُذَّمُ ذَلِكَ مُطلَقا، فقد قال سُبْحَانَهُ: (مَا يَأْتِيهِمْ مِن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُحْدَثٍ...)، وقال عُمرُ: نِعْمَت البِدعةُ هَذِهِ – يعني التَّراويحَ ".

قالَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ بنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**وأَصْلُ ضَلالِ أهلِ الأرضِ إنَّما نشأ مِن هذين: إمَّا اتِّخاذُ دِينٍ لم يُشَرِّعْه اللَّهُ، أو تَحريمُ مالم يُحَرِّمْه اللَّهُ، ولهَذَا كان الأصلُ الذي بَنَى عليه الإمامُ أحمدُ وغيرُه مِن الأئمَّةِ مَذَاهِبَهم**



أنَّ أعمالَ الخَلقِ تَنقسِمُ إلى عِباداتٍ يتَّخِذُونَها، وإلى عاداتٍ يَنْتَفِعون بها في معائِشِهم، فالأصلُ في العباداتِ أنْ لا يُشْرَعَ إلا ما شَرَعَه اللهُ ورسولُه، والأصلُ في العاداتِ أنْ لا يُحْظَرَ منها إلاَّ ما حَظَرَه اللهُ".

قال العلماءُ رَحِمَهُم اللهُ: العباداتُ مَبناهَا على التَّوقِيفِ والاتِّباعِ لا على الاختراعِ والابتداعِ، فالأصلُ في العباداتِ التَّحريمُ إلاَّ ما شَرَعَه اللهُ ورسولُه، ولهَذَا يُشترَطُ للعبادةِ شرطانِ: الإخلاصُ والمتابعةُ، كما في الصَّحيحِ مِن حديثِ عائشةَ -رضي اللهُ عنها- عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) أيْ: مَرْدُودٌ كائِنا ما كان، وفي صحيحِ مسلمٍ عن جابرٍ رضي اللهُ عنه أنَّه كان يقولُ في خُطبتِه: ((إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ)) وفي روايةِ النَّسائيّ: ((وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ)) وقال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: ((اتَّبِعُوا ولا تَبْتَدِعوا فقد كُفِيتُم))، وقال الأَوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: ((عليكَ بآثارِ مَن سَلَفَ وإنْ رَفَضَكَ النَّاسُ، وإيَّاكَ وآراءَ الرِّجالِ وإنْ زَخْرَفُوه لكَ بالقولِ)) إلى غيرِ ذَلِكَ من الأدِلَّةِ على تحذيرِ الأمَّةِ مِن اتِّباعِ الأمورِ المحْدَثةِ المبتدَعَةِ.

وقد غَلِطَ مَن زَعَم أنَّ طريقةَ السَّلَفِ أَسْلَمُ وطَرِيقةُ الخلَفِ أَعْلَمُ وأَحْكَمُ، فإنَّ هَذَا القائلَ لم يَعْرِفْ قَدرَ السَّلَفِ،إذ كَيْفَ يكونُ هؤلاء الْمَحْجُوبونَ الْمَنْقُوصونَ الحَيَارى أَعْلَمَ باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه وأحكامِه مِن السَّابِقينَ الأوَّلين والأنصارِ، والذين اتَّبعُوهم بإحسانٍ مِن وَرَثةِ الأنبياءِ الذين وَهَبهُم اللهُ عِلمَ الكِتابِ والحكمةِ وأَحاطوا مِن حقائِقِه ومعارِفه ما عَجَزَ أولئكَ عَن فَهْمِ مَعانيه وإدراكِه، ثم كَيْفَ يكونُ خيرُ قرونِ هَذِهِ الأمَّةِ أَنْقَصَ في العِلمِ والحكمةِ لا سيَّما العِلمُ باللهِ وأحكامِ أسمائِه وصفاتِه وآياتِه مِن هؤلاء الأصاغرِ المنقُوصِين الحيَارى المتَهَوِّكِين؟!

وهنا مسائل مهمة :

المسألة الأولى:وإن كنا قد أشرنا إليها وهي أنه قد اختلف العلماء في معنى سنة الخلفاء الراشدين هل المقصود بها ما أجمعوا عليه أو ما سنه أحدُهم منهم وقَبِلَهُ الصحابةُ في زمنه على قولين:

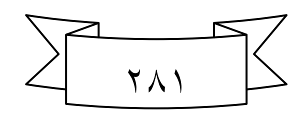
القول الأول:أن المعنى ما أجمعوا عليه وهو قول كثير من أهل العلم .

القول الثاني:أن المعنى ما سنه أحدُهم وقَبِلَهُ الصحابة في زمنه وهو الأقرب لأن القول الأولَ ينتج عنه تعطيلُ السنة حتى تنقضيَ مدةُ الخلفاء الأربعة الراشدين ولهذا أخذ أهلُ السنة بكثير من سنن الخلفاء وأقروها وهي لم تكنْ في زمن النبي ﷺ كصلاة التراويح والدواوينِ في زمن عمرَ والأذانِ الأول للجمعة في زمن عثمان ونحوِ ذلك .

المسألة الثانية:ما الحكم فيما لو خالف الصحابةُ نصًّا من الكتاب أو السنة ظاهراً ؟

نقول هذا على نوعين:

النوع الأول:أن يتفقوا على رأيٍ معين فهنا يلزمنا الأخذُ به لأن هذا الرأيَ هو مقتضى فهمِهِمْ للنصوص مثلَ قطعِ يد السارق في ظاهر النص تقطع اليدُ كلُّها لكنَّ اتفاقَهم على أنها من الْمِفْصَلِ .



النوع الثاني:أن يقع الخلافُ بينهم فمنهم من يأخذ بظاهر النص ومنهم من يخالفه فالعبرة بظاهر النص وهذا هو مطلقُ فهم ابن عباس عندما قال: أقول لكم: قال رسول الله ﷺ وتقولون:قال أبو بكر وعمرَ، مع أن أبا بكر وعمرَ أفضلُ الأمة وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة في هذين القسمين .

المسألة الثالثة :ذكر أهل العلم أن هناك ضابطاً يبين العمل المبتدع والعملَ المخالفَ للسنة وهو أن العملَ المبتدعَ ما الْتَزَمَ به فاعله وواظب عليه فيقال عن عمله بأنه بدعة، أما المخالفُ للسنة فهو أن يعمل عملاً مخالفاً للسنة لكنه من غير التزام ولا مواظبة فهذا يقال عنه مخالف للسنة وهذا التفريقُ يدل عليه تعريفُ الشاطبي للبدعة حيث قال:طريقةٌ وهذا يدل على أنه صار ملتزماً بها .

المسألة الرابعة: ما ورد عن بعض أهل العلم من تقسيم البدعة إلى سيئة وحسنة لا يصح لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال (كل بدعة ضلالة) وهذا يدل على العموم وأول من ذهب عرف بهذا التقسيم العز بن عبد السلام رحمه الله.

....

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الاِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ .

....

كُلُّ ما أَخْبَرَ بِهِ سُبْحَانَهُ صِدقٌ وحَقٌّ لا مِرْيةَ فيه، قال تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً) ويقول: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) وقال: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً) وعن جابرٍ رضي اللَّهُ عنه قال: كان رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ إذا خَطبَ احمرَّتْ عيناهُ وعلا صَوتُه واشتدَّ غَضَبُه حتى كأنَّه مُنذِرُ جيشٍ يقولُ: ((صبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، ويقولُ: أَمَّا بَعْدُ فِإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ)) رواه مسلمٌ.

والهَدْيُ: بفتحِ الهاءِ وسُكونِ الدَّالِ: السَّمتُ والطريقةُ والسِّيرةُ، وقُرِئَ بالضَّمِّ أي: الدلالةُ والإرشادُ، والمرادُ تفضيلُ دِينِه وسُنَّتِه على سائرِ الأديانِ والسُّنَنِ، فدِينُه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أكملُ الأديانِ على الإطلاقِ، وشريعَتُه أفضلُ الشَّرائعِ اختارَها اللَّهُ لخِيرتِه مِن خَلقِه، ولهَذا المعنى الذي ذَكَرْناهُ كان كُلُّ عاقلٍ مِن اليهودِ والنَّصارى كما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: يَعترِفُ بأنَّ دِينَ الإسلامِ حقٌّ، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللَّهِ، وأنَّ مَن أطاعَه منهم دخَلَ الجَنَّةَ، بل كثيرٌ منهم يَعترِفون بأنَّ دِينَ الإسلامِ خيرٌ مِن دِينِهم كما أطبقَتْ على ذَلِكَ الفلاسفةُ، كما قال ابنُ سِينا: "أَجْمَعَ

فلاسِفةُ العالِمِ على أنَّه لم يَطْرُق العالَمَ ناموسٌ أَعْظمُ مِن هَذَا النَّاموسِ"، ولا شكَّ أنَّ هَذِهِ الشَّريعةَ العظيمةَ الكامِلةَ مِن دلائلِ نُبوَّتِه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، وَكَذَلِكَ أخلاقُه وأقوالُه وأفعالُه وسِيرتُه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كُلُّها مِن آياتِه ودلائلِ نبوَّتِه، فقد جَبَلَه اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وتعالَى- على أجملِ الأخلاقِ وأزْكاها، واختارَ له أَفْضَلَها وأَوْلاَها، وأخلاقُه مُقتَبَسةٌ مِن القرآنِ، كما قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) وقد خرَّجَ الإمامُ أحمدُ في مسنَدِه مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ)).

وقولُه: **(ويُؤْثِرونَ كلامَ اللَّهِ على كلام غيره من كلام اصناف الناس)**

أي: أن أهل السنة يُقدِّمونَ كلامَ اللَّهِ على كلامِ غيرِه مِن خَلقِه كائنا مَن كان، ولا يَعدِلون عنه ولا يُعارِضُونه بمعقولٍ ولا قولِ فلانٍ، فإنَّه الفُرْقانُ، المفرِّقُ بين الحقِ والباطِلِ، والنَّافعِ والضَّارِّ، ولا نجاةَ إلاَّ بالتَّمسُّكِ بما جاء في كتابِه، فإنَّه الشِّفاءُ والنُّورُ والحياةُ الحقيقيَّةُ، قال اللَّهُ تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ) قال قتادةُ والسُّدِّيُّ وكثيرٌ مِن أهلِ التَّفسيرِ: هُوَ القرآنُ، وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في القرآنِ: (هُوَ حَبلُ اللَّهِ المتِينُ،، وهُوَ الذِّكرُ الحكيمُ، وهُوَ الصِّراطُ المستقيمُ، وهُوَ الذي لا تَزِيغُ بِهِ الأهواءُ، ولا تَختلِفُ بِهِ الألسِنةُ، ولا يَشبَعُ منه العُلماءُ، ولا يَخْلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ، ولا تَنْقضِي عجائبُه، مَن قال بِهِ صَدَقَ، ومَن عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، ومَن حَكمَ بِهِ عَدَلَ، ومَن دَعى إليه هُدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ) وإسناد هذا الأثر لايصح لكن الأثر معناه صحيح، وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنهما قال:" جَمَعَ اللَّهُ في هَذَا الكتابِ عِلمَ الأوَّلِين والآخِرين، وعِلمَ ما كان، وعِلمَ ما يكونُ، والعِلمَ بالخالِقِ أمْرَه وخَلْقَه". أَخرَجَه ابنُ رزينٍ، وقال تعالى: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)، والرَّدُّ إليه هُوَ الرَّدُّ إلى كتابِه، والرَّدُّ إلى الرَّسولِ هُوَ الرَّدُّ إليه في حياتِه، والرُّجوعُ إلى سُنَّتِه بعد وفاتِه، هَذَا معناهُ بإجماعِ المفسِّرين، فيجِبُ الرُّجوعُ إلى كتابِ اللَّهِ وسُنَّةِ رسولِه، ولا يجوزُ العُدولُ عنهما ولا مُعارَضتُها ولا الاعتراضُ عليهما، ففيهما غايةُ البُغيَةِ وفَصْلُ النِّزاعِ، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ).

ومن زَعَمَ أَنَّ الشَّريعةَ قاصِرةٌ، وأنَّها لا تُسايِرُ الزَّمَنَ، وأنَّه يُسَوَّغُ له سَنُّ النُّظُمِ والتَّعليماتِ لكُلِّ زمانٍ بما يُناسِبُه على زَعْمِه، أو زعَمِ أَنَّ النُّظُمَ الأفرنجيَّةَ أَحْسَنُ مِن نظامِ الشَّريعةِ، أو نحوِ ذَلِكَ مِن الأقوالِ فهُوَ زنديقٌ.

وقولُه: **(ولهَذَا سُمُّوا أهلَ الكِتابِ والسُّنَّةِ)** وَذَلِكَ لاتِّباعِهم وتمسكهم بالكتابِ والسُّنَّةِ الثَّابتةِ عن نَبِيِّهم، والأَخْذِ بهما وتَحكيمِهما في القليلِ والكثيرِ،وتقديمِهما على قولِ كُلِّ أحدٍ كائنا مَن كان، **بخلافِ الخوارجِ والمعتزلةِ والرَّوافضِ** ومَن وافقَهم في بعضِ أقوالِهم، فإنَّهم لا يَتَّبِعونَ الأحاديثَ التي رَواها الثِّقاتُ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فالمعتزِلَة يقولون هَذِهِ أخبارُ آحادٍ، والرَّافِضةُ يَطعَنونَ في الصَّحابةِ ونَقْلِهم، والخوارجُ يقولُ قائلُهم: اعْدِلْ يا مُحَمَّدُ فِإنَّكَ لم تَعدِلْ، فيُجوِّزون على النَّبيِّ أنَّه يَظْلِمُ.

وقولُه: (**وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الِاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ**) : سموا بذلك لاجتماعِهم على آثارِ الرَّسولِ، ولم يفرقوا دينهم وكانوا شِيعا، وقد برَّأَ اللَّهُ نبيَّه ممن هذه حاله، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...) ، قال في المِرقاةِ: المرادُ بالجماعةِ أهلُ الفِقهِ والعِلمِ الذين اجتمَعُوا على اتِّباعِ آثارِه –صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ– في النَّقِيرِ والقِطْميرِ، ولم يَبتدِعوا بالتَّحريفِ والتَّغييرِ، وقال بعضُ العلماءِ: المرادُ بالجماعةِ مَن كان على الحقِّ وَلَوْ واحدًا، وَذَلِكَ لأنَّ الحقَّ هُوَ ما كان عليه الجماعةُ في الصَّدْرِ الأوَّلِ، وقد تكاثَرت الأدِلَّةُ في الحثِّ على الاجتماعِ والنَّهْيِ عن التَّفرُّقِ والاختلافِ، قال تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ) وورَدَ عن النعمان بن بشير مرفوعاً: ((الجَماعةُ رحمةٌ والفُرقةُ عذابٌ)) رواه أحمد والبيهقي وصححه الألباني.، وورَدَ عن ابنِ مسعودٍ أنَّه قال: ((الخِلافُ شَرٌّ)) وحديثُ: ((إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، **وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثَةٍ وَسَبْعِينَ** مِلَّةً ...))

وينقسمُ الاختلافُ إلى قسمين:

اختلافُ تَنَوُّعٍ، واختِلافُ تضادٍّ، فالأوَّلُ هُوَ ما يكونُ القَوْلانِ أو الفِعْلانِ مَشْروعينِ كما في أَنواعِ الاستفتاحاتِ، وأنواعِ القِراءاتِ، والأذانِ، ونحوِ ذَلِكَ ممَّا قد شُرِعَ جَميعُه، وأمَّا اختلافُ التَّضادِّ فهما القولانِ المتنافِيانِ إمَّا في الأصولِ أو في الفُروعِ.

مسألة:ما حكم إحداثِ الأسماء التي فيها انتساب إلى شيءٍ ما غيرَ اسمِ المسلم والمؤمن ؟

ج:أنه جائزٌ بشرط عدم التعصب لأن التعصبَ للأسماء جاهليةٌ حيث أن فيه انتصاراً للنفس والهوى والدليلُ على جوازه تسميةُ الله للمهاجرين بأسمائهم وكذا الأنصارُ:﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ والدليل على منعه حالَ التعصب ما ورد في حديثُ جابرٍ ﷺ من أن بعض الأنصار والمهاجرين عندما حصل بينهم بعض الخلاف قال أحد الأنصار: يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ:يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:(مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ)وقال:(دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ). وورد قول أحدهم:يا لَلأوسِ وقولُ الآخر:يا لَلْخَزْرَجِ فهذا ممنوع إذا كان من باب التعصب والعكس بالعكس إذا لم تكن هناك مفسدة ومن جنس التسميةُ الجائزة التسمية بالحنابلة والشافعية والحنفية والمالكية.

....

وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدين . وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِه الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّين .

وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلاَفُ، وَانْتَشَرَ فِي الأُمَّةِ .

....

هذا هو المصدر الثالث من مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة ألا وهو الإجماعُ وهو في **اللغة:** العزم، كما قال سُبْحَانَهُ (فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ) **واصطلاحًا:** "هُوَ اتِّفاقُ علماءِ العصرِ مِن الأمَّةِ بعد النبي عليه الصلاة والسلام على أمْرٍ دِينِيّ" وهُوَ حُجَّةٌ قاطِعةٌ يَجِبُ العَملُ بِهِ عندَ الجمهورِ، وأنْكرَه بعضُ المبتدِعَةِ مِن المعتزِلةِ والشِّيعةِ، والدَّليلُ على حُجِّيَّةِ الإجماعِ قولُه تعالى: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) قال الشافعي:"الحجة كتابُ الله وسنةُ نبيه واتفاقُ الأئمة" .

وعن أبي ذَرٍّ مرفوعا: ((مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْراً فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ)) رواهُ أحمدُ، وأبو داودَ والترمذي وصححه.

واعلم أن اتفاق عوام الناس على أمر من الأمور ليس دليلا على أحقيته ؛ لأن العبرة بأهل العلم ، لا العامة والجهلاء .

قال أَبُو عِيسَى الترمذي في سننه : " وَتَفْسِير الْجَمَاعَة عند أهْل العلم : هم أَهْل الفقه والعلم والحديث ".

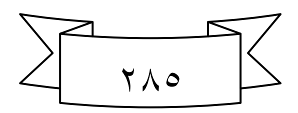
قال الشاطبي : " ولا خلاف أنه لا اعتبار بإجماع العوام". انتهى "(الاعتصام" (١ / ٣٥٤)

والإجماع (**هُوَ الأصلُ الثَّالِث**) من أصول التلقي عند أهل الإسلام بعد الكتاب والسنة، ولم يَزَلْ أئمَّةُ الإسلامِ على تقديمِ الكتابِ على السُّنَّةِ، والسُّنَّةِ على الإجماعِ، وجَعلِ الإجماعِ في المرتبةِ الثَّالثةِ؛للأدلَّةِ الكثيرةِ الدَّالَّةِ على عِصمةِ هَذِهِ الأمَّةِ مِن الاجتماعِ على ضلالةٍ.

وأهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ (**يزنون بِهَذه الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّين**) أي: يَعْرِضُونَ جميعَ الأقوالِ والاعتقاداتِ على هَذِهِ الأصولِ الثَّلاثةِ، وَهِيَ الكِتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ ويَجعلونها المعيارُ التي تُوزنُ بِهِ الأعمالُ؛ إذْ لا حُجَّةَ إلاَّ في هَذِهِ الأصولِ المتقدِّمةِ، **وأمَّا القِياسُ ففيه خلافٌ معروفٌ**.

وقولُه: (**مما له تعلُّق بالدِّينِ**) احتراز مِن اتِّفاقِهم على أمْرٍ دُنيويٍّ، كإقامةِ مصنعٍ أو حِرفةٍ أو مَتْجرٍ أو نحوِ ذَلِكَ، فالإجماعُ ليس بحُجَّةٍ فيها؛ لأنَّ الإجماعَ الذي يكون حجة هو ما كان في أحكامِ الشَّرْعِ دُونَ مصالحِ الدُّنْيا، (**والإجماعُ الذي يَنضبِطُ هو مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلاَفُ، وَانْتَشَرَت الأُمَّة**) بِدُونَ نقصٍ ولا خلل، ويُمكِنُ العِلمُ بِهِ هُوَ ما كان عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ من القرون المفضلة **أما بعد ذلك فصار الإجماع لاينضبط لأمور منها :**

١- كثرة الاختلاف بحيث لايمكن الإحاطة بأقوالهم.



٢- انتشار الأمة في أقطار الأرض لاسيما بعد الفتوح. والعِلمُ بحادثةٍ واحدةٍ انتشَرَتْ في جميعِ الأقطارِ، والوقوف على كُلِّ مجتهدٍ وقف عليها ثم إثبات اتفاقهم عليها على قولٍ واحدٍ، هَذَا مما لا تُساعِدُ العادةُ على وُقوعِه، فَضلاً عن العِلمِ به، وهَذَا هُوَ الذي أَنْكَره أحمدُ وغيرُه، لا وقوعَ الإجماعِ.

قال الإسنويُّ: "ولأَجْلِ هَذِهِ الاحتمالاتِ قال الإمامُ أحمدُ: "مَن ادَّعى الإجماعَ فهُوَ كاذِبٌ".

قال أبو المعالي:" والإنصافُ أنَّه لا طَرِيقَ لنا إلى معرفةِ الإجماعِ إلا في زَمَنِ الصَّحابةِ"، وقال البيضاويُّ: إنَّ الوقوفَ عليه لا يَتعذَّرُ في أيامِ الصَّحابةِ، فإنَّهم كانوا قَليلِينَ مَحْصورِين ومُجتمعِين في الحِجازِ، ومَن خَرجَ منهم بَعدَ فتحِ البلادِ كان مَعروفًا في مَوضِعِه، قال عبدُ اللَّهِ بنُ أحمدَ بنِ حنبلٍ: سمعتُ أبي يقولُ:" ما يَدَّعِي فيه الرَّجُلُ الإجماعَ فهُوَ كَذِبٌ، لعلَّ النَّاسَ اختلَفوا، هَذِهِ دَعْوى بِشْرٍ المرِيسِيِّ والأصَمِّ"، فهَذَا هُوَ الذي أنكرَه أحمدُ والشَّافِعِيُّ لا ما يَظُنُّه بعضُ النَّاسِ أنَّه استبعادٌ لوُجودِه.

مسألة:فأن قيل لماذا لم يذكر المصنف القياس مع الأصول الثلاثة التي تعتبر من مصادر التلقي ؟

ج: لأنه القياس محل خلاف معروف ولهذا لم يذكره مع انه يثبته رحمه الله في كتبه الخرى.

....

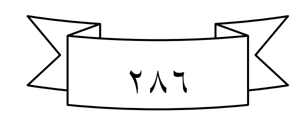
فصل: ثُمَّ هُم مَّعَ هّذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا توجِبُهُ الشَّرِيعَةُ وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ . وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ:(الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا) وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَقَوْلِهِ ﷺ:(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بُا السَّهَر والحمى) .

....

في هذا الفصل تكلم الشيخ رحمه الله عن ما يسمى بمكملات العقيدة، وهي مما يكثر إهماله عند كثير من الناس حتى من بعض من صفى معتقده وسلم توحيده، ولهذا أولى المصنف رحمه الله العناية بها فنص عليها بعد أنهى الكلام على ما تميز به أهل السنة في الاعتقاد وأصول الدين .

ومن هذه الأمور المهمة الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، والمعروفُ:اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح، والمنكرُ:اسمٌ جامعٌ لكل ما يكرهه الله وينهى عنه.

وقد وصف الله جل جلاله المؤمنون بهذا الأمر فقال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)، وقال: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)، وقال تعالى: (وَلْتَكُن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)



وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))

فما تقدَّمَ دَليلٌ على عِظَمِ شأْنِ الدَّعوةِ إلى اللَّهِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، وأنَّهما مِن أعظمِ الواجباتِ، وأصلٌ عظيمٌ مِن أصولِ الشَّريعةِ، ولولا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ لهُدِمَ بُنْيانُ الشَّريعةِ وتداعَى، وعمَّت الفَوْضى وساءت البلادُ، نسألُ اللَّهَ العافيةَ.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: يُشترَطُ في وجوبِ الإنكارِ أنْ يأْمَنَ المنكِرُ على نَفْسِه وأهلِه ومالِه، فإنْ خافَ على نَفسِه السَّيْفَ أو السَّوْطَ أو النَّفْيَ أو نحوَ ذَلِكَ مِن الأذى سَقَطَ عنه أَمْرُهم ونَهْيُهم، فإنْ خافَ السَّبَّ أو سماعَ الكلامِ السَّيِّئِ لم يَسقُطْ عنه الإنكارُ بِذَلِكَ، نصَّ عليه أحمدُ، فإنِ احتمَلَ الأذى وقَوِيَ عليه فَهُوَ أفضلُ، نصَّ عليه أحمدُ أيضًا.

المسألة الثانية: هل يَجِبُ إنكارُ المنكَرِ على مَن عَلِمَ أنَّه لا يُقبلُ منه؟

فيه روايتان عن الامام أحمد:

الأولى: أَنَّ عليه الإنكارَ وصحَّحَ القولَ بوجوبِه لعموم الأدلة وهذا قول الجمهور وهُوَ قولُ أكثرِ الصَّحابةِ كما ذَكَرَه ابنُ رجبٍ.

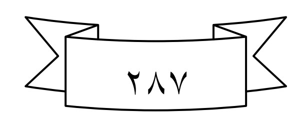
الثانية: أنه لا يجبُ عليه الإنكار وإنما يستحب واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا التذكيرُ لا ينفع القائمَ على المنكر ولا يقبلُه فلهذا لا يجب عليه الإنكارُ .

المسألة الثالثة: هل كل منكر يجب إنكاره ؟

ج: المنكَرُ الذي يجبُ إنكارُه هو ما كان مُجْمَعاً عليه، أمَّا المختلَفُ فيه، فمِن أصحابِنا مَن قال: لا يجبُ إنكارُه على مَن فعلَه مجتهِدا أو مقلِّدا لمجتهدٍ تقليداً سابقا،واسْتَثْنَى القاضي أبو يعلى في (الأحكامِ السُّلْطانِيَّةِ) ما ضَعُفَ فيه الخلافُ، ويضاف إليه أيضاً ماكان الخلاف فيه ضرر متعدي.

المسألة الرابعة: مَرَاتِبُ الإنكارِ المنكر ثلاثٌ كما تقدَّمَ مِن حديثِ أبي سعيدٍ، وفيه دليلٌ على أنَّ إنكارَ المنكَرِ يجبُ بحسَبِ القُدرةِ عليه، وأنَّ إنكارَه بالقَلبِ لا بُدَّ منه بخلافِ الذي قَبْلَه.

المسألة الخامسة: أفادَ حديث أبي سعيدٍ المتقدم أن وُجوبَ تَغْييرِ المنكَرِ يكون بكُلِّ طريقٍ يمكن إزالته، فلا يَكْفِي الوعظُ إنْ أَمْكَنَه إزالةُ المنكَرِ باليَدِ، ولا يكفي بالقلبِ إذا أمْكنَ باللِّسانِ، فإنْ كان الذي عَلِمَ بالمنكَرِ واحداً تَعيَّنَ عليه الإنكارُ، أو كانوا جماعةً لكن لا يَحصُلُ المقصودُ إلا بهم جميعًا تَعيَّنَ عليهم.



وقوله رحمه الله:(...**على ما تُوجِبُه الشَّريعةُ**) أي: أنَّه يجبُ أنْ يكونَ الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهِي عن المنكرِ مَتبَصِّرا عالِما بما يأمُرُ به، وأنَّه مُطابِقٌ للأمْرِ، قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي).

قال الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّينِ في (المنهاجِ):"ولا بدَّ مِن العِلمِ بالمعروفِ والمنكَرِ والتَّمييزِ بينهما، ولا بدَّ مِن العِلمِ بحالِ المأمورِ والمنْهِيِّ، ولا بدَّ في ذَلِكَ مِن الرِّفْقِ، ولا بدَّ أنْ يكونَ حَلِيماً صَبوراً على الأَذَى، فإنَّه لا بدَّ أنْ يَحصُلَ له أذًى، فإنْ لم يَحلُمْ وَيَصْبِرْ كان ما يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِحُ، فلا بُدَّ مِن هَذِهِ الثلاثةِ: العِلمُ، والرِّفقُ، والصَّبرُ، العِلمُ قبلَ الأمْرِ والنَّهْيِ، والرِّفقُ معه، والصَّبرُ بعدَه... وقال سفيانُ الثَّوريُّ: لا يأمُرُ بالمعروفِ ولا يَنْهَى عن المنكَرِ إلاَّ مَن كان فيه ثلاثُ خصالٍ: رَفيقٌ بما يأمُرُ رَفيقٌ بما يَنْهى، عَدلٌ فيما يأمُرُ، عَدلٌ فيما يَنْهى، عالمٌ بما يأمُرُ عالمٌ بما يَنْهى".

وعلى هذا فتكون شروطُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالتالي :

١.العلمُ وهذا يكون قبل الأمر والنهي .

٢.الرفقُ وهذا يكون حالَ الأمر والنهي .

٣.الصبرُ وهذا يكون بعد الأمر والنهي .

وإنكار المنكر إذا كان يترتب عليه مفاسد أو نحو ذلك فهنا يقول ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ :

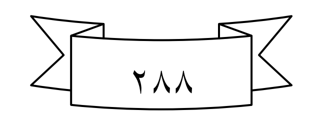
إذا كان إنكارُ المنكَرِ يَستلزِمُ ما هُوَ أنكَرُ مِنه وأَبْغضُ إلى اللَّهِ ورسولِه فإنَّه لا يُسوَّغُ إنكارُه، وإنْ كان اللَّهُ يُبغِضُه ويَمقُت أهلَه، وهَذَا كالإنكارِ على الملوكِ والولاةِ بالخروجِ عليهم فإنَّه أسبابُ كُلِّ شرٍّ وفِتنةٍ إلى آخِرِ الدَّهرِ....

فَإِنْكَارُ المنكَرِ أربعُ درجاتٍ:

الأُولى: أنْ يَزولَ ويخلُفُه ضِدُّه. **الثَّانيةُ**: أنْ يَقِلَّ وإنْ لم يَزُلْ بجُملَتِه.**الثَّالثةُ**: أن يَخْلُفُه ما هُوَ مِثلُه. **الرَّابعةُ**: أنْ يَخلُفُه ما هُوَ شَرٌّ مِنه فالدَّرجتانِ الأُولَيانِ مَشروعَتانِ، والثالثةُ موضعُ اجتهادٍ. والرَّابعةُ محرَّمةٌ ومثالها أن النبي ﷺ لم يقتل عبدَ الله بنَ أُبي بن سلول، وذلك لحكم عظيمة منها أن الرجلَ له شوكةٌ في المدينة، ومنها أن لا يقال: إن محمداً يقتل أصحابَه،، فإذا رأيتَ أهلَ الفُجورِ والفُسوقِ يَلعبونَ بالشَّطْرَنْجِ كان إنكارُها عليهم مِن عَدمِ الفِقهِ والبصيرةِ، إلاَّ إذا نَقَلْتَهُم مِنه إلى ما هُوَ أحبُّ إلى اللَّهِ ورسولِه، كرَمْيِ النشابِ، وسَبْقِ الخيلِ ونحوِ ذَلِكَ.(انظر: إعلام الموقعين (٣/٤)
.

مسألة: على من يتعين إنكار المنكر ؟

ج: قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" ثم إنَّه يَأْمُر وينهى مَن كان عالِما بما يأمُرُ بِهِ ويَنْهَى عنه، وَذَلِكَ يَختلِفُ باختلافِ الشَّيءِ، فإنْ كان مِن الواجباتِ الظَّاهرةِ والمحرَّماتِ المشهورةِ كالصَّلاةِ والصِّيامِ والزِّنا ونحوِها فكُلُّ المسلِمينَ عُلماءُ بها، وإنْ كان مِن دقائقِ الأفعالِ والأقوالِ، وما يَتعلَّقُ بالاجتهادِ لم يكُنْ للعَوامِّ مَدخَلٌ فيه، ولا لَهُم إنكارُه بل ذَلِكَ للعُلماءِ".



مسألة:ما حكم الإنكار في مسائل الخلاف ؟

المسائلُ نوعان:

١.مسائلُ فيها خلافٌ، وهذه المسائل إن كان الخلافُ فيها قوياً والأدلة متجاذبة فلا إنكارَ فيها، إلا إذا كانت المسألة من المسائل التي ضررُها متعدٍ فيجب الإنكار فيها، أما إن كان الخلافُ فيها ضعيفاً أو شاذاً فإن الإنكارَ يعتبر واجباً .

٢.مسائلُ اجتهادٌ وهي التي لا نصَّ فيها ولا إجماعَ فهذه لا إنكار فيها .

ثم قال رحمه الله :**(وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا)**

من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يعتقدون إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ حتى وإن جاروا وظلموا ما دام أنهم مسلمون وفي دائرة الإيمان ولا يرون الخروجَ عليهم بل الصبرُ والنصيحةُ عند حصول المعاصي والظلم ونحوِ ذلك مما يقع منهم، **خِلافا للمُبتدِعَةِ مِن الخوارجِ والمعتزِلةِ والرَّافِضةِ** الذين يَرَوْنَ جَوازَ الخُروجِ على وُلاةِ الأمورِ إذا فَعَلُوا ما هُوَ ظُلْمٌ أو ما ظَنُّوه هم ظُلْما، ويَرَوْن ذَلِكَ مِن بابِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، وقولُهم باطلٌ تردُّهُ أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ...)، وفي "الصَّحيحَيْنِ" عن ابنِ مسعودٍ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُوراً تُنْكِرُونَهَا))، قالوا: فما تأمُرُنا؟ قال: ((تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ)). وفي الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قال: ((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَن يُطِعِ الأميرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)). وعن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه مرفوعًا ((الجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ بَراًّ كَانَ أَوْ فَاجِراً)) رواه أبو داودَ. وفي الصَّحيحِ: ((إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ))، وعن أبي ذَرٍّ رضي اللَّهُ عنه قال: ((إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِياً مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ))، وروى مسلمٌ في "صحيحِه" وعن نافعٍ عن ابنِ عمرَ رضي اللَّهُ عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: ((مَنْ خَلَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةَ الْجَاهِلِيَّةِ)) وعن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثُمَّ مَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)) رواه مسلمٌ، وفي "الصَّحيحَيْنِ" عن ابن عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنه عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْراً مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)) ، فإذا أَمَرُوا بطاعةِ اللَّهِ وَجَبَتْ طاعَتُهم، وإذا أَمَرُوا بمعصيةِ اللَّهِ فَلا سَمْعَ ولا طَاعةَ، كما في الصَّحيحِ أنَّه قال: ((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))، وَصَحَّ عنه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قال: ((لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ)) إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على الحثِّ على السَّمْعِ والطَّاعةِ لِولاةِ الأُمورِ إذا أَمَرُوا بطاعةِ اللَّهِ، فإنَّ في

طاعةِ ولاةِ الأمورِ مِن المنافعِ والمصالحِ ما لا يُحصى، ففيها سعادةُ الدِّينِ وانتظامُ مصالحِ العِبادِ في معاشِهم، ويَستعينون بها على إظهارِ دِينهم وطاعةِ رَبِّهم، كما قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي اللَّهُ عنه:" إنَّ النَّاسَ لا يُصلِحُهم إلاَّ إمامٌ بَرٌّ أو فاجِرٌ، إنْ كان فاجِراً عَبَدَ المؤمنُ رَبَّه، وحُمِلَ الفاجِرُ فيها إلى أجَلِه".

وقال الحسَنُ في الأُمراءِ:" هم يَلُونَ مِن أُمورِنا خَمسا: الجمُعةُ والجماعةُ والعِيدُ والثُّغورُ والحُدودُ، واللَّهِ ما يَستقِيمُ الدِّينُ إلا بِهم، وإنْ جَارُوا أو ظَلَمُوا، واللَّهِ لَمَا يُصلِحُ اللَّهُ بهم أكثرَ مما يُفسِدون" ورُوِيَ: "سِتُّونَ سنةً مع إمامٍ جائرٍ خيرٌ من ليلةٍ واحدةٍ بلا إمامٍ" ورُوِيَ أنَّ عمرَو بنَ العاصِ أوْصى ابنَه فقال:" إمامٌ عادلٌ خيرٌ مِن مَطرٍ وابلٍ، وأَسدٌ حَطومٌ خيرٌ مِن إمامٍ ظَلومٍ، وإمامٌ ظَلومٌ غَشومٌ خيرٌ مِن فتنةٍ تَدومُ"، وقال عبدُ اللَّهِ بنُ المبارَكِ:

إنَّ الخلافةَ حبلُ اللَّهِ فاعتصِمُوا ... مِنه بعُروتِه الوُثْقى لمن كَانَ

كم يَدفعُ اللَّهُ بالسُّلطانِ مُعضِلَةً ... عن دِينِنا رَحمةً مِنه ودُنيانَا

لولا الخلافةُ لم تُؤمَنْ لنا سُبُلٌ ... وكان أَضْعفُنا نَهْباً لأَقْوانَا

وأجمعَ العلماءُ على أنَّه يَجِبُ على المسلِمِينَ نَصْبُ خليفةٍ وأدلَّةُ ذَلِكَ كثيرةٌ **وتعيينُه يكون بأحد أمور ثلاثة:**

١.أن يَسْتَخْلِفَهُ من قَبْلَهُ كما فعل أبو بكر مع عمر رضي الله عنهم أجمعين .

٢.أن يتفقَ أهلُ الحلِّ والعقدِ على من يَصْلُحُ لولاية المسلمين كما حصل مع عثمان رضي الله عنه .

٣.أن تُؤْخَذَ بالغصب والغلبة وهذا حتى يدينَ له الناس وهذه تسمى ولايةَ الإجبار وأما الأولى والثانيةُ فتسمى ولايةَ الاختيار .

وقولُه رحمه الله: (...**أبراراً كانوا أو فُجَّارا**) فيه إشارة إلى أنه لا يَنعزِلُ الإمامُ بالفِسقِ والظُّلمِ وتَعطيلِ الحقوقِ، ولا يُخلَعُ، ولا يَجُوزُ الخُروجُ عليه بل يَجِبُ وَعْظُه، وَذَلِكَ لما يَترتَّبُ على ذَلِكَ مِن الفِتنِ وإراقةِ الدِّماءِ وفسادِ ذاتِ البَيْنِ، فتكونُ المفسدَةُ في عَزلِه أكثرَ مِنها في بقائِه، والشَّريعةُ جاءتْ بِجَلْبِ المصالحِ ودَفعِ المضارِّ.

قال الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" ولعلَّه لا يَكادُ يُعرفُ طائفةٌ خَرَجَتْ على ذي سُلطانٍ إلاَّ وكان في خُروجِها مِن الفسادِ أكثرُ مِن الذي في إزالَتِه" (منهاج السنة **٢٣١/٣**) .

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :" وأمَّا الخروجُ عليهم وقتالُهم **فحرامٌ بإجماعِ المسلِمِينَ**، وإنْ كانوا فَسقةً ظالِمينَ، وقد تَظاهَرَتْ الأحاديثُ بمعنى ما ذَكَرْتُه، **وأجمعَ أهلُ السُّنَّةِ على أنَّ الإمامَ لا يَنعَزِلُ بالفِسقِ**، وقال العلماءُ: وسببُ عَدمِ انعزالِه وتحريمِ الخروجِ عليه ما يَترتَّبُ على ذَلِكَ مِن الفتنةِ وإراقةِ الدِّماءِ وإفسادِ ذاتِ البَيْنِ، فتكونُ المفسدةُ أكثرَ مِن المفسدةِ في بقائِه". (شرحِ مسلمٍ)

قال ابن القيم رحمه الله :"الإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم أساسُ كلِّ شر وفتنة إلى آخر الدهر" (إعلام الموقعين (٤/٣) .

وقولُه رحمه الله: **(وَيحافِظُون على الجُمَعِ والجماعَاتِ)**

فيه إشارة إلى أن أهل السنة والجماعة يحافظون على حضور صلاة الجمعة والجماعة لأنَّها مِن أَوْكَدِ العِباداتِ، وأجلِّ الطَّاعاتِ، ومن أَعظمِ شَعائرِ الإسلامِ الظَّاهرةِ، وقد تكاثَرَت الأدِلَّةُ في الحثِّ على ذلك ، وتحريمِ التَّخلُّفِ عنهما إلاَّ لِعذْرٍ، **خِلافًا للمبتدِعَةِ مِن الرَّافِضةِ وغيرِهم**، الذين لا يَرَوْن الجهادَ ولا حضورَ الجماعةِ إلاَّ مع الإمامِ المعصومِ، الذي هو في الحقيقة وجوده معدوم.

قال الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومَن ظَنَّ أنَّ صلاتَه وَحْدَه أفضلُ مِن أجْلِ خَلوتِه، أو غيرِ ذَلِكَ فهُوَ مُخطِئٌ ضالٌّ، وأضلُّ مِنه مَن لم يَرَ الجماعةَ إلاَّ خَلفَ معصومٍ، فعطَّلَ المساجِدَ وعَمَّرَ المشَاهِدَ."(مختصر الفتاوى المصرية ٤٧/١).

وقال رحمه الله:" ومَن قال لا تَجوزُ خَلْفَ مَن لا تُعرفُ عقيدَتُه، وما هُوَ عليه فَهُوَ قولٌ لم يَقُلْه أحدٌ مِن المسلِمِينَ، فإنَّ أهلَ الحديثِ والسُّنَّةِ كالشَّافِعِيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وغيرِهم متَّفِقون على أنَّ صلاةَ الجمعةِ تُصلَّى خَلفَ البَرِّ والفاجِرِ، حتى إنَّ أَكْثَرَ أهلِ البِدَعِ كالجهميَّةِ الذين يَقولون بخَلْقِ القُرآنِ، وأَنَّ اللَّهَ لا يُرى في الآخرةِ، ومع أنَّ أحمدَ ابْتُلِي بهم وهُوَ أشهرُ الأئمَّةِ بالإمامةِ في السُّنَّةِ، ومع هَذَا لم تَخْتَلِفْ نُصوصُه أنَّه تُصلَّى الجمعةُ خَلفَ الجهميِّ والقدَريِّ والرَّافِضيِّ، وليس لأحدٍ أنْ يَدَعَ الجمعةَ لبِدعةٍ في الإمامِ، لكن تَنازَعوا هل تُعادُ؟ على قولَيْنِ: هما روايتانِ عن الإمامِ أحمَد، قيل: تُعادُ خَلفَ الفاسِقِ، ومذهبُ الشَّافِعِيِّ وأبي حنيفةَ لا تُعادُ. ا.هـ.

وهَذَا هُوَ الصَّحيحُ فإنَّ الصَّحابةَ كانوا يُصَلُّونَ الجمعةَ والجماعةَ خَلْفَ الأئمَّةِ والفُجَّارِ ولا يُعيدونَ، كما كان عبدُ اللَّهِ بنُ عمرَ يُصلِّي خَلْفَ الحجَّاجِ بنِ يوسفَ، وَكَذَلِكَ أنسٌ وَكَذَلِكَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ رضي اللَّهُ عنهم، وغيرُهم يُصلُّونَ خلفَ الوليدِ بنِ عقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، وكان يَشربُ الخمرَ.

وأما الأحاديث التي فيها الأمر بالصلاة خلف كل بر وفاجر فلا تخلوا من مقال مع صحة معناها بدليل عمل الصحابة رضي الله عنهم كما تقدم.

وقولُه: **(ويَدِينونَ بالنَّصيحَةِ للأمَّةِ،ويَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ :(الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) وَقَوْلِهِ ﷺ :(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ)**

من أخلاق أهل السنة والجماعة أنهم يدينون بالنصيحة أي: يتعبدون بالنصيحة لعموم المسلمين في مصالحهم العامة والخاصة،كما تكاثَرَت الأخبارُ في الحثِّ عليها والتَّرغيبِ فيها، ولأنَّ عليها مَدارَ الدِّينِ كما في "الصَّحيحَيْنِ" مِن حديثِ تميمٍ الدَّاريِّ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ))، قالها ثلاثًا، قُلنا: لمنْ يا رسولَ اللَّهِ؟قال: (لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلأَئِمَّةِ المسلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)) فقد حَصرَ الدِّينَ فيها.

قال الخطَّابيُّ:" النَّصيحةُ كلمةٌ جامعةٌ، معناها حِيازةُ الحظِّ للمَنْصوحِ له":، وقال ابنُ بَطَّالٍ:"وَهِيَ فَرْضُ كفايةٍ يُجزئُ فيه مَن قام بِهِ ويَسْقُطُ عن البَاقِينَ، وقال: والنَّصيحةُ لازِمةٌ على قَدْرِ الطَّاقةِ إذا عَلِمَ النَّاصِحُ أنَّه يَقْبَلُ منه، وأَمِنَ على نَفسِه المكروهَ، فإنْ خَشِيَ على نَفْسِه أذًى فهُوَ في سَعةٍ ".

وفي صحيحِ مسلمٍ مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((حَقُّ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ سِتٌّ)) فذَكَر منها: ((وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ))

وهذه النصيحة النابعةُ من القلب سببُها الإيمانُ الكامل واليقينُ الصادق كما ورد عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) متفق عليه .

قال ابن تيمية رحمه الله: "وَالسَّعَادَةُ فِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ أَنْ تُعَامِلَهُمْ لِلَّهِ فَتَرْجُو اللَّهَ فِيهِمْ وَلا تَرْجُوهُمْ فِي اللَّهِ وَتَخَافُهُ فِيهِمْ وَلا تَخَافَهُمْ فِي اللَّهِ وَتُحْسِنَ إلَيْهِمْ رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ لا لِمُكَافَأَتِهِمْ وَتَكُفَّ عَنْ ظُلْمِهِمْ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ لا مِنْهُمْ " **(الفتاوى ١/ ٥١)** .

وَمما يدل أيضاً على ما تقدم ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:(الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) .

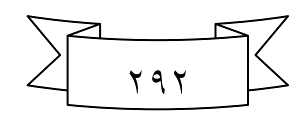
وفيه أن المؤمنُ الإيمانَ الكامِلَ يتصف بالنصح والتعاون والتناصر، والتألم لألم إخوانه المصابين والحرص على مساعدتهم والسعي في عونهم وإصلاح حالهم كما ثبت في حديثِ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((واللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)).

وقولُه: **(وَشَبَّكَ بين أصابعِه)** يُستفادُ منه أَنَّ الذي يُريدُ المبالغةَ في بيانِ أقوالِه يُمثِّلُها في حركاتِه، وليكونَ أَوْقَع في النَّفْسِ. ذَكَره في (الفَتحِ).

ومثله أيضاً ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه من قَوْلِهِ ﷺ :(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ– أي: الإيمان الكامل– **فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ)**

فهَذَانِ الحديثانِ التي ذكرهما المصنف رحمه الله دَلاًّ على أنَّ مِن صفاتِ المؤمنينَ التَّعاطُفُ فيما بينهم والتَّراحُمُ، ومحبَّةُ بعضِهم لبعضٍ الخيرَ، وهذا الحديث جاء من باب الخبر الذي يراد منه الأمر باستشعار وحدة المؤمنين والإحساس بفرحهم ومصيبتهم كالجسد الواحد وفي هذا التشبيه تقريب المعاني للأفهام.

وجاء في حديثِ أبي هريرةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَكُفُّ عَنْهُ ضَيْعَتَهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ)).رواه أبو داودَ وحسنه الألباني، وخَرَّجه الترمذيُّ بلفظِ: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ مِرْآةُ



أَخِيهِ، فَمَنْ رَأَى بِهِ أَذًى فَلْيُمِطْهُ عَنْهُ)) وفيهما دليلٌ على أَنَّ المؤمِنَ يَسُرُّه ما يَسُرُّ أخاه المؤمنَ، ويَسُوؤهُ ما يَسوؤُه، ويُحِبُّ له ما يُحِبُّ لنَفْسِه مِن الخيرِ.

....

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

....

تكلم المصنف رحمه الله عن الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء وهذه الثلاثُ من صفات المؤمنين وهي عنوانُ السعادة،وعلامة الفلاح، وطريق الراحة لمن سلكها .

وعن سخبرة مرفوعا: ((مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وَابْتُلِيَ فَصَبَرَ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرْ، وَظُلِمَ فَنَفَرَ، أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ))أخرجه الطبراني وأشار إلى ضعفه الهيتمي في (مجمع الزوائد) والألباني في (ضعيف الترغيب والترهيب) لكن معناه صحيح .

والصَّبرُ في اللغةً: الحبْسُ. **وفي الإصطلاح** ما قاله ابن القيم رحمه الله : هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ، وحَبسُ اللِّسانِ عن التَّشكِّي والتَّسخُّطِ، وحَبسُ الجوارِحِ عن لَطْمِ الخُدودِ وشَقِّ الجيوبِ (الوابل الصيب).

وقد تكاثَرَتِ الأدِلَّةُ في الأمْرِ بالصَّبرِ والحثِّ عليه، قال تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)، وقال: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وقال النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((الصَّبْرُ ضِياءٌ))، وقال عليٌّ رضي اللَّهُ عنه:" إنَّ الصَّبْرَ مِن الإيمانِ بمنزلةِ الرَّأسِ مِن الجسَدِ، ثم رَفَعَ صوتَه فقال: أَلاَ إِنَّهُ لاَ إيمانَ لمنْ لاَ صَبْرَ لَهُ" رواه البيهقي، وقد تقدَّمَ الكلامُ في الصَّبرِ فلا نُطيلُ بإعادتِه.

وذكر أهل العلم أن الصبرَ ثلاثةُ أقسام:

الأول:الصبرُ على الطاعةِ وهو أعلاها .

الثاني:الصبرُ عن المعصية وهو أقل مرتبةً من الأول .

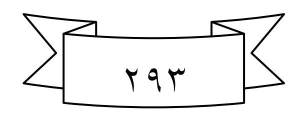
الثالث:الصبرُ على أقدار الله المؤلمة وزاد ابنُ تيمية الصبرَ على الأهواء المضِلَّةِ . (الاختيارات والفتاوى) .

والناسَ في الصبر على البلاءِ مراتبَ:

١- أن يأتيَ الإنسان بالصبر والشكر لله جل وعلا على هذا البلاء لأن البلايا والمصائبَ التي تصيب الإنسانَ توجب عليه الخضوعَ والرجوعَ إلى الله جل وعلا ولذا يَشْكُرُ الإنسانُ ربَّه على ذلك وهذه المرتبةُ ترجع لفعل أمور ثلاثة: أ- الصبرِ على القضاء. ٢- الرضا به. ٣- الشكرِ لله.

قال ابن تيمية:"لا يصل لهذه المرتبةِ إلا الصفوةُ من هذه الأمة" .

٢- أن يأتيَ بالصبر والرضا دون الشكر .



٣- أن يأتيَ الإنسانُ بالواجب فقطْ وهو الصبرُ فحسب .

أمَّا الرِّضَا فهُوَ مِن أَجَلِّ الطَّاعاتِ وأَشْرَفِ منازِلِ السَّائرِينَ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وهُوَ مُسْتَحبٌّ بالإجماعِ، والأدِلَّةُ على فَضْلِه والحثِّ عليه كثيرةٌ جداً قال اللَّهُ تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) وكان مِن دعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ)) وفي صحيحِ مسلمٍ عن العبَّاسِ بنِ عبدِ المطلبِ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ باللَّهِ رَباً وَبالإِسْلاَمِ دِيناً وبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً)) .

أما الشُّكْرُ فهُوَ في اللغة : فِعلٌ يُنْبِئُ عن تعظيمِ المنْعِمِ لكونِه مُنْعِما، **وهُوَ شَرْعا:** صَرفُ العبدِ جميعَ ما أَنْعمَ اللَّهُ بِهِ عليه لِمَا خُلِقَ لأجْلِه، ويتعلَّقُ بالقلبِ واللِّسانِ والجوارحِ كما قيل:

أَفادَتْكُمُ النَّعماءُ مِنِّي ثلاثةً   يَدِي ولِساني والضَّميرَ المحْجَبَا.

والشُّكرُ مِن أجلِّ الطَّاعاتِ وأفْضلِها، ومِن أَشْرفِ منازِلِ السَّائِرينَ إلى اللَّهِ وأرْفَعِها، وهُوَ مُؤْذِنٌ بالمزيدِ، قال تعالى: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنزلةُ الشُّكرِ أعلى المنازِلِ، وهُوَ فوقَ منزلَةِ الرِّضا، فالرِّضا مُندرجٌ في الشُّكرِ؛ إذْ يَستحِيلُ وُجودُ الشُّكرِ بِدُونِه وهُوَ نِصفُ الإيمانِ، والإيمانُ نِصفانِ نِصفُ شكرٍ ونِصفُ صبرٍ، إلى أنْ قال: وأهلُه هم القليلُ، قال تعالى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)، وقال: (وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ) انتهى، والتَّحدُّثُ بالنِّعمةِ شُكرٌ، كما قال تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) وأمَّا حُكمُ الشُّكرِ فواجِبٌ لما تَقدَّمَ، وهُوَ مَبنيٌّ على ثلاثةِ أركانٍ: التَّحدُّثُ بالنِّعمةِ ظاهراً، والاعترافُ بها باطِنا، وصَرْفُها في طاعةِ مُولِيها ومُسْدِيها وهُوَ اللَّهُ.(الوابل الصيب (١/١١).

....

وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ :(أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا) .

....

أهلَ السُّنَّةِ والجماعَةِ يَحُثُّون ويُرَغِّبون على مكارِمِ الأخلاقِ ومحاسِنِ الأعمالِ، كالكَرَمِ والشَّجاعةِ والصِّدْقِ والأمانةِ ونحوِ ذَلِكَ؛ لِما تكاثَرَتْ بِهِ الأدِلَّةُ مِن الحثِّ على ذَلِكَ والتَّرغيبِ فيه، وأنَّ ذَلِكَ مِن صفاتِ المؤمنين، بل مِن أخصِّ علاماتِ الإيمانِ، كما في حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه مرفوعًا: ((خَصْلَتَانِ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ، حُسْنُ سَمْتٍ وَفِقْهٌ فِي الدِّينِ)) رواه الترمذيُّ واستغربه وصححه الألباني في (صحيح الجامع) وضعفه غيره، وقال تعالى في نَبِيِّه: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) قالتْ عائشةُ رضي اللَّهُ عنها:" كانَ خُلُقُه القرآنَ، يَأْتَمِرُ بأوامِرِه، وَيَنْزَجِرُ عن زَواجِرِه،

ويَرْضَى لِرِضَاه ويَغْضَبُ لِغَضبِه)، أي: كان مُتَمَسِّكاً بآدابِه وأوامِرِه ونواهِيه، وما يَشتَمِلُ عليه مِن المكارِمِ والمحاسِنِ والألطافِ".

والخُلقُ بالضَّمِّ: صورةُ الإنسانِ الباطنةِ، وبالفَتحِ: صورتُه الظَّاهِرةُ.

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في (المدارِجِ): وقد جَمعَ اللَّهُ له أي:النبي عليه الصلاة والسلام مَكارِمَ الأخلاقِ في قولِه: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) "

في الحديثِ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاَقِ)) رواه أحمدُ والبيهقي والبزَّارُ.

قال الحسَنُ: "حقيقةُ حُسنِ الخُلقِ بَذلُ المعروفِ وكَفُّ الأذى وطَلاقةُ الوجْهِ".

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في (المدارِجِ) عن منزلة الخلق وفضله:" **الدِّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ، فمَن زاد عليك في الخُلقِ زادَ عليكَ في الدِّينِ، وحُسنُ الخُلقِ يقومُ على أربعةِ أركانٍ: الصَّبرُ، والعِفَّةُ، والشَّجاعةُ، والعَدلُ، فالصَّبرُ** يَحمِلُه على الاحتمالِ وكَظْمِ الغيظِ، والحِلمُ والأناةُ والرِّفقُ وعَدمُ الطَّيْشِ، **والعِفَّةُ** تَحملُه على اجتنابِ الرَّذائلِ والقَبائحِ مِن القولِ والفِعلِ، **والشَّجاعةُ** تحملُه على عِزَّةِ النَّفْسِ وقُوَّتِها على إخراجِ المحبوبِ وتَحمِلُه على كَظْمِ الغَيظِ، والحِلمُ **والعَدلُ** يَحملُه على اعتدالِ أخلاقِه وتوسُّطِه بين طرَفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ، **فمَنْشأُ جميعِ الأخلاقِ الفاضِلةِ مِن هَذهِ الأربعةِ، ومَنْشأُ جميعِ الأخلاقِ السَّافلةِ وبناؤها على أربعةِ أركانٍ: الجهلُ، والظُّلمُ، والشَّهوةُ، والغَضبُ**".

وعن أبي هريرة قال:قال عليه الصلاة والسلام: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ)) رواه أحمدُ والترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ.

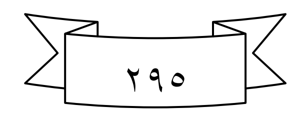
عَنْ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه مرفوعاً أنَّه سُئِلَ عن أكثرِ ما يُدخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ فقال: ((تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلقِ)) رواه جماعةٌ منهم الترمذيُّ وصححَّه، ولأبي داودَ مِن حديثِ عائشةَ مرفوعًا: ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ)).

وعن أبي الدَّرداءِ أن النَّبيّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ)) رواه أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ.

وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَى اللَّهِ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟)) قالوا: بلى قال: ((أَحْسَنُكُمْ أَخْلاَقاً)) رواه ابن حبان في صحيحه.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:(إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ) رواه أبو داوود .

قال ابن المبارك رحمه الله:" حسن الخلق: شيءٌ هينٌ، وجهٌ طلقٌ وكلامٌ لينٌ" .



قال ابن تيمة رحمه الله :"الدين يقوم على أمرين:

١.طاعةِ الله ولزومِ الدين .

٢.حسنِ الخلق مع جنس الناس، فالأول: يُصْلِحُ ما بينك وبين ربك، والثاني: يصلح ما بينك وبين الخلق" .

....

وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

....

أهلَ السُّنَّةِ يَندبُون إلى أنْ تَصِلَ مَن قَطَعَكَ، وتعطي من حرمك، وتعفوا عمن ظلمك لِمَا رَوى الإمامُ أحمدُ في مسنَدِه مِن حَديثِ معاذِ بنِ أنسٍ الجُهَنِيِّ رضي اللّهُ عنه قال، قال رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصْفَحُ عَمَّنْ شَتَمَكَ)) وفيه مقال.

وعن معاذ بن أنس أنَّ رسولَ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ)) رواهُ أبو داودَ والترمذيُّ وهو حسن بمجموع طرقه.

ويدعون إلى صلة الرحم فعن عبد الله بن عمرٍو قال:قال النبي ﷺ :(لَيسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ مَنْ إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا) رواه أحمد بن حنبل وقال شعيب الأرنؤوط:إسناده صحيح على شرط البخاري .

وقال للرجل كما في حديث أبي هريرة عندما اشتكى قرابةً وقال:يا رسول الله إن لي قرابةً أَصِلُهُمْ ويقطعون وأحسنُ إليهم ويسيئونَ إليَّ وأَحْلَمُ عنهم ويجهلونَ علي قال:(لَئِنْ كُنْتَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ) رواه أحمد وسنده صحيح .

وروى عبدُ الرَّزَّاقِ عن عُمرَ مَوقوفا: ((ليس الوَصْلُ أنْ تَصِلَ مَن وَصَلَكَ، ذَلِكَ القِصاصُ، ولكنَّ الوَصْلَ أنْ تَصِلَ مَن قَطَعَكَ)) وفي حديثِ أبي ذَرٍّ: ((وَأَوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وإِنْ أَدْبَرَتْ)) رواه ابن حبان وصححه.

وفي "الصَّحيحَيْنِ" من حديثِ جبيرِ بنِ مُطعمٍ عن أبيهِ مَرفوعا: ((لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ)) يعني قاطعَ رَحِمٍ وفي "الصَّحيحَيْنِ" عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))

قال تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)، وفي هَذِهِ الآيةِ وأشباهِها أعظمُ وَعيدٍ في قطيعةِ الرَّحمِ، وفيها أَصْرَحُ دلالةٍ على حُرمةِ قطيعةِ الرَّحمِ، وأنَّها كبيرةٌ مِن الكبائرِ.

قال في (فتحِ الباري): قال القرطبيُّ:" الرَّحِمُ التي تُوصلُ خَاصَّةٌ وعامَّةٌ، فالعامَّةُ رَحِمُ الدِّينِ، وتَجِبُ مواصَلَتُها بالتَّوَدُّدِ والتَّناصُحِ والعَدلِ والإنصافِ والقيامِ بالحقوقِ الواجبةِ والمستحبَّةِ، وأمَّا الرَّحِمُ الخاصَّةُ فبِمَزِيدِ النَّفقةِ على القريبِ وتَفقُّدِ أحوالِهم والتَّغافُلِ عن زلاَّتِهم، وتتفاوتُ مَراتِبُ استحقاقِهم في ذَلِكَ".

وأما ما جاء في الصدقة والعفو فكثير جدا، ومن ذلك ما جاء في حديثِ أبي هُريرةَ رضي اللَّهُ عنه أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَال، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزاًّ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ)) أَخْرجَه مسلمٌ.

قال الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّين رَحِمَهُ اللَّهُ:"وجِماعُ حُسنِ الخُلقِ مع النَّاسِ أنْ تَصِلَ مَن قَطعكَ بِالسَّلامِ والإكرامِ، والدُّعاءِ له، والاستغفارِ، والثَّناءِ عليه، والزِّيارةِ له، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَكَ مِن التَّعليمِ والمنْفَعةِ والمالِ، وتَعفُوَ عمَّن ظَلَمكَ في دَمٍ أو مالٍ أو عِرضٍ، وبعضُ هَذَا واجِبٌ وبَعْضُه مُستحَبٌّ ".

....

وَيَأْمُرُونَ بِبِرّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةَ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالإِحْسانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ . وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ . وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاَقِ،وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإِسْلاَمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ .

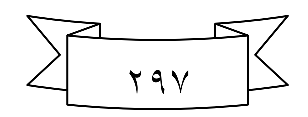
....

ذكر المصنف جملةً من الآداب والأخلاق التي يحث عليها أهل السنة والجماعة متبعين بذلك كتاب ربهم وسنة نبيهم مثل الأمر :

١. ببرِّ الوالدين وخَفضِ الجَناحِ لهما، والشَّفَقةِ عليهما، والتَّلطُّفِ بهما، لِعِظَمِ حقهما، ولذَلِكَ قَرَنَ سُبْحَانَهُ حَقَّهُ بحقِّهما، قال اللَّهُ تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) وروى الإمامُ أحمدُ مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلاَهُ الجَنَّةَ)).

٢. وصلة الرحم وتقدم الكلام عليها.

٣.وحسنِ الجوار قال تعالى: (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ).وفي الصَّحيحِ مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ))، وفي "الصَّحيحَيْنِ" عن عائشةَ رضي اللَّهُ عنها أنَّها سَمِعَتْ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: ((مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ)).



وأَخْرجَ الترمذيُّ بسندٍ صحيحٍ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رضي اللَّهُ عنهما قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-: ((خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ))، وَفِي صَحيحِ البُخاريِّ عن أَبي شُريحٍ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((واللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، واللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، واللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ)) قيل مِن يا رسولَ اللَّهِ: قال: ((مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))، إلى غيرِ ذَلِكَ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على عِظَمِ حقِّ الجارِ،

٤.والإحسانِ إلى:

أ.اليتيمِ وهو من مات أبوه. ويدل عليه ما في "الصَّحيحَيْنِ" من حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ رضي اللَّهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا)) وقال: بأُصْبُعَيهِ السَّبابةِ والوُسْطى.

ب.الفقيرِ وهو من لا يجد شيئاً أو يجد أقلَّ من نصف الكفاية .

ج.المسكينِ وهو من يجد نصفَ كفايته. عن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ((السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) وَأَحْسِبُه قال: يِشكُّ القعنبيُّ ((كَالْقَائِمِ لاَ يَفْتُرُ وَالصَّائِمِ لاَ يَفْطُرُ)) رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

د.ابنِ السبيل وهو المسافرُ الذي انقطع به الطريقُ.في "الصَّحيحَيْنِ" عن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((...وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ))، وفيهما عن أبي شُريحٍ العدويِّ قال: قال:صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: ((...من كان يؤمن بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ))، قالوا: وما جائزُته؟ قال: ((يَوْمٌ وليلةٌ، والضِّيافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ، وَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ...)).

٥.والرفقِ بالمملوك . فقد رُوِيَ أنَّ آخِرَ ما أَوْصَى بِهِ عليه الصلاة والسلام عندَ مَوتِه: ((الصَّلاَةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ))، رواه أحمدُ والنَّسائيُّ وابنُ ماجهْ وابنُ حِبَّانَ عن أنسٍ.

والنهي عن :

١. الفخر. قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) المختالُ: هُوَ المتكبِّرُ العظيمُ في نَفْسِه الذي لا يَقومُ بحقوقِ النَّاسِ، والفَخورُ: هُوَ الذي يَفخَرُ كُلَّ النَّاسِ، وَيُعدِّدُ مَناقِبَه تَكَبُّرًا وتَطاوُلا على مَن دُونَه، ويَنْظُرُ إلى غيرِه نَظَرَ ازْدِرَاءٍ وَاحتقارٍ، قال تعالى: (فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى).

وروى مسلمٌ في "صحيحِه" مِن حديثِ عياضِ بنِ حمارٍ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ)).

٢.والخيلاء. قال تعالى: (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) وقولُه: (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ) أي: تُميلُه وتُعرِضُ عَنِ النَّاسِ تَكَبُّرًا، وقولُه: (مُخْتَالٍ فَخُورٍ) أي ذي: خُيلاءَ يَفْخَرُ على النَّاسِ ويتكبر عليهم ولا يَتَواضَعُ لهم.

٣.والبغي. وهُوَ وهو مجاوزة الحد كالعُدوانُ على النَّاسِ، قال اللَّهُ تعالى: (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ) أي: أنَّ إِثْمَ البَغْيِ وعُقوبةُ البَغْيِ على الباغِي إمَّا عاجلاً وإمَّا آجلاً، ووَرَدَتْ أَحادِيثُ في سُرعةِ عُقوبةِ الباغِي، فعَنْ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ((مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَوْ أَحَقُّ مِنْ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ اللَّهُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ)) رواه الترمذيُّ والحاكِمُ وصحَّحاه.

٤.والاستطالة على الخلق بحق وبغير حق. أي: التَّرَفُّعُ عليهم واحتقارُهُم والوقيعةُ فيهم روى مسلمٌ في "صحيحِه" مِن حديثِ عياضِ بنِ حمارٍ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدْ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ)).

قال الشَّيخُ تَقِيُّ الدِّينِ في (اقتضاءِ الصِّراطِ الْمُسْتَقِيمِ) عَلَى هَذَا الحديثِ:" فنَهَى سُبْحَانَهُ عَن نَوْعَيِ الاستطالَةِ على الخَلقِ، وهُوَ الفَخرُ والبَغيُ؛ لأنَّ المستطِيلَ إنِ استطالَ بِحَقٍّ فقد افْتَخَرَ، وإنْ كان بِغَيرِ حَقٍّ فقد بَغَى"

٥. سفساف الأخلاق.أي: رَدِيئِها وحَقيرِها، كالبُخلِ والجُبْنِ والكَذِبِ والغِيبةِ والنَّميمةِ ونحوِ ذَلِكَ، كما روي في ذلك مرفوعًا بألفاظ مختلفة عن سهيل بن سعد وجابر وطلحة وابن عباس: ((إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرِيمَ وَمَعَالِي الأَخْلاَقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا)) رواه البيهقيُّ في (الشُّعَبِ) وأَبُو نُعَيْمٍ فِي (الْحِلْيَةِ) وغيرهم.

واعلم أن كُلُّ ما يقولُه أهلُ السُّنَّةِ ويفعلونه ويأمُرون بِهِ ويَنهوْن عنه مِمَّا تقدَّمَ ذِكرُه في هَذِهِ الرِّسالَةِ وغيرُه، فإنَّما هم فيه متَّبِعونَ للكِتابِ والسُّنَّةِ، فهم متَّبِعونَ لا مُبتدِعون، **ولذا سُمُّوا أهلَ الكِتابِ والسُّنَّةِ**، لاتِّباعِهم للكتابِ والسُّنَّةِ، إذْ لا نَجاةَ إلا باتِّباعِهما، ولا طريقَ مُوصِّلٌ إلى السعادةِ في الدُّنْيَا والآخرةِ إلا بسُلوكِ الصِّراطِ المستقيمِ الذي أوصانا اللَّهُ بسُلوكِه، ومَن أَعْرضَ عن الكِتابِ والسُّنَّةِ ورَغِبَ عن تَحكيمِهما أو زَعَم حصولَ السَّعادةِ والفلاحِ بالاستغناءِ عنهما، والتَّحاكُمِ إلى غيرِهما كائنا مَن كانَ فقد نَبذَ الإسلامَ وراءَ ظَهرِه، قال تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...).

فطريقَة أهل السنة والجماعة هي الدينُ الإسلامِي الذي لا طريقَ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وتعالى إلاَّ بسلوكه ولا نجاةَ إلا باتباعه، قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...) والمراد به دينُ الإسلامِ الذي بَعثَ اللَّهُ بِهِ محمَّدا صلى الله عليه وسلم، وهُوَ الدِين الذي لا يَقبلُ الله دينًا سِواهُ، قال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ) وقال: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:(هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَومَ وَأَصْحَابِي) صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمُ أَعْلامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، وَفِيهِمُ أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ:(لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لاَ يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لاَ يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ .وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْليماً كثيرا .

بعد ما بين المصنف رحمه الله أن طريقة أهل السنة والجماعة التي سلكوها هي دين الإسلام الذي أمر الله به في كتابة وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام بين أن هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة كما جاء ذلك في حديث الافتراقُ المشهورٌ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فعن معاويةَ رضي اللَّهُ عنه أنَّه قام فقال: إنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قام فينا فقال: ((أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ وَهِيَ الجَمَاعَةُ)) رواهُ أبو داودَ والحاكم وصححه، وصححه ابن تيمية في " مجموع الفتاوى " (٣ / ٣٤٥)، والشاطبي في " الاعتصام " (١ / ٤٣٠) ، وقد ورد عن جماعة من الصحابة بطرق كثيرة .، وفي روايةِ الترمذيِّ: ((كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً))، قالوا: مَنْ هي يارسولَ اللَّهِ؟ قال: ((مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي)) وقال: هَذَا حديثٌ غريبٌ مفسِّرٌ لا نَعرِفُه إلاَّ مِن هَذَا الوجهِ.

والأُمَّةُ هي: الجماعةُ، والمرادُ هنا أُمَّةُ الإجابةِ لا الدَّعوةِ والناظر في واقع الأمة يجد الافتراقُ والإختلاف ظاهر منذ أمد بعيد كُلُّ فرقةٍ تُضلِّلُ الأخرى إلا من رحم ربك كما أخبرَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ.

وأصولُ هَذِهِ الفِرَقِ قيل: خَمسٌ، وقيل: سِتٌّ، وقيل: غيرُ ذَلِكَ، وكل فرقة تتفرع منها فرقا أخرى **لكن أصولها هي**: المعتزلةُ، والشِّيعةُ،والخوارجُ ،والمرْجِئةُ، والجَبْرِيَّةُ، والمشَبِّهةُ .

وقَولُهُ:(كُلُّهَا فِي النَّارِ...) أي إنَّ عَمَلَهَا واعتقادَها يوجب النارَ لكنَّ دخولَ النار يعتبر دخولٌ أمديٌّ لا دخولٌ أبديٌّ وأما القول بأنه أبديٌّ فلم يقل به أحد من العلماء المعتبرين من هذه الأمة، قال ابن تيمية رحمه الله: لكن أخرج العلماء من هذه الفرقِ غلاةَ الجهمية والرافضةِ .

وإخبار النبي عليه الصلاة والسلام بذلك يعد عَلَما مِن أعلامِ نُبوَّتِه، وفي الحديث دلالة ظاهرة على ذمُّ التَّفرُّقِ لخروجه مَخْرَجَ الذَّمِّ، والأدِلَّةُ على ذَمِّه مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ كثيرةٌ، كما قال تعالى: (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) وقولُه: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) الآيةَ.

قال الشَّيخُ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهَذَا الحديثُ وما قَبلَه يُفيدُ أَنَّ الفُرقةَ والاختلافَ لا بدَّ مِن وُقوعِهما في هَذِهِ الأُمَّةِ..."

قال الخطَّابيُّ في (معالِمِ السُّنَنِ): "فيه دلالةٌ على أنَّ هَذِهِ الفِرَقَ كُلَّها غيرُ خارجةٍ مِن الدِّينِ؛ إذْ جَعلَهم النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كُلَّهم مِن أُمَّتِه، وفيه أَنَّ المتأوِّلَ لا يَخْرُجُ مِن الملَّةِ وإنْ أَخْطَأَ".

قال الشَّيخُ ابن تيمية رحمَه اللَّه:" والنبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لم يُخْرِج الثِّنْتَيْنِ والسَّبْعِين فِرقةً مِن الإسلامِ، بل جَعلَهم مِن أُمَّتِه، ولم يَقُلْ إنَّهم يخلَّدُونَ في النَّارِ، فمَن كَفَّرَ الثِّنْتَيْنِ والسَّبْعِينَ فِرقةً كُلَّهم فقد خالَفَ الكِتابَ والسُّنَّةَ وإجماعَ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ لهم بإحسانٍ".

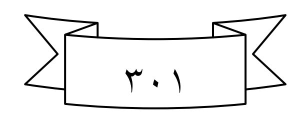
وفي ذلك الرَّدُّ على مَن زعَم أنَّ الفِرقةَ النَّاجيةَ هم: الأشعريَّةُ والماتُريديَّةُ وأهلُ الحديثِ، فإنَّ الحديثَ ليس فيه فِرقةٌ ناجيةٌ إلاَّ واحدةٌ، فهُوَ يُنافِي التَّعدُّدَ، وفيه وَصْفُ الفرقةِ النَّاجيةِ بأنَّها المتَّبعةُ للكِتابِ والسُّنَّةِ، وأنَّها مَن كان على مِثلِ ما عليه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم وأصحابُه، وبهَذَا يُعلمُ أنَّه وصَفَ الفِرقةَ النَّاجيةَ باتباعِ سُنَّتِه التي كان عليها هُوَ وأصحابُه، وبلُزومِ جماعةِ المسلِمِينَ، فمَن عَدَا هؤلاء فليس مِن الفرقةِ النَّاجيةِ.

ومِمَّا تقدَّمَ يتضح أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعَةِ هم المتمسِّكونَ بالإسلامِ المحْضِ الخالِصِ عن الشَّوائِبِ البِدعيَّةِ، وأمَّا مَن عَداهُم مِن سائرِ الفِرَقِ فقد حَكَّمُوا المعقولَ وخالَفوا المنقولَ عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، **وأصلُ فسادِ هَذَا العالَمِ** وخَرابِه إنَّما نَشأَ مِن تقديمِ الرَّأيِ على الوحيِ، والهوَى على النَّقلِ، وما استحْكَم هَذَانِ الأصلانِ الفاسدانِ في قلبٍ إلاَّ استحْكَم هلاكُه، ولا في أُمَّةٍ إلا مَرَجَ أَمْرُها، واختلَّ نِظامُها، وانعقدَ سَببُ هلاكِها، وبسببِ ذَلِكَ انفتحَ بابُ الجَدَلِ واتَّسعَتْ شُقَّةُ الخلافِ، فكُلُّ فريقٍ يرى أنَّه على الحقِّ وأنَّ غيرَه ضالٌّ، فهم كما قال اللَّهُ تعالى: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) قال الشَّاعِرُ:

وكُلاًّ يدَّعِي وَصْلاً لِليْلَى		ولَيْلَى لا تُقِرُّ لهم بِذاكَا.
إذا اشْتَبَكتْ دُموعٌ في خُدودٍ		تَبَيَّنَ مَنْ بَكى ممَّن تَباكَى.

وكُلُّ ما وَقَع هُوَ سَببُ إعراضِهم عن الكِتابِ والسُّنَّةِ، وما كان عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ، فلا نجاةَ إلاَّ باتِّباعِ ذَلِكَ، أما من أعرض فمَآلُه إلى الحَيْرةِ والضلال والاضطرابِ كما قال الرَّازيُّ:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ		وأكثرُ سَعْي العالَمِينَ ضَلالُ
ولم نَسْتَفِدْ مِن بَحْثِنا طُولَ عُمْرِنا		سوى أنْ جَمَعْنا فيه قِيلَ وقالوا



وأَرْواحُنا في وحشةٍ مِن جُسومِنا وغايةُ دُنيانا أَذًى ووبالُ.

وقال الشَّهرسْتانيُّ:

لَعَمْري لقد طُفْتُ المعاهِدَ كُلَّها وسيَّرْتُ طَرْفِي بين تِلكَ المعالِمِ

فلم أَرَ إلاَّ واضِعًا كَفَّ حائرٍ على ذَقَنٍ أو قارِعاً سِنَّ نادِمِ.

إذا عَرَفْتَ ما وَصلَ إليه هؤلاءِ مع ما لديْهِم مِن الذَّكاءِ والعِلمِ عَرفْتَ أَنَّ النَّجاةَ والسَّعادةَ هُوَ بالاعتصامِ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، وما كان عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ، قال تعالى: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى).

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنه:" تكفَّلَ اللَّهُ لمنْ قَرَأَ القُرآنَ وعَمِلَ بما فيه أنْ لا يَضِلَّ في الدُّنْيَا ولا يَشقَى في الآخرةِ"، ثم قرأ هَذِهِ الآيةَ.

ثم بين المصنف رحمه الله أن من أهل السنة والجماعة الصديقون والشهداء والصالحون وأعلام الهدى ومصابيح الدجى أي: الذين يُستضاءُ بهم في ظُلماتِ الجهلِ، وهم أئمَّةُ الإسلامِ وهُداةُ الأنامِ، المستضاءُ بهم في ظُلماتِ الجهلِ وسَوادِ الشِّرْكِ وخُرافاتِ الأوثان، الذَّابُّونَ عن الشَّريعةِ، المدافِعون عنها تحريفَ الغالِينَ وانتحالَ المبْطِلينَ وتأويلَ الظَّالِمينَ، الذين بهم قام الكتابُ وبِهِ قامُوا.

وفي مسنَدِ أحمدَ رضي اللَّهُ عنه عن أنس أن النَّبيّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَإِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ)).

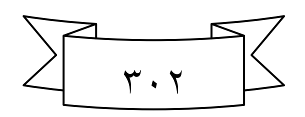
وقولُه رحمه الله عن العلماء بأنهم: **(أُولو المناقِبِ المأثورةِ والفضائلِ المذكورةِ)** أي: أصحابُ المناقِبِ، وَهِيَ جَمعُ مَنْقَبةٍ ضِدُّ المثْلَبةِ، قال في القاموسِ: المنْقَبةُ: المفْخَرةُ، والمأثورةُ أي المذكورةُ، و(المذكورةِ)، أي: الذَّائعةِ الصِّيتِ المترَدِّدةِ على الألْسُنِ، والذِّكْرُ: هُوَ الصِّيتُ والشَّرفُ، قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) وهَذا الذِّكْرُ عُمْرٌ ثانٍ وحياةٌ أخرى، وَذَلِكَ أحقُّ ما تَنافَسَ بِهِ المتنافِسون ورَغِبَ بِهِ الرَّاغِبون، ومَن تأمَّلَ أحوالَ أئِمَّةِ الإسلامِ كَيْفَ هم تحتَ التُّرابِ، وهم في العالَمِين كأنَّهم أحياءُ بينهم لم يَفْقِدوا منهم إلا صُوَرَهم، وإلاَّ فَذِكْرُهم والثَّناءُ عليهم غيرُ منقطِعٍ كما قيل:

أخو العِلمِ حَيٌّ خالدٌ بعد مَوْتِه وأوصالُه تحت التُّرابِ رَميمُ.

وذو الجهلِ مَيْتٌ وهُوَ يَمْشِي على الثَّرى يُعَدُّ مِن الأحياءِ وهُوَ عَديمُ.

وفي حديثِ عليٍّ رضي اللَّهُ عنه- أنَّه قال: ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهم أحياءُ، والعلماءُ باقونَ ما بَقِيَ الدَّهرُ، أعيانُهم مفقودةٌ وأمثالُهم في القلوبِ مَوجودةٌ".

ثم بين المصنف رحمه الله أن في أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ الأبدالُ،وهم الأولياءُ والعُبَّادُ، **وسُمُّوا بِذَلِكَ؛** لأنَّهم كُلَّ ما ماتَ مِنهم واحدٌ أُبْدِلَ بآخَرَ. (النهاية في غريب الحديث).



ونَصَّ الإمام أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ على أنَّ لِلَّهِ أَبْدالاً في الأرضِ، قيل مَن هُم؟ فقال:" إن لم يكونوا أصحابَ الحديثِ فلا أَعْرِفُ لِلَّهِ أبدالا".

وقد ورد في الأبدالِ عِدَّةُ أحاديثَ، وكُلُّها متكلَّمٌ فيها، وصَنَّفَ السيوطيُّ مُصَنَّفا في الأبدالِ وذَكَرَ الأحاديثَ الواردةَ فيهم، وقال الشَّيخُ ابن تيمية رحِمَهُ اللَّهُ تعالى:" كُلُّ حديثٍ يُروى عن النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في عِدَّةِ الأولياءِ والأبدالِ والنُّقباءِ والنُّجباءِ والأَوْتادِ والأقطابِ ونحوِ ذَلِكَ فليس في ذَلِكَ شيءٌ صحيحٌ عن النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، ولم يَنْطِق السَّلَفُ بشيءٍ من هَذِهِ الألفاظِ إلاَّ بلفظِ الأبدالِ، رُوِي فيهم حديثٌ أنَّهم أربعون وأنَّهم في الشَّامِ، وهُوَ في المسنَدِ مِن حديثِ عليٍّ، وهُوَ حديثٌ منقطعٌ ليس بثابتٍ".

إذا عرفْتَ ما تقدَّمَ فما يَزْعُمُه المُخَرِّفون مِن أنَّ مَدَدَ الخلائِقِ ونَصْرَهُم ورِزْقَهُم يكونُ بواسطةِ هؤلاءِ فلا شكَّ في بُطلانِه، وأنَّه ليس مِن دِينِ المسلمِين.

وقال الشَّيخُ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّه: والذين تكلَّمُوا باسِمِ البَدَلِ أَفْردُوه بمعانٍ، **منها** أنَّهم كُلَّ ما ماتَ منهم رجُلٌ أُبْدِلَ بآخَرَ، **ومنها** أنهم أَبْدَلوا السيِّئاتِ بأخلاقِهم وأعمالِهم وعقائدِهم بالحسناتِ، وَهَذِهِ الصِّفاتُ كُلُّها لا تختصُّ بأربعين ولا بأقَلَّ ولا أَكْثَرَ، ولا تُحْصَرُ بأهلِ بقعةٍ مِن الأرضِ، إلى أنْ قال: فالغَرضُ أنَّ هَذِهِ الأسماءَ تارةً تُفَسَّرُ بمعاني باطِلةٍ بالكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ، مِثلُ تفسيرِ بعضِهم بأَنَّ الغَوْثَ هُوَ الذي يُغِيثُ اللَّهُ بِهِ أهلَ الأرضِ مِن رِزقِهم ونَصْرِهم، فإنَّ هَذَا نَظيرُ ما تَعتقِدُه النَّصارى في البابِ، وهُوَ معدومُ العينِ والأثرِ وتشبيهٌ بحال المنْتَظَرِ، وَكَذَلِكَ مَن فسَّرَ الأربعين الأبدالَ بأَنَّ النَّاسَ إنَّما يُنصرُونَ ويُرْزقونَ بهم فذَلِكَ باطلٌ، بل النَّصرُ والرِّزقُ يَحصلُ بأسبابٍ مِن أَوْكدِها دعاءُ المسلِمِينَ والمؤمنين، وَصَلاتُهم وإخلاصُهم، ولا يتقيَّدُ ذَلِكَ بأربعين ولا بأقلَّ، وقد يكونُ للنَّصرِ والرِّزقِ أسبابٌ أُخرُ.

ومنأعلام الهدى ومصابيح الدجى الذين عم نفهم وظهر أثرهم في الأمة الإمام أبو حنيفةَ، ومالِكٍ، والشَّافِعِيّ، وأحمدَ، وسفيانَ الثَّوريّ، وغيرِهم، كالشَّيخِ تَقِيِّ الدِّينِ وابنِ القيِّمِ، وكإمامِ هَذِهِ الدَّعْوةِ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ، وغيرِهم مِن أئمَّة الهُدى الذين اشتَهَرت إمامَتُهم، وأَجْمعَ المسلمونَ على هِدايَتِهم ودِرايَتِهم، فهؤلاء كما يقول ابن القيم رحمه الله: لا يُقبلُ فيهم قولُ جارحٍ ولا طَعنُ طاعِنٍ؛ إذْ مَن ظَهَرتْ عَدالَتُه واشتهَرَتْ إمامَتُه فلا يُلْتَفَتُ فيه إلى قولِ قائلٍ،وهَذَا بخلافِ مَن اشتُهِرَ عندَ الأمَّةِ جَرحُه والقَدحُ فيه، كأئمَّةِ البدعِ، ومَن جَرى مجراهم مِن المتَّهَمِين، فإنَّهم ليسوا عند الأمَّةِ مِن حَملةِ العِلمِ.

ومع ذلك فقد اشتُهِرَ عن أئمَّةِ السنة النَّهْيُ عن التَّقليدِ والحثِّ على اتِّباعِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، كما رُوِيَ عن الإمامِ أحمدَ أنَّه قال: "عَجِبْتُ لقومٍ عَرَفوا الإسنادَ وصِحَّتَه يَذْهَبونُ إلى رأى سُفيانَ، واللَّهُ تعالى يقولُ: (فَلْيَحْذَرِ

الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أتدري ما الفِتنةُ؟ الفتنةُ: الشِّركُ، لعلَّه إذا رَدَّ قولَه أو بعضَ قولِه أنْ يَقعَ في قَلبِه شيءٌ مِن الزَّيغِ فيَهلَكُ.

وقال مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ:" كُلٌّ يُؤخَذُ مِن قولِه ويُترَكُ إلاَّ صاحِبَ هَذَا القَبرِ". وقال الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" أَجمعَ العلماءُ على أنَّ مَن استَبَانَتْ له سُنَّةُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لم يكُنْ له أنْ يَدَعَها لقولِ أحدٍ". إلى غيرِ ذَلِكَ مِن كلامِ الأئمَّةِ في الحثِّ على الاتِّباعِ وذَمِّ التَّقليدِ.

وأئمة أهل السنة هم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النَّبِيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ من حديث جابر بن سلمة، وجابر بن عبد الله، وثوبان، والمغيرة، ومعاوية:(لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة) رواه البخاري ومسلمٌ. وهم من نصروا الدين بالحُجَّةِ والبَيانِ أو بالسَّيْفِ والسِّنانِ.

وفي هَذَا الحديثِ فوائدُ:

١- أنَّ فيه عَلَمًا مِن أعلامِ النُبوَّة ، ومعجزةً ظاهرةً للنَّبِيِّ، فإنَّ هَذَا الوَصْفَ ما زَالَ بحمدِ اللَّهِ مِن زَمَنِ النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ إلى الآنَ ولا يَزالُ.

٢- فيه دليلٌ لكونِ الإجماعِ حُجَّةً، قال القرطبيُّ:" وهُوَ أَفْصَحُ ما استُدِلَّ بِهِ مِن الحديثِ، أمَّا حديثُ: ((لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلالَةٍ)) فضعيفٌ".

٣- فيه الآيةُ العظيمةُ أنَّهم مع قِلَّتِهم لا يَضرُّهُم مَن خَذَلَهم ولا مَن خالَفَهم.

٤- فيه البِشارةُ بأَنَّ الحقَّ لا يزولُ بالكُلِّيَّةِ.

٥- فيه أَنَّ الاجتهادَ لا يَنقطِعُ كما قال الامام أحمد، وأنَّ هَذِهِ الطائفةَ موجودةٌ.

٦- فيه أَنَّ الأمَّةَ لا تَجتمِعُ على ضلالةٍ، ولا تَرتدُّ جميعُها، بل لا بدَّ أن يُبقِيَ اللَّهُ مِن المؤمنينَ مَن هُوَ ظاهرٌ إلى قيامِ السَّاعةِ، فإذا ماتَ كُلُّ مؤمنٍ فقد جاءت السَّاعةُ.

ثم ختم المصنف رحمه الله هذه الرسالة المباركة بقوله:

(نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنا مِنْهُمْ وأَنْ لا يُزِيغَ قُلوبَنَا بعْدَ إِذْ هَدَانا، وأَنْ يَهَبَ لَنا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ.

واللهُ أَعْلَمُ.

وصلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً) .

انتهى الشرحُ بحمد الله نسأَلُ اللهَ أنْ ينفعَ به كلَّ طالبِ علمٍ وأن يجعلَه خالصاً لوجهِه الكريمِ والحمدُ لله أولاً وآخراً وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ .

